

صورة المؤلف

ولد سنة ١٢١٦ هـ — وتوفى سنة ١٢٩٠ هـ

كتاب

مناهج الالباب المصرية

في

مباهج الآداب العصرية

تأليف

أوحد زمانه * ونادرة عصره وأوانه

المجد فى نفع وطنه بنشر المنافع

المرحوم الامير المعظم

رفاعه بك رافع

(ناظر قلم ترجمة واعضاء مجلس القومسيون)

﴿ طبعة ثانية ﴾

﴿ عنى بتصحيحها طبقا للنسخة المطبوعة بدار الطباعة الاميرية الكبرى ﴾

﴿ مطبعة شركة الرغائب بشارع المنجلة بالقرب من الحمزاوى بمصر ﴾

١٣٣٠ ★ ١٩١٢

ترجمة المؤلف

نقلا من كتاب الخطط التوفيقية لسعادة على باشا مبارك مع تصرف واختصار

هو الامير الجليل المرحوم السيد رفاعة بك بن السيد رافع الطهطاوي ابن السيد بدوى بن السيد على بن السيد محمد بن السيد على بن السيد رافع بن السيد حريز بن السيد محمد شمس الدين بن السيد زين الدين بن السيد عبد الرحمن ابن السيد أبي القاسم الصغير بن السيد شهاب الدين احمد بن السيد أبي عبد الله محمد بن السيد يحيى بن السيد ابى بكر بن السيد يحيى بن السيد ابى القاسم الطهطائى ابن السيد عبد العزيز بن السيد يوسف بن السيد رافع بن السيد جندب بن السيد محمد بن السيد سلطان بن السيد محمد بن السيد احمد بن السيد حجون بن السيد احمد بن السيد محمد بن السيد جعفر بن السيد اسماعيل بن السيد جعفر الزكي بن السيد محمد المأمون بن السيد على الحارض بن السيد حسين جود الملقب بالعارض بن السيد محمد الديباج بن السيد جعفر الصادق بن السيد محمد الباقر بن السيد على زين العابدين بن سيدنا ومولانا الامام الحسين بن سيدتنا فاطمة الزهراء بنت سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

ولد رحمه الله سنة ١٢١٦ هجرية ونشأ في عز والده الى ان أخذت الالتزامات من العلماء والاشراف فاضطر والده الى المهاجرة من طهطا الى بلد اقاربه بمنشأة النيدة المعروفين ببيت ابى قطنة وهناك حفظ اكثر القرآن الشريف ثم توفي والده السيد بدوى رافع فرجع الى طهطا وهناك قام بتربيته أخواله وهم بيت علم من الانصار الخزرجية فحفظ المتون وحضر بعض الكتب عليهم فتهاونحوا وأغلب تربيته الازهرية كانت على العلامتين الفاضلين الشيخ الفضالى والشيخ

وقد قضى مدة حياته الى آخر مدة المرحوم سعيد باشا في سبيل التعليم ادارة وعملا هو وتلامذته ثم من بعد تلك المدة واقتصاره على نظارة قلم الترجمة وعضوية قومسيون المعارف في عهد حضرة الخديو اسماعيل باشا قام في كثير من المدارس بهذه الخطة عينها

وله في المرحوم محمد على باشا ونجله الاكبر ابراهيم باشا المدائح التي سارت بها الركبان منها قصيدته اللامية التي مطلعها

ملا الكون بشراعدله واعتداله   وأغنى البرايا بره ونواله

وهي التي يقول فيها تلويحا بلد المدوح

منازل منها اسكندرفاتح الورى   اذا لم يكن عم الامير نخاله

وقصيدته النونية التي قالها وهو في باريس ومطلعها

ناح الحمام على غصون البان   فأباح شيمة مغرم ولهان

ومنها وقدكان قائما باعباء الحروب اذ ذاك نجل المدوح المشار اليه

في كفه سيفان سيف عناية   والشهم ابراهيم سيف ثاني

ومنها يتذكر اولاده وعائلته

ابكي بعيني مهجتي لفراقهم   وأود أن لا تشمر العينان

ثم النيت المدرسة في مدة المرحوم عباس باشا الاول واستقر رأى المجلس الخصوصي على انشاء مدرسة في السودان للاحتياج لها هناك فاختير المترجم ناظرا عليها ولما وصل اليها أنشأ المدرسة ورتبها أحسن ترتيب وأدارها احسن ادارة وكان ذلك أواخر عام ١٢٦٥ هجرية وقد ترجم هناك كتبا عديدة منها كتاب تليماك المطبوع في الشام وانشأ قصيدته التي مطلعها

الا فادع الذي ترجو ونادي   يجيبك وان تكن في أي ناد

ومنها بنو الآداب اخوان جميعا وأخدان بمختلف البلاد

وهي مطبوعة في هذا الكتاب ولم يزل مكبا على شغله الى أواخر عام ١٢٧٠ فعاد الى مصر بأمر المرحوم محمد سعيد باشا حين ولايته على مصر وبعد رجوعه من السودان جعل عضوا ومترجما في مجلس المحافظة تحت رياسة المرحوم أدهم باشا ثم جعل ناظر ثانيا للمدرسة الحربية التي كانت بالحوض المرصود تحت نظارة سليمان باشا الفرنساوي وبعد قليل أمر بعمل قوانين ونظامات لمدرسة مستقلة أريد انشاؤها وجعل مقرها بالقلعة تكون كافلة للعلوم الادبية وافية بالفنون المدنية فبذل همته في ذلك وراعي في نظاماته ما يجلب خواطر الاهالي الى تلك المدرسه ورتب لها من المعلمين كل من له به ثقة من الأكفاء المتدربين على تعليم العلوم وأدارها ادارة جيدة حتى ظهرت نجابة تلامذتها

وكان شديد الرغبة في الاطلاع على فنون التاريخ وله في السيرة النبوة كتابه نهاية الايجاز في سيرة ساكن الحجاز أوله حمدا لمن أسعد نبيه بأعلى درجات الشرف وأصعده الى أسمى مدارج الترف انتقاه من صحيح كتب السير ورتبه ترتيبا بديعا لم يسبق بمثله ولما وصلت نسخته الى سعادة علي باشا مبارك ناظر المعارف المصرية أمر بطبعه في روضة المدارس تعجيلا للفائدة ثم طبع مستقلا بمطبعة المعارف العمومية

ولرغبته في نشر العلوم وسعة دائرتها استصدر أمرا من المرحوم سعيد باشا بطبع جملة كتب عربية على طرف الحكومة منها تفسير الفخر الرازي ومعاهد التنصيص وخزانة الادب والمقامات الحريرية وغير ذلك من الكتب التي كانت عديمة الوجود في ذلك الوقت وكان للمترجم رحمه الله عناية كبيرة باقتناء الكتب فاشترى الكثير النادر منها حتى ان كتبه تبلغ

بما اشتراه اولاده نحو ٤٥٠٠ كتاب وفيها من الكتب التربية ما ليس فى غيرها توفى رحمه الله تعالى عام نيف وتسعين ومائتين وألف بالمحروسة ودفن في بستان العلماء بقرافة المجاورين الكبري و قد أعقب ابنين جليلين غير الاناث لازما الازهر مدة واقتبسا من معارف والدهما وكانا علي غاية من المعارف والآداب ومحاسن الشيم وعلو الهمم وأحدهما وهو علي باشا رفاعه كان قد تقلد وكالة نظارة المعارف المصرية وسنه اذ ذاك لم يتجاوز الثلاثين عاما وقد أكمل ما تركه والده من التاريخ على أسلوبه وارتقى الى رتبة والده علما وقدرا واما ابنه الآخر وهو المرحوم بدوى بك رفاعة والد حضرة السيد محمد رفاعه محي هذه الآثار فقد كان مقيما بمدينة طهطا فى ملاحظة دائرتهم التي هناك مع إدامة النظر والمطالعة فى الكتب العلمية على اختلاف مشاربها هذا ومن اراد الوقوف على ترجمة حياة المؤلف تفصيلا فعليه بمراجعة كتاب حلية الزمن بسيرة خادم الوطن لمؤلفه المرحوم السيد صالح بك مجدي والد سماة محمد باشا مجدي مستشار محكمة الاستئناف وأحد تلامذة المترجم فقد ذكر كثيرا من أحواله وعدد تلامذته وقسمهم الى ثلاث طبقات كانوا اجمال العصر وغرة الدهر وبالله التوفيق ؟

فهرست

﴿ كتاب مناهج الالباب المصرية في مباهج الآداب العصرية ﴾

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

كتاب
مناهج الالبـــاب المصرية
فى
مباهج الآداب العصرية

تأليف

أوحد زمانه * ونادرة عصره وأوانه

المجـد فى نفع وطنه بنشر المنافع

المرحوم الامير المعظم

رفاعه بك رافع

(ناظر قلم ترجمة واعضاء مجلس القومسيون)

﴿ طبعة ثانية ﴾

﴿ عنى بتصحيحها طبقا للنسخة المطبوعة بدار الطباعة الاميرية الكبرى ﴾

﴿ مطبعة شركة الرغائب بشارع المنجلة بالقرب من الحمزاوى بمصر ﴾

١٩١٢ ★ ١٣٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

حديث الخير وخير الحديث حمدا لله القديم وأتم صلاته وأعم سلامه على نبيه الكريم ذى الخلق العظيم المرسل بدينه القويم والهادى الى صراطه المستقيم وعلى آله منابع الحكم ومنافع الأمم وأصحابه الهادين وخلفائه الراشدين ثم الدعاء ببلوغ أشرف الدرجات العلية للحضرة العزيزية الاسماعيلية أدام الله لتجديد هذا العصر علاها وخلد على جيد مصر حلاها (أما بعد) فكل عاشق لجمال العمران وناشق لشذا عبير هذا الزمان يتهلل سرورا ويمتلىء قلبه حبورا حيث يرى بعين المحبة أنه قد عاد لمصر عزها القديم وبهوها الفخيم ومجدها المؤثل وسعدها الاول وانها لا زالت مجدة السير على غاية من السرعة لتحظى بالحظ الوافر من نمو المجادة وسمو المنمة وتستحوذ على ضخامة الشأن ونخامة الرفعة وتصير أبهى قطر من اقطار المعمورة وأزهى بقعة وليس هذا التقدم العجيب والسبق في ميدانه الرحيب الا من عهد المرحوم محمد على وورثائه من بعده فكل منهم أبدى في مصر من المحسنات بقدر طاقته وجهده وعلى حسن نيته وخلوص قصده وفي هذه الحالة الراهنة ظهرت عادة العمران ظهورا جليا وصار فى معلاها مسمى اسمعيل بصفا النية عليا وحظيت بما تحب وتشتهى وفازت من ثغر التمدين ونية الصفاء بلثم مقبله الشهى

ومن يكن أصله قد طاب منبته   فما له غير احراز العلا ثمره

فقد تعزز الوطن المحروس والبلد المأنوس بالعلوم والمعارف والمنافع واللطائف جملة وتفصيلا وتأسيسا وتأصيلا وصارت فيه قواعد التمدن على أساس مكين وتمكن وجودها من وصف البقاء أتم تمكين فلله من أحيا بها آثار المكرمات وبنى بها أسوار العهود وبين أسرار المبهمات بالهمة العلية والنخوة العلوية حتى اتلفت معالم العلوم وآداب البراعة بعوامل الفنون وعمليات الصناعة واكتسبت براءة التجارة كمال البراعة وتحرى العدل استقامت الامور واعتدلت مصالح الجمهور ونمت بركة المنافع العمومية بالامنية وسمت حركة المعاملة وبلغت درجة الأهمية واحرزت مصر بين الممالك المتمدنة أسنى الرتب وصارت فى البلاد المشرقية أهنى الاقطار المنزهة عن شوائب الريب فهاد الى بحرها العذب درره وجواهره وترنم من روضها فوق الأيك طائره ووفد عليها من جميع المسالك كل سالك ومن رفيع الممالك كل أمير ومالك وورد اليها كل صاحب صناعة يؤديها وبضاعة يبديها وقصدها كل سياح متفرج ومتنزه متبرج ومشرقي ومغربي وأعجمى وعربى وامتزج أهلها بهم امتزاج الماء بالراح والاجساد بالارواح وقوى جأش الجميع حسن سياسة الحكومة المصرية وشمولها بعين العدل الحقيقى المسوى بين الرعية وغير الرعية مع ما فى طباع أهل مصر من الوفاء للاقارب وخلوص النية والصفاء للاجانب والتوادد والتحبب مع أهل المشارق والمغارب كما قيل

لا تعجبوا من أهل مصر ان وفوا ... بوعودهم ما فى الوفا منهم جفا
وانى لهم في كل علم نابهم ... فعلموا من نيلهم ذاك الوفا

وحسن سياسة حكومتها فى هذه الأزمان الأخيرة قد قوت استعدادها فيما يكون لزيادة العمارية عمدة وذخيرة فقد اختلطت معاشرة الأغراب

في الأطراف والاكناف بكل عشيرة واقتبس الأهالي لوطنهم من مستحسن الصنائع والفنون مالا يحصى كثرة في مدة يسيرة وهذا أدل دليل وأجل برهان على انها قدعادلها الزمان وعدلها بقسطاس تعديل الاماني والامان وصح ماقيل فيهامن موافيها

ديار مصر هي الدنيا وساكنها   هم الأنام فقابلها بتفضيل
يامن يباهي ببغداد ودجلتها   مصر مقدمة والشرح للنيل

فمن ذا الذي يجحد الآن تقدمها في التمدنية ولا يشهد بترقيها في القيام بحقوق الوطنية وراعاتها لما تقتضيه علائق الودة مع أهالي الممالك الاجنبية فانها وسيلة عظمى لانقياد المنافع العمومية الأبية وكما حسنت أخلاق اهل الوطن مع الاجانب وجذبوهم بمغناطيس الألفة من كل جانب يحسن ايضاً من الاغراب أن يحسنوا الاخلاق ويحفظوا ارفاقهم وفاقهم

لاتعاد الناس في أوطانهم   قلما يرعى غريب الوطن
واذا ما شئت عيشا بينهم   خالق الناس بخلق حسن

« مطلب » سبب تاليف هذا الكتاب

ولما كان من الواجب على كل عضو من اعضاء الوطن أن يعين الجمعية بقدر الاستطاعة ويبذل ما عنده من رأس مال البضاعة لمنفعة وطنه العمومية وينصح لبلاده بث ما في وسعهم من المعلومية بذلت جهدي وجدت بما عندي وجلت في مضمار المحسنات وقلت انما الاعمال بالنيات علما بأن من خدم وطنه برهة من الزمن عطف عليه بتنسيق أحوال الوطن ومن المعلوم ان طرائق خدمه عديدة وكلها سديدة مفيدة وادناها يرجع الى تحريض من يعي ٭

اذا لم تحارب يا جبان فشجع ٭

اني سمعت مع الصباح مناديا   يا من يعين على الفتى المعوانا

ولاشك ان الوطن كالجسد يصلحه ازالة المضر والغير النافع كما ان الشجرة تثمر بتقليم الغصن اليابس وابقاء الثمر اليانع فلهذا بذلت المجهود لبيان الغرض والمقصود بتصنيف نخبة جلية وترصيف تحفة جميلة في المنافع العمومية التي بها للوطن توسيع دائرة التمدنية اقتطفتها من ثمار الكتب العربية اليانعة واجتنيتها من مؤلفات الفرنساوية النافعة مع ماسنح بالبال واقبل على الخاطر أحسن اقبال وعززتها بالآيات البينات والاحاديث الصحيحة والدلائل المبينات وضمنتها الجم النفير من امثال الحكماء وآداب البلغاء وكلام الشعراء من كل ماترتاح اليه الافهام وتنزاح به عن الذهن الاوهام وتتأبد به السعادة وتتأبد به السيادة وبالجملة فقد أودعتها ما يكون لاهل الوطن ذخرا ويعقبه النجاح دنيا واخرى وسميتها مناهج الالباب المصرية في مباهج الآداب العصرية متحفا بها حضرة ولى عهد هذا الوطن الشريف وحامي حمي مصر المنيف الوزير الاعظم والمشير الافخم الجامع لأسباب الفضائل والحكم والرافع لحمية المعارف تحت لواء أبيه أعلى علم من هو بالمجد الأثيل جدير وحقيق حضرة محمد باشا توفيق لازال فى ظل والده متمتعا بطريف العز وتالده * مطلب العنوان والاتحاف

وإذا الصنيعة صادفت أهلا لها   دلت على توفيق مصطنع اليد

فقد بدت من جنابه العالى دلائل حب الاوطان باصطناع التطول لجمعية العرفان حيث حلى جيدها بعقود المنة وجعل حصين حماه لها وقاية وجنة فلذلك شكر حسن صنيعه الوطن وأطلق حسان مدحه على محمد الفضائل لسانه بالثناء الحسن

اطلق لسانك بالثنا على الذي   أولاك حسن رغائب وغرائب
واشكره شكر الروض حياه الحيا   كيما تقوم له ببعض الواجب

وكم له حفظه الله على الوطن من صلات موصولات وعوائد متواصلات تقول بلسان حالها معربة عما أسدته اليد البيضاء من جزيل نوالها

كم من يد بيضاء قد أسديتها   تثني اليك عنان كل وداد
شكر الاله صنائعا أوليتها   سلكت مع الارواح في الاجساد

ورتبت هذا الكتاب على مقدمة وخمسة أبواب وخاتمة حسني بحسنها الدعاء مستجاب وعلى الله القبول وهو المبلغ الأمل مسئول ؟



مقدمة

﴿ فى ذكر هذا الوطن وما قاله فى شأن تمدينه أرباب الفطن ﴾

قد تحقق فى مصر اسمها بالمعنى المتعارف اكثر من غيرها لمصير الناس اليها واجتماعهم فيها لمنافعهم ومكاسبهم وما ذاك الا لحسن موقعها العجيب الذى أسرع فى اتساع دائرة تقدمها فى التأنس الانسانى والعمران واحرازها أعلى درجة التمدن من قديم الزمان وعلى مر العصور وكر الدهور انصقلت فى مرآة جوهرها صور أخلاق الخلائق وتهذبت طباعهم على التدريج وتشبثوا بثمرات العلوم والمعارف ووقفوا على الحقائق وبمخالطة غيرهم من الأمم ذاقوا حلاوة الأخذ والعطاء وكثرة العلائق وكما تمدنوا بصنائع العمران تدينوا بما اتخذوه من الأديان وكان يعرف خواصهم وحكماؤهم فى الباطن بوحدة الملك الديان

* مطلب * وصف مصر

ورق الرياض اذا نظرت دفاتر مشحونة بأدلة التوحيد

فتحقق فيهم من الاحقاب القديمة الواسطتان المقومتان اذ ذاك لكمال التمدين والعمران (احداهما) تهذيب الاخلاق بالآداب الدينية والفضائل الانسانية التي هى لسلوك الانسان فى نفسه ومع غيره مادة تحفظية تصونه عن الأدناس وتطهره من الأرجاس لان الدين يصرف النفوس عن شهواتها ويعطف القلوب على اراداتها حتى يصير قاهرا للسرائر زاجرا للضمائر رقيبا على النفوس فى خلواتها نصوحا لها فى جلواتها فبهذا المعنى كان الدين أقوى قاعدة في صلاح الدنيا واستقامتها وهو زمام للانسان لانه ملاك العدل [illegible]ـسان فالدين الصحيح هو الذي عليه مدار العمل في التعديل والتجريح

* مطلب * نفع الدين في المملكة

لحقيق على العاقل ان يكون به متمسكا ومحافظا عليه ومتنسكا فأدب الشريعة ما أدى الفرض وأدب السياسة ما عمر الارض وكلاهما يرجع الى العدل الذى به سلامة السلطان وعمارة البلدان لان من ترك الفرض فقد ظلم نفسه ومن خرب الارض فقد ظلم غيره وأظلم بالاساءة أمسه

* مطلب * اعانة المنافع العمومية على التمدن

(والواسطة الثانية) هي المنافع العمومية التي تعود بالثروة والغنى وتحسين الحال وتنعيم البال على عموم الجمية وتبعدها عن الحالة الاولية الطبيعية فان نور التمدن الجامع لهاتين الوسيلتين تذوق به البلاد طعم السعادة وبعد تمدنا عموميا وأما اذا كان فى البلد تقدمات جزئية فى أشياء خصوصية كالبراعة فى الفلاحة فلا يعد هذا التمدن الا محليا ولذلك نرى كثيرا من الممالك والامصار امتاز اهلها بمزايا خصوصية وبرعوا فيها بحيث لا تصل الى اصطناعها الممالك المتمدنة ومع ذلك فلا تعد فى باب التمدن مثل غيرها متمكنة وأيضا الفنون الموجبة لتقدم التمدن مختلفة قوة وضعفا فيه فقن الملاحة مثلا أقوى فى انتاج التمدن من الفلاحة ونفعه أعم منها فى توسيع دائرة العمران عند عارفيه وقد

* مطلب * المفاضلة بين الفلاحة والملاحة

اقتضت الحكمة الالهية ان الله تعالى لم يجمع منافع الدنيا فى ارض بل فرقها وأحوج بعضها الى بعض فلا تكتسب الا بالاسفار وجوب مفاوز البرارى والبحار فالمسافر يجمع العجائب ويكسب التجارب ويجلب المكاسب فالمملكة التى سخر الله لها الجمع بين صنعتى الملاحة والفلاحة كالديار المصرية لقابلية استظهارها محرزة لوسائط التمدن على وجه أكمل بشرط زوال الموانع والعوائق التى لا تخلو منها مملكة فى ادراك مرامها كما أشار الى ذلك نابليون الاول ملك فرانسا بقوله ان فرانسا تسارع دائما فى اسباب التمدن وتحصل منه على الكثير الا أن دولة الانكليز تعوقها عن تميم بعض اغراضها ولولا [illegible]

لتقدمت كل التقديم فى حيازة جواهر المنافع وأعراضها انتهى فقدلا يستوفى كيفه الجوهر القائم بنفسه ولكل شيء آفة من جنسه

ويفهم مما قلناه ان للتمدن أصلين (معنوي) وهو التمدن فى الاخلاق والعوائد والآداب يعني التمدن فى الدين والشريعة وبهذا القسم قوام الملة المتمدنة التي تسمى باسم دينها وجنسها لتتميز عن غيرها فمن اراد أن يقطع عن ملة تدينها بدينها أو يعارضها فى حفظ ملتها المحفورة الذمة شرعا فهو فى الحقيقة معترض على مولاه فيما قضاه لها وأولاه حيث قضت حكمته الالهية لها بالاتصاف بهذا الدين فمن ذا الذى يجترئ ان يعانده ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة وحسبنا في هذا المعني قول الكرار أما وقد اتسع نطاق الاسلام فكل امرىء وما يختار فبهذا كانت رخصة التمسك بالاديان المختلفة جارية عند كافة الملل ولو خالف دين المملكة المقيمة بها بشرط أن لا يعود منها على نظام المملكة أدنى خلل كما هو مقرر فى حقوق الدول والملل وما أحسن قول بعض الظرفاء

«مطلب» حرمة الذمة

يقولون نصرانية ام خالد فقلت ذروها كل نفس ودينها
فان تك نصرانية ام خالد فان لها وجها جميلا يزينها
ولا عيب فيها غير زرقة عينها كذاك عتاق الطير زرق عيونها

وعلى ذكر زرق العيون يحسن ذكر قول الشاعر مع ما فيه من التورية

لك يا أزرق اللواحظ مرأي قمري أضحي على الوجه يزهي
يا لها من سوالف وخدود ليس تحت الزرقاء أحسن منها

(والقسم الثاني) تمدن مادي وهو التقدم فى المنافع العمومية كالزراعة والتجارة والصناعة ويختلف قوة وضعفا باختلاف البلاد ومداره على ممارسة

العمل وصناعة اليدوهو لازم لتقدم العمران ومعلرومه فان أرباب الاحلاق والا داب يخشون صولة تقدم أهل الفنون والصنائع ويخافون ارتفاع مراتبهم بقوة مكاسبهم فى المنافع وأهل الفلسفة والعلوم الحكمية النفيسة يعتقدون ان الصنائع من المهن والامور الخسيسة وأرباب الاقتصاد فى الاموال والادارة يبالغون فى توسيع دائرة المنافع ووسائل العمارة ويتعاونون بكليتهم على دوائرهم لجلبة فوائدهم منها وتيسيرها ويباشرون جمع متفرقها ونظم منثورها ويبحثون عن تشييد كل شاردة وتقييد كل آبدة لان مصلحتهم تقتضيها وحاكم أغراضهم يرتضيها

« مطلب » اختلاف الاغراض فى المنافع العمومية

وارادة التمدن للوطن لا تنشأ الا عن حبه من أهل الوطن كما رغب فيه الشارع فى الحديث حب الوطن من الايمان قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه عمر الله البلاد بحب الاوطان وقال على كرم الله وجهه سعادة المرء أن يكون رزقه فى بلده وقال بعض الحكماء لولا حب الوطن لما عمرت البلاد الغير الخصبة وقال الاصمعي دخلت البادية فنزلت على بعض الاعراب فقلت له أفدني فقال اذا أردت ان تعرف وفاء الرجل وحسن عهده ومكارم اخلاقه وطهارة مولده فانظر الى حنينه لاوطانه وشوقه الى اخوانه قال الشاعر

« مطلب » الترغيب فى حب الوطن

وحبب أوطان الرجال اليهم ... مآرب قضاها الشباب هنالكا
اذا ذكرت أوطانهم ذكرتهم ... عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا
ولى موطن آليت ألى أعره ... وان لا أرى غيرى له الدهر مالكا

(وقال آخر)

بلد صحبت به الشبيبة والصبا ... ولبست ثوب العيش وهو جديد

فاذا تخيل فى الضمير رأيته وعليه أغصان الشباب تميد

(وقال آخر)

اذا أنا لا أشتاق أرض عشيرتي فليس مكاني في النهى بمكين
من المقل أن أشتاق أول منزل غنيت بخفض في ذراه ولين
وروض رعاه بالاصائل ناظرى وغصن ثناه بالغداة يمينى
واني لا أنسى العهود اذا أتت بنات الهوي دون الخليط ودونى
اذا أنا لم أرع العهود على النوي فلست بمأمون ولا بأمين

والمراد ببنات الهوي بنات الدهر أى حوادثه فلوطن محبوب والمنشأ مألوف حتى لغير المتمدن بل يقال ان البادى الجلبى يتعلق بجبال جبال أوطانه ويلصق بأذيال باديته ولا يعلق الحاضر بمدينته وحاضرته بحيث لا ينتقل الجلف من بلدته الا للانتجاع في الفلوات ويستسهل خرط القتاد ويري عزه في الصحارى التى ألف طبعه سكنى خيامها وترايض عقله عليها واعتاد كما يدل لذلك ما حكي عن ميسون بنت بحدل أنها لما اتصلت بمعاوية رضى الله عنه ونقلها من البدو الى الشام كانت تكثر الحنين على ناسها واتذكر بمسقط رأسها فسمعها ذات يوم وهى تنشد

لبيت تخفق الارواح فيه أحب الي من قصر منيف
واكل كسيرة من كسر بيتي أحب الي من أكل الرغيف
وأصوات الرياح بكل فج أحب الى من نقر الدفوف
ولبس عباءة وتقر عيني أحب الي من لبس الشفوف
وكلب ينبح الطراق حولي أحب الى من قط ألوف
وبكر يتبع الاظعان صعب أحب الى من بغل زفوف

وخرق من بني عمي نحيف　　أحب الى من علج عنيف

فلما سمع معاوية الابيات قال ما رضيت ابنة بحدل حتى جعلتني علجاً من علوج العجم فالعربي كثير التعلق بباديته فلا تمدح الا بها كما قال بعضهم

هذا أبو الصقر فرداً في محاسنه　　من نسل شيبان بين الضال والسلم

والضال والسلم من أشجار البوادي ذوات الشوك فأشار الشاعر بذلك الى ما تمدح به العرب من سكنى البادية لان العز عندهم مفقود في الحضر فكان العظيم منهم بين الضال والسلم أشهر من نار على علم أو أنه من البعد عن الهضم والضيم شمس أو قمر بلا غيم بخلاف المتمدن فانه يكثر التنقل ولكن في الحقيقة تنقله ثمرة من ثمرات التمدن مرتفعة تعود على الوطن بالمنفعة ولا نظر الى من حصل له ذل وهوان فرغب بذلك عن الاوطان كما قال الشريف الرضي

مالي لا أرغب عن بلدة　　يكثر فيها الدهر حسادي

ما الرزق في الكرخ مقيما ولا　　طوق العلا في جيد بغداد

وقال بعض امراء الحرمين

قوض خيامك عن أرض تهان بها　　وجانب الذل ان الذل مجتنب

وارحل اذا كانت الاوطان منقصة　　فالمندل الرطب في أوطانه حطب

فقد يذم الوطن من واحد ويمدح من آخر بحسب حال المتوطن فقد مدح الشريف المرتضى بابل وتشوق اليها بقوله

الا يا نسيم الريح من أرض بابل　　تحمل الى أهل الخيام سلامي

واني لاهوى أن أكون بأرضهم　　على انني منها استفدت مقامي

وقد كنت كالمفقد المطام منهم　　فيا أيها ذا سامكا بغير نظام

أبات أرجي أن يلم خيالهم ... وكيف يزور الطيف دون منامي

فلا برق الا خلب بعد بينهم ... ولا عارض الا ببيـاض جهام

وخالف ذلك شرف الدين البيهقي حيث قال

أبابل لا واديك بالبر مفعم ... لدى ولا ناديك بالرحب آهل

لئن ضقت عني فالبلاد فسيحة ... وحسبك عارا انني عنك راحل

وان كنت بالسحر الحرام مدلة ... فعندي من السحر الحلال دلائل

قواف تعير الأعين النجل حسنها ... فكل مكان خيمت فيه بابل

وقال آخر يخاطب أحد الملوك

ان تكرموني فاني غرس دولتكم ... فما بقيت فطواع ومذعان

وان اهنتم فارض الله واسعة ... لا الناس أنتم ولا الدنيا خراسان

وقال آخر في حق مصر

لم لا أدين كبارهم ... وصغارهم تيها وكبرا

ما النيل من ماء الحيا ... ة ولا جميع الارض مصرا

فهذا قول المغلوب وكلام مهجور الوطن لا المحبوب وأحسن من ذلك قول من تغرب وأصيب في الغربة بداء حب وطنه وتجرب

وبلدة قد رمتني ... بكل داء عنادا

ولو رجعت لاهلي ... كانت بلادي بلادا

ويكفي حب الوطن ان كراهة الاجلاء مقرونة بكراهة قتل الانسان نفسه في قوله تعالى ولو أنا كتبنا عليهم ان اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه (مما يحكى) أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه مر ليلا في المدينة فسمع امرأة تقول

وخرق من بني عمي نحيف أحب الى من علج عنيف

فلما سمع معاوية الابيات قال ما رضيت ابنة بحدل حتى جعلتني علجا من علوج العجم فالعربي كثير التعلق ببادية فلا تمدح الا بها كما قال بعضهم

هذا أبو الصقر فردا في محاسنه من نسل شيبان بين الضال والسلم

والضال والسلم من أشجار البوادي ذوات الشوك فأشار الشاعر بذلك الى ما تمدح به العرب من سكنى البادية لان العز عندهم مفقود في الحضر فكان العظيم منهم بين الضال والسلم أشهر من نار على علم أو أنه من البعد عن الهضم والضيم شمس أو قمر بلا غيم بخلاف المتمدن فانه يكثر التنقل ولكن في الحقيقة تنقله ثمرة من ثمرات التمدن مرتفعة تعود على الوطن بالنفعة ولا نظر الى من حصل له ذل وهوان فرغب بذلك عن الاوطان كما قال الشريف الرضي

مالى لا أرغب عن بلدة يكثر فيها الدهر حسادى
ما الرزق في الكرخ مقيما ولا طوق الدلا في جيد بغداد

وقال بعض امراء الحرمين

قوض خيامك عن أرض تهان بها وجانب الذل ان الذل مجتنب
وارحل اذا كانت الاوطان منقصة فالمندل الرطب في أوطانه حطب

فقد يذم الوطن من واحد ويمدح من آخر بحسب حال المتوطن فقد مدح الشريف المرتضي بابل وتشوق اليها بقوله

الا يا نسيم الريح من أرض بابل تحمل الى أهل الخيام سلامي
واني لأهوى أن أكون بأرضهم على انني منها استفدت مقامي
وقد كنت كالعقد المنظم منهم فها أنا ذا سلكا بغير نظام

أبات أرجي أن يلم خيالهم ... وكيف يزور الطيف دون منامي
فلا برق الا خلب بعد بينهم ... ولا عارض الا يساض جهام

وخالف ذلك شرف الدين البيهقي حيث قال

أبابل لا واديك بالبر مفعم ... لدي ولا ناديك بالرحب آهل
لئن ضقت عني فالبلاد فسيحة ... وحسبك عارا انني عنك راحل
وان كنت بالسحر الحرام مدلة ... فعندي من السحر الحلال دلائل
قواف تمير الأعين النجل حسنها ... فكل مكان خيمت فيه بابل

وقال آخر يخاطب أحد الملوك

ان تكرموني فاني غرس دولتكم ... فما بقيت فطواع ومذعان
وان اهنتم فارض الله واسعة ... لاالناس أنتم ولاالدنيا خراسان

وقال آخر في حق مصر

لم لا أدين كبارهم ... وصغارهم تيها وكبرا
ما النيل من ماء الحيا ... ة ولا جميع الارض مصرا

فهذا قول المغلوب وكلام مهجور الوطن لا المحبوب وأحسن من ذلك قول من تغرب وأصيب في الغربة بداء حب وطنه وتجرب

وبلدة قد رمتني ... بكل داء عنادا
ولو رجعت لاهلي ... كانت بلادي بلادا

ويكفي حب الوطن ان كراهة الاجلاء منه مقرونة بكراهة قتل الانسان نفسه في قوله تعالى ولو أنا كتبنا عليهم ان اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه (ومما يحكى) أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه مر ليلا في المدينة فسمع امرأة تقول

هل من سبيل الى خمر فأشربها ... أم هل سبيل الى نصر بن حجاج

أي الى وصاله لانه كان حسن الصورة وهو من بني سليم فدعاه عمر فرآه أحسن الناس وجها وله شعر حسن فحلق شعره فكان أحسن الناس بلاشعر فقال له أمير المؤمنين لا تساكني في بلدي فتشفع نصر اليه ان لا يخرجه من المدينة فلم يقبل عمر رضي الله عنه فلما ودعه نصر قال له يا أمير المؤمنين سمتني قتل نفسي فقال عمر كيف ذلك فقال قال الله تعالى ولو أنا كتبنا عليهم ان اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه فقرن هذا بهذا فقال ما أبعدت يا نصر ولكن أقول ما قال شعيب ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي الا بالله وقد أضعفت لك يا نصر عطاءك ليكون ذلك عوضا لك ومن أحسن ما قيل في حب الاوطان قول الصقلي

ذكرت صقلية والاسى ... يهيج للنفس تذكارها

فان كنت أخرجت من جنة ... فأني أحدث أخبارها

ولولا ملوحة ماء البكا ... حسبت دموعي أنهارها

وصقلية جزيرة بإيطاليا المسماة الآن سيسيليا كانت في يد الاسلام زمنا طويلا ويناسب هذا قول من قال

نقل فؤادك ما استطعت من الهوى ... ما الحب الا للحبيب الاول

كم منزل في الارض يألفه الفتى ... وحنينه أبدا لاول منزل

وما أحسن قول بعضهم

على لربع العامرية وقفة ... لتملي على الشوق والدمع كاتب

ولي مذهب حب الديار لأهلها ... وللناس فيما يعشقون مذاهب

(وقال آخر)

وقائلة ماذا وقوفك ههنا ... بتربة يهوى من المصر ذيهها

فقلت لها قلي الملامة واصفي هوي كل نفس حيث حل حبيبها

وحسب المؤمن بحب الوطن ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج من مكة علا مطيته واستقبل الكعبة وقال والله لأعلم انك أحب بلد الله الى وانك أحب أرض الله الى الله تعالى عز وجل وانك خير بقعة على وجه الارض واحبها الى الله تعالى ولولا ان أهلك أخرجوني منك لما خرجت وبالجملة فحب الاوطان على عظم الحسب وكرم الادب أبهى عنوان وهو فضيلة جليلة لا يؤدي حق الوفاء بها الا من حاز الشمايل النبيلة ولا تعين عليها الا الهمم العلية والعزائم الملوكية التي تقلد أعناق الامة حلى المنة والنعمة فتبعثهم على التشبث بالاوطان والتعلق بأذيال الاخوان والخلان لاسيما اذا كان الوطن منبت العز والسعادة والفخار والمجادة كديار مصر فهي أعز الاوطان لبنيها ومستحقة لبرها منهم بالسعي لبلوغ أمانيها بتحسين الاخلاق والآداب من جهتين عظيمتين (الاولى) أنها ام لساكنيها وبر الوالدين واجب عقلا وشرعا على كل انسان (الثانية) انها ودود بارة بهم مثمرة للخيرات منتجة للمبرات فبرها يعود على ابنائها ثمرته وترجع اليهم فائدته وبحسن الصنيع تتضاعف الفوائد العوائد اضعافا مضاعفة وكلما تحسنت جهات البر من أهاليها حسنت أيضا الثمرات لطالبيها فاذا كانت لا تحرم من ثمرات مصر الاجانب فبالأحري ان تتمتع بها الاقارب في الأثر من أعيته المكاسب فعليه بمصر وعليه بالجانب الغربي منها (ويروي) ايضا قسمت البركة عشرة أجزاء تسعة فى مصر وجزء فى الامصار كلها ولا يزال فى مصر بركة ما فى الارضين كلها وقيل فى تفسير قوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانو يستضعفون مشارق الارض ومغاربها ان المراد بمشارق الارض ومغاربها أرض مصر وقال عليه الصلاة والسلام مصر

خزائن الارض والجيزة غيضة من غياض الجنة ذكر هذا الحديث صاحب المفاخرة بين مصر والشام (قال) بعض من انتصب لتفضيل دمشق لكونها وطنه على مصر عرفنا طيب الديار المصرية ورقة هوائها ولكن نحن لا نجفو الوطن حيث حبه من الايمان ومع هذا فلا ننكر ان مصر اقليم عظيم الشأن وان مغلها كثير وان ماءها نمير وان ساكنها ملك أو امير وان الذهب فيها لا يوزن بالمثاقيل ولكن بالقناطير وان دمشق يصلح ان تكون بستانا لمصر ولا شك أن أحسن ما فى البلاد البستان وهل دمشق الا لمصر مثل الجنان

«مطلب» بر مصر لنبها وغيرهم

«مطلب» خير مصر وبركاتها

وقال عبدالله بن عمر أهل مصر أكرم الاعاجم كلها وأسمحهم يدا وأفضلهم عنصرا وأقربهم رحما بالعرب عامة وبقريش خاصة يشير بهذا الى هاجر ام اسماعيل عليه السلام فانها من قرية ام دينار أو قرية ام دنين وكلاهما بمصر او يقال انها من بلدة بقرب الفرما والى مارية ام ابراهيم فانها من قرية بصعيدها من اقليم الجيزه (وقد روى) عن أبي ذر أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط فاستوصوا باهلها خيرا فان لهم ذمة ورحما فاذا رأيتم رجلين يقتتلان فى موضع لبنة فاخرجوا منها قال فمر بربيعة وعبدالرحمن ابني شرحبيل يتنازعان فى موضع لبنة فخرج منها (ويروي) عن عمر أمير المؤمنين رضى الله عنه انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله عز وجل سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فان لهم منكم صهرا وذمة (وقال) عبدالله بن عباس رضى الله عنهما دعا نوح عليه الصلاة والسلام لولده و ولد ولده مصريم الذى به سميت مصر مصرا فقال اللهم انه قد اجاب دعوتي فبارك فيه وفى ذريته واسكنه الارض الطيبة المباركة التي هى أم الدنيا وما احسن قول الشاعر

جميع الارض فيها طيب عيش ولدات وروضات أنيقه
وهذا كله في غير مصر مجازيه وفي مصر حقيقه

فلهذا يقال ان مصر هي اختيار نوح عليه السلام لولده وكذلك صارت اختيار الحكماء لانفسهم واختيار عمرو بن العاص لنفسه واختيار مروان بن الحكم لابنه عبد العزيز وهكذا فكيف لا وهي بلد العلم والحكمة من قديم الدهر وحديثه ومنها خرج العلماء والحكماء الذين عمروا ممالك الدنيا بتدبيرهم وحكمتهم وفنونهم وصنائعهم ولم تزل الى الان يسير اليها طلبة العلم واصحاب الفهم من سائر الاقطار لتحصيل درجة الكمال وكفاها فخرا أنها تسمى خزائن الارض كما حكاه الله تعالى عن يوسف عليه السلام في قوله لملك مصر اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم ولذلك قال بعضهم ان مصر خزائن الارض كلها وسلطانها سلطان الارض كلها يعني ان يوسف لما تمكن من أرض مصر يتبوأ منها حيث يشاء كان بسلطانه فيها سلطان جميع الارض كلها لحاجتهم اليه والى ما تحت يديه حتى في أيام الخلفاء كانت مثرية بالمآثر والمكارم تغني الوافد عليها والقادم كما قال بعض الشعراء

قدمت مصر فألفيتي خلائقها من المكارم ما أربى على الامل
قوم عرفت بهم كسب الالوف ومن تمامها انها جاءت ولم أسل

ومما يدل ايضا على انها كانت بمكانة من التمدن في قديم الازمان قوله تعالى مخبرا عن موسى عليه السلام انه قال ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا وكذا قوله تعالى مخبراً عن فرعون انه قال أليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتي افلا تبصرون وقال بعض المفسرين ولم يكن في الارض ملك أعظم من ملك مصر وكان جميع الارضين يحتاجون

الي مصر وأما الأنهار فكانت قناطر وجسورا بتقدير وتدبير حتي ان الماء يجري من تحت منازلها وأفنيتها فيحبسونه كيف شاؤا انتهى وهذا عين التمدن اذ لا يكون ذلك الا بتقدم الصنائع والفنون ويؤيده بقايا الآثار المشاهدة التي لا كان مثلها في غير مصر ولا يكون مع ما انمحى منها بشهادة قوله تعالى ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون وقد قنع المأمون بهذه الآية حين استصغر مصر في عينه وذهل عن حقيقة الدراية والرواية فأدرك بها من الحكمة الغاية

وبالجملة فهي فرضة الدنيا يحمل خيرها الى ماسواها فيحمل منها من طريق بحر القازم الي الحرمين واليمن والهند والصين والسند وبلاد افريقية ومن جهة بحر الروم الى بلاد الروم والقسطنطينية والافرنج وسواحل الشام والثغور الى حدود العراق والى صقلية وكريد وبلاد المغرب ومن جهة الصعيد الى بلاد الغرب والنوبة والسودان والحبشة والحجاز واليمن ولا سيما الآن بوصل البحرين الابيض والاحمر واتصال افريقية بآسيا على وجه أظهر فبهذا يقرب النقل منها واليها من سائر الاقطار المعمورة والمنظور انها تصير بمنافع جميع ممالك الدنيا مغمورة وتكثر مخالطتها مع جميع الامم فلا غرو أن يأتي لها زمان يصير فيه تمدنها راسخ القدم فان لطالع التمدن دورا مخصوصاً من أدوار الجميات التأنسية عند حضور الاوان تسطع أنواره على سائر الافاق والبلدان

وما البدر الا واحد غير أنه   يغيب ويأتى بالضياء المجدد
فلا تحسب الاقمار خلقا كثيرة   فجملتها من نير متردد

فكل مملكة تأخذ حظها الاوفر من نير التمدن مدة قرون وأزمان بحمية أهلها ومغالاتهم فى حب الاوطان فقد شبه بعضهم حب الاوطان الحقيقي

والغيرة عليها بحرارة جديدة محلية متمكنة من الابدان الاهليـة متى حلت من الانسان غلبت على الحرارة الغريزية فلذلك اذا طهرت الحمية الوطنية وأبناء الديار المصرية وولعت بمنافع التمدنية فلا جرم ان تذكو نارها وتغلب على قوة الاولية فيحصل لهذا الوطن من التمدن الحقيقي المعنوي والمادي كل الامنية فيقدح زناد الـكد والـكدح والنهض بالحركة والنقلة والاقدام في ركوب الاخطار لنال الاوطان بلوغ الاوطار

دع الهوينا وانتصب واكتسب   واكدح فنفس المرء كداحه
وكن عن الراحة في معزل   فالصفع موجود مع الراحـه

(وقال آخر)

تنقل فلذات الهوى في التنقل   ورد كل صاف لاتقف عندمنهل

فما دامت المنافع متفرقة في الجهات فلكن الهم في تحصيلها من جهاتها نسابا موجهات فلا بد لكل انسان وكل مملكة من الحصول على المادة الكافية لبلوغ الوطر لا سيما التي لا يعري منها بشر قال تعالى وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وماكانوا خالدين فاذا انعدمت المادة التي هي قوام نفس لم تدم الحياة ولم تستقم الدنيا لاهلها فاذا تعذر على الانسان شيء من معايش الدنيا لحقه الوهن والاختلال في دنياه بقدر ما تعذر من المادة عليه لان الشيء القائم بغيره يكمل بكماله ويختل باختلاله ولما كانت المواد مطلوبة لحاجة الكافة اليها وجب الحصول عليها من جهاتها ثم ان أسباب المواد مختلفة وجهات المكاسب متشعبة وانما كانت كذلك ليكون اختلاف أسبابها علة للائتلاف بها وتشعب جهاتها توسعة لطلابها كي لا يجتمعوا على سبب واحد فلا يلتئمون أو يشتركوا في جهة واحدة فلا يكتفون وقد هداهم الله سبحانه

* مطلب *
اختلاف أسباب المواد وتشعب المكاسب

وتعالى بعقولهم وأرشدهم اليها بطباعهم حتي لا يتكافؤا ائتلافهم في المعايش المختلفة ويعجزوا ولا يمانو تقدير موادهم بالمكاسب المتشعبة فيختلوا حكمة من الله سبحانه اطلع بها على عواقب الامور قال تعالى ربنا الذى اعطى كل شيء خلقه ثم هدى قيل في تفسيره أعطى كل شيء مايصلحه ثم هداه له وقيل أعطى كل شيء صورته ثم هداه لمعيشته وقال تعالى يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا أي معايشهم متي يزرعون ومتى يغرسون وقال تعالى وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين أى قدر في كل بلدة منها ما لم يقدره في الاخري ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلد الى بلد

ثم ان الله تعالى جعل للناس مع ماهداهم اليه من مكاسبهم وأرشدهم اليه من معايشهم دينا يكون لهم حكما وجعل لهم شرعا يكون عليهم قيما ليصلوا الى مرادهم بتقديره ويطلبوا أسباب مكاسبهم بتدبيره حتي لا ينفردوا بارادتهم فيتغالبوا ولا تستولى عليهم أهواؤهم فيتقاطعوا قال تعالي ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن ثم انه جلت عظمته جعل توصلهم الى منافعهم من وجهين مادة وكسب اما المادة فهي حادثة عن اقتناء أصول نامية بذواتها وهي شيآن نبت نام وحيوان متناسل قال تعالي وانه هو أغنى وأقنى أى أغنى خلقه بالمال وجعل لهم قنية وهي أصول الاموال وأما الكسب فيكون بالافعال الموصلة الى الكفاية والتصرف المؤدى الى الحاجة من وجهين أحدهما تقلب في تجارة والثانى تصرف في صناعة وهذا ان الوجهان هما فرع لوجهى المادة السابقين فصارت أسباب المواد المألوفة وجهات المكاسب المعروفة أربعة أوجه نماء زراعة ونتاج حيوان وربح تجارة وكسب صناعة وكذلك حكى الحسن بن رجاء عن الخليفة المأمون انه كان يقول معايش الناس على اربعة أقسام زراعة

«مطلب» تقسيم اسباب المواد والمكاسب

« مطلب » اختلاف أحوال المنافع العمومية

وصناعة وتجارة وامارة فمن خرج عنها كان كلا علينا ولكن سيأتي لنا ان الحارة هي قطب رحى المنافع العمومية

ثم ان احوال المنافع العمومية تختلف بتنقل الأحوال وتغير العادات ولا يمكن استيعاب طرق تحسينها وأدوات تمكينها وانما يجتهد كل انسان في الحصول على ما بلغه من الوسع في صنائع زمانه وما استحسن عرفا من محسنات عصره وأوانه ولولا تغير الاحوال والعادات لكان المتقدم كفى المتأخر تكلفها وانما لاحظ المتأخر أن يعانى نشد الشارد مع حفظه وجمع المتفرق بلحظه ثم يعرض ما تقدم على حكم زمانه وعادات وقته وأوانه فيثبت ما كان موافقا وينفي ما كان شاقا ثم يستمد خاطره في استنباط الزوائد واستخراج الفوائد واختراع مابه السهولة وابتداع ما يبلغ رب البصائر مأموله

لعمرك ما الأبصار تنفع أهلها اذا لم يكن للمبصرين بصائر
وهل ينفع الخطي غير مثقف وتظهر الاباالصقال الجواهر

فتى اسعف الانسان بشيء اخترعه حظي بفضله بشرط ان يكون مألوفا للوقت وعرف أهله فان لاهل كل وقت عادة تؤلف ومنافع تعرف تقع من النفوس بموقع المحبة والرغبة لوضوح مسلكها وسهولة مأخذها والا كان ضائعا مستهجنا والاتيان به تعسف والالزام به تكلف فان العادة حقيقة بقول القائل

شيء به فتن الوري غير الذي يدعي الجمال ولست أدري ماهو

فان مستحسن العرف والعادة لا يوجبه عقل أو شرع بدليل اختلاف ذلك باختلاف البلاد كالتجمل والزينة فان لاهل المشرق زيا مألوفا ولاهل المغرب زيا معروفا غيره وكذلك يختلف المرتضى باختلاف اجناس الطوائف فان للاجناد زيا

مألوفا تخالف مألوف العلماء والتجار وأصله ان يكون للناس على اختلافهم
يميزون بها فان عدل واحد عن عرف بلده وجنسه بدون مندوحة عد
منه حمقا فكل يتبع القيافة الخاصة به ولزوم العرف المعهود واعتبار الحد الحا
أدل على الحق وامنع من الذم وربما توهم البعض أن التزيي بزي البلاد الاجنـ
المشهورة بالتمدن هو من المروة الكاملة والسيرة الفاضلة فبادر بالامتياز
عن الاكثرين بدون موجب مع ان قيافة بلده لا تنقص عنها شيئاً وانما قصد
بذلك الخروج من قيافة وطنه التي استرذلها الاجانب وخفي عليهم تعدى طور
وتجاوز قدرهم وقبح بين أهل الوطن ذكرهم

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه — فكل رداء يرتديه جميل

فالتمدن ليس في زينة الملابس بعرف مجهول متخيل استحسانه لا سيما
اذا كان لا يمكن لمن تزيا به احسانه

وما الحلي الا زينة لنقيصة — يتم من حسن اذا الحسن قصرا
وأما اذا كان الجمال موفرا — كحسنك لم يحتج الى ان يزورا

فحاجة الوطن الى المنفعة الحقيقية أشد من حاجته الى تقليد العرف الذي
هو منفعة ظاهرية ولما كانت الديار المصرية فائقة في المآثر جاهلية واسلاما
ولها أسبقية التمدن قديما وحديثا والآن تنافس الممالك الاخرى في الفنون
والصنائع وسائر أنواع المنافع لها الآن أن تزاحم في ميادين صحيح الفخار
وتصون درجة السلف التامة الاعتبار حتى يصح أن نقول

نشيد كما شادوا ونبني كما بنوا — لنا شرف ماض وآخر غابر

فلهذا وجب علينا أن ننشر في صحائف هذا الكتاب ما يبدو لنا من
أحوال المنافع اللائقة لمزاج الوقت والحال ما عساه أن يستفيد منه الاهالي

مدائحة من أسباب الرفاهية والنعمة كما قال الدابلسى

لم أزل فى الحب يا أملى   أمزج التوحيد بالغزل

وتكون الادلة الاقناعية فى افادة أهمية المنافع العمومية وليكون للجميع وسائلها ومقاصدها كال المعلومية

كل له غرض يسعى ليدركه   والحر يجعل ادراك العلا غرضا

لأن تعطر ملك مصر بشذا نسائم منافع الممالك الاجنبية فصار كما قيل

كأن تجارا تحمل الطيب عرسوا   به ثم فضوا ثم كل ختام

أى فضوا ختام المسك فتعطرت الارجا فهو لرجاء بلوغ الدزجة الكمالية أقرب حصولا وأرجى

الباب الاول

﴿فى بيان المنافع العمومية من حيث هى وفى موادها ومخترعاتها وما يتعلق بها وفيه فصول﴾

مطلب تعريف المنافع العمومية

الفصل الاول

﴿فيما تطلق عليه المنافع وبيان موادها الاصلية وانها دالة على التمدن والعمران﴾

المنافع جمع منفعة وهى فى اللغة ضد المضرة ومنه قوله

اذا أنت لم تنفع فضر فانما   يرجى الفتى كيما يضر وينفع

وقد تطلق على الدواء كقوله

هم الناس فالزم ان عرفت طريقهم   ففيهم لضر العالمين منافع

وتطلق على المنفعة الشرعية فتكون عبارة عن جميع ما شرع من أنواع

البر للتعاون عليه كالقرض والعارية والهبة والصدقة والوقف وما أشبه ذلك مما يقتضي الألفة واتفاق الآراء في تدبير المعاش والمعاد ويطلق في عرف تدبير المنزل على ما يفعل لمصلحة تخص بلدة أو مدينة أو مملكة لراحة أهلها وتنظيم أحوالهم من كل ما يعود عليهم بفائدة لها وقع في المملكة وبها يترقى الوطن وتشترك في ثمرتها أربابه فلهذا تقيد بالعمومية فهي بالمعنى العرفي تخص السياسة حيث انه قد لا تقتضي الاوضاع الشرعية المتأدب بها في المملكة عين المنفعة السياسية الا بتأويلات للتطبيق على الشريعة ومع ذلك فبني المنفعة في السياسة الشرعية على طريق اكتساب المال من غير مهانة ولا عسف وانفاقه في المصارف الجيدة والعافية الجليلة الذكر ومبنى المنفعة أيضا على صرف الهمة الى ازالة المكروه عن الناس بقدر ما تسعه القدرة البشرية من اسعافهم واعانتهم وسيأتي في الفصل الاول من الباب الثاني تعريفها في اصطلاح الادارة الاوربية وانها مجمع الفضائل وقد ذكرنا في المقدمة انقسام أسباب المعايش الى أربعة أقسام وهي زراعة وصناعة وتجارة ونتاج الحيوانات ونقول ان هذه المنافع اذا وجدت في مملكة دامت متى روعي فيها العدل والانصاف فتكون قابلة للاستثمار والتمول وتحصيل النقود والمتاع والعقارات وجميع الاملاك الاحتياطية فبواسطة اكتساب الاهالي هذه المكاسب يصح لهم الانفاق المنزلي مع السعة والثروة وبفضول أموالهم يؤدون حقوق المملكة القائمة بحفظهم وصيانتهم مما يوجب ثروتها واقتدارها وينفقون في سبيل الله ما شاء ان ينفقوا رحمة بذوي الحاجات فبهذا يتم النظام المنزلي والنظام المدني وقوام كل من النظامين على الاقتصاد في الانفاق وترك الحرص والطمع والاسراف والتبذير عملا بقوله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك أي لا تمسك عن الانفاق بحيث تضيق

نفسك وأهلك في وجوه صلة الرحم وسبيل الخيرات أي لا تجعل ذلك في انقباضها كالمغلولة الممنوعة من الانبساط ثم قال ولا تبسطها كل البسط أي ولا توسع في الانفاق توسعا مفرطا بحيث لا يبقى في يدك شيء ثم قال تعالى فتقعد ملوما محسورا أي تلوم نفسك وأصحابك يلومونك على تضييع المال بالكلية ومعنى محسورا منقطعا عن الانفاق بمعنى عاجزا متحيرا وقد ذكر الحكماء ان لكل خلق طرفين أحدهما الافراط وثانيهما التفريط وهما مذمومان فالبخل مثلا افراط في الامساك وهو مذموم والتبذير تفريط في الانفاق وهو مذموم أيضا والوسط ممدوح وهو العدل في الانفاق وهكذا كل فضيلة لها طرفان ووسط والوسط عبارة عن الاتصاف في الفضيلة وهو الممدوح منها ولكن ربما يقطع في الوهم فضيلة أحد الطرفين لعدم الوقوف على الحقيقة بترك معاشرة أرباب الفضائل فلهذا ينبغي تبيين محل تعلم الفضائل حتى لا تشتبه باضدادها وبيان ذلك ان الانسان من بين جميع الحيوان لا يكتفي بنفسه في تكميل ذاته ولا بدله من معاونة قوم كثيري العدد حتى تتم حياته طيبة ويجرى أمره على السداد ولهذا قال الحكماء ان الانسان مدني بالطبع أي هو محتاج الى مدينة فيها خلق كثير لتتم له السعادة الانسانية فكل انسان بالطبع وبالضرورة محتاج الى غيره فهو لذلك مضطر الى مصافاة الناس ومعاشرتهم العشرة الجميلة ومحبتهم المحبة الصادقة لانهم يكملون ذاته ويتممون انسانيته وهو أيضا يفعل بهم مثل ذلك فاذا كان ذلك كذلك بالطبع وبالضرورة فكيف يؤثر العاقل العارف بنفسه التفرد والتخلي وتعاطي ما يرى الفضيلة في غيره فاذن القوم الذين رأوا الفضيلة في الزهد وترك مخالطة الناس وتفردوا عنهم اما بملازمة المغارات في الجبال واما ببناء الصوامع في المفاوز واما بالسياحة في البلدان

للدروشة لايحصل لهم شيء من الفضائل الانسانية المدنية المعهودة التي عددناها وذلك ان من لم يخالط الناس ويساكنهم في المدن لا تظهر فيه هذه الفضائل من العفة والنجدة والسخاء والعدالة بل تصير قواهم وملكاتهم التي ركبت فيهم بالنسبة للخيرات المدنية والمنافع العمومية عاطلة لانها لا تتوجه الى خير ولا الى شر بالنسبة للعموم فاذا تعطلت ولم تظهر أفعالها الخاصة بها صاروا بالنسبة لقصور صنائعهم عليهم وعدم عودها بالمنفعة على غيرهم بمنزلة الجمادات أوالموتى من الناس ولذلك يظنون ويظن بهم أنهم اعفاء وليسوا باعفاء فهم كما قال الشاعر

يقـول أبو سـعيد مذ رآني   عفيفـا منذ عام ما شربت
على يد أي شيخ تبت قل لى   فقلت على يد الافلاس تبت

وتقول العامة من العفة ان لاتجد وكذلك في سائر الفضائل أعني انه اذا لم يظهر منهم اضداد هذه التي هي شرور ظن بهم الناس أنهم أفاضل وليست الفضائل اعداما بل هي افعال وأعمال تظهر عند مشاركة الناس ومساكنتهم وفي المعاملات وضروب الاجتماعات ونحن انما نعلم ونتعلم الفضائل الانسانية التي نساكن بها الناس ونخالطهم لنصل منها وبها الى سعادات أخر اذا صرنا الى حال أخرى وتلك الحال غير موجودة لنا الآن فالسخاء فرع عن وجود مال بيد الانسان استفاد بالمخالطة حسن صرفه في الخير فاذا أحسن صرفه بالوجه الاوسط كان حائزا فضيلة السخاء وعلى كل حال فمن جوامع الكلم قول بعض الحكماء لا خير في السرف كما لاسرف في الخير فمن يطلب زيادة المال ويلتمس الكثرة في اسباب الكسب ليصرف مكاسبه في وجوه الخير ويتقرب بها في جهات البر ويصنع بها المعروف جدير بالحمد اذا توقى مطالب التبعات ومكاسب الشبهات لان المال آلة المكارم وعون على الدين ومؤلف للاخوان ومن

فقده من أبناء الدنيا قلت الرغبة فيه وكثرت الرهبة منه ومن لم يكن منهم بموضع رغبة ولا رهبة استهان الناس به وما أحسن ماقاله مع التورية الامام العارف بقية السلف الطاهر أبو الفضل بن وفى

وخل سمته صفما بمال فقال توارعوه ياصحابي
اذا الحمل الثقيل توازعته أكف القوم هان على الرقاب

ومثله فى التورية ما كتبه ابن أبى حجلة الى الخواجه شهاب الدين الذهبى وقد مطله بحوالة ذهب من قوله

قد منهم صرف الدنانير عنى واسكم فى الورى هبات كثيرة
وأنا شاعر وفى شرع نظمى صرفها واجب لاجل الضرورة

قال مجاهد الخير فى القرآن كله المال فقوله تعالى وانه لحب الخير لشديد يعنى المال وأحببت حب الخير عن ذكر ربى يعنى المال وقوله تعالى فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا يعنى مالا وقال تعالى عن شعيب انى أراكم بخير أى بمال وغنى وانما سمى الله المال فى القرآن خيرا اذا كان فى الخير مصروفا لانه ما أدى الى الخير فهو فى نفسه خير (وقد روى) عن عبد الله بن بريدة عن ابيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أحساب أهل الدنيا هذا المال (وقال) عبد الرحمن بن عوف يا حبذا المال أصون به عرضى وأرضى به ربى (وقال) ابن عباس الدراهم والدنانير خواتم الله فى الارض لا تؤكل ولا تشرب وحيث قصدت بها قضيت حاجتك * قيل لبعضهم لم تحب الدنانير وهى تدنى من النار قال هى وان أدنت منها فقد صانت عنها (وقال) بعض الحكماء من الملوك من أصلح ماله فقد صان الاكرمين الدين والعرض ومر رجل من أرباب الاموال ببعض العلماء فحرك له وأكرمه وأدناه فقيل له بعد ذلك أكانت لك اليه

حاجة فقال لا ولكن رأيت ذا المال مهيبا فهبته ويقال الدراهم مراهم لانها تداوي كل جرح ويطيب بها كل صلح وقال أحيحة بن الجلاح

رزقت لبا ولم أرزق مروءته ... وما المروءة الا كثرة المال
اذا أردت مواساة تقاعد بي ... عما ينوه باسمي رقة الحال

(وقال بعضهم)

ومن يطلب المال الممنع بالقنا ... يعش ماجدا أو تخترمه الخوارم

وقال آخر

كفى حزنا اني أروح وأغتدي ... ومالي من مال أصون به عرضي
وأكثر ما ألقى الصديق بمرحبا ... وذلك لا يكفي الصديق ولا يرضي

وأما ذم جمع المال فهو محمول على من يقتني الاموال ليدخرها ويكف عن صرفها في وجوه الخيرات حيث ان ذلك يستدعي سوء ظنه بخالقه مع ان في حسن الظن بالله راحة القلوب مصداق ذلك والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم

ثم ان مشروعية التعاون على المنافع العمومية يدل عليها كثير من الآيات والاحاديث النبوية فمن ذلك قوله تعالى وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان وقوله تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون أي ان من أنفق كان من جملة الابرار الذين قال تعالى فيهم ان الابرار لفي نعيم على الارائك ينظرون الآية والبر ايضا أكثر اعمال الخير فهو صفة جامعة ومعنى الآية عليه لن تتصفوا بهذه الصفة وهي استجماع اعمال الخير حتى تنفقوا مما تحبون فتفوزوا بفضيلة البر وفضل طاعات الانسان انفاق ما يحبه فكان السلف اذا أحبوا شيئا جعلوه لله تعالى (روي) انه لما نزلت هذه الآية قال أبو طلحة يارسول الله لي حائط

أى بستان بالمدينة وهو أحب أموالى الى أفأتصدق به فقال عليه السلام بخ بخ ذالك مال رابح واني أرى ان تجعلها في الاقربين فقال أبو طلحة أفعل يا رسول الله فقسمها في أقاربه ويروى انه جعلها بين حسان بن ثابت وأبي بن كعب رضى الله عنهما (وروى) ان زيد بن حارثة رضى الله عنه جاءعند نزول هذه الاية بفرس له كان يحبه وجعله فى سبيل الله فحمل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة فوجد زيد في نفسه فقال عليه السلام ان الله قد قبلها « واشترى ابن عمر جارية اعجبته فأعتقها فقيل له أعتقتها ولم تصب منها فقال لن تنالوا البر حتي تنفقوا مما تحبون والانفاق هنا يشمل الزكاة وغيرها من كل شيء أنفقه الانسان من ماله يبتغي به وجه الله تعالى حتى التمرة وقوله مما تحبون فيه اشارة الى ان انفاق الكل لا يجوز كما قال تعالي والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذالك قواما فهذا أدب الله تعالى وقال عليه الصلاة والسلام ان الله يحب الرفق فى الامر كله وقال الشاعر

عليك باوساط الامور فانها نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا

ويقال ثلاثة من حقائق الايمان الاقتصاد فى الانفاق والانصاف من نفسك والابتداء بالسلام وضابط الاقتصاد في الانفاق ان ما دبره العقل « مطلب المروءة » وناله الفضل فهو الاقتصاد الجميل الحسن والعقل السليم لا يميل الى الفرط ولا الى الشطط بل يتبع الوسط الذي هو خير الامور

ومن شواهد فضيلة البر ودلائل الكرم والانفاق المروءة التي هي حلية النفوس وزينة الهمم وهي مجاراة النفس على أفضل أحوالها (روى) عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت أخوته

وحرمت غيبته (وسئل) بعض الحكماء عن الفرق بين العقل والمروءة فقال العقل يأمرك بالأنفع والمروءة تأمرك بالأرفع ولا ينقاد للمروءة مع ثقل تكلفها الا من سهلت عليه المشاق رغبة في المحمدة وهانت عليه اللاذ حذرا من المذمة ولذلك قيل سيد القوم أشقاهم أي أكثرهم مشقة قال المتنبي

لولا المشقة ساد الناس كلهم   الجود يفقر والاقدام قتال

وقال

واذا كانت النفوس كبارا   تعبت في مرادها الاجسام

والداعي الى استسهال الصعب في التمسك بالروءة شيئان علو الهمة وشرف النفس فأما علو الهمة فانه باعث على التقدم وداع الى التخصص أنفة من خمول الضعة واستكبارا لمهانة النقص وفي الحديث الشريف ان الله تعالى يحب معالي الامور ويكره سفسافها وأما شرف النفس فبه يكون قبول الأديب وتقويم التهذيب فاذا شرفت النفس كانت للآداب طالبة وفي الفضائل راغبة فاذا تجرد شرف النفس عن علو الهمة كان الفضل بها عاطلا حتى قيل ان شرف النفس مع صغر الهمة أولى من علو الهمة مع دناءة النفس لان من غلبت عليه همته مع دناءة نفسه كان متعديا الى طلب مالا يستحقه ومتخطيا الى الناس مالا يستوجبه ومن شرفت نفسه مع صغر همته فهو تارك لما يستحقه ومقصر عما يجب له والفرق بين الامرين ظاهر وان كان لكل واحد منهما من الذم نصيب قال الشاعر

ان المروءة ليس يدركها امرؤ   ورث المكارم عن أب فأضاعها

أمرته نفس بالدناءة والخنا   ونهته عن سبل العلا فأطاعها

فاذا أصاب من المكارم خلة   يبني الكريم بها المكارم باعها

قال أنوشروان الكامل المروءة من حصن دينه ووصل رحمه وأكرم

اخوانه (وقل) بعض الحكماء كامل المروءة من أحب المكارم واجتنب المحارم فالبر الحقيق المذكور في قوله تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون حاصل للمروءة الكاملة ويطابق هذه الآية الشريفة قوله صلى الله عليه وسلم اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له رواه الامام مسلم رضي الله عنه بلفظ اذا مات المسلم بدل ابن آدم فقد حث الحديث النبوي على ثلاث فضائل جامعة شاملة لأساس الدنيا والدين في حق صاحب العمل تديم عمله وتجعله باقيا كأن صاحب العمل حي بعمله مأجور دائما بهذه الفضائل مخلد الذكر موفر الاجر وبضدها تتميز الاشياء فان من لا صدقة له في حياته ولا علم ولا ذرية فعمله مقطوع من أصله فهو ميت الاحياء حيث عدم الفضائل الثلاثة

« مطلب » حديث اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث

فالفضيلة الاولى الصدقة الجارية خصها بعض العلماء بالوقف وجعلها من أدلة تشريعه وقال بعدم دخول الوصية في معنى الصدقة وبعدم دخول صدقة التطوع والقرينة دالة على العموم لا سيما اذا كان الحديث في معرض فضائل الاعمال فالعبرة بعموم لفظه فالمدار على أن تكون الصدقة جارية مستمرة باقية مخلدة لا ينقطع نفعها ولا يمتنع من الدر ضرعها كحفر الآبار في أي محل من المحال حيث يصير النفع بها رصدت على جهة أم لم ترصد وغرس الاشجار التي يتظلل بها واجراء الانهار وتسليك الطرق وجميع الاعمال الخيرية الدائمة فالصدقة الجارية بهذا المعنى جامعة لأكثر أركان المنافع العمومية والاوقاف داخلة فيها مما يرصد للمساجد والمارستانات ونحو ذلك مما يبتغي به الواقف وجه الله تعالى حتى يكون من المنافع العمومية والباقيات الصالحات والاعمال الحسنات فان كثيرا من أرباب اليسار يحرصون على بناء المساجد والمدارس

« مطلب » الصدقة الجارية

ويحسنون عليها الدور والخانات والحوانيت وغيرها ويكتبون أسماءهم عليها ليتخلد كرهم وذكر في صحف أهل الخير خيرهم فاذا كان هذا البناء وما رصد عليه من وجه حلال طيب كان من مصادق الحديث يعني من الصدقات الجارية النفع والثواب والا بأن كان بوجه الاغتصاب أو كان لمجرد الفخر كان راصده مجردا عن الاجر مجازى بالعقاب فلو كان صاحبه رد المال على أربابه لكان أولى وكذلك من تظاهر بصرف ماله على الفقراء كمن يرسل الى نظار الجوامع والمساجد أشياء جسيمة لا تصل الى أربابها المحتاجين اليها بل أخذها من لا يستحقها ويظن مرسلها ان صدقته صادفت محلا فقد تساهل في صدقته اذ قد تعدت مصارفها الحقيقية فأولى من هذه الصدقات الظاهرية صرف الاموال في منفعة عمومية حقيقية يكون فيها الغبطة والنفعة للفقراء والمساكين بحيث تعود عليهم مستمرة لا منقطعة

ومن جملة الصدقات ما يكون للنفس فيه خبيئة وهي حب المدح والاعطاء والرياء والسمعة ليقال فلان يعطي كصدقة المتصدقين في المحافل لقصد الشكر وافشاء المعروف ومن الناس من يكثر من الملاهي والافراح بدون لزوم وينفق في ذلك النفقات الجسيمة وهو يعلم كثرة الفقراء في قريته والجياع من جيرته وأهل بلدته بل ومن أرحامه فلو أنفق عليهم ما صرفه في محض اللهو واللعب لفاز ولو استقل المقل في ذلك لاقتاه بالنجار واسكن قد فاته كال السباق الى الفضائل في ميدان السابقين وما درى ان أداء الواجب خصوصاً في اطعام الفقراء للمستحقين خير من نوافل الواقل بيقين ودون من لا يعرف وجوه المصارف الحقيقية وأبواب المنافع العمومية من يجمع المال ويبخل باخراجه ولا يتصدق به ولا يقرضه لمحتاجه فيجهد النفس في البخل

المهالك ويرى ان الامساك خير من الانفاق وأولى فلا ينتفع بثواب الآخرة ولا بمنفعة الأولى فهذا قابض يده على أسباب الحرص والامل ولا شك ان الحرص من سبل التالف وآفة من آفات الحرمان واطالة الامل من اساءة العمل وذلك لما فيه من التسويف وقيل الامل مذموم الا من العلماء فلولا أملهم لما صنفوا وأيضا لا يخلو الامل من سر لطيف لانه لولا الامل ما تهنأ أحد بعيش ولا طابت نفسه أن يشرع فى عمل من أعمال الدنيا فالمذموم منه الاسترسال فيه وعليه يحمل حديث أنس رفعه أربعة من الشقاوة جمود العين وقسوة القلب وطول الامل والحرص على الدنيا أخرجه البزار (قال) بعض الحكماء الرزق مقسوم والحريص محروم والحسود مغموم والبخيل مذموم وقال الشاعر

لا تحسدن أخا حرص على سعة ... وانظر اليه بعين الماقت القالي
ان الحريص لمشغول بشقوته ... عن السرور بما يحوى من المال

وكان المأمون يعجبه قول أبي العتاهية

تعالى الله يا سلم بن عمرو ... أذل الحرص أعناق الرجال
وقبله نعى نفسى الى من الليالى ... تصرفهن حالا بعد حال
فمالى لست مشغولا بنفسي ... ومالى لا أخاف الموت مالى
لقد أيقنت انى غير باق ... ولكنى أرانى لا أبالى

تعالى الله يا سلم بن عمرو الخ

وبعده

هب الدنيا تساق اليك عفوا ... أليس مصير ذاك الى الزوال
فما ترجو بشىء ليس يبقى ... وشيكا ما تغيره الليالى

قال فلما بلغ سلم الخاسر قول أبي العتاهية قال

ما أقبح التزهيد من واعظ　　يزهد الناس ولا زهد
لو كان في تزهيده صادقا　　أضحى وأمسى بيته المسجد
ان رفض الدنيا فما باله　　يكثر المال و يسترفد
يخاف أن تنفد أرزاقه　　والرزق عند الله لا ينفد
الرزق مقسوم على من ترى　　يسعى له الابيض والاسود

فقد بين ذلك البيت وهو تعالى الله يا سلم بن عمرو الخ نتيجة الحرص وعاقبة البخل فشطره الاول من التهويل المبكت وشطره الاخير من جوامع الكلم المسكت

«مطلب» نوادر البخلاء

وقد تفنن الأدباء وأرباب النوادر في حكاية وقايع للبخلاء اما واقعية أو اختراعية فلنذكر جملة منها لترويح النفوس فنقول مما يحكي انه قيل لبعض البخلاء ما الفرج بعد الشدة فقال أن يحلف على الضيف فيتعذر بالصوم قيل ان رجلا من البخلاء حضر بخصمه الى حاكم فقال ياحاكم المسلمين اشتريت البارحة رأسا فأكلت لحمه وتركت عظمه على بابي لاتجمل به فجاء جاري هذا فنقله الى بابه وتخاصما فسمعه الحاكم وهو يقول له ويحك انت تقعد يوما على باب داري ويوما تقعد في ظل جداري ويوما تقول كيف راح فلان فهل بلغك انني على مطلب قيل وكان العماد الحلي يقول ليس الشجاع عندي عمرو بن معدي كرب ولا عنترة العبسي ولا خالد بن الوليد انما الشجاع الذي يرى طعامه يؤكل بحضرته وهو صابر ويقال ان العماد الحلي المذكور اشترى مملوكا تركيا فحضر اليه يوم سبت بدمشق المحروسة فقال له أريد أن أتفرج مع المماليك فأعطني شيأ فأعطاه فلسا فرماه فغضب العماد وقال ويحك ترمي الفلس وهو النقطة التي في وسط

الدينار فقال له الملوك وكيف ذلك فقال لأرى فى يدك فلسا حتى تصرف درهما ولا ترى فى يدك درهما حتى تصرف دينارا وهذا الفلس الذى رميت به يقضى حاجة ساعة وحاجة يوم وحاجة أسبوع وحاجة شهر وحاجة عام وحاجة الدهر كله فقال له ملوكه وكيف ذلك فقال اما حاجة ساعة فقصمة عقيد أو كوز فقاع وأما حاجة يوم فباقة بقل أو زيت للسراج وأما حاجة أسبوع فقطن للقناديل وأما حاجة شهر فكبريت وأما حاجة عام فلح وأما حاجة الدهر فوتد يدق فى الحائط ليعلق عليه الثياب (قال) عبدالعظيم بن أبى الاصبع نزلت من قلعة الرها يوما وصحبنى اثنان من اصحاب الملك المظفر شهاب الدين لقصد السلام على العماد الحلى بالمدرسة وكان وكيل بيت المال بالرها من قبل الملك العادل قال فلما اجتمعنا به طلبنا الغداء منه فقال نحن بصريون نتحارج على جارى عادتنا ولكن ما احيف عليكم لأنى صاحب البيت انا وحدى من عندى ثلاثة أشياء وأنتم الثلاثة من عند كم شىء واحد أنا من عندى القلام الذى يشترى الحاجة والبيت للجلوس والسفرة التى يؤكل عليها وأنتم الثلاثة من عندكم القضة التى يشترى بها الحاجة فقلت له يا عماد ماشبه هذه المخارجة بمخارجة بعض الخلفاء مع نديم له اجتمع به فى يوم نوروز وعزما على الشرب فقال له نديمه من عندك شىء ومن عندى شىء وقدم الطعام وقال اسمع منى شعرا أذكر فيه ما يكون من عندى وما يكون من عندك وأنشد

منى ومنك غدا يوم نسربه	فى صبحة اليوم ان اليوم نوروز
البيت منك ومنى الكنس أكنسه	والرش منى ومنك الماء والكوز
واللحم منك ومنى النار تطبخه	والاكل منى ومنك الخبز مخبوز
والراح منك وريحان وفاكهة	والشرب منى اذا دارت قوافيز (١)

(١) قوله قوافيز جمع قازوزة وهى مشربة او قدح او الصغير من القوارير اه مؤلفه

هذي مخارجة ماسن سنها   في مثل ذااليوم بهرام وفيروز

وأما قوله نحن بصريون نخارج على جاري عادتنا فاشارة الى بخل أهل البصرة كما تفيده واقعة النضر بن شميل النحوي فانه لما ضاقت معيشته بالبصرة خرج يريد خراسان فشيعه من أهلها نحو من ثلاثة آلاف رجل ما فيهم الا محدث أو نحوي أو عروضي أو اخباري أو لغوي فلما صار بالمربد قال يا أهل البصرة يعز على فراقكم والله لو وجدت كل يوم كيلجة باقلي ما فارقتكم فلم يكن فيهم من يتكلف له بذلك وهذه الواقعة تشبه واقعة القاضي عبدالوهاب البغدادي المالكي فانه لما نبت به بغداد خرج منها طالبا مصر فشيعه من اكابرها وفضلائها جماعة موفورة فقال لهم لما ودعهم لووجدت بين ظهرانيكم كل غداة وعشية رغيفين ما فارقت بغداد ومن شعره فيها

« مطلب » ما قيل في البخلاء من الشعر

بغداد دار لاهل المال طيبة   وللمفاليس دار الضنك والضيق

أقمت فيها مضاعا بين ساكنها   كأنني مصحف في بيت زنديق

وقيل حلف بعض البخلاء على صديق له فاحضر له خبزا وجبنا وقال لا تستقل هذا الجبن فان رطله بثلاثة دراهم فقال ضيفه أنا أجعل الرطل بدرهم ونصف قال وكيف ذلك قال آكل لقمة بجبن ولقمة بغير جبن (وقيل) شوي لبعض البخلاء دجاجة وقدمت اليه فوجد تخذها قد عدم فنادى فى داره من ذا الذي تعاطي فمقر والله لا خبزت فى هذا التنور خبزا مدة شهر فقال له غلامه وكان ذكيا ياسيدي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا فقال ويحك أما قرأت قوله تعالى واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة (وقيل) سمع بعض البخلاء قارئا يقرأ قوله تعالى الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل فقال هنأهم الله (قيل) كان أبو دلف سخيا بالمال بخيلا بالطعام سئل رجل كان

يأكل معه كيف كان طعامه فقال كان على مائدته رغيفان قيل كيف كانت صحافه
قال كأنها خرطت من الخردل قيل فكم بين اللون واللون قال فترة نبي قيل
فمن كان يأكل معه فقال الكرام الكاتبون وأنشد فيه

أبو دلف يضيع ألف ألف　　ويضرب بالحسام على الرغيف
أبو دلف لمطبخه قتار　　ولكن دونه ضرب السيوف

والقتار رائحة القدر * وما قيل من الاشعار فى البخلاء

تقلت على الرئيس أبي علي　　وكنت على قرينته خفيفا
ومالي عنده والله ذنب　　سوي أني كسرت له رغيفا

غيره

رأيت الشيخ أعرض حين جئت　　وكاد يموت لما أن دخلت
فقلت علام تجزع من لقائي　　لك البشرى فاني قد أكلت

غيره

ويعجن للضيف فى مسعط　　دقيق الشعير ولا ينخل
ويستقبل الضيف من فرسخ　　أيا ضيف قل لى متى ترحل

وقال آخر

أتيت عمرا سحرا　　فقال انى صائم
فقلت أني قاعد　　فقال انى قائم
فقلت آتيك غدا　　فقال صومى دائم

وقال الشيخ شمس الدين المزين

سلماني أضافنا　　ليتنا ماله ثمن
بيض الله وجهه　　كلما جاء باللبن

وقال الحمدونى

رأيت أبا زرارة قال يوما　لحاجبه وقد حضر الطعام
حلال الله من أهل ومال　على وكل ما يجرى حرام
لئن فارقت باب الدار شبرا　وعندى منه عرق أو عظام
لأنتصفن منك بكل حق　وأملأ منك سيفى والسلام
فقال له الغلام فان أتانى　أبوك وليس لى فيه مرام
فقال لئن أتى في البيت هر　على خبزى أضارب أو أضام
اذا حضر الطعام فلا حقوق　على لوالدى ولا ذمام
فما فى الارض أقبح من خوان　عليه الخبز يحضره زحام

وقال ابن بسام

أما الرغيف على الخوا　ن فمن حمامات الحرم
ما ان يحس ولا يمس ولا　يذاق ولا يشم

وقال الحمدونى

أبو نوح دخلت عليه يوما　فغدانى برائحة الطعام
وجاء بلحم لا شىء سمين　وقدمه على طبق الكلام
فكان كمن سقى الظمآن آلا　وكنت كمن تغدى فى المنام

فالمسك عن الانفاق حرصا على الدنيا وخشية من الاملاق ضعيف الايمان قليل الوثوق بالرزق الذى ضمنه لعباده الملك الرزاق حيث قال نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا مع ان الرزق يتيسر بالصدقات وفعل الخيرات فهى من جملة أسبابه فقد قال عليه الصلاة والسلام استنزلوا الرزق بالصدقة وقال جعفر بن محمد انى لأملق فأتاجر الله بالصدقة فأربح (وقيل)

لعلي رضي الله عنه كيف يحاسب الله العباد على كثرتهم قال كما قسم فيهم أرزاقهم
وقال الامام مالك سمعت أهل مكة يقولون مامن أهل بيت فيهم اسم محمد
الا رزقوا ورزق خيرا وقال بعض الحكماء ليس كل طالب للدنيا مذموما بل
المذموم من طلبها لنفسه فمن طلب الدنيا للدنيا كان مذموما ومن طلب الدنيا
لاصلاح معاشه ومعاده كان ممدوحا

« مطلب » الرزق

وعلى هذا تحمل أحوال الصحابة رضي الله عنهم فكل مادخلوا فيه من
أسباب الدنيا فهم بذلك الي الله متقربون وفي رضاه متسببون لا يقصدون
بذلك زخرف الدنيا وزينتها ولاذوق حلاوتها ولذتها ولذلك وصفهم الحق
سبحانه وتعالي بقوله محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم
تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا وما ظنك بقوم اختارهم الله

« مطلب » طالب الدنيا للعرض

تعالى لصحبة رسوله صلى الله عليه وسلم ولمواجهة خطابه في تنزيله فما أحد من
المؤمنين الي يوم القيامة الا وللصحابة في عنقه منن لاتحصى وأياد لاتستقصى
لانهم هم الذين حملوا الينا عنه صلى الله عليه وسلم الحكم والاحكام وبينوا
الحلال والحرام وفهمو الخاص والعام وفتحوا الاقاليم والبلاد وقهروا أهل
الشرك والعناد وقال صلى الله عليه وسلم فيهم أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم
اهتديتم وقد وصفهم الله تعالى بأوصاف الى أن قال يبتغون فضلا من الله ورضوانا
فدل ذلك على أن ما ابتغوه من الدنيا لم يقصدوا به الا وجه الله الكريم وقال
سبحانه وتعالى في آية أخرى في بيوت اذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه
يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله
فلم ينف عنهم الاسباب ولا التجارة ولا البيع ولا الشراء فلا يخرجهم عن
المدحة مغنام اذا قاموا بحقوق مولاهم

قال عبد الله بن عتبة كان لعثمان رضى الله عنه يوم قتل مائة ألف وخمسون دينار وألف ألف درهم وترك ألف فرس وألف مملوك وخلف من ضياعه بئر أريس وخيبر ووادى القرى ما قيمته مائتا ألف دينار وبلغ مال الزبير بن العوام خمسين ألف دينار وترك ألف فرس وألف مملوك وغنى عبد الرحمن بن عوف أشهر من أن يذكر وكانت الدنيا فى أكفهم لا فى قلوبهم صبروا عنها حين فقدت وشكروا الله تعالى حين وجدت ابتلاهم الله سبحانه وتعالى بالفاقة فى أول أمرهم حتى تكملت أنوارهم وتطهرت أسرارهم فبذلها لهم حينئذ لانهم لو أعطوها قبل ذلك فلعلها كانت تأخذ بمجامع قلوبهم فلما أعطوها بعد التمكين والرسوخ فى اليقين تصرفوا فيها تصرف الخازن الامين وامتثلوا فيها قول رب العالمين وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فكانت الدنيا فى أيدى الصحابة لا فى قلوبهم

ويكفيك فى ذلك خروج عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه عن نصف ماله وخروج أبى بكر عن ماله كله وخروج عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه عن سبعمائة بعير موقورة الاحمال وتجهيز عثمان بن عفان رضى الله عنه جيش العسرة الى غير ذلك من أفعالهم فتضمنت الآية التزكية لظواهرهم وسرائرهم ولا شك أن الصحابة الأكرمين والسلف الصالح صاروا قدوة لغيرهم فبهذا المعنى سنوا سننا فكان لهم أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة ولا شك أنها من الصدقات الجارية وداخلة أيضا فى العلم الذى ينتفع به الآتى فى الفضيلة الثانية وأما ما صنعه الخلفاء من الصدقات فهو أكثر من أن يحصر ولو لم يكن الا ما فعلته أم جعفر زبيدة بنت جعفر زوجة الرشيد من الخيرات لكان كافيا فى الدلالة على همة الخلفاء فى فعل المعروف فقصتها

* مطلب * ما ورد عن الصحابة فى الصدقات

* مطلب * الصدقة التى تصادف محلها

فى حجها وما اعتمدته فى طريقها مشهورة أو ليس أنها سقت أهل مكة الماء بعد أن كانت الراوية عندهم بدينار وأنها أسالت الماءعشرة أميال بحط الجبال ونحت الصخر حتى غلغلته من الحل الى الحرم وعملت عقبة البستان فقال لها وكيلها يلزمك نفقة كثيرة فقالت اعملها ولوكانت ضربة فاس بدينار

ثم ان فضل الصدقة يكون فى البلاد المتمدنة للمحتاج اليها من الفقراء العاجزين والمتقاعدين والارامل وأهل الضرورات من أهل الديار أو من غريب الاقطار ومن المعلوم أن دين الاسلام الذى شرع لسعادة الامة هو وسيلة التمدن العظمى فأول ما فتح الله سبحانه وتعالى مصر فى عهد أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان أول من رتب وأرصد من بيت مال المسلمين على الخيرات والعلماء والمجاهدين وأولادهم وعيالهم وأهل الضرورات ما لزم من الارصادات وما زالت هذه الارصادات الشرعية مستمرة فى جميع الدول والقرون ولله فى شريعته أسرار لا يعقلها الا العالمون وتبع أمير المؤمنين رضى الله تعالى عنه على زيادة هذه الارصادات واجراء حقوقها من جاء بعده من الخلفاء والسلاطين فكانت سنة حسنة متبعة الى وقت تولية السلطان نور الدين الشهيد فأحدث هذا السلطان مرتبات وعلوفات وأنشأ أوقافا كثيرة من بيت المال على جهات خير من مساجد ومارستانات أعانت المستحقين على وصول حقهم اليهم من بيت المال بسهولة فقيل للسلطان نور الدين الشهيد ان فى بيت المال مرتبات كثيرة مصروفة للفقراء والضعفاء والقراء فلو استعنت بها فى الجهاد ومنعتها عن هؤلاء وصرفتها للاجناد لكان أمثل فغضب رحمه الله تعالى وقال انى لا أرجوا النصر بأولئك القوم قال صلى الله عليه وسلم وهل تنصرون وترزقون الا بضعفائكم كيف أقطع خيرات

« مطلب » خيرات نور الدين الشهيد ومن اقتفى أثره

قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي وأصرفها الى قوم لا يقاتلون عني الا اذا رأوني بسهام قد تخطي وتصيب وهؤلاء لهم نصيب في بيت المال كيف أقطعه عنهم ولا أصرفه لهم ثم تبعه على ذلك السلطان صلاح الدين يوسف فأرصد كثيرا من بيت المال للمستحقين والارامل وأرباب الانساب من البكرية والعمرية وغيرهم وتبعه الملك الكامل من بني أيوب فانه لما ملك مصر أرسل وزيره ليكشف له على أموال مصر وخراجها فأرسل الوزير يخبره في رقعة ان المرتبات من بيت المال للعلماء والفقراء في كل سنة مائتان وسبعون ألف دينار وانه يحصل بذلك خلل في الخزائن السلطانية ونقص من الاموال فكتب الملك الكامل تحت ذلك بخطه الفاقة مرة المذاق والمال مال الله الرحيم الرزاق والخلق عيال الله وهو الواحد الخلاق ما عندكم ينفد وما عند الله باق أجروا الناس على عوائدهم في الاستحقاق فانا لا نحب أن ينسب الينا الاثم والى غيرنا الاطلاق والا ثار الحسنة من مكارم الاخلاق واليكم هذا الحديث يساق وقال صلى الله عليه وسلم من تسبب في قطع رزق أخيه المسلم قطع الله رزقه

* مطلب * اقرار السلطان سليم خان المرتبات تجرى على حالها

فلما تولى السلطان الظاهر برقوق الديار المصرية أراد أن يبطل المرتبات والعلوفات التي احدثها ملوك الاكراد قبله من بيت المال وعقد لذلك مجلسا حافلا وقال ان أصول هذه المرتبات قد أخذت من بيت المال بالحيلة وقد استغرقت نصف أموال بيت المال وأراد ابطال ذلك فأقنعه علماء عصره ومنهم شيخ الشيوخ اكمل الدين شارح الهداية مفتي السادة الحنفية وعلامة عصره الشيخ البلقيني شيخ السادة الشافعية وغيرهما من العلماء وقالوا جميع ما أرصد وقف على مستحق بيت المال ومصارفه فلا سبيل لولى الامر على نقضه وانقضى

المجلس على ذلك وقد أفتى بذلك أيضا سلطان العلماء العز بن عبد السلام وغيره من علماء الاعلام ولم تزل الملوك العادلون يقتفون أثر من قبلهم فى ذلك ويسلكون فى ترتيب الخيرات واجراء الصدقات الجارية أقوم المسالك الى أن تولى الملك المظفر السلطان سليم خان ونظم مصر فى سلك دولة بنى عثمان فأبقى جميع ما بمصر من المرتبات والمرتبات على ما كان عليه ولما وشى اليه بعض أمرائه بأن تلك المرتبات قد استغرقت كثيرا من الاموال وطلب منه رفعها لاقتضاء الاحوال قابله بالمنع والطرد ورد عليه أشنع الرد وقال تلك صدقات من قبلنا فلا نحب ان يكون قطعها من قبلنا ولما تولى بعده ولده السلطان سليمان خان تغمده الله بالرحمة والرضوان سعى اليه بعض أهل الحدثان وذكروا له ان هذه المرتبات الآيلة للاولاد والعيال والخيرات لم تصادف من الشرع محلا وانها باطلة فرعا وأصلا فأرسل خطا شريفا بابطال ذلك فراجعه علماء عصره وزمانه وترجوا عظيم عطفه واحسانه وذكروا له ان ما رتب وأرصد على تلك الخيرات وعلى الارامل وعيال المقاتلة وأولادهم والعلماء لا سبيل الى نقضه شرعا لصدوره عن نواب السلطنة مع موافقته المصالح الشرعية وذكروا له احسان والده على الاقطار المصرية فأبقى ما كان على ما كان وزاد من لطفه فوق ذلك الاحسان وأصدر فرمانه الشريف وخطه الهمايونى المنيف بابقاء المرتبات على ماهي عليه اغتناما للثواب واحرازا للدعوات الصالحات التي ليس دونها حجاب

« مطلب »
تنظيم الصدقات الجارية باسلوب جديد فى ايام المرحوم محمد على واقتفاء خلفه أثره

ولم تزل هذه الارزاق على مستحقيها دارة وبها عيون العواجز والارامل وأهل العلم والقرآن قارة الى ان حصلت التقلبات والفتن وتصاريف الدهر بالمحن وتغلب الفرنساوية على الديار المصريه بعد عسف وجور دولة المماليك وسوء تدبيرهم فى الرعية ثم أزيحت اشكال هذه البلية وانتج الانتاج الصحيح

نظم مقدمات القضية باستيلاء المرحوم محمد على على المملكة اليوسفية فكان من أعظم الاعوان والانصار لمصر فى رفع التكاليف الشاقة ودفع معرة الآصار فقصد اعادة فضيلة مصر على سائر الامصار مما لم يسبق لها مثله فى سائر الاعصار وقد وجد فى ارصاد هذه المرتبات شذوذا فى أساليب التراتيب فرد ترتيبها الي نظام جيد عجيب وزاد فى هذه الخيرات أضعافا مضاعفة وأجري مادرج عليه ملوك الاسلام من الطرائق الشرعية والمتعارفة وما أسسه من صنائع الخير والبرات يكاد أن يكون خصوصية جعلها الله له من أعظم الكرامات واقتدي به فى ذلك خلفه الصالح فجددوا لعمل الخير فى مصر صالح الصالح وفى مشهور الحكم أسعد الملوك ملك له وزير اذا نسى ذكره واذا ذكر أعانه ونسأل الله تعالى ان يديم العز والنصر لمن يريد الخير العميم لمصر

مطلب استحسان اعانة اهل اليسار لولي الامر على عمل الخير لتكثير المحال الخيرية

وممايبنغي اعانة ولي الامر على مضاعفة المحال الخيرية من أرباب جمعيات الأغنياء واهل الميسرة لتكثير وسائل البر والتقوى كتكثير المارستانات التي ترصد على المرضى والزمنى العاجزين عن المعالجة فى بيوتهم وكترتيب مارستانات ترصد على الاطفال الذين يلتقطونهم من الطرق والايتام وعلى الشيوخ المتقدمين فى السن والعميان والبله والمجانين وأرباب العاهات العاجزين وكالمحال الخيريه والشركات السلمية اي المتعلقة بالبيع والشراء على سبيل السلم لتسهيل الاخذ والعطاء وقطع دابر الربا ولاغاثة الملهوفين من القرض بربا الفضل ولاعانة المعسرين والمفلسين من التجار المتعطلين عن الاشغال لحصول حادثة جبرية أوجبت الكساد وسوء الحال وبالجملة فارصاد التكايا والمدارس والرباطات والشركات المباحة شرعا وكل مافيه مصلحة هي مشروعات خيرية لا يستطيع ان تقوم بها الدولة وحدها أو انسان مخصوص وحده ويد الله مع الجماعة فلابد فى ابراز هذه

المصالح الخيرية من جمعية أغنياء ترصد عليها الارصادات وترتب لها الرواتب اللازمة الدائمة الاستقلال فهذه صدقات جارية من جهة شركات تعاونية يقتسمون أجرها ويحرزون شكرها فجمعيات فعل الخير بالاشتراك قليلة في بلادنا بخلاف التصدقات الشخصية والارصادات الاهلية يرصدها الواحد في الغالب كالسبيل والصهريج والمكتب فان هذا تجدد بعصر كبير اولا يتأسس له ما به يكون الدوام والاستمرار ومن العجيب انه يسهل على النفوس احداث الجديد ويصعب عليها اصلاح القديم المحتاج للاصلاح والتعمير ومع ذلك فالمصر لا يستغني عن الخيرات العمومية التي تقتضيها الاوقات والاحوال كارصاد مكاتب لتعليم البنات لاسيما مكتبا لتعليم فاقدات البصر منهن وحتى أن من يفوز بارصاد هذه المكاتب للنساء يكون من الخواتين الغنيات اللاتي يوفقن في العادة أوقافا عظيمة دون ماذكر في الأهمية ومن الثابت ان زبيدة زوجة الرشيد فعلت كثيرا من الخيرات وكان لها مائة جارية يحفظن القرآن وكل واحدة وردعشر القرآن وكان يسمع في قصرها كدوي النحل من قراءة القرآن مع ما أحدثته من الخيرات العديدة وحسبها العين الجارية بالحجاز المساة عين زبيدة فليت جميع الخواتين والهوانم يقتدين بها في احياء المآثر واسداء المكارم

وكذلك عطاء الامراء فانهم أولى بالارصادات العظيمة التي تليق بمقامهم فباليتهم يقتدون في ذلك بحضرة الامير راتب باشا الشهير ناظر عموم الاوقاف سابقا حيث بنى رواقا واسعا متصلا بالجامع الازهر موقفا على طلبة العلم من الحنفية وعلى مدرسي هذا المذهب وأجرل فيه من الخيرات الوفية لتكثير اهل المذهب فرواقه الآن بالازهر علم منيف وطراز مذهب بل عمت خيرات الباشا المشار اليه المتواصلة حتى اقتضت احياء مذهب السادة

الحنابلة فقد رتب لرواتبهم جرايات للشيخ والطلبة وحضروا من الشام لاحياء هذا المذهب وكان المشار اليه للخير العظيم سببه فهذا هو فصل الخير المبنى على الاخلاص في البر والاحد ان من أمير خطير هو خلاصة اشراف معد وعدنان فما أحسن هذا الصنيع من الامير صاحب المقام الرفيع الذي وضع الندى فى موضعه وما أوضع الحريص المضيع لماله لشرهه وطمعه

ومما ينظم في سلك التعاون على البر والتقوي ومراعاة وجه الله الكريم فى التمسك بالسبب الأقوى ما صنعه حضرة خليل اغا باش أغاوات حضرة ذات الدولة والعصمة والدة الجناب الخديوى ولى النعمة حيث انشأ بجانب المشهد الحسينى مدرسة لعدد كثير من الايتام المنقطعين وأوقف عليهما بقوم باجراء عوائدها وتبرع لها بما لم يسبقه به أحد من المتبرعين فخصص رأس مال جسيم لدوام هذه المدرسة ونشر علومها وأسس أصولا مستحسنة لحسن ادارتها وتنظيمها وانشأ أيضا تكية للأغوات المدعي الاكتساب ولم يسبق في ذلك وخصه الله بالهام هذا الصواب وهذا مما يخلد ذكره ويضاعف ثوابه وأجره وقد قال صلى الله عليه وسلم لا يزيد في العمر الا البر ولا يرد القدر الا الدعاء

« مطلب » الدين

وهذا كله اتفاق ممدوح وعلامة القبول عليه تلوح بخلاف اتفاق من يحمل نفسه ولو فى الضيق فوق ما تطيق فيعلوه الدين الذى لا يعرف له جهة وفاء فيدخل نفسه فى ربقة الضيق ويعدم الحميم والصديق فتسوء أخلاقه ولا ينفعه تصدقه وانفاقه قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيت ان قتلت فى سبيل الله مقبلا غير مدبر أ يكفر الله عنى خطاياى قال نعم الا الدين بذلك اخبرنى جبريل وعنه عليه الصلاة والسلام انه قال صاحب الدين محبوس عن

الجنة بدينه - طلب رجل حكيم من رجل أن يدينه دينا فلم يفعل فقال الحمد لله لم يكن من منعك الا ان وجهي احمر من الحياء مرة واحدة ولو أعطيتني لم يصفر وجهي من مطليتك مرة بل ألف مرة قال تعالى وعسى ان تكرهوا شيأ وهو خير لكم وعلى لسان العامة لاهم الاهم الدين ولا وجع الا وجع العين وهذا كله محمول على الدين الذي ينفق في غير الرشد أو يترتب عليه المطل وعدم الوفاء والا لما كان القرض مشروعا (وقال) جعفر بن محمد المستدين تأجر الله في أرضه * وقال عمر بن عبد العزيز الدين وقر طالما حمله الكرام (وقال) عمرو بن العاص من كثر صديقه كثر دينه وقال بعضهم الدين رق فلينظر احدكم اين يضع رقه وكان ابن الزبير رضي الله عنه ينشد

الا ليت النهار يعود ليلا فان الصبح يأتي بالهموم
حوائج ما نطيق لها قضاء ولا دفعا وروعات الغريم

وذلك لان الدين هم بالليل وذل بالنهار فالعجب كل العجب ممن يتطوع بالخير ويتصدق بأموال الناس ويخلط العمل الصالح بالسيء ويظن أنه من العمل الحسن مع انه بمعزل عن الحزم والاستقامة معتمدا على قضاء دينه الذي استدانه بدون باعث شرعي ولا مقتض سياسي ومعولا على سوف وعسى ولعل فهذا هو المديان الذي يتراكم عليه الدين ودين الدين لا الى نهاية ولا الى أجل بل ربما لا يقضي وان انقضى الاجل فصدقة من هو بهذه المثابة لن تقع موقع الاصابة فليست موضع الصدقة الجارية المذكورة في حديث اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث صدقة جارية الحديث وانما موضوعها أرباب الغنى واليسار انفرادا واجتماعا انفصالا واشتراكا ومن المعلوم ان مكارم الاخلاق

ممدوحة عند جميع الدول والملل لاعانة المحتاجين لا لاهل البطالة والكسل

ولهذا لما تغلبت الترنساوية على الديار المصرية لحوا أن بها كثيرا من الكسالى القادرين على الاشغال الذين يؤثرون السؤال على الاعمال ويلحون فى الطلب فحق حاكمهم من ذلك ونشر قانونا مشتملا على خمسة بنود

البند الاول جميع الناس الذين يسألون الناس فى الطريق ويطلبون الحسنة منهم يصير القبض عليهم وحضورهم امام ضابط مصر ثم يتوجهون الى سجن القلعة مالم يكونوا من اصحاب العاهات كالعميان والعرجان والعاجزين عن الاشتغال

* مطلب * قانون الشحاذة

البند الثانى كل ملة من الاسلام والنصارى من أروام وقبط وشوام ومن اليهود أيضا تعمل من الآن فصاعدا حانوتا لقبول كافة العميان والعرجان والشحاذين العاجزين عن الشغل يكون معدا لهم

البند الثالث كل رئيس ملة يلزم بلوازم حانوته وكافة مصاريف الحانوت من نفقة الاكل والشرب وخلافه تتفرد على اهالى الملة المذكورة

البند الرابع فى مدة تدبير الحوانيت وترتيبها يأمر كل كبير ملة بجمع كافة فقراء ملته ومرضيهم ويعطيهم لوازم الاكل والشرب والسكنى الى حد انتهاء تدبير الحوانيت المذكوره واستكمالها

البند الخامس يجب على كبير كل ملة أن يتبصر فى أمر تدبير الحانوت لملته ويأخذ الامر اللازم لذلك من شيخ البلد ويسى فى اتمامه فهذه التدابير فى حد ذاتها خيرية ولكن الحكومة المصرية الحالية قد كفت أهل الحاجة والمسكنة مؤنة السؤال ورتبت للجميع فى جامع طيلون اسبتالية جسيمة منقسمة الى بلوكات للفقراء والمساكين وأرباب العاهات من نساء ورجال وكبار

وأطفال يحفظن مجارى الصدقات الوطنية حيث ناهت قديم المرتبات الفلاوونية فتلك هذه من الصدقات الجارية المذكورة فى حديث اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث الحديث

والفضيلة الثانية تؤخذ من قوله صلى الله عليه وسلم أو علم ينتفع به أي علم علمه الانسان لغيره فصار نافعا والعلم النافع مرادف للحكمة المفسرة به فهو مايوصل الى الصفات العلية والمناقب السنية ويثمر الثمرات الدنيوية والأخروية ويدعو الى المكرمة وينهى عن القبيح وهو المراد بقوله تعالى ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا حيث فسر العلماء الحكمة بتفاسير كثيرة ترجع الى العلم النافع والافعال الحسنة الصائبة فالعلم بهذا المعنى يشمل العلوم النظرية والعملية يعنى معرفة الحقائق والاقدام عليها بالعلم فجميع العلوم النافعة عقلية ونقلية نظرية وعملية داخلة بهذا المعنى تحت قوله صلى الله عليه وسلم أو علم ينتفع به

• مطلب • العلم النافع

ثم ان العلم أشرف مارغب فيه الراغب وأفضل ما طلبه وجد فيه الطالب وأنفع ما اكتسبه واقتناه الكاسب

اذا رمت تسمو لنيل العلا وقدرك بالله عال وغالى
فبالعلم فاسم لها محرزا فما مثله لطلاب المعالى

لان شرفه ينم على صاحبه وفضله ينمى عند طالبه قال تعالى هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون فنفى المساواة بين العالم والجاهل لما خص به العالم من فضيلة العلم وأنشد الرشيد عن المهدى

يانفس خوضى بحار العلم أو غوصى فالناس مابين معموم ومخصوص
لا شئ فى هذه الدنيا يحاط به الا احاطة منقوص بمنقوص

وقال على كرم الله وجهه قيمة كل امرىء ما يحسن فقيل فى هذا المعنى

لا يكون العلي مثل الدنى　　لا ولا ذو الذكاء مثل الغبى
قيمة المرء قدر ما يحسن المر　　ء قضاء من الامام على

واعلم ان كل العلوم شريفة ولكل علم منها فضيلة والاحاطة بجميعها أمر محال (قيل) لبعض الحكماء من يعرف كل العلوم فقال كل الناس وحسبك قوله تعالى وما أوتيتم من العلم الا قليلا * قال بعض الحكماء المتعمق فى العلم كالسابح فى البحر ليس يرى أرضا ولا يعرف طولا ولا عرضا

قل للذين قضوا فى العلم عمرهم　　ثم اطمأنوا وظنوا أنهم فرغوا
العلم أعظم مما تزعمون فكم　　قد بالغ الناس فى هذا وما بلغوا

واذا لم يكن فى معرفة جميع العلوم سبيل وجب صرف الاهتمام الى معرفة أهمها والعناية بأولاها وأفضلها وأولى العلوم وأفضل العلوم الشرعية التى بمعرفتها جميع الناس يرشدون وبجهلها يضلون ولا يهتدون فهى كما قال صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم وقال صلى الله عليه وسلم خيار أمتي علماؤها وخير علمائها فقهاؤها * وروي عن أنس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال التفقه فى الدين حق على كل مسلم الا فتعلموا وعلموا وتفقهوا ولا تموتوا جهالا انتهى

وربما مال بعض المتهاونين بالدين الى العلوم العقلية ورأى أنها أحق بالفضيلة وأولى بالتقدمة استثقالا لما تضمنه الدين من التكليف واستصعابا لما جاء به الشرع الشريف من التعبد والتوقيف ولكن قل ان ترى ذلك فيمن سلمت فطنته وصحت رويته لان العقل يمنع من ان يكون الناس همﻻ او سدى يعتمدون على آرائهم المختلفة وينقادون لأهوائهم المتشعبة لما تؤل اليه أمورهم

من الاختلاف والتنازع وتفضي اليه احوالهم من التباين والتقاطع فلم يستغنوا عن شريعة يألفون اليها ويتفقون عليها ❊ ونقل القطب الشعراني عن شيخه سيدي علي الخواص انه قال أحب لاخوانا من طلبة العلم ان لا يتحكموا على علم الله القديم بظاهر أدلتهم واقاويلهم وان لا يعطلوا أنفسهم من العمل ويقولون حتى نفرغ من التعلم ثم نعمل وان لا يستغرقوا عمرهم في زوائد العلوم التي لا يحتاج اليها الا في النادر وان لا يتركوا عمل الحرفة التي يكونون بها قوام معاشهم خوفا عليهم ان يأكلوا بدينهم وعلمهم أو يتعرضوا لصدقات الناس وأوساخهم فان الاكل بذلك يطمس أفهامهم بخلاف أكل الحلال فان له مدخلا في فهم دقائق العلوم ولذلك فاق النووي أقرانه مع قصر عمره وصار ترجيح المذهب راجعا اليه لانه كان لا يأكل الا من الحلال أنتهى (وقال) بعضهم ارزاق الفقهاء من صدقة أموال الظلمة مكدرة بشروط الواقفين منغصة بمن النظار من باشرها أكلها صدقة ومن لم يباشرها أكلها حراما وبالجملة فان الاكل من صدقات الناس وولائمهم يقسي القلب ويسد الفهم وهو ضد الورع فالعلماء للشريعة هم الزمام وبانتظام احوالهم يكمل الانتظام فاذا تكسبوا من الحلال بصنعة استغنوا عن الشبهة المتوسطة بين الحرام والحلال واكتفوا شر السؤال كما قيل

« مطلب » تعداد فضائل العلوم الشرعيه وآلاتها

ان حزت علما فاتخذ حرفة   تصون ماء الوجه لا يبذل
ولا تهنه أن يرى سائلا   فشأن أهل العلم أن يسئلوا

ويتعلق بالشريعة الغراء عدة علوم بين الشافعي رضي الله تعالى عنه فضيلة كل علم منها فقال من تعلم القرآن عظمت قيمته ومن تعلم الفقه نبل مقداره ومن كتب الحديث قويت حجته ومن تعلم الحساب جزل رأيه ومن تعلم

العربية رق طبعه انتهى فقد جمع فى ذلك العلوم الشرعية النقلية وأدواتها وهى علوم العربية والرياضية التى عبرعنها بالحساب (قل) بعضهم وأما العلوم العقلية فترجع الى أربعة علوم فعلم له أصل وفرع وعلم له أصل ولا فرع له وعلم له فرع ولا أصل له وعلم لا أصل له ولا فرع * فاما الذى له أصل وفرع فهو الحساب والعلوم الرياضية ليس بين أحد من الخلق فيها اختلاف

مطلب الحساب

فالحساب مستنبط من حروف المعجم وهو فى حد ذاته أصل من أصول العلوم النافعة لانه كما قال ابن حجاج به يعلم عدد الصلوات والزكوات والصيام والشهور والسنين وتحدث السنون من الشهور والشهور من الجمعات والجمعات من الايام والايام من الساعات والساعات من الدرج والدرج من الدقائق والدقائق من الشمائر والشمائر من الانفاس وتنتهى قسمة الانفاس الى أجزاء لا يعلمها الا الله تعالى ومنشأ هذه الازمنة من دوران الفلك ويستدل على ذلك بسير الكواكب والشمس والقمر فنشأ بين ذلك كله الازمنة والاوقات التى يستدل بها على معالم الدين من أوقات الصلوات والصيام والحج وحين الزكاة ومدد عدد النساء ومحل الآجال ويقيد ذلك كله بالحساب والعدد حتى لا يشذ شىء مما يحتاج علمه بالتاريخ المصطلح عليه وقد عدد الله تعالى نعمه علينا بذلك فى قوله هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق وقد أخذت العرب حسابهم من أبجد فوجدوه ينتهى من واحد الى ألف لا زيادة ولا نقصان أولها الالف الذى هو واحد وآخرها الغين الذى هو ألف ولكن تعبدت الامة المحمدية برؤية الهلال عند الصوم وعند الافطار لا بالحساب الذى يقوله الحساب والمنجمون من ان الهلال لم يظهر لانه كان فى حجاب

الشمس أو في السرار مما لم نتعبد به بل أحالنا الشرع على الرؤية التي يستوي فيها الناس فقال صلى الله عليه وسلم صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته فان غم عليكم فاقدروا له أي اكملوا عدة شعبان فهذه منافع الحساب في العبادات والعادات ومنافعه في المعاملات والعقليات وفي كل شيء ولا تحصى ولا تحصر فهوا أصل له فروع كثيرة * والعلم الذي له أصل ولا فرع له فهو علم النجوم فالنجوم لها حقيقة وأثر ظاهري في العالم كالفصول والاوقات ونحو ذلك ولا يتفرع عنها شيء وأما العلم الذي له فرع ولا أصل له فالطب فانه مبني على التجارب الى يوم القيامة يعني أن أصله من نفسه فهو يتجدد بفروعه التجريبية وهذا لا يمنع من كونه ينقسم الى عدة أقسام اتسعت أيضا فروعها بالتجارب حتى صارت علوما وتعددت موضوعاتها بالنسبة لأجزاء بدن الانسان على تعددها فالموضوع الكلي للطب المبحوث عنه فيه هو بدن الانسان صحة واعتلالا ثم تعدد الموضوع كطب العين والاذن والانف وهكذا كالتشريح وتشخيص الامراض وكل هذا هو عين التجربة التي هي دائما آخذة في التجدد الى ما شاء الله * وأما العلم الذي لا أصل له ولا فرع فهو العلوم السوفسطائية والمغالطات والجدليات التي هي عبارة عن الفلسفة الفاسدة الهادمة لاصول الاديان لا الفلسفة الصحيحة المرادفة للحكمة وأما العلوم الشرعية فهي وآلاتها أول العلم النافع

« مطلب » تقسيم العلوم

وقد اعتني العلماء بالتآليف فيها لا سيما العلوم الثمانية وهي علم التفسير ويلحق به علم القراآت والتجويد ثم علم الحديث دراية ورواية ثم علم الفقه ثم علم أصول الدين ثم علم النحو ومنه الصرف ثم علم المعاني والبيان ويلحق بهما البديع والعروض ثم علم التصوف وكل هذه علوم نافعة ثم يليها الفنون

والصناعات وهي أيضا علوم وعمليات من درجات أخرى متفاوتة لا تتم العلوم الشرعية الا بها وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب فان الفنون والصنائع عليها مدار انتظام الممالك وتحسين الحالة المعاشية للأمم والا فما هي من فروض الكفايات أو ليس ان من الفنون صناعة الخط الذى له فضل وشرف ومنفعة لا يجهلها من عرف وبه تقييد العلوم وتثبت وترسخ في الصدور فتنبت وقد قال الله سبحانه وتعالى في كتابه المحكم اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم وقال عليه الصلاة والسلام قيدوا العلم بالكتابة

ولما لم يكن عند اكثر العرب كتابة في الجاهلية وكانت اذ ذاك امة أمية جعل لها الشعر عوضا فادركت به مراما وعرضا أغنتهم عن الكتابة ومقامها فابدت بمحفوظ الشعر كلامها وعرفت به انسابها وأيامها فكان أول من دخل في بلاد العرب الكتابة العربية هو سيدنا اسماعيل فاختص بهذه الفضيلة الاولية وأول من أدخل الكتاب العربي أرض الحجاز هو حرب ابن أمية أوسفيان بن أمية فتشبثوا بالحقيقة وساعدتهم على المجاز يعنى فازوا بالصناعتين واتسعت تجارتهم بالبضاعتين وقس على منفعة الخط في البلاد المنظمة غيره من الفنون والصناعات التي اكسبت جميع البلاد المجد والعظمة مما يفيد المال الصالح للرجل الصالح فانه لا تصلح الاعمال الا بالاموال من الحلال والاموال لا تكون الا بالكسب من وجه من وجوه الصنائع المعاشية لتعين على المادية فلا أحسن ممن يكسب المال من حله ويصرفه في محله ويكف به وجهه عن الناس فالفنون التي هى وسائل ذلك ليس عنها مندوحة وهي في الشرع ممدوحة فلا مانع من دخولها تحت قوله صلى الله عليه وسلم أو علم ينتفع به أى نفعا متصلا دائم الثواب بالحديث الشريف

(مطلب فضل الكتابة)

في قوله أو علم ينتفع به شامل لمعلم المعارف النافعة سواء كانت علوما أو فنونا أو صناعات أو آلات فانها لا تخلو عن مدارك علمية وشامل أيضا لاجتهاد المجتهدين ووضع الواضعين وتدوين المدونين والتصنيف والتدريس وغير ذلك فالعمدة على العمل الذي ينشأ عنه معلومات نافعة لاهل الملة والوطن وللناس أجمعين ويدل على ذلك ما ورد في رواية أخرى اذا مات ابن آدم ختم على عمله الا عشر فذكر هذه الثلاثة وزاد غرس النخل ووراثة المصحف والرباط في الثغر وحفر البئر واجراء النهر وبناء بيت للغريب وبناء مسجدلله تعالى وتعليم القرآن فهذا يفيد أن الصدقة الجارية يدخل فيها جميع ما ذكر كا لبناء اولا وتعليم القرآن ووراثة المصحف يدخلان في العلم المنتفع به وان الثلاثة المذكورة ليست حاصرة فلا مانع ان يقاس على التعليم كتابة الكتب وطبعها ممن يأمر بذلك او يباشره أو يعين عليه أو من يدل عليه حيث كان الدال على الخير كفاعله

فكل من سن سنة حسنة دائمة النفع فهي داخلة في العلم النافع يدل على ذلك ماورد عنه عليه الصلاة والسلام في قوله من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة فالمؤمن الفارس غرسا حسيا أومعنويا يحصد ثمره ثمرا حلوا حسيا أومعنويا فغرسه لا يثمر شوكا مادام ملازم الاخلاص فمقاصد النفع العمومي يشاب ثواب الخواص فحصر الامام السيوطي للمستثنيات من انقطاع العمل فيما هو مذكور في النظم الآتي وهو

اذا مات ابن آدم جاء يجري ... عليه الاجر عد ثلاث عشر
علوم بثها ودعاء نجل ... وغرس النخل والصدقات تجري
وبيت للغريب بناه يأوي ... اليه أو بناء محل ذكر

وراثة مصحف ورباط ثغر   وحفر البئر أو اجراء نهر
وتعليم لقرآن كريم   شهيد فى القتال لاجل بر
كذا من سن صالحة ليقضى   نخذها من أحاديث بشعر

والكل فى الحقيقة ترجع الى الثلاث وتزيد بالنظر لفروعها التي لاتحصر فالعدد لامفهوم له

« مطلب » الاجتهاد في تحصيل العلم ومدحه

وما أحسن قول الزمخشري وقول من خمسة ابياته

قطع الجهول زمانه بتغزل   ان الجهول عن الكمال بمعزل
انا لا اميل الى كلام العذل   سهرى لتنقيح العلوم ألذلى
من وصل غانية وطيب عناق
ان كنت جئت لدى المدابقيصة   فهى الكمال وذالك عن خصيصة
طلبي لعالية ببذل رخيصة   وتمايلي طربا لحل عويصة
في الذهن أبلغ من مدامة ساقى
سم الجهالة زال من ترياقها   وهي العلوم بمقتضي اشراقها
حررتها بالطرس باستحقاقها   وصرير أقلامى على أوراقها
أشهى من الدوكاء والعشاق
فانهض لتحصيل العلوم ووفها   حقا بأشرف حالة وأعفها
ان كففت عن السوى بأكفها   وألذ من نقر القيان لدفها
نقرى لألقى الرمل عن اوراقى
تعلو على اوج المعالى همتى   فى نيل مقصودى وقرب أحبتى
وانا الذي عزمى كسيف مصلت   يامن يبالغ بالامانى رتبتي
كم بين مستفل وآخر راقى

اصبحت موصوف العلامنورته — لا أختشى من جانب تفويته
يا قاصرا فيما يحاول صيته — أأبيت سهران الدجى وبتيته
نوما وتبغى بعد ذاك لحاقى

فمن هذا ينتج ان صاحب العلم أو الفن أو الصناعة ينبغى دائما ان يجتهد فى تكميل قواعد علمه أو فنه او صناعته أصولا وفروعا اجتهادا واستنباطا ويرغب الى الله تعالى فى العون على ذلك فاذا تمت فضيلته وكملت اهليته فعليه ايضا ان يشتغل بالتصنيف والجمع والتأليف ليطلع جميع الناس على حقائق الفنون ورقائق العلوم ودقائق الصنائع وعليه ان يجيد البيان حسب الامكان وكل مايعم نفعه وتكون الحاجة اليه أولى يقدمه على غيره ويعتنى بما لم يسبق اليه

« مطلب » تقديم اوائل العلوم على اواخرها

ويقدم المبادي على المقاصد لان العلوم أوائل تؤدى الى أواخرها ومداخل تفضى الى حقائقها فلا يطلب الآخر قبل الاول ولا الحقيقة قبل المدخل لان البناء على غير أساس لايثبت والثمر فى غير غرس لايجنى ولا ينبت فلا تحمل طالب المنفعة الاسباب الفاسدة والدواعى الواهية على ان يتبع أغراض نفسه المختصة بنوع من العلم فيدعوه الغرض الى قصد ذلك النوع ويعدل عن مقدماته كرجل يؤثر القضاء أو يتصدى للحكم فيقصد من علم الفقه أدب القاضى وما يتعلق به من الدعاوى والبينات أو يحب ان يختص بوظيفة الشهود فيتعلم كتاب الشهادات لئلا يصير موسوما بجهل مايعانى فاذا أدرك ذلك ظن انه قد حاز من العلم جمهوره وادرك منه مطويه ومنشوره ولم يرمابقى الاغامضا طلبه وعويصا استخراجه فلو نصح نفسه لعلم ان ماترك أهم مما أدرك لان بعض العلوم مرتبط ببعض ولكل باب منها تعلق بما قبله فلا تقوم الأواخر الا بأوائلها وقد يصح قيام الاوائل بانفسها

فيصير طلب الأواخر بترك الأوائل تركا للأواخر والأوائل جميعا ومثل ذلك الفنون والصنائع

وقد يقصد الانسان بطلب العلم التكسب او التجمل فينهض من العلم تعلم ما يشتهر به من مسائل الجدل وطريق النظر ويتعاطى علم ما اختلف فيه دون ما اتفق عليه ليناظر على الخلاف وهو لا يعرف الوفاق ويجادل الخصوم وهو يجهل مذهبه محصوم فكثيرا ما تجد من هذه الطبقة عددا وقد تحققوا بالعلم تحقق المتكافين واشتهروا به اشتهار المتحزبين فاذا أخذوا فى مناظرة الخصوم ظهر كلامهم واذا سئلوا عن واضح مذهبهم ضلت أفهامهم حتى انهم ليخبطون فى الجواب خبط عشواء فلا يظهر لهم صواب ولا يتقرر لهم جواب ثم لا يرون ذلك نقصا حيث نمقوا فى المجالس كلاما موصوفا ولفقوا فى المحافل احتجاجا مألوفا وقد جهلوا من المذهب ما يعرفه المبتدى فهذه طرائق من يقول اعرفوني وهو غير عروف ولا معروف وقد قال زهير

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلم

وبالجملة فالمتواضع من طلبة العلم أكثرهم علما كما ان المكان المنخفض أكثر البقاع ماء وينبغي لطالب العلم ان يخرج دائما في عباراته من الرمز الخفى الى اللفظ الجلى فان الرمز لا يليق بالعلم المعنوى ولا الكلام اللغوى وانما يختص غالبا باحد شيئين اما بمذهب شنيع يخفيه معتقده ويجعل الرمز به سببا لتطلع النفوس اليه واحتمال التأويل فيه سببا لدفع التهمة عنه كالتنجيم والطلاسم واما بما يدعى أربابه انه علم معوز وان ادراكه بعيد معجز كالصنعة التى وضعها أربابها اسماء لعلم الكيمياء ورمزا بأوصافه ليوهموا «مطلب» وضوح العبارة وترك الرموز الخفية

الشح به والأسف عليه خديرة للعقول الواهية والآراء الفاسدة وقد قال الشاعر

منعت شيئاً فأكثرت الولوع به   أحب شيء الى الانسان ما منعا

فالمتشبثون بمثل هذه الأمور لا ينتفع بالهم فلا يدخل في هذه الفضيلة المذكورة في قوله او علم ينتفع به

(الفضيلة الثالثة) المذكورة في قوله صلى الله عليه وسلم او ولد صالح يدعو له اشارة منه صلى الله عليه وسلم الى ان الانسان مخلوق لحكمة الهية وهي تعمير الدنيا وتمام انتظامها وهذه الحكمة انما تتم بتكثير النوع البشري واستمرار نسله وهذا انما يكون بالتوالد والتناسل وان كل انسان اجتهد في تحصيل مال او علم او جاه يحب طبعا امتيازه به في حياته دون غيره وان لا يتوارثه عنه الا نسله بعده ليكون حيا حياة معنوية دائم النسل باقي الذكر والا لكان الانسان لا يجتهد الا بقدر عيشته الضرورية فأمل انتقال الوراثة الى النسل والولد آكد في النوع البشري تكثير العمل فقد يكون مدار الاعمال الماشية والمعادية على الآمال التولدية فأشار الحديث الشريف الى معنى لطيف وهو الحث على التناسل والتوالد وتأهيل النسل لدرجة الرشد وبلوغ غرض الوراثة النافعة وينبغي للولد ان يهتم بشأن الصبي في شبيبته ليعلم ما ينبغي تعلمه حفظا في حال صغره لينكشف له معناه في حال كبره فأبتداؤه الحفظ ثم الفهم ثم الاعتقاد والايقان والتصديق وذلك مما يحصل في الصبي من غير برهان فقد من الله عز وجل على قلب الانسان بالحفظ وشرح له صدره في أول نشأة الايمان من غير حجة وبرهان وانما تحصل التقوية والاثبات في الصبي والعامي بعد ذلك حتى يرسخ الايمان

ولا يتزلزل وليست التقوية والاثبات في الصبي ان يعلمه وايه صنعة الجدل والكلام بل يشغله بتلاوة القرآن وتفسيره وقراءة الحديث ومعانيه ويشتغل مع ذلك بوظائف العبادات فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخا بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه وبما يرد عليه من شواهد الحديث وفوائده وبما يسطع عليه من انوار العبادة ووظائفها وبما يسرى اليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم وسيماهم وهيئاتهم في الخضوع لله تعالى وهذه هي التربية الحسنى حتى ينمو في الصبي بذر الايمان ويقوى فيه شجرة راسخة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء فيظهر اعتقاده في الثبات كالطود الشامخ ثم ينوطه بالصناعة التي تميل اليها نفسه ويستحسنها طبعه وحده ومع ذلك فلا يتأخر مع أداء صنعته عن تلاوة القرآن (قال) صلى الله عليه وسلم ان القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد قيل يا رسول الله وما جلاؤها قال قراءة القرآن (وقال) صلى الله عليه وسلم من قرأ القرآن ثم رأى ان احدا أوتى أفضل مما أوتى فقد استصغر ما عظم الله * وعن مالك بن انس رضي الله عنه انه كان اذا دخل رمضان نفر من مذاكرة الحديث ومجالسة اهل العلم وأقبل على القراءة في المصحف (وكان) ابو حنيفة والشعبي يختمان في رمضان ستين ختمة وقال صلى الله عليه وسلم القرآن فيه خبر من قبلكم ونبأ من بعدكم وحكم ما بينكم * قال علي رضي الله عنه من قرأ القرآن فات فدخل النار فهو ممن كان يتخذ آيات الله هزؤا وتقييد الولد بالصالح مع زيادة قوله يدعو له اشارة منه صلى الله عليه وسلم الى حق الوالد على الوالد وهي تربيته تربية حسنة وتوصيله الى درجة الصلاح والاستقامة والى حق الوالد على الولد وهي الدعاء لوالده لان فرض الكلام بقاء الولد بعد موت والده المفهوم من قوله اذا مات

أبن آدم الخ والمراد بالولد ما يعم الذكر والأنثى كما ان المراد بالدعاء له عموم اعمال ولده الصالحة فان الوالد ينتفع باعمال ولده الصالحة لانه السبب في وجوده وصلاحه وارشاده الى الهدى ومن جملة الاعمال التي تصدر عن الولد الصالح وينتفع بها والده دعاؤه له فقد ورد ان الانسان ينعم في الآخرة بنعيم عظيم فيقول من أين هذا النعيم فاني لم أعمل في الدنيا عملا يوجب لي ذلك فيقال هذا من دعاء ولدك الصالح لك وبالجملة فالولد الصالح من الباقيات الصالحات لان أعماله الصالحة ينتفع بها والمراد ايضا بالولد ما يعم ولد الولد ذكوراً واناثاً أسباطا وحفدة فانهم لاصولهم كالاجنحة وهم اصول يصول بهم الأكبر ويده بهم تطول وهم العدة عند الشدة (قيل) لمحمد بن الحنفية كيف كان علي رضي الله عنه يقحمك في المآزق اى المتآلف ويولجك في المضائق دون الحسن والحسين فقال لانهما كانا عينيه وكنت يديه فكان يقي بيديه عينيه * ورأى علي رضي الله عنه الحسن يتسرع الى الحرب فقال املكوا عني هذا الغلام لا يهدني فاني أنفس بهذين على الموت لئلا ينقطع بهما نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله فاني أنفس بهذين أي بالحسن والحسين أي أخشى ان ينقطع بموتهما النسل النبوي (وكان) يقال لعمر بن الوليد بن عبد الملك خل بني مروان وقد كان يركب معه ستون رجلا اصلابه * وقد كان لماوية امرأة لؤي بن غالب اولاد منه فقالت له يوما اي بنيك أحب اليك قال الذي لا يرد بسط يده بخل ولا يلوى لسانه عجز الراء المهملة اي الكلمة ولا يلون طبيعته سنه وهو احد ولدك بارك الله لي ولك فيه يعني كعب بن لؤي احد اجداده صلى الله عليه وسلم

مطلب الاعتاع بالذرية والتمدح بها

ودخل عبد الملك بن مروان على معاوية ومعه بنوه فأجلسوا على الكراسي وأخذوا مجالسهم اغتاظ معاوية ثم قال كانك أردت مكاثرتي ببنيك يا ابن مروان وماوجدت مثلي ومثلك الاكما قال الشاعر

تفاخرني بكثرتها قريش وقبلي والد الحجل الصقور

فقال عبد الملك يا أمير المؤمنين انما هم ولدك ويدك وعضدك وقد علمت أنا خفت عليهم من العين وليدوا عائذين (قل) بعضهم للمهلب ما النبل أي الامرف قال أن يخرج الرجل من منزله وحده ويعود في جماعة وكان المهلب كثير البنين ومن الشجاعة والسخاء بمكانة فقيل له انك لتلقى نفسك في المهالك قال ان لم آت الموت مسترسلا أتاني مستعجلا ثم انشد

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أن أتقدما

ومر بقوم من ربيعة في مجلس لهم فقال رجل من القوم هذا سيد الأزد قيمته خمسمائة درهم فسمعه المهلب فأرسل اليه بخمسمائة درهم وقال دونك يا ابن أخي قيمة عمك ولو كنت زدت فيها لزدتك وقال بعضهم في المهلب وبنيه يمدحه

براك الله حيث براك بحرا وفجر منك أنهارا غزارا
بنوك السابقون الى المعالي اذا ما أعظم الناس الخطارا

والخطار فعال من خاطر يعني سابق وراهن ويعني الخطر وهو المراد وهذان البيتان لكعب بن معدان الاشقري الازدي يقال ان الخليفة المنصور حسد آل المهلب على المدح بهما وكذلك بعده المأمون قال للشعراء ألا قلتم في كما قال كعب في المهلب وولده وانشدهم هذين البيتين السابقين وقد ينتج من العنصر الطيب فروع تزيده طيبا على طيبه ومن غير الطيب

فروع تكون سببا فى ذكره وتوصيل الثواب له فكأن قال . وأمية دن خل أخرج الله منه زق عسل يعنى عمر بن عبد العزيز فهو الولد الصالح المستوفى للفرد الاكمل النبى من الحديث (ويحكى) أن الخليفة المنصور قال له رجل من الهاشميين اعتل أبى رحمه الله ومات فى وقت كذا رحمه الله فقال الربيع وزير المنصور كم تترحم على أبيك بين يدى أمير المؤمنين وكيف ذلك فقال له الهاشمى لا ألومك فانك لم تعرف حلاوة الآباء فضحك المنصور وخجل الربيع لانه لم يكن له أب يعرف على ماقيل والذى فى التواريخ أنه ابن يونس ابن أبى فروة مولى الحرث الحفار مولى عثمان بن عفان رضى الله عنه كان حاجبا للمنصور ثم صار وزيره وكان يميل اليه ويعتمد عليه فقال له يوما ياربيع سل حاجتك فقال حاجتى أن تحب الفضل ابنى فقال له ويحك ان المحبة تقع باسباب فقال له قد أمكنك الله من ايقاع سببها قال وما ذاك قال تفضل عليه فانك اذا فعلت ذلك أحبك واذا أحبك أحببته قال قد والله حببته الى قبل ايقاع السبب ولكن كيف اخترت له المحبة دون كل شىء قال لانك اذا أحببته كبر عندك صغير احسانه وصغر عندك كبير اساءته وكانت ذنوبه كذنوب الصبيان وحاجته اليك حاجة الشفيع العريان يشير بذلك الى قول الفرزدق

ليس الشفيع الذى يأتيك مؤتزرا   مثل الشفيع الذى يأتيك عريانا

فقد سعى الربيع فى تقديم ولده الفضل عند الخليفة وأدى مايجب الولد على الوالد

وبالجملة فقد قال صلى الله عليه وسلم الولد ريحانة من الجنة وقال بعضهم الولد ريحانة الى سبع ووزير الى سبع أخرى وبعد ذلك اما صديق حميم واما عدو مبين

وبشر الامام عمر الفاروق رضي الله عنه بولد فقال ريحانة اشمها برهة من الزمان وعما قليل اما ولد بار واما عدو ضار وأنشد بعضهم

هذا الزمان الذي كنا نحاذره ... في قول كعب وفي قول ابن مسعود

ان دام هذا ولم يحدث له غير ... لم يبك ميت ولم يفرح بمولود

(وقال) الفضيل ريح الولد من الجنة ومزايا الاولاد دنيا وأخرى لاتعد ولا تحصى فانه قد يعود من الولد على رحمه ولو كان الرحم حاملا أنواع الرعاية فقد روى كعب بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال استوصوا بالقبط خيرا فان لهم ذمة ورحما يعني أن هاجر أم اسماعيل كانت قبطية ومارية أم سيدنا ابراهيم كانت كذلك وقال صلى الله عليه وسلم لوعاش ابراهيم لوضعت الجزية عن كل قبطي ولحرمة الولد والوالد وارتباط العلاقة المتينة بينهما بما تقتضيه الحقوق أقسم الله بهما في قوله تعالى لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد ووالد وما ولد لقد خلقنا الانسان في كبد المراد بالبلد مكة المشرفة التي جعلها الله حرما آمنا وجعل مسجدها قبلة لاهل المشرق والمغرب والمراد بالوالد ابراهيم واسماعيل وما ولد محمد صلى الله عليه وسلم لان ابراهيم بانى مكة واسماعيل ومحمد عليهما السلام سكانها وقيل المراد بالوالد في الآية ابراهيم وما ولد جميع ولد ابراهيم من العرب والعجم فانهم مكان البقاع الفاضلة من أرض الشام وبيت المقدس وارض العرب ومنهم الروم لانهم ولد عيص من أسحق فقد عمرت البقاع الفاضلة من نسل ابراهيم عليه السلام وآخر الأنبياء وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من أولاده فلذلك قرن اسمه باسمه في الصلوات بالصيغة الابراهيمية التي هي أيضا عظيمة الفضيلة في جميع الاوقات وكان صلى الله عليه وسلم يصلي بها فيذكر بها جده

فقد دخل صلى الله عليه وسلم في ضمن حديثه الشريف من قوله أو ولد صالح يدعو له

مطلب تربية الأولاد

ثم ان توصيل الولد الى الرتبة المطلوبة والدرجة المرغوبة تتوقف على حسن التربية والتهذيب والتعليم والتأديب ولا يخفى ان الله سبحانه وتعالى شرف الانسان بصفتين صغيرتين وهما قلبه ولسانه وخصه بصفتين عظيمتين وهما همته واحسانه وما عدا ذلك من محض المال او الجمال فانما هو حظ الادنياء من النساء والرجال فلا يرتفع المرء حتى يرفعه أكبراه وأصغراه فالجنان قابل واللسان قائل والهمة حاملة والاحسان فضيلة عاملة والجنان عارف مستقر واللسان معترف مقر والهمة حركة منتشرة والاحسان بركة مبشرة فان الجنان يمشي واللسان يفشي وكلاهما يساعد الهمة والاحسان والعزم والاتقان ولذلك كان المرء بأصغريه ومعلوم ان الولد الصغير مستعد بأصغريه الى استكمال أكبريه فيحتاج الى التربية التي هي صنعة المربي الذي يقيمه الولي لتأديب الصبي فيما يقصد منه فيجب على الولى أن يتأمل في حال الصبي وما هو مستعد له من الاعمال ومتهيء له منها فيعلم أنه مخلوق له لحديث اعملوا فكل ميسر لما خلق له فلا يحمله على غيره فانه ان حمله على غير ماهو مستعد له لم يفلح فيه عادة فيفوته ماهو متهيء له فاذا رآه حسن الفهم صحيح الادراك جيد الحفظ واعيا فهذا من علامة قبوله للعلوم والفنون وتهيئه لها فليثبتها في لوح قلبه مادام خاليا فانها تتمكن من القلب وتستقر فيه وتزكو معه وان رآه بخلاف ذلك من كل وجه علم أنه لم يخلق لذلك فان رأى عينه طامحة الى صنعة من الصنائع مستعدا لها قابلا عليها وهي صناعة مباحة نافعة لأهل وطنه فليمكنه منها وهذا كله بعد تعليمه المعارف الابتدائية التي يشترك فيها كل فرد من افراد

الجمعية التأنسية وهى الكتابة والقراءة وما يحتاج اليه فى دينه من العقائد وغيرها وأصول الحساب ونحو ذلك من السباحة والعوم والفروسية وأسبابها من ركوب الخيل والرمى واللعب بالرمح والسيف وأشباه ذلك من آلات الحرب ليتمرن على وسائل الدفع عن وطنه والمحاماة عنه فان هذه الاشياء من المنافع العمومية التى ينبغى تمرين الاطفال فى زمن الشبوبية عليها هذا بالنسبة للذكور وأما بالنسبة للبنات فان ولى البنت يعلمها مايليق بها من القراءة وأمور الدين وكل مايليق بالنساء من خياطة وتطريز وان اقتضى حال البلاد تعليم النساء الكتابة وبعض مبادى المعارف النافعة فى ادارة المنازل فلا بأس بتعليم الحساب وما أشبهه لهن ويشترك الصبيان والبنات فى تعليم الاخلاق والآداب وحسن السلوك

فبهذا كله يتيسر للجميع كسب الفوائد الجسيمة المنتجة للاستقامة التامة وغنى النفس بما اكتسبه العقل من العلوم والمعارف ومارسته الأيدى من الصنائع واللطائف التى هي أمن من الفقر الذى استعاذ منه صلى الله عليه وسلم فى قوله اللهم انى اعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال وفى رواية أخرى من الفقر والعيلة (وقال) صلى الله عليه وسلم كسب اليد أمان من الفقر وقال أيضا ان الله يحب العبد المحترف ويكره الصحيح الفارغ

وفى عوارف المعارف روى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه ان الله تعالى ليصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده وأهل دويرته ودويرات حوله ولا يزالون فى حفظ الله مادام فيهم انتهى وفى ذلك قيل

مطلب بر الولد لوالده

رأيت صلاح المرء يصلح أهله ويعديهم عند الفساد اذا فسد

يعظم في الدنيا افضل صلاحه ويحفظ بعد الموت في الاهل والولد

فهذا هو الصلاح الموروث المسلسل المقصود من قوله في الحديث أيضا أو ولد صالح يدعو له فالرجل اذا علم ولده مافيه صلاحه واستقامته اجتنى ثواب ثمرة عمله دنيا وأخرى أما ثواب الآخرة فأمره ظاهر وأما ثمرة عمله في الدنيا فهي البر والطاعة وهما حق كبير على الولد لوالده قال الخليفة المأمون لم أر احدا أبر من الفضل بن يحيي وهو في سجن الرشيد لأبيه بلغ من بره أنه كان ابوه لايتوضأ لا بماء مسخن فمنعهم السجان من الوقود في ليلة باردة فلما اخذ يحيى مضجعه قام الفضل الى قمقم فأدناه الى المصباح فلم يزل قائما وهو في يده حتى أصبح فشعر السجان بذلك فغيب المصباح فأبطه الى الصباح (قال) علي رضى الله عنه لو علم الله شيأ من العقوق أدنى من أف لحرمه فليعمل العاق ماشاء أن يعمل فلن يدخل الجنة وليعمل البار ماشا فلن يدخل النار

ومن البر ان لا ينتمي الولد الى غير ابيه قال صلى الله عليه وسلم ملعون ملعون من انتمى الى غير ابيه او ادعى غير مواليه ومن البر ايضا ان لا يكون سببا لسب ابيه لحديث ابي هريرة رضى الله عنه لا تمشين امام ابيك ولا تجلس قبله ولا تدعه باسمه ولا تستسب له اى لا تعرضه للسب وتجره اليه بان تسب أبا غيرك فيسب أباك مجازاة لك وقد جاء مفسرا في الحديث الآخر ان من أكبر الكبائر ان يسب الرجل والديه قيل وكيف يسب والديه قال يسب الرجل فيسب أباه وأمه (وقال) ابن عمر رضى الله عنه أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان والدي يأخذ مالي وأنا كاره فقال أما علمت انك ومالك لابيك ومن حق الاولاد اعظام الأصغر للاكبر وحنو الاكبر على الاصغر قال صلى الله عليه وسلم حق كبير الاخوة « مطلب » ترتيب تمام الاولاد

على صغيرهم كحق الوالد على ولده

وقد ذكر في كتاب الحسبة في الكلام على مؤدبي الاطفال انه لا يجوز لهم تعليم الاطفال في المساجد لنهي النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وأمره بتنزيه المساجد عن الصبيان والمجانين لانهم لا يحترزون من تسويد حيطان المساجد بل يتخذون للتعليم حوانيت في الدروب واطراف الاسواق قال وينبغي للمؤدب ان لا يعلم الصبي القصار من سور القرآن الا بعد حذقه بمعرفة الحروف وضبطها بالشكل وتأليف طبعه اليها ثم يؤلف طبعه على القرآن وحفظه ثم يعرفه عقائد الدين ثم أصول الحساب وما يستحسنه من المراسلات والاشعار ثم يأمر الصبيان بتجويد الخط على المثال والمشق ويكلفهم بالحفظ على ظهر الغيب ومن كان عمره سبع سنين أمره بالصلاة وفي الجماعة وهذا لا ينافي قوله صلى الله عليه وسلم جنبوا مساجدنا صبيانكم ومجانينكم وشراءكم وبيعكم وخصوماتكم ورفع أصواتكم واقامة حدودكم وسل سيوفكم واتخذوا على ابوابها المطاهر وجمروها في الجمع لان النبي صلى الله عليه وسلم قال مروا اولادكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر فالمنع محمول على ما دون السبع التي هي سن التمييز

قال صاحب الاخلاق عند ذكر تأديب الأحداث والصبيان خاصة ان أول قوة تظهر في الانسان أول ما يكون هي القوة التي يشتاق بها الى الغذاء الذي هو سبب كونه حيا فيتحرك بالطبع الى اللبن ويلتمسه من الثدي الذي هو معدنه من غير تعليم ولا توقيف وتحدث له مع ذلك قوة على التماسه بالصوت الذي هو مادته ودليله الذي يدل به على اللذة والاذى ثم تتزايد فيه هذه القوة ويتشوق بها أبدا الى الازدياد والتصرف بها في أنواع الشهوات ثم تحدث له قوة

* مطلب * اطوار الصغير

على التحرك نحوها بالآلات التي تحلق له ثم يحدث له الشوق الى الافعال التي تحصل له هذه ثم تحدث له من الحواس قوة على تخيل الامور ويرسم في قوته الخيالية مثالات فيتشوق اليها ثم تظهر فيه قوة الغضب التي يشتاق بها الى دفع ما يؤذيه ومقاومة ما يمنعه من منافعه فان أطاق بنفسه أن ينتقم من مؤذيا انتقم منها والا التمس معونة غيره وانتصر بوالديه بالتصويت والبكاء ثم يحدث له الشوق الى تميز الافعال الانسانية خاصة أولا أولا حتى يصير الى كماله في هذا التميز فيسمى حينئذ عاقلا وهذه القوى كثيرة وبعضها ضرورى في وجود الأخرى الى ان ينتهي الى الغاية الأخيرة وهي التي لا تراد لعلة أخرى وهي الخير المطلق الذي يتشوقه الانسان من حيث هو انسان

وأول ما يحدث فيه من هذه القوة الحياء وهو الخوف من ظهور شيء قبيح منه ولذلك قلنا ان أول ما ينبغي ان يتفرس في الصبي ويستدل به على عقله الحياء فانه يدل على أنه قد أحس بالقبيح ومع احساسه به هو يحذره ويتجنبه ويخاف ان يظهر فيه أو منه فاذا نظرت الى الصبي فوجدته مستحيا مطرقا بطرفه الى الأرض غير وقاح الوجه ولا محدقا اليك فهو أول دليل نجابته والشاهد لك على أن نفسه قد احست بالجميل والقبيح وان حياءه هو انحصار نفسه خوفا من قبيح يظهر منه وهذا ليس شيء أكثر من ايثار الجميل والهرب من القبيح بالتميز والعقل

وهذه النفس مستعدة للتأديب صالحة للعناية لا تحب ان تهمل ولا تترك ومخالطة الاضداد الذين يفسدون بالمقاربة والمداخلة من كان بهذه الحال من الاستعداد لقبول الفضيلة فان نفس الصبي ساذجة لم تنتقش بعد بصورة ولا لها رأي وعزيمة تميلها من شيء الى شيء فاذا نقش بصورة وقبلها نشأ عليها واعتادها

فالأولى بمثل هذه النفس أن تنبه ابدا على حب الكرامة ولا سيما ما يحصل له منها بالدين دون المال من سننه ووظائفه ثم يمدح الاخيار عنده ويمدح هو فى نفسه اذا ظهر شيء حسن منه ويخوف بالمذمة على أدنى قبيح يظهر منه ويؤاخذ بالاستهانة بالمآكل والمشارب والملابس الفاخرة ويزين عنده صلف النفس والترفع عن الحرص في المطاعم خاصة وفى اللذات عامة ويحبب اليه ايثار غيره على نفسه بالغذاء والاقتصار على الشيء المعتدل والاقتصاد فى التماسها وان أولى الناس بالملابس الملونة النساء اللواتى تتزين للرجال ثم العبيد والخول وأن الأحسن بأهل النبل والشرف من اللباس البياض وما أشبهه حتى اذا تربى على ذلك وسمعه قلما يقرب منه ويكرر عليه ذلك ولا يترك ومخالطة من يسمع منه ضد ما ذكرته لاسيما من أترابه ومن كان فى مثل سنه ممن يعاشره ويلاعبه وذلك ان الصبي فى ابتداء نشئه كثيرا ما يكون قبيح الافعال جدا فانه يكون كذوبا يخبر ويحكي عالم يسمعه ولم يره ويكون حسودا سروقا نموما لحوحا ذا فضول ومحك وكياد أضر شيء بنفسه وبكل امر يلابسه ثم لا يزال به التأديب والسن والتجارب حتى ينتقل فى أحوال بعد أحوال فلذلك ينبغي ان يؤاخذ مادام طفلا بما ذكرناه ونذكره ثم يطالب بحفظ محاسن الاخبار والاشعار التي تجرى مجرى ما تعوده بالادب حتى يتأكد عنده روايتها وحفظها والمذاكرة بها جميع ما قدمنا ذكره ويحذر من النظر فى الاشعار السخيفة وما فيها من ذكر العشق واهله وما يوهمه اصحابها انه ضرب من الظرف ورقة الطبع فان هذا الباب مفسدة للأحداث جدا ثم يمدح بكل ما يظهر منه من خلق جميل وفعل حسن ويكرم عليه فان خالف فى بعض الاوقات ما ذكرته فالاولى ان لا يوبخ عليه ولا يكاشف بانه أقدم عليه بل

يتغافل عنه تغافل من لا يخطر بباله انه قد تجاسر على مثله ولا هم به لا سيما ان ستره الصبي واجتهد في ان يخفى ما فعله على الناس فان عاد فليوبخ عليه سرا وليعظم عنده ما أتاه ويحذر من معاودته فانك ان عودته التوبيخ والمكاشفة حملته على الوقاحة وحرضته على معاودة ماكان استقبحه وهان عليه سماع الملامة في ركوب القبائح من اللذات التي تدعو اليها نفسه وهذه اللذات كثيرة جدا

والذي ينبغي ان يبدأ به في تقويمها أدب المطاعم فيفهم أولا انها انما تراد للصحة لا للذة فان الأغذية كلها انما خلقت وأعدت لنا لتصح بها ابداننا وتستمر مادة حياتنا فهي تجرى مجرى الأدوية يداوي بها الجوع والألم الحادث منه فكما ان الدواء لا يراد للذة ولا يستكثر منه للشهوة كذلك الأطعمة لا ينبغي ان يتناول منها الاما يحفظ صحة البدن ويدفع ألم الجوع ويمنع من المرض فيحقر عنده قدر الطعام الذي يستعظمه أهل الشره ويقبح عنده صورة من شره اليه ونال منه فوق حاجة بدنه أو ما لا يوافقه حتى يقتصر على لون واحد ولا يرغب في الألوان الكثيرة واذا جلس مع غيره لا يبادر الى الطعام ولا يمد يده قبل غيره ولا يديم النظر الى ألوانه ولا يحدق اليه شديدا ويقتصر على ما يليه ولا يسرع في الاكل ولا يوالي بين اللقم بسرعة ولا يعظم اللقمة ولا يبتلعها حتى يجيد مضغها ولا يتبع نظره موقع الأيدي من الطعام ويعود أن يؤثر غيره بما يليه ان كان أفضل ما عنده ثم يضبط شهوته حتى يقتصر على ادنى الطعام وادونه ويأكل الخبز القفار الذي لا أدم معه في بعض الاوقات وهذه الآداب وان كانت جميلة بالفقراء فهي بالاغنياء أجمل وينبغي ان يستوفى غذاءه بالعشي فانه ان استوفاه

النهار كسل واحتاج الى النوم وتبلد فهمه مع ذلك وان منع اللحم في أكثر أوقاته كان نافعا له في الحركة والتيقظ وقلة البلادة وبعثه على النشاط والخفة

فأما الحلو أوالفواكه فينبغي ان يمنع منها ألبتة ان أمكن والا فليتناول أقل ما يمكن فانها تستحيل في بدنه فيكثر انحلالها وتعوده أيضا الشره ومحبة الاستكثار من المآكل ويعود أن لا يشرب في خلال طعامه الماء فاما النبيذ وأصناف الاشربة المسكر فاياه واياها فانها تضره في بدنه وفي نفسه وتحمله على سرعة الغضب والتهور والاقدام على القبائح وعلى القحة فيها وسائر الخلال المذمومة ولا ينبغي ان يحضر مجالس أهل النبيذ بل مجلس الأدباء والفضلاء فاما مجلس غيرهم فلا لئلا يسمع الكلام القبيح والسخافات التي تجري فيه وينبغي ان لا يأكل حتى يفرغ من وظائف الادب التي يتعلمها ويتعب تعبا كافيا وينبغي ان يمنع من كل فعل يستره ويخفيه فانه ليس يخفي شيأ الا وهو يظن أو يعلم أنه قبيح

ويمنع من النوم الكثير فانه يقبحه ويغلظ ذهنه ويميت خواطره وهذا بالليل فاما النهار فلا ينبغي أن يتعوده ويمنع أيضا من الفراش الوطيء أي الالين وجميع أنواع الترفه والرخاوة حتى يصلب بدنه ويتعود الخشونة ولا يعود الملابس الرقيقة والمداراة في الصيف ولا الفراء والنيران في الشتاء ويعود المشي والحركة والركوب والرياضة حتى لا يتعود اضدادها ويعود أن لايكشف أطرافه ولا يسرع في مشيه ولا يرخي يديه بل يضمهما الى صدره ولا يربي شعره ولا يزين بملابس النساء ولا يلبس خاتما الا وقت حاجته اليه ولا يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه والداه ولا بشيء من مآكله وملابسه ومايجري مجراه بل يتواضع لكل أحد ويكرم كل من يعاشره ولا يتوصل بشرف ان كان له

اوسلطان من أهله ان أنف الى غضب من هو دونه او استهداء من لا يمكنه ان يرده من هواه اوتطاول عليه كمن اتفق له ان كان خاله وزيرا أوعمه سلطانا فيطرق به الى هضيمة أقرانه وثلم اخوانه واستباحة أموال جيرانه ومعارفه وينبغي أن يعود ان لايتزق في مجلسه ولا يتمخط ولا يتثاءب بحضرة غيره ولا يضع رجلا على رجل ولا يضرب تحت ذقنه بساعده ولا يعمد رأسه بيده فان هذا دليل الكسل وانه قد بلغ به التنم أن لا يحمل رأسه حتى يستعين بيده ويعود ان لا يكذب ولا يحلف ألبتة لا صادقا ولا كاذبا فان هذا قبيح بالرجال مع الحاجة اليه في بعض الأوقات فاما الصبي فلا حاجة به الى اليمين

ويعود أيضا الصمت وقلة الكلام ولا يتكلم الاجوابا فاذا حضر من هو أكبر منه اشتغل بالاستماع منه والصمت له ويمنع من خبيث الكلام وهجينه ومن السب واللعن واللغو من الكلام ويعود حسن الكلام وظرائفه وجميل اللقاء وكريمه ولا يرخص له أن يستمع لاضدادها من غيره ويعود خدمة نفسه ومعلمه وكل من كان أكبر منه

وأحوج الصبيان الى هذا الادب اولاد الاغنياء والمترفين وينبغي اذا ضربه المعلم أن لا يصرخ ولا يستشفع بأحد فان هذا فعل المماليك ومن هو خوار ضعيف ولا يعير أحدا الا بالقبيح ولا بالسيء من الادب ويعود ان لا وحش الصبيان بل يبرهم ويكافئهم على الجميل بأكثر منه لئلا يتعود الربح على الصبيان وعلى الصديق ويبغض اليه الفضة والذهب ويحذر منهما أكثر من تحذير السباع والحيات والعقارب والافاعي فان حب الفضة والذهب للصبي آفته أكثر من آفة السموم

وينبغي ان يؤذن له في بعض الاوقات أن يلعب لعبا جميلا ليستريح اليه من تعب الادب ولا يكون في لعبه ألم ولا تعب شديد ويعود طاعة والديه ومعلميه ومؤدبيه وأن ينظر اليهم بعين الجلالة والتعظيم ويهابهم

وهذه الآداب النافعة للصبيان هي للكبار من الناس أيضا نافعة ولكنها للأحداث أنفع لانها تعودهم محبة الفضائل وينشؤن عليها فلا يثقل عليهم تجنب الرذائل ويسهل عليهم بعد ذلك جميع ما ترسمه الحكمة وتحده الشريعة والسنة ويعتادون ضبط النفس عما تدعوهم اليه من اللذات القبيحة وتكفهم عن الانهماك في شيء منها والفكر الكثير فيها وتسوقهم الى مرتبة الفلسفة العالية أي الحكمة النافعة وترقيهم الى معالي الامور من التقرب الى الله عز وجل ومشابهة الملائكة في التنزه عن الشهوات مع حسن الحالة في الدنيا وطيب العيش وجميل الأحدوثة وقلة الاعداء وكثرة المداح والراغبين في مودته من الفضلاء خاصة فاذا تجاوز هذه الرتبة وبلغ أيامه الى ان يفهم أغراض الناس وعواقب الامور فهم ان الغرض الاخير من هذه الاشياء التي يقصدها الناس ويحرصون عليها من الثروة واقتناء الضياع والعبيد والخيل والفرش وأشباه ذلك انما هو ترفية البدن وحفظ صحته وان يبقى على اعتداله مدة ما وان لا يقع في الامراض وان لا تفجأه المنية وان يتهنى بنعمة الله عليه ويستعد لدار البقاء والحياة السرمدية وان اللذات كلها بالحقيقة هي خلاص من آلام النصب وراحات من التعب فاذا عرف ذلك وتحققه ثم تعوده بالسيرة الدائمة عود الرياضات التي تحرك الحرارة الغريزية وتحفظ الصحة وتنفي الكسل وتطرد البلادة وتبعث النشاط وتزكي النفس

فن كان مولا مترفا كانت هذه الاشياء التي رسمناها أصعب عليه

لكثرة من "عتنى به وتقويه ولموافقة طبيعة الانسان فى أول ما ينشأ هذه اللذات واجماع جمهور الناس على ما أمكنهم منها وطلب ما تعذر عليهم بغاية جهدهم فاما الفقراء فالامر عليهم سهل بل هم قريبون الى الفضائل قادرون عليها متمكنون من نيلها والاصابة منها وحال المتوسطين من الناس متوسطة بين هاتين الحالتين

وقد كان ملوك الفرس الفضلاء لا يربون أولادهم بين حشمهم وخواصهم خوفا عليهم من الأحوال التى ذكرناها وكانوا ينفذونهم مع ثقاتهم الى النواحي البعيدة منهم ومن سماع ما حذرنا منه وكان يتولى تربيتهم أهل الجفاء وخشونة العيش ومن لا يعرف التنعم ولا الترفه وأخبارهم في ذلك مشهورة وكثير من رؤساء الديلم يقاون أولادهم عند ما ينشؤن الى غير بلادهم ليتعودوا بها هذه الاخلاق ويبعدوا عن الترفه وعادات أهل البلدان الرديئة

واذ قد عرفت هذه الطريق المحمودة فى تأديب الأحداث فقد عرفت اضدادها أعني أن من نشأ على خلاف هذا المذهب والتأديب لم يرج فلاحه ولا ينبغي أن يشتغل بصلاحه وتقويمه فانه قد صار بمنزلة الوحش الذى لا يطمع فى رياضته فان نفسه العاقلة تصير خادمة لنفسه البهيمية ولنفسه الغضبية فهي منهمكة فى مطالبها من النزوات وكما أنه لا سبيل الى رياضة سباع البهائم الوحشية التي لا تقبل التأديب كذلك لا سبيل الى رياضة من نشأ على هذه الطريقة واعتادها وأمعن قليلا فى السن اللهم الا أن يكون فى جميع أحواله عالما بقبح سيرته ذاما لها عائبا على نفسه عازما على الاقلاع والانابة فان مثل هذا الانسان من يرجى له النزوع عن أخلاقه بالتدريج والرجوع الى الطريقة المثلى بالتوبة وبصاحبة الاخيار وأهل الحكمة وبالاكباب على التفلسف والعلوم النافعة

وقد كنت نظمت في كتاب تعريب الامثال في تأديب الاطفال منظومة
لطيفة تحسن بعنوال التعريب نـ جها فيحسن هنا بمناسبة المقام ادراجها

الحمد لله وصل رب على النبي وآله والصحب
وبعد فالتأديب للابناء آكد واجب على الآباء
من اجل ذا نظمت لتنبيه خمسا وأربعين بيتا فيه
في نحو ساعتين والولى على قصدي أعان جل ربي وعلا
في بر والديك بالغ تغنم لا سيما في العيد أو في الوسم
وان ترم سرور أم او أب . يوما فكسب العلم خير مكسب
من رام عند الناس طرا ان يحب فليلزم حسن السلوك والأدب
وان يكون طيب السريرة مهذب الاخلاق زاكي السيرة
من رام بين العالم ارتفاعه فليلزم العفة والقناعه
هل ذل عند الناس عبد يقنع او عز سيد لديهم يطمع
ان رمت ان تشوق الاولادا وان ترى من نجلك اجتهادا
فعده بالاتحاف يوم العيد وقدم الوعد على الوعيد
يعاقب الجاني بما جناه وذاك في دنياه أو عقباه
والظلم لا يتركه المولى سدى ما آل كل ظالم الى الردي
من رام ان يكتسب اللطافه عليه طول الدهر بالنظافه
فانها من شعب الايمان تطلب في الثياب والأبدان
وشر أوصاف الفتى هو الغضب يفضي الى ارتكاب ما لا يرتكب
فيا له من خصلة ذميمة في تركها مصلحة جسيمة
وقوة الرأس مع العناد من أقبح الخصال في الاولاد

والامتثال صفة جليلة — للود ليس مثلها وسيلة
مما يعد من صفات الذم — كتم الصغير عن أب أو أم
سرا حقيرا او جليلا بل يجب — ابداؤه وعنهما لا يحتجب
يطلع الاولى على ما تعمله — بعلمه لكنه قد يهمله
فتز بفعل صالح الأعمال — تحز صلاح الحال والمآل
من يعص والديه ضل وندم — وساء حاله وللرشد عدم
وضاع سعيه وخاب أمله — ما لم يتب فلا يضيع عمله
وعفة الشريف عند الفقر — وصبره لعسره مع شكر
خير فضيلة عليها يحمد — يعقبها اليسر ويبقى السودد
والولد الصالح عند الاهل — يحب بل يكرم عند الكل
يمتاز عن أقرانه فى المكتب — تشمله بركة المؤدب
فضل البنات الشغل والتطريز — ومن حوت علما به تفوز
فى سائر الأحوال الاحتشام — من جنسهن والحيا يرام
الرفق بالفقير والضعيف — من حسن أخلاق الفتى الشريف
وخوف رب العرش والمراقبه — أمن من الشر وسوء العاقبه
من رام نظمه بسلك السعدا — فليسعد الناس ليبقى مسعدا
يحب مثل ما له لغيره — يعطى أخاه جانبا من خيره
يحسن حفظ اللوح للصغير — على مرار بل وللكبير
يرسخ فى الذهن وليس يمحى — جربه بالتسميم واقبل نصحا
الكبر ناشىء عن الحماقه — وما لعاقل عليه طاقه
يبغض كل الناس رب الكبر — وبالرفيع والوضيع يزرى

تصحن الطباع وصف الادب ‏ وأحسن الآداب آداب النبي
وما سوى اخلاقه فباطل ‏ ومن تحلى بسواها عاطل
ولا يليق من غلام الطاعة ‏ خروج رأيه عن الجماعة
في اجتماع الكلمة السلامه ‏ بها يتم الفتى مرامه
والحمد لله وصلى الله ‏ على النبي وكل من والاه

«مطلب» استعداد كل انسان لفضيلة ما

وينبغي أن يعلم أن كل انسان معد نحو فضيلة ما فهو اليها أقرب وبالوصول اليها أحرى ولأجل ذلك يجب على مدبر المدن أن يسوق كل انسان نحو سعادته التي تخصه ثم يقسم عنايته بالناس ونظره اليهم الى قسمين أحدهما في تسديد الناس وتقويمهم بالعلوم الفكرية والآخر في تسديدهم نحو الصناعات والاعمال الحسية فكل من هاتين الفضيلتين عليه مدار العمل وخلاصته العمل الذي لا ينقطع ثوابه المشار اليه بحديث اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث الحديث

فتلخص من هذا الحديث النبوي أن الانسان يخلد عمله بعد انقضاء حياته بالعلم النافع للامة والصدقة الجارية التي تؤبد شرفه ونبله والولد الصالح الذي يؤبد نسله فاذا كثر أفراد هؤلاء الناس الجامعين لهذه الفضائل المستكملين للمآثر الجليلة والشمائل انتظم بهم التمدن والعمران وحسنت أحوال الأهالي والبلدان لاسيما وان ابن آدم في الحديث هو الانسان فهو يعم أشخاص الملوك والسوقة وأكثر الملوك حامع للاتصاف باستجماع هذه المزايا ثم يليهم الوزراء والامراء والكبراء والقضاة ووجوه التجار ووجوه أهل الفلاحة والصناعة فكل على قدر مرتبته وبحسب ميسرته يسارع في تقويم أود مملكته وتقديم منافع بلدته لكسب القوة الملية واحراز الرتبة العلية وهذا كله انما يتم بتمام السعي

بالنفس والمال وقد قيل في الحكم والامثال من العجائب عبد بطال وطالب منازل الأبطال نغير الناس من صنع الخير وانتفع بمعروفه قال الشاعر

لاتقطعن يد المعروف عن احد ما دمت تقدر فالايام تارات
واشكر فضيلة صنع الله اذ جعلت اليك لالك عند الناس حاجات

وقال امرؤ القيس

ولو ان ما أسعى لادنى معيشة كفاني ولم أطلب قليل من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثل وقد يدرك المجد المؤثل امثالي

وقال ايضا

بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن انا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عيناك انما نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

ومن الكلام الهاشمي قول عبد المطلب

انا نفوس لنيل المجد عاشقة ولو تسلت أسلناها على الأسل
لاينزل المجد الا في منازلنا كالنوم ليس له مأوى سوي المقل

وقال آخر

يغوص البحر من طلب اللآلي ومن طلب العلا سهر الليالي
تروم العز ثم تنام ليلا لقد أتعبت نفسك في الوبال
ومن رام العلا من غير كد أضاع العمر في طلب المحال

فدار تأسيس قوة الملة والدولة ونفع الاوطان وعمار البلدان على العمل الآتي في الفصل الآتي

[redacted]

الفصل الثاني

(في العمل الذي هو القوة الأولية في ابراز المنافع الاهلية وفي تطبيقه على الارض الزراعية)

« مطلب » منابع الثروة

قد سبق أن منابع الثروة ترجع الى أربعة اشياء وهي الزراعة والصناعة والتجارة وتنمية الحيوانات واما الامارة فهي القوة المدبرة لهذه المنابع ويمكن ادخال تنمية الحيوانات في الزراعة فتكون أصول المكاسب ثلاثة وأفضل هذه الاشياء الزراعة لانها أطيب الجميع حيث هي الى التوكل أقرب والله يحب المتوكلين (قال) النووى انما كانت الزراعة أفضل من غيرها لان نفعها يتعدى الى غير الزراع من الطيور والبهائم وكثير من الحيوانات وما كان متعديا فهو أفضل من اللازم في غالب الاوقات وقد قال صلى الله عليه وسلم لا يغرس مسلم غرسا ولا يزرع زرعا فيأكل منه انسان أو دابة أو طير الا كانت له صدقة يوم القيامة

فمن فضائل الزرع ان الله سبحانه وتعالى كرر في كثير من الآيات ما أنعم به في اخراج الزرع والنبات ووصف نفسه بانه هو الذي أخرجه للحاجات فقال تعالى وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به اى بالماء نبات كل شيء فأخرجنا منه يعني من الماء خضرا يعني اخضر نخرج منه حبا متراكبا يعني سنابل البر والشعير والأرز والذرة وسائر الحبوب يركب بعضه بعضا وقال تعالى وهو الذى أنشأ جنات معروشات وهو ما انبسط على الارض وانتشر كالعنب والقرع وهو شجرة الدباء والبطيخ وغيرها وغير معروشات ماقام على ساق وبسق كالنخل والزرع وسائر الاشجار ثم قال والنخل والزرع مختلفا اكله أى ثمره وطعمه الحامض

والمر والحلو متدانيات يقرب بعضها من بعض في الجوار تختلف بالتفاضل
وجنات أي بساتين من اعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان الآية
والصنوان النخلات يجمعهن أصل واحد وبتشعب منه الرؤس فيكون نخلا
وقال سبحانه ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل
الثمرات ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون وقال تعالى أولم يروا أنا نسوق الماء
الى الارض الجرز وهي التي لانبات فيها فنخرج به زرعاً الآية وقال عزوجل
وآية لهم الارض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا الآية وقال تعالى والارض
وضعها للانام فيها فاكهة الى قوله والحب يعني جميع الحبوب من حنطة وشعير
وغيرهما ذو العصف يعنى التبن أول ما يبدو وقال تعالى ومثلهم في الانجيل كزرع
أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع الآية فقوله
تعالى ومثلهم يعني محمدا صلى الله عليه وسلم واصحابه رضي الله عنهم وقوله
في الانجيل كزرع أخرج شطأه يعنى فراخه يقال أشطأ الزرع اذا أفرخ فآزره
أي قواه من الموازرة بمعنى المعاونة أو من الايزار وهي الاعانة فاستغلظ فاستوى
على سوقه فاستقام على قصبه جمع ساق يعجب الزراع بكثافته وقوته وغلظه
وحسن منظره وهو مثل ضربه الله للصحابة قلوا في بدء الاسلام ثم كثروا
واستحكموا فترقى أمرهم بحيث أعجب الناس وقال تعالى أفرأيتم ما تحرثون
أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون فحسب أرباب الزراعة فخرا ان الله تعالى
وصف نفسه بهذا الوصف في قوله أم نحن الزارعون وهو مثل قوله تعالى
خطابا للنبي صلى الله عليه وسلم وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى ومعنى
الزارعون المنبتون وسيأتى بعض الكلام على هذه الآية فالافعال في
الحقيقة كلها لله سبحانه وتعالى قال تعالى والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون

والارض فرشناها فنعم الماهدون ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون فقد امتن الله سبحانه وتعالى على عباده ببناء السماء أي خلقها وتمهيد الارض وخلقة زوجين من كل شيء لان السماء يأتي من جهتها الماء النازل من السحاب ولان فيها تقدير الارزاق كلها ولولاه لما حصل في الارض حبة قوت وجمع بين السماء والارض في الامتنان لان السماء مسكن الارواح والارض موضع الاعمال والمراد بالايد القوة ولكون المخلوقات المتعيشة بالارض هي التي تعمرها قال ومن كل شيء خلقنا زوجين والمراد بالزوجين ما يشمل الزوجين الحقيقيين والمتشاكلين والضدين ونحو ذلك وقوله تعالى في جانب السماء وانا لموسعون أي أوسعناها بحيث صارت الارض وما يحيط بها من الماء والهواء بالنسبة الى السماء وسعتها كحلقة في فلاة والبناء الواسع الفضاء العجيب فان القبة الواسعة لا يقدر عليها البناؤن لانهم يحتاجون الى اقامة آلة يصح بها استدارتها وتثبت بها تماسك اجزائها الى ان يتصل بعضها الى بعض فقوله وانا لموسعون يرجع الى تمام القدرة بالنسبة اليه تعالى ومنه لا يكلف الله نفسا الا وسعها أي ما تقدر عليه وقوله تعالى فنعم الماهدون يعني الفارشون لها بعد خلق السماء ومع ذكر الامتنان على عباده فيه افادة الوحدانية في الذات والصفات والافعال الحقيقية وفيه تعليم لعباده ان يتشبثوا باستثمار ما خلق لاجلهم واكتساب فوائده كما أرشد موسى عليه السلام حين استسقى لقومه بقوله تعالى فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل اناس مشربهم فضربه عليه السلام الحجر بعصاه استخرج الماء الذي به حياة النفوس من الصخرة الصماء فالرزق انما يكون عادة بالعمل في الارض لكن بفعل الله سبحانه وتعالى ولذلك قال

تعالى أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون فأشار بذلك الى خالق الرزق الذي به بقاء المخلوقات ثم ذكر الماء الذي به الانبات ومنه المشروب ثم ذكر ما به اصلاح المأكول وهو النار فقال تعالى أفرأيتم النار التي تورون أي تقدحونها أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون فامتن سبحانه وتعالى بثلاثة أمور وهي المأكول والمشروب والمصلح للمأكول فذكر من المأكول الحب لانه الاصل ومن المشروب الماء لانه الاصل ومن المصلحات النار لان بها اصلاح اكثر الأغذية وأعمها ودخل في كل واحد منها ما هو دونه

مطلب الحرث والزرع

ثم ان الحرث هو أوائل الزرع ومقدماته من برش الارض وردها وتخديدها وخدمتها والقاء البذر فيها وسقي المبذور واما الزرع فهو آخر الحرث من خروج النبات واستغلاظه واستوائه على الساق فهو بهذا المعنى ليس فعلا للحارث الذى لا ينسب اليه الا المبادى فان ايجاد الحب في السنبلة ليس بفعل الناس وانما فعلهم هو القاء البذر والسقي ولكن لما كان الحرث متصلا بالزرع وكان الحرث أوائل الزرع والزرع أواخر الحرث جاز اطلاق احدهما على الآخر ولهذا قال تعالى أعجب الكفار أي الزراع نباته أي الحراث وقال تعالى أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون بمعنى المنبتون وقوله صلى الله عليه وسلم الزرع للزارع بمعنى آخر وفيه فائدة أخرى وهي ان الزرع لا يكون الا لمن أتي بالامر المتأخر وهو القاء البذر أى من له البذر على مذهب أبي حنيفة رحمه الله فقوله للزارع أظهر لانه بمجرد الالقاء في الارض يحمل الزرع للملقي سواء كان مالكا أو غاصبا وهذا يفيده لفظ الزراع لانه لو قال الزرع للحارث لأفاد أنه لابد من الابتداء

بعامل الزرع وتقليب الارض وتسويتها والقاء البذر فيها مع ان المقصود الاخير أي من له البذر

فعلم من هذا أن الله سبحانه وتعالى قد من على عباده بالارض الزراعية والسقي وخلق بقية العناصر النامة لانباتها وانما يحتاجون الى الاعمال الحراثية وغيرها فجبل سبحانه وتعالى فيهم القدرة على ذلك وخلق أفعالهم المستعدة لذلك فأعدهم للاشغال وبعث هممهم صوب الافعال فلاء والماشية في الظاهر جهتان جهة فاعلية وجهة انفعالية اى محلية والاول هو الاشغال والثانى هو الاراضى الزراعية

ثم اختلف هل منبع الغنى والثروة وأساس الخير والرزق هو الارض وانما الشغل مجرد آلة وواسطة لاقيمة له الابتطبيقه على الفلاحة أو ان الشغل هو أساس الغنى والسعادة ومنبع الاموال المستفادة وأنه هو الاصل الأولى للملة والامة يعنى ان الناس يكتسبون سعادتهم باستخراج مايحتاجون اليه لمنفعتهم من الارض أولراحة المعيشة فالفضل للعمل وأما فضل الارض فهو ثانوى تبعي وهذا هو الذى يعتمده أهل الفلاحة ويستدلون على ذلك بانه لايمكن ايجاد الخصب فى الارض الابدوام الشغل واستمرار العمل والابقيت مجدبة اذا انقطع الشغل عنها فان الشغل يعطى قيمة لجميع الاشياء التي ليست متقومة بدونه كالاشياء المباحة التي لاتباع ولا تشرى مما لوخليت ونفسها لاتساوي شيأ مثلا الماء والهواء أصلان لمنافع حياة الانسان ولامدخلان فى الثروة والسعادة ولا فى الملكية المسعدة لان هذين العنصرين اقتضت الحكمة الالهية الاكثار منهما فى جميع المحال وابيح لكل انسان التمتع بهما فهما فى حد ذاتهما على العموم ليسا من الاملاك المتقومة وان عظمت

فائدتها ولايزيد فى منفعتها النسبية الا العمل و لشغل يعنى أن جلبها اذا احتاج للعمل كان له قيمة بقدر العمل فقط لان الظمآن اذا احتاج الى من يجلب له الماء فى اناء كان الماء المجلوب لسد خلة العطش مقوما عند جلبه اليه دون قيمته فى النهر فان كوز الماء قد يعطى لمن يطلبه مجانا بدون مقابل وقد يعطى بثمن على قدر العمل وقد يبلغ عند الضرورة والاحتياج ثمنا جسيما كما وقع فى غزوة الفرنساوية بمصر أن أحد رؤساء العسكر الفرنساوية دفع فى كوز الماء مائة فرنك يعنى أربعمائة قرش واذا كان الانسان فى بيته واحتاج الى استنشاق الهواء فالعمل الذى يكون به فتح المنافذ كالابواب والطاقات والشبابيك يجعل له قيمة لم تكن له قبل ذلك وكذلك عند الضرورة كالهواء للمسجون فانه يتغالى فى تحصيله بدفعه للسجان قدرا جسيما فما يصرفه الانسان لتحصيل المباح من الماء والهواء انما هو قيمة العمل وأجرة الخدمة وفى مقابلة الامر والنهى والسلب والايجاب بحسب منافع هذه الاشياء ومضارها فهذا هو الذى يعد ملكا للانسان وثروة له باستحواذه على الماء والهواء وفيه ترويج للعقارات المشتملة على منافع هذين العنصرين ومثلهما النار والكلا المباح لقوله عليه الصلاة والسلام الناس شركاء فى ثلاثة الماء والكلا والنار فلايجوز لاحد تحجرها ولاللامام اقطاعها

فالمدارعلى العمل فى الرواج اذ به يستحوذ الانسان على منافع الحيوانات وصناعتها الالهامية فيؤلفها لهذه المنافع لينتفع بها أهل وطنه ويؤنس المتوحش منها لذلك فيتملك الانسان صناعة النحل وصناعة دود القز بتربيتها وبجودة عمل يتوصل الانسان الى اغتنام العون بحركة الهواء والماء وبصلابة الاجسام وأنيها وتصعب الأبخرة وبالسيارات وبكل مافيه قوة معنوية واسرار

منتشرة فى اجزائه الكونية وخواص تجريبية ليست من دائرة تصرف القوه البشرية وانما حدثت للانسان من جودة الصناعة وتقدم المهارة والبراعة ومعرفة الانتفاع بتلك القوى الطبيعية التى بثها فى الكون الحكمة الالهية فالمولى سبحانه وتعالى خلق لنا هذه الاسرار والخواص وخلق فينا العقل لنقدر على الاستعانة بها لتكميل ضعفنا والاستفادة منها فيما نحتاج اليه فان الآلات والدواليب البخارية مثلا والسفن المنشورة الشراع فى البحار العظيمة نستفيد منها الفوائد الجمة لقوة العمل الذى يعسر ان يكون مثله بالايدي منتجا مقدار انتاجه بالآلات

وفى الحقيقة جميع هذه الاعمال لا تمكن الانسان من الانتفاع بها حق الانتفاع الا بوجود الارض المخصبة او القابلة للخصوبة بالصناعة التى هي محل العمل

ولن تصادف مرعي ممرعا ابدا الا وجدت به آثار منتجع

فالارض المخصبة فضلها انما هو وجود خاصية الخصب الذى هو قبول الانتاج والاثمار وهـذه الخاصية بالنسبة لذات الارض غير محسوسة بل هى عبارة عن الاستعداد والقبول لاستخراج المحصولات منها بالعمل فهى فى اول امرها وقبل اصلاحها تحتاج كثيرها من الاشياء الطبيعية الى قوة ارادة واختيار صادرة عن عقل وتميز ممن يريد أن يتعاهدها بالعمل ويصلحها

فالمملكة المتسعة الاراضي القابلة للزراعة اتساعا بليغا يزيد عن حاجتها ليس فيها حق الملكية مشروعا ولا منتظما وليس لها ايراد ولا محصول ينتج من القدر الزائد عن حاجة أهاليها لقلتهم فالقدر الزائد من الاراضى ضائع بالنسبة الى المملكة هباء منثورا ولكون طريقها وعرا بقي اقليمها قفرا

كم من رياض لا انيس بها   تركت لان طريقها وعر

ومع ذلك لو استيقظ أهلها من الغفلة لأدوا لوطنهم مفروض العمران ونفله

لا تكونن للامور هيوبا   فالى خيبة يصير الهيوب

فلنفرض أن اقليما مشتملا على قوم يعمرونه كبلاد الشلوك والدنكة من الاقطار السودانية التابعة لهذه الحكومة المصرية به ارض زراعية يعني قابلة للزراعة لخصوبتها وان مقدار أهله مليون من الأنفس وان أراضيه الواسعة المخصبة تكفي لتعيش عشرة ملايين من الاهالي ففي هذه الحالة كل واحد من سكانه يشتغل بحراثة مقدار من الارض بقدر غذائه لا غير وليس له من الاشغال غير ذلك فآحاد الاهالي بهذا الاقليم مقتصرون على منافعهم الشخصية الذاتية فلا يفكر بعضهم وهو القوة الحاكية ان يطلب من البعض الاخر وهو القوة المحكومية شيئا في مقابلة المحصولات الغذائية بوصف الخراج ولا يرضى أحد منهم على فرض ان يطلب منه ذلك ان يدفع شيئا بهذا الرسم ولا برسم آخر كاستعاضات تجارية أو تبرعات ثوابية واذا دفع شيأ لآخر فانما يكون في مقابلة الاعمال فقط اذا كان الحارث يشتغل على ذمة آخر بأجرة عمله فلم يكن الحارث مكافا الا بالشغل على ذمة الزارع الذي وفر من زراعة عدة سنوات ماضية شيأ من المحصولات يعطيه للحارث بقدر تقاوي أرضه وقدر ما يعيش به الى أوان المحصول الجديد

فميسرة الزارع أي صاحب الزرع واقتداره على البزر والاجرة ثروة له فهي منبع الايراد بعد الشغل والشغل وهو العمل منبع الايراد قبل تحصيل البذر واجرة الحارث وهذا ينتج أن منبع السعادة الأولى هو العمل والكد ومزاولة الخدمة ومع ان كد العمل مصدر السعادة الاصلي فهو أيضا يعين

صاحب الميسرة على تكثير ميسرته بقوة العمل ومضاعفة الهمة حسب الطاقة أزيد مما تساعد خصوبة الارض عليه يعنى لو زرعنا أرضا خصبة وميزنا ما يمكن ان ينسب من ايرادها للعمل وما ينسب للخصوبة منه وفرزنا كلا على حدته وجدنا محصول العمل أقوى من محصول الخصوبة

ودليل ذلك ان الامة المتقدمة فى ممارسة الاعمال والحركات الكدية ذات الكمالات العملية المستكملة للادوات الكاملة والآلات الفاضلة والحركة الدائمة قد ارتفعت الى أعلى درجات السعادة والغنى بحركات أعمالها بخلاف غيرها من الامم ذات الاراضى الخصبة الواسعة الفاترة الحركة فان أهاليها لم يخرجوا من دائرة الفاقة والاحتياج فاذا قابلت بين أغلب أقاليم أوروبا وافريقية ظهر لك حقيقة ذلك

فمن هذا يظهر ان اساس الغنى مبنى على كثرة الاشغال والاعمال فهى مصادر وموارد للاموال ومنابع لاسعد الاقبال ومع ذلك فليس تعويد النفس على النشاط سهلا فان الانسان من أصل الفطرة مركوز فى طبعه كراهة التكليف بالعمل والتباعد منه حسب الامكان مع احتياجه اليه لحفظ نفسه وبقاء جنسه بالتناسل الذى من لوازمه كثرة العمل وذلك انما يكون بالتشويق للزواج الذى به نمو النوع البشرى فى البلاد الخصبة فتبعث الوجدانيات صاحب العيلة على ان يستعمل حركة قواه لحاجته وتحصيل لوازمه فيغلب التطبع على الطبع ويحمل الانسان على الشغل رغما عن انفه فهذا التطبيع الذى هو طبع ثان للانسان طارئ وعارض عليه يزول بانتهاء قضاء الاوطار فيعود للانسان طبعه الاول من حب الدعة والراحة والانهماك على البطالة ولا يخرج من ذلك الا اذا تولد عنده احتياج جديد فيعمل بقدر قضاء الوطر ثم يعود

الى الدعة والبطالة وهلم جرا وهذه الحالة في البلاد الخشنية هي حالة طبيعية قريبة من الحالة الفطرية التي هي حالة النوع البشري في اول امره

فالانسان في هذه الحالة من حيث انه فرد من افراد الهيئة الاجتماعية لم يكن قوي الميل لتمدن الهيئة الاجتماعية يعني ان كل فرد من افرادها يكون بهذه المثابة لا انتفاع للجمعية بعمله فجميع اعضاء الجمعية الخشنية تمتد نفوسهم بالراحة والدعة لا سيما اهل الاقاليم التي لا تستدعي احتياجاتهم بها كبير عمل ولا عظيم شغل فبطالة اعضائها كأنها رأس مالهم وراحتهم يعدونها من أعظم احوالهم وكذلك بعض اهالي المدن الغنية المثرية ذات الايراد المتلذذة بحسن المطعم والمسكن والزينة والرفاهية فانهم يصرفون النظر عن التلذذ بالشغل ويميلون الى الراحة والتلذذ بالبطالة والاستراحة ويهربون بالسرعة من التمتع بالرفاهية اذا اضطروا ان يشتغلوا بأنفسهم لا بخدمهم فلا يعملون الاعمال الشاقة في اراضيهم التي لا تقوم بهم الا بكثرة العمل فيتركون ملازمتها اذا اقتضى الحال ان يكدوا أنفسهم بعمل هين ولو كان جزء من ألف جزء من المتاعب التي يتعبها العملة فيفوتون هذه اللذات الجسيمة ايثارا للدعة والراحة عليها لما قلناه من ان محبة الراحة فطرية مألوفة للنفوس على الاطلاق متمدنة أو غير متمدنة يعني ان اهل الممالك المتمدنة لو كلف مترفوهم واهالي رفاهيتهم العمل اليسير وكان لولاه لفاتهم التمتع بها فانهم يؤثرون الراحة على الشغل ولذلك تقول العامة الراحة والكسل أحلى مذاقا من العسل وقد نظم هذا المعنى بعض الشعراء فقال

ان البطالة والكسل   أحلى مذاقا من عسل
ان لم تجربها فسل   من كان قبلي في الكسل

[redacted]

ثم هنا ينتج ان كل امة مجموع شملها النجز يساوى مجموع احتياجاتها البشرية فاذا فرضنا في القضية المتقدمة ان اقليم الشلوك والدنكة بالسودان اقليم فلاحة وان مقدار أهله مليون ومساحة ارضه عشرة ملايين من الفدادين وان الشخص الواحد يكفيه فى غذائه فدان واحد فتكون ارض هذا الاقليم كافية لغذاء عشرة ملايين من الانفس فهي زائدة تسعة ملايين عن حاجة أهلها الموجودين بها فكل انسان من الاهالى يشتغل بقدر مايلزم لحاجته فالعمل الزراعي لا يكون من الجميع الا بقدر المؤنة اللازمة للجميع دون الزيادة عليها وفي هذه الحالة يكون عمل كل انسان اقل من طاقته وجهده ودون قواه الطبيعية بحيث يكون له من البطالة نصيب عظيم وايضا لا يزرعون في هذه الحالة من اقاليمهم الا المزارع الخصبة التي تكون سهلة الحراثة قريبة السقي بدون ان يكون فيها كبير مشقة على الحارث فتلك الامة التى فرضنا اتصافها بتلك الصفات تقنع بالفلاحة اليسيرة وتكتفي بقدر القوت الضرورى للازمة الكسل وحب الراحة للطبع البشرى فكل فرد من افراد هذا الاقليم مستعد لان يصرف ثلاثة ارباع زمنه في التمتع بلذة البطالة والراحة بدون ان يعود عليه ضرر في احتياجاته الاولية وافواته المعاشية فلا يضره ضياع الأوقات

والغالب أيضا ان الاهالى الذين هم بهذه المثابة لا يكادون يخرجون عن هذه الحالة مالم تغلب على طباعهم واحوالهم حالة أخرى تعادل قوة الاحتياجات الاولية كالتناسل والتوالد او تشوقهم الحكومة الى ذلك أو تجبرهم عليه فان الكثرة تستجلب الحاجة فبهذا يزيد عددهم وينمو فى قليل من السنين ويصير ضعفين فيتضاعف مقدار زراعتهم بذلك فيكون للمليونين من الأنفس مليونان من الفدادين وفى مدة مساوية لما ذكر يكون عدد الاهالى أربعة ملايين

وهكذا الى ان يبلغ مقدار الاهالي عشرة ملايين بقدر ما تكفيه من الغذاء فتحس الامة احساسات قوية بصعوبة تحصيل غذائها لكثرة أهاليها فلا تكاد تحصل منه على الكفاية فكل شخص من الاهالي نقص له شيء من غذائه اضطر على ان يصرف جميع زمنه وجميع قواه في تحصيل الغذاء والمؤنة ففي هذه الحالة تجدد لاهالي هذا الاقليم صفة نشاط أخرى فيكون مقدار الشغل عندهم والعمل الكافي لهم صرف ما يستطيعونه من الكد والاجتهاد والقوة والنشاط ولا تزال تتزايد عندهم القوة النشاطية والانتفاع بالاراضي الزراعية ايا ما كانت خصوبتها

رق الى صغير الامر حتى يرقيك الصغير الى الكبير

وهذه الحالة حالة تقدم للهيئة الاجتماعية محتاج اليها جميع أعضاء الجمعية ففي أثناء تقدم الاهالي بهذه المثابة تجدد عندهم حق من الحقوق المدنية وهو مبدأ حق التملك للاراضي وحوزها بوضع اليد عليها باحياء مواتها فمن هذا الوقت يصير للارض قيمة في حد ذاتها زائدة عن قيمة العمل فالشاغل لارض يختص بها بدون أن يستولى عليها بالعمل بالتملك وفي هذه الحالة تضطر الاهالي الى الاستيلاء على جميع الاراضي القليلة المحصول التي كانت قبل ذلك عديمة الرغبة فيها فيصير صرف الهمة في اصلاحها بالحراثة ثم لا تكتفي الاهالي بذلك بل ربما تدعو الضرورات الى اصلاح الاراضي العقيمة المجدبة وتقويم أودها بالحرث والخدمة واحياء مواتها بل كل من استولى على ارض بهذه الحالة أجهد نفسه في اصلاحها لاستحصاله منها على البذر والتقاوي واجرة العمل والتسوية مدة احيائها وجبر الخسارة التي خسرها محييها

فحينئذ كل فرد من افراد الجمعية محترف بحرفة الفلاحة والعمل فيها مضطر لان يؤجر نفسه للحرث والغرس ليتعيش بحرفته ويدخل عند مالك الارض بوصف أجير عامل ويكلف نفسه ان يصرف جميع أوقاته في خدمة الارض بدون راحة الا بقدر المسافات الضرورية لأكله وشربه ونومه وعبادته ونحو ذلك فبهذا تزداد نتائج الزراعة وتنمو يوما فيوما بكثرة العمل فالعامل الذي كان يعمل في الزمن الاول مقدارا يسيرا ويقضي أوقاته في البطالة يضطر الى ان يعمل في الزمن بعينه مقادير جسيمة ويستحصل على كثير من المحصولات بقدر زيادة القوة البشرية وذلك ان كلا من العملة واصحاب الاملاك يجتهد في البحث عن الوسائل والوسايط المقربة للعمل المسهلة له المقللة لأوقاته

فكن باحثا عما عناك فانما دعيت أخا عقل لتبحث بالعقل

ويصير الاجتهاد في ذلك بحيث ما يعمله العامل في يوم يمكنه ان يعمل اضعافه في اليوم الواحد ثلاث مرات او اربعا لان العامل قد تجرد في هذه الحالة عن البطالة وتفرغ للعمل وتمرن عليه بالمداومة فكلما مارسه تجددت عنده معرفة تامة بجيد بها عمله ويتزايد الدرجات في الكمال تحسن الزراعة وتتكامل البراعة فيها فيحسن العامل العمل ويتفنن فيه ويقسمه الى اقسام ويعرف الاوقات والفصول والساعات وما يخص انواع الزراعة وما يقويها من المصلحات فتعلو قيمة العامل بالتجربة والجودة وكذلك يقف على معرفة خصائص ما يستعين به من الالات العنصرية المسهلة لصنعته كالهواء والماء والبخار فتكون هذه الاشياء المسهلة عنده أدوات عمل كأنها عوامل بدون أجرة وانما يحسن استعمالها ارباب المهارة والصناعة فاذا توفرت

عند الزارعين هذه الوسائط المتكاملة النافعة حسنت بها نتائج الاعمال اليومية وعظمت بها ثمرات الاشغال

فبهذه الطرق والوسائل ينطبع فى مرآة عقول الامة المتعيشة من الفلاحة صورة حركات الاشغال التقدمية ويتعودون على المبادرة بنشاط الاعمال الفلاحية فلا تزال تتجدد المنافع العمومية بالتدريج وتأخذ فى الزيادة بدون نهاية وبهذه المنافع الاهلية تكثر أموال الرعية وسعاداتها التعيشية

ثم ان المقتطف لثمار هذه التحسينات الزراعية المجتنى لفوائد هذه الاصلاحات الفلاحية الناتجة فى الغالب عن العمل واستعمال القوى الآلية والمحتكر لمحصولاتها الايرادية انما هو طائفة الملاك فهم من دون أهل الحرفة الزراعية متمتعون بأعظم مزية فأرباب الاراضي والمزارع هم المغتنمون لنتائجها العمومية والمتحصلون على فوائدها حتى لا يكاد يكون لغيرهم شيء من محصولاتها له وقع فلا يعطون للاهالي الا بقدر الخدمة والعمل وعلى حسب ما تسمح به نفوسهم فى مقابلة المشقة يعني ان الملاك فى العادة تتمتع بالمتحصل من العمل ولا تدفع فى نظير العمل الجسيم الا المقدار اليسير الذى لا يكافىء العمل فما يصل الى المال فى نظير عملهم فى المزارع أو الى أصحاب الآلات فى نظير اصطناعهم لها هو شيء قليل بالنسبة للمقدار الجسيم العائد الى الملاك فان المالك يستوفى لنفسه اكثر محصول الارض فانه بعد تصفية حساب مصاريف الزراعة وجميع كلفها يأخذ محصولها تمامه بوصف ايراد للارض وعلف للمواشى وأجرة للآلات ولا يعطى لأرباب الاعمال والاشغال منها الا قدرا يسيرا ولا ينظر الى كون بعض هؤلاء العمال هو الذى حسن الزراعة بشغله واخترع لها طرائق منتجة واستكشف اكتشافات عظيمة مهمة

الزراعة وتكثير أشنالها فان حق التمليك ووضع اليد على الزارع سوغ للملاك ولواضعي الأيدي ان يتصرفوا في عمليات املاكهم التصرف التام وان يعطوا للعمال بقدر مايظنون انه من لياقتهم ويعتقد المالكون أنهم أرباب استحقاق عظيم بسبب التملك وانهم هم الاولى بالسعادة والنفى مما تحصل من عمليات الزراعة وأن من عداهم من أهل المملكة لا يستحق من محصول الارض شيأ الا في مقابلة خدمته ومنفعته المأمور باجرائها في حق أرضهم فيترتب على هذا ان كل من يريد من الاهالى ان يتعيش من الخدمة التي هي العمل يصير مضطرا لان يخدم بالقدر الذي يتيسر له أخذه من الملاك بحسب رضائهم ولوكان هذا القدر يسيرا جدا لا يساوي العمل لاسيما اذا وجد بالجهة كثير من الشغالين فانهم يتنافسون في الأجرة ويتنافسون في ذلك لمصلحة صاحب الارض مع ان الارض انما تحسن محصولاتها بالعمل فلا يمكن أن يكون ذلك التحسن والزيادة والخصب الا بالعمليات الفلاحية الصادرة من هؤلاء الأجرية الذين ناقصت أجرتهم وكما أن أرباب الاملاك يحتكرون جميع الاعمال الزراعية من طائفة الفلاحة كذلك يحتكرون ثمرات جميع الصنائع لان الصنائع كلها تسعى وتنهض في الاشغال والعمليات التي تستدعيها حاجة الفلاحة كالحدادة والنجارة وجميع صنائع أهل الحرف المتعلقة بأمور الفلاحة

فينتج من هذا كله أن زيدا من الناس اذا لم تساعده المقادير على ان يصير مالكا لقطعة أرض لايزال يقاسم مالك الارض فيما تحصل من الثروة الزراعية ولكن قسمته ناقص جدا فانه لا يأخذ من المحصول الزراعي الا القدر الذي يسمح به المالك في مقابلة خدمته وصناعته وثمن الأدوات

والآلات والدواليب المهندمة للزراعة فاذا كان مالك الارض سخيا كريما مبسوط اليد كافأ المكافأة التامة ووسع على من ينتفع بغنه فقد جرت العادة أن الفلاح لا يكافأ على قدر خدمته وحراثته لقاعدة مشهورة ان من زرع يحصد يعني ان المحصود للمالك وقد قال صلى الله عليه وسلم الزرع للزارع مع ان المعنى فيه ان الزرع لمن بزر والثمرة له وعليه أجرة مثل الارض لا أن العامل يأخذ اجرة قليلة على عمله فى خبر الصحيحين انه صلى الله عليه وسلم عامل اهل خيبر بشطر ما يخرج منها من ثمر او زرع أى أعطاهم النصف فى نظير عملهم وفى رواية دفع الى يهود خيبر نخلها وأرضها والمراد بعملهم مساقاتهم ومزارعتهم فالواقع منه صلى الله عليه وسلم مزارعة تابعة للمساقاة والزرع المذكور فى الحديث كان شعيرا كما استظهره بعضهم ومثل الزرع المذكور غيره كلوخية وبامية وخوخ ومشمش فتصح المزارعة على ذلك تبعا للمساقاة والبذر فيها من المالك بخلاف ما اذا كان البذر من العامل فهي مخابرة وهي المسماة أيضا بالمشاطرة التى تقع فى مثل العنب والخوخ فيدفع المالك الارض للعامل ويزرعها العامل ببذر من عنده وكذا القمح بل وقوع المخابرة الآن مع انها غير جائزة موجودة بمصر أكثر من المزارعة فحديث الزرع للزارع لا يدل على شيء من جواز استحواذ المالك على المحصولات وعدم مكافأة العامل ولا يستند فى غبن الأجير الى ان المالك دفع رأس ماله فى مصرف الزراعة والتزم الانفاق عليها فهو الأحق بالاستحواذ على المحصولات الجسيمة وانه الاولى بربح امواله العظيمة فهو الاصل فى التربيح وان عملية الفلاح انما هي فرعية انتجها وحسنها رأس المال فان هذه التعليلات محض مغالطة اذ فرض الكلام فى العامل جرلمعمل

منتج لولاه لما ربحت الارض ربحا عظيما فوا كسه المالك له فى تقليل أجرته محض إجحاف به ووصف استملاك الاراضى والصرف على الزراعة من رأس مال المالك لا يقتضى كونه يستوعب جل المحصولات ويجحف بالأجير نظرا الى ازدحام أهل الفلاحة وتنقيصهم للاجر وسومهم على بعضهم بالمزايدات التنقيصية وهذا لاثمر محبة الاجير للمالك (من زرع الشوك لايحصد به عنبا) فان هذا فيه ايذاء بعضهم لبعض وهو ممنوع شرعا كما يدل عليه ماروا‌ه ابو هريرة رضى الله عنه فقد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله اخوانا المسلم اخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره التقوى ههنا ويشير الى صدره ثلاث مرات بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه رواه مسلم وفى رواية ولا يسم على سومه ولا يخطب على خطبته وحيث كان هذا الحديث كثير الفوائد عظيم العوائد مشيرا الى حل المبادي والمقاصد حاويا لكثير من الاحكام والآداب اشارة وصراحة لا سيما انه ينطبق انطباقا كليا على اعمال الفلاحة بينا معناه بطريق الاختصار فقوله صلى الله عليه وسلم لا تحاسدوا أي لايحسد بعضكم بعضا أي لاتتمنى زوال نعمة غيره لان الحسد حرام لقبحه عند المشرعين وغيرهم قال الشاعر

وأظلم اهل الارض من كان حاسدا ... لمن بات فى نعمائه يتقلب

وليس من الحسد تمنى الانسان مثل ما للغير لنفسه فان هذا هو الغبطة الممدوحة وقوله صلى الله عليه وسلم ولاتناجشوا أى لاينجش بعضكم على بعض بان يزيد فى المبيع ليخدع غيره وهو أيضا محرم اجماعا لانه غش

« مطلب » تفسير قوله صلى الله عليه وسلم لا تحاسدوا ولا تناجشوا الخ

وخداع وهما محرمان لحديث من غشنا فليس منا وفى رواية من غش فليس منا ومعناه لا يعامل احدكم صاحبه بالغش والمكر والخديعة فيدخل فى قوله ولا تناجشوا جميع انواع المعاملات بالغش ونحوه كتدليس العيوب وكتمها وخلط الجيد بالردىء قال الشاعر

ليس دنيا الا بدين وليس الدين الا مكارم الاخلاق
انما المكر والخديعة في النا س هما من خصال أهل النفاق

ومن المعلوم ان الحسد والغش يتولد عنهما التباغض اذ يكونان من أسبابه فلذلك قال صلى الله عليه وسلم ولا تباغضوا أى لا يبغض بعضكم بعضا أسيء لا تتعاطى أسباب البغض أيا ما كانت كالمواكسة السابقة المذكورة بل ينبغى للناس أن يسعوا بما فيه ائتلاف القلوب بتعاطي أسبابه فقد امتن الله سبحانه وتعالى على عباده اذ ألف بين قلوبهم فقال واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وقال تعالى لو انفقت مافي الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم فالانسان مكلف بتعاطى أسباب الالفة والمحبة واجتناب أسباب العداوة والبغضة ثم قال صلى الله عليه وسلم ولا تدابروا أى لا يدبر بعضكم عن بعض أي لا يعرض بعضكم عما يجب للبعض الآخر عليه من الحقوق كالاعانة والنصر والتخاطب والتآلف وعدم الهجر فى الكلام الا لعذر شرعى كنحو تهمة وقصد تأديب ثم قال صلى الله عليه وسلم ولا يبع بعضكم على بيع بعض بان يقول بائع لمشترى سلعة فى زمن الخيار أفسخ هذا البيع وأنا أبيعك مثلها بأرخص من ثمنها أو يقول أنا أبيعك أجود منها بثمنها ومثله الشراء على الشراء بان يقول مريد الشراء للبائع فى زمن الخيار افسخه

وأنا أشتريه منك بأغلى فان هـذا كله من باب الضرر ومثله السوم على السوم والخطبة فى الزواج على خطبة الغير ومثل ذلك كل ما كان فى معناه مما ينفر القلوب ويورث البغضاء وأغلب أهل الفلاحة والصناعة والتجارة لايتحرزون عن ذلك لاسيما بعد استقرار البيع والايجار والتراضى عليه ويتعللون فى جواز القدوم على ذلك بالغبن وبعض العلماء لايجوز القدوم عليه ولوكان مغبونا وبالجملة لا تجوز الزيادة فى ثمن البيع والسوم ولا على الايجار بعد الاستقرار بل تحرم وتجوز الزيادة قبل الاستقرار

ثم حث صلى الله عليه على حسن المعاشرة والملاطفة والتعاون فى الخير بقوله وكونوا عباد الله اخوانا يعني ياعباد الله كلكم خلق الله قد أخرجكم من العدم لحكمة انتظام العالم وتكثير منافعه فاكتسبوا ماتصيرون به اخوانا فى المودة وقد أمركم بما تقدم ذكره وأنتم عبيده فحقكم أن تطيعوه وتتعاطوا أسباب ماتصيرون به اخوانا للتعاضد على اقامة دينه واظهار شعائره وانتظام ملكه وهذا انما يكون بائتلاف القلوب وتواطىء الكلمة كما فيده قوله تعالى هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم الآية ثم ان أخوة العبودية التى هى التساوي فى الانسانية عامة فى حقوق أهل المملكة بعضهم على بعض التي هي حقوق العباد وهناك حقوق العبودية الخاصة التي هى الاخوة الاسلامية وهى اكتساب مايصير به المسلمون اخوانا على الاطلاق من اداء حقوق بعضهم على بعض كرد السلام وابتدائه وتعليم الاحكام الشرعية ونحو ذلك من شعب الايمان فهذه هى التى أشار لها صلى الله عليه وسلم بقوله المسلم اخو المسلم يعنى أخوة دينية لانهما يجمعهما دين واحد وهى أعظم من الاخوة الحقيقية وقد قال الله تعالى انما المؤمنون اخوة وفى

« مطلب » تعميم ابناء الوطن فى مكارم الاخلاق بدون تفرقة ولا نظر للاختلاف فى الدين

در

الصحيحين مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر وروى أبو داود المؤمن أخو المؤمن يكف عنه ضيعته ويحوطه من ورائه ورواية الترمذي ان أحدكم مرآة أخيه فان رأى به أذى فليمطه عنه أي يبعده عنه ولامانع أن يعمم في مكارم الاخلاق لجميع مايجب على المؤمن لاخيه المؤمن منها يجب على أعضاء الوطن في حقوق بعضهم على بعض لما بينهم من الأخوة الوطنية فضلا عن الاخوة الدينية فيجب ادبا لمن يجمعهم وطن واحد التعاون على تحسين الوطن وتكميل نظامه فيما يخص شرف الوطن واعظامه وغناه وثروته لان الغنى انما يحصل من انتظام المعاملات وتحصيل المنافع العمومية وهي تكون بين اهل الوطن على السوية لانتفاعهم جميعا بمزية النخوة الوطنية فمن ارتفع من بين الجميع التظالم والتخاذل وكذب بعضهم على بعض والاحتقار ثبتت لهم المكارم والمآثر ودخلت فيما بينهم السعادة بكسب شمائرها ومآثرها فلذلك بين عليه الصلاة والسلام قوله المسلم أخو المسلم بقوله لايظلمه أي لايدخل عليه ضررا في نحو نفسه اودينه اوعرضه أوماله لان ذلك قطيعة محرمة تنافي الأخوة

قال الامام ابن حجر في شرحه على الاربعين النووية بل الظلم حرام حتى للذمي فالمسلم أولى انتهى وهذا يؤيد ما قلناه من ان اخوة الوطن لها حقوق لاسيما وانها يمكن ان تؤخذ من حقوق الجوار مما للجار على جاره خصوصا من يقول بأن أهل الحلة الواحدة كلهم جيران وقوله صلى الله عليه وسلم ولايخذله اي لايترك نصرته المشروعة لاسيما مع الاحتياج والاضطرار اليها وقوله ولايكذبه أي لايخبره بامر على خلاف الواقع لانه غش وخيانة قال تعالى ياايها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين وقد اجمع جميع الملل

« مطلب » تسوية الذمي بالمسلم في حرمة ظلمه

على قبحه وتحريمه الا لمصلحة قوية ضرورية ولا يحقره أي لا يستصغر شأنه ويضع قدره ولا ينبذ عهده ولا ينقص امانته باستخانته

وبالجملة فيعامل اخاه بمضمون حديث لايؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه مايحب لنفسه فالاحتقار شيء عن الكبر وهو مذموم لان المتكبر ينظر لنفسه بعين الكمال ولغيره بعين النقص فيحتقره ولا يراه أهلا لان يقوم بحقوقه قال ابن حجر وتخصيص ذلك بالمسلم لمزيد حرمته لا للاختصاص به من كل وجه لان الذمي يشاركه في حرمة ظلمه وخذلانه بدفع نحو عدوه عنه والكذب عليه واحتقاره الامن حيث مغايرة الدين ثم قال صلى الله عليه وسلم التقوى ههنا ويشير الى صدره ثلاث مرات يعني ان التقوى هي اجتناب عذاب الله تعالى بفعل المأمورات وترك المحظورات في القلب الذي في الصدر قال تعالى ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب وفي هذا اشارة الى ان العبرة بالقلوب كما يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام ألا ان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب فهو العارف بالشرائع والطرائق والحقائق واذا استقام القلب استقامت الجوارح لاسيما اللسان فانه يكف أذاه عن كل انسان وهنالك يستقيم الايمان فعلى الانسان ان يتمسك بالتقوى التي هي السبب الأقوى ويقف عند حد كلام النبوة ليتصف بالمروءة والفتوة فلا يظلم احدا ولا يحقره ولا يكذبه ولا يخذله فقد قال صلى الله عليه وسلم انزلوا الناس منازلهم وقال ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا ثم قال صلى الله عليه وسلم بحسب امرء من الشر ان يحقر اخاه المسلم يعني يكفي الانسان في ان تكون اخلاقه موصوفة بالشر وان يكون سيء المعاش والمعاد احتقار أخيه المسلم واحتقار من له

حرمة من الناس لان الله عز وجل لم يحقر الانسان اذا أحسن تقويم خلقه وسخر ما في السموات والارض كله لاجله فاحتقاره احتقار لما عظمه الله عز وجل وكرمه قال تعالى ولقد كرمنا بني آدم فازدراؤه من أعظم الذنوب والجرائم ثم قال صلى الله عليه وسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه يعني انه يحرم على المسلم سفك دم اخيه وسلب ماله وهتك عرضه وأدلة تحريم هذه الثلاثة شهيرة من الكتاب والسنة واجماع الامة وهي أصول قوام صورة الانسان لان الدم به حياة الانسان ومادة الحياة هي المال وبالعرض الذي هو الحسب قوام الصورة المنوية وما سوى هذه الأصول الثلاثة متفرع عنها وراجع اليها فهذا الحديث يحث جميع الناس على مكارم الاخلاق وعلى التعاون في التعيش والمعاملة وأكثر الناس معاملة هم أهل الزراعة فان أرباب الأملاك والاراضي يحتاجون الى التعاون في زراعة أرضهم بأكثر الصنائع وقد قال صلى الله عليه وسلم استعينوا على كل صنعة بصالحي أهلها وكذلك أهالي الصناعات محتاجون لارباب الاملاك الارضية للتعيش من محصول أراضيهم فيجب عليهم جميعا المناصحة لبعضهم وتقوى الله في صنعتهم ثم ان العمل الذي عليه مدار الفلاحة كما ان الفلاحة عليها مدار غيرها من الصنائع ينقسم الى قسمين منتج وغير منتج وهذا هو موضوع الفصل الثالث من هذا الباب

« مطلب » احتياج الزراعة لاكثر الصنائع وبالعكس

الفصل الثالث

(في تقسيم الأعمال الى منتجة للاموال وغير منتجة لها اى استقلالية وغير استقلالية)

من المعلوم ان العمل والشغل مترادفان على معنى واحد عند أهل الصناعة والعامل والشغال كذلك فما يقال فى العمل والشغل يتصف به العامل والشغال ومن المحقق ان الافعال كلها لله سبحانه وتعالى وانما احوج عباده الى تحصيل اسباب الحاجة المتكاثرة ليظهر للخلق انه اراد استجلابها بوجه حلال وجعل الانسان أكثر اصناف الحيوانات احتياجا وجعل دونه فى الاحتياج سائر اصناف الحيوانات حيث اقتضت الحكمة الالهية ان تكون غنية باصوافها وأوبارها واشعارها عن اللباس والدثار وغنية بالارض والأوكار عن ان تتخذ بنيانا واشرك الجميع فى مادة الاحتياج الى الغذاء لئلا يشتركوا مع الالوهية فاذا ادعى بعضهم الربوبية لنفسه كفرعون أو لغيره كان احتياجه الى تكرار الغذاء شاهدا على كذبه كما قال الله تعالى ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل أى مضوا فهو يمضى مثلهم وليس باله كما زعموا وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام أى كغيرهما من الحيوانات المشتركة معهما فى ذلك ومن كان كذلك لا يكون آلها لاحتياجه الى الطعام والى خروج ما ينشأ عنه من الفضلات فالعمل والتدبير انما هو لله سبحانه وتعالى فى تحصيل ما يحتاج اليه الآدمي وغيره من الغذاء والادم والفواكه والأشربة كما قال الله تعالى انا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا أى بالنبات فانبتنا فيها حبا أى كالحنطة والشعير وعنبا وقضبا أى تبنا للعلف وزيتونا ونخلا وحدائق أى بساتين غلبا أى عظاما كثيرة أشجارها

وفاكهة اى ثمارا طيبة غير ما تقدم وأبا أى مرعى للدواب أو يابس الفواكه متاعا لكم ولانعامكم أى الابل والبقر والغنم فان الانواع المذكورة بعضها طعام وبعضها علف وابتدأ تعالى بالمن بانبات الحب لانه أنفع النبت ولان الانسان اذا تأمل في انبات الحبة الصغيرة استدل بذلك على عظيم قدرة الله تعالى لان الحبة ولو صغيرة جدا اذا دفنت في الارض وحصل لها نداوة انفتحت ثم لا تنشق مع عموم الانفتاح لها الا من أعلاها وأسفلها فيخرج من الأعلى الجزء الصاعد الممتد وهو الساق ثم يتشعب منها أغصان كثيرة الى الجانبين ثم يطلع الزهر غالبا ثم منه تصلح الثمرة وهي مشتملة على أجزاء غليظة كالقشر ولطيفة كاللب وفيه الدهن وأما الجزء الغائص من أسفل الحبة فيتفرع منه عروق تغوص في الارض الشديدة الصلابة مع غاية لطفها ويوصل الله بها الأغذية من الطين الى الجزء الصاعد والاغصان ويوزعها الله فى كل جزء من أجزاء الاغصان فاذا تفكر الانسان فى هذا وأمثاله ذهبت غفلته وحدث للقلب خشية كما يحدث الله عند الماء النماء للزرع وعلم ان الفعل لله حقيقة ولغيره مجازا

وقد قسم أرباب الادارات والتدابير العمل الى قسمين لا ثالث لهما منتج للمال وغير منتج له لان العمل لا يخلو اما ان تزيد قيمة مورده بالربح فهو المنتج واما أن لا تنشأ عنه ثمرة تربيح مالي تنسب اليه فهو غير المنتج وهذا يرجع الى الاستغلال وعدمه بالعمل وكما يقال للعمل منتج أو غير منتج يقال للعامل كذلك فالعمال صنفان مكتسبة ومرتزقة ويقال للعمل أيضا خدمة سواء كان جليلا أو حقيرا فبهذا المعنى يقال لمطلق العمل خدمة وانما العرف يخص الخادم بالمعنى المشهور المتعارف والقرينة بحسب الحال

تدل على المعنى المراد ثم ان العامل فى أوسية أو دائرة العامل صناعية أو زراعية تزيد بعمله قيمة البضائع المصنوعة التى هى مورد عمله فله مدخل عظيم فى ترييح صاحب الملك فهذا العامل منتج للكسب والاستغلال بخلاف عمل الخادم عند السيد فانه ليس فيه فى حد ذاته للسيد ربح ولا مكسب مالى ومن المعلوم ان كلا من العامل والخادم يتعيش من محل العمل أو محل الخدمة لانا اذا نظرنا للحقيقة ونفس الامر نجد أن العامل المستأجر يأخذ من صاحب المصنع أجرة مقدمة على العمل ومع ذلك لايتكلف على صاحب المصنع شيأ فان أجرته فى الغالب تمض من الربح الزائد المتسبب عن عمله فهو يأخذ من ثمرة كده وعرق جبينه بخلاف ما يأخذه الخادم من سيده من الجامكية فى مقابلة خدمته فليس مأخوذا من مورد مالى صادر عن عمل الخادم والدليل على ذلك ان آحاد الناس من ارباب الفلاحة أو الصناعة قد ربح من عمل عماله وآثار مهارتهم شيأ يصير به رئيس جماعته فلاحية او عريف فرقة صناعية فيتشغيله كثيرا من العملة والشغالين فى دائرة شغله ينمو ماله ويزيد عناه وتكمل سعادته وكلما كثرت اتباعه فى هذا الخصوص كثرت ثروته وان السيد قد يكثر من الخدم والحشم فيكون ذلك سببا لتناقص ماله وانحطاط قدره وما ذاك الا ان الأول جميع من عنده من العمال يعملون عملا منتجا مربحا بخلاف الثانى فان عمل خدمه وحشمه غير منتج للمال ومع ذلك فسيد الخدام بحكمهم بقدر استحقاقهم ونشاط خدمتهم وتأدية ما هو مطلوب منهم فهم آخذون لا معطون بخلاف عمال الأشغال الصناعية فأجرتهم تقدر على قدر مورد العمل والمتحصل منه من الأرباح والفوائد هذا اذا كان بالياومة واذا كان بالمقاولة والالتزام

« مطلب » (الفرق بين العامل والخادم)

والتعهد فان رؤس الصناعة يعطى المعات الجسيمة المتراكة الأجزاء والمواد بقدر معلوم للعمال فى نظير الأجرة فاذا تخصصت على الزمن ربما تفرق عن المياومة بكثير فيربح المالك ربحا عظيما ويخسر العامل لانه معط نوعا للكثير وآخذ للقليل وجميع هذه المصنوعات والمشغولات توضع فى مخازنها الى وقت رواجها فتباع وتحصل منها مقادير جسيمة بحيث تكفي لتشغيل مشغولات قدر التشغيلات الأولية التى بيعت مشغولاتها عند رواجها يعنى ان صاحب المال ربح جودة وسائل التشغيل وأدواته فقد توفر رأس ماله وما اكتسبه من عمل العمال وهلم جرا الى غير نهاية بخلاف خدمة الخادم لسيده فلا ثمر له ثمرة باقية وليس لها مورد ولا محصول ولا بضاعة تباع ولا تشرى بل خدمات الخادم اعراض تنقضى بالفراغ من عملها بدون بقاء أثر ولا قيمة فلا تعطي بعد انقضائها ربحا يكفى صرفه لمدة أخرى بقدرها عند العود لمثلها ولو كانت لزومية وعليها مدار العمل في الجمعية يعنى فى المملكة المتمدنة

لخدمة المتقلدين للمناصب العالية والوظائف السامية فى أى دولة من الدول وكذلك خدمة الخدم المتادين لسادتهم فى أى بلد كان لا تنتج ربحا مالياولا قيمة مثرية للمخدوم محسوسة يعنى لا تنتج بنفسها استغلال الاموال لمن هى منسوبة له وهذا لا يقدح فى حقها شيأ لان خدمة أرباب المناصب فى الممالك عليها مدار العمل والارشاد بالتدبير والسعى فى الاصلاح فانتاجها الحقيقى انتاج بالواسطة فهو انتاج الانتاج لا انتاج بالفعل والمباشرة وكلامنا فى انتاج رؤس الاموال والسرمايات دون الانتاج الارشادى والا اذا نظرنا الى انتاج الادارة ومعونة الحكومات وجدنا صحة ماسلف نقله عن الخليفة

المأمون من قوله ان اسباب المكاسب أربعة وعد منها الامارة وقال ان ماعدا ذلك فهو كل علينا والكل بفتح الكاف الحمل وقد قلنا ان مرجع استحصال الاموال لا يكون الامن الزراعة والصناعة والتجارة فهي محل الأرباح والايراد واما غيرها فهو محل للمصارف لانا بينا ان غير المنتج من الاعمال هو ما لا يبقى بعد انقضائه شيء من ثمرات العمل يروج ويكفى لعمل آخر فوظائف جميع الحكام الملكية وضباط العسكرية البرية والبحرية وجميع الجنود كذلك وان كان عليها مدار حركة الانتاج بل هي القوة الباعثة له في الوقائع ونفس الامر الا انها لا تسمى في عرف المنافع العمومية بالمنتجة للاموال بنفسها وبعملها وان كانت لهم مرتبات سنوية جسيمة في نظير مأموريتهم فهذه المرتبات عائدة اليهم من أموال غيرهم ولو ان خدمتهم للحكومات في غاية الشرف والمنفعة ومن أشد اللزوم للاهالي فلا تنتج ربحا يروج منه مقدار للمستقبل يساوي الصرف على خدمتهم سنة يعني لا تربح خدمتهم للحكومة مالا ناشا يعطى لهم في السنة القبلة فبهذا المعنى يقال انهم غير منتجين يعني هم جهة مصرف لا جهة ايراد أي ليسوا جهة أرباح ويلحق بالمناصب الميرية المناصب القضائية والدينية والعمومية كعمال الاوقاف ونحوها فان الوظيفين بهذه المناصب المفخمة غير منتجين بالمعنى السابق يعني مناصبهم لا تجلب أرباحا ولا مكاسب ومثل هؤلاء اهل الآداب كالشعراء والمنشئين ومن ذلك أرباب فنون الطرب والملاهي والمصارعين كاهل الموسيقى والمغنين والمنشدين وما أشبه ذلك فجميع هذه الأعمال ليس لها قيمة مالية وكسب وترويج كالاشغال المنتجة لذلك اذ لا تنتج شيئا يباع ويحصل منه لسنة أخرى مصاريف العمل الذي يعطى ربما

وهلم جرا فان اشغالهم جميعا واعمالهم أعراض تنتهي عقب فراغها لراغبها فلعب اللاعب وانشاد المنشد وانغام المغني وتوقيع الموسيقي ضروبه على حسب المقامات كلها أعراض تنتهي بانتهاء عملها لطالبها وليست مربحة واما عمل آلاتها وكتبها وتأليفها فهو منتج أموالا وأما هي في حد ذاتها فلحقة بغير المنتج فجميع أرباب الاعمال غير المنتجة وأرباب البطالة الذين لا عمل لهم كلهم على حد سوى في كون مصارفهم صادرة عن محصولات الارض السنوية وعن عمليات الاهالي الصناعية فنفقتهم على غيرهم مع شرف البعض كشرف الولاة والقضاة وأمناء الأديان والانتفاع بخدمة البعض الآخر كارباب الطرب والملاهي وما اشبههم ثم ان المحصول الزراعي أو الصناعي ولو بلغ ما بلغ في العظم والكثرة فهو محدود ومتناه ومقدر بالحساب فاذا أخذنا حساب السنة الماضية وعرفنا منه مقدار المنصرف في استحقاقات ومرتبات غير المنتجين من الاشخاص قل عددهم أو كثر وكذلك مرتبهم وجعلنا الباقي على ذمة مصارف الأشخاص المنتجين فهذا القدر الباقي قليلا كان أو كثيرا يكون هو محصول السنة المقبلة لانه هو الذي يباع ويصير دخوله في التشغيل للتربيح ومن هذا يتبين ان المتحصل من المزارع في السنة هو نتيجة العمل المنتج يعني ايراد المزارع في السنة بعد استنزال اجرة الارض أي ما عليها من المال وما يتبع ذلك من التقاوي وعلف المواشي واجرة المهمات الآلية وغير ذلك فالصافي بعد هذا هو الربح وهو الذي يحصل منه تشغيل السنة المقبلة ومنه تدفع اجرة الاجير المنتج وقس على ذلك دائرة الصناعة كالقبر قة فان أغلب محصولها في المادة هو في مقابلة راس المال والباقي بعد اربابها بعد تنزيل المصارف فمن هذه الأرباح التي

هي ثمرة العمل المنتج تدفع اجرة ذلك العمل

وهذه الارباح أيضا ممدة لتكوين الايراد الذي يخرج منه أرزاق الاشخاص المنتجين وغير المنتجين يعني جميع أهالي البلدة مكتسبة ومرتزقة فمدار مؤنة الاهالي جميعهم على الاعمال المنتجة يعني موارد الاموال فكل انسان أخرج من ماله شيأ وجعله رأس مال في زراعة أو تجارة فلا يكون غرضه منه الا تربيح هذا المال فلا يصرف منه الا للعمال المنتجين الذين نفس هذا المال بمملهم فاذا صرف رأس المال على العمل أنتج مما صرفه جزأ بوصف الربح يعود على العمال في نظير أجرتهم فربح الشغالة انما هو ناتج من عين عملهم لا من رأس مال المالك فاذا أراد المالك ان يستخدم خدما لعمل غير منتج وجعل لهم مرتبا فصرف هذا الرتب خارج من أصل ماله فيدخل في الحساب ضمن المال المبقى لنفقته فليس ما ينفق على الخدم من ربح عملهم كارباب العمل المنتجين فأرباب الاعمال غير المنتجة وأرباب البطالة يتعيشون جميعا من ايراد واحد له موردان الاول محصول الربح السنوي الوارد لصاحبه في مقابلة مال أرضه أو ربح ماله والثاني المال الذي يخص العامل في نظير عمله بقصد التعيش به الذي هو عبارة عن رأس مال العمل

فاذا وصل هذا القدر من رئيس الدائرة الصناعية او الزراعية الى العامل فانه يتعيش منه لنفسه فاذا زاد عن مؤنته فلامانع ان يتعيش منه ناس أخر منتجون او غير منتجين كما اذا كان العمال ارباب أهمية في العمل ولهم أهمية وشرف ورياسة في صنائعهم فان مرتباتهم من دوائر العمل تكون جسيمة فبمقتضى الاحوال المسعدة لهم يستخدمون من الخدم والحشم من يليق

بهم تقليدا لكبار أرباب الاملاك واغنياء التجار فيتعيش فى جانبهم اناس كما تعيشوا فى جانب غيرهم فقدعادت منهم المنفعة على غيرهم كما عادت عليهم من منفعة اعمالهم فى خدمة غيرهـم وهؤلاء الاشخاص اصحاب النعمة الجديدة قدتعود المنافع منهم على أناس أخر كارباب حرف الافراح والاتراح والمستحقين للاعانات فيتعيش منهم طوائف كبيرة من ارباب الاعمال غير المنتجه وكذلك هؤلاء العملة المنتجون تنتفع منهم الحكومة بدفع العوائد التي هي فى الغالب يحصل منها جزء عظيم يساعد على احتياجات الحكومة لصيانة البلاد والعباد ومع ان أرباب الدولة متقلدون بأشرف الاعمال الملكية وهم أصحاب الامر والنهى والنفوذ فعمليتهم كما قلنا ولو انها مهمة وأولية غيرمالية لا يباع منفوعها ولا يشرى وانما هو قطب رحى عموم الانتاج

وقد اسلفنا ان العمال المنتجين يأخذون عملهم من جزء الارباح المعتبر رأس مال يتعيشهم وان العمال غير المنتجين يأخذون مرتباتهم من الارباح الزائدة عن المعدات التشغيلية ونقول هنا ان هذه الارباح التي يتعيش منها صاحب المال والعمال غير المنتجين لا يمسها أحد منهم الا بعد جعلها فى حركة التدبيرات التامة لانتاجها وتربيحها يعنى انها لا بد من ترويجها وتشغيلها على الطريقة السابقة فى السنين السابقة لتكون مضمونة فبهذا ينبغى ان تكون أجرة العامل مستحصلا عليها بالتمام فى مقابلة عمله وان يكون استحقاقها بجميعها بعد العمل ولا يتصرف فى ادنى شيء منها بعمل غير منتج حتى لا تضيع هباء منثورا فاذا صرف حينئذ منها شيأ لا يكون الا يسيرا لمقتضيات الاحوال الضرورية بل ينبغى ان لا يصرف الا ما دبره ووفره من ازمنة سابقة لا سيما ان كان ما دبره له اراد وتربيح فانه يكفيه لمصارفه وطريقة الوفر عند أرباب الأعمال

« مطلب » وفاء الأجير أجرة عمله عقب توفيته للعمل

والصناعات المنتجة سهلة جدا لمواظبتهم غالبا على ذلك ولذلك تجد فى تعاديل فردة الرؤس والعوائد ان عوائد كل واحد منهم بقدر ميسرته و على حسب كيات وفره واقتصاده

« مطلب » تعديل العوائد على قدر الميسرة

ومن هذا كله يفهم أن محصولات الاراضي وأرباح رؤس الاموال موردان اصليان يتعيش منهما ارباب الاعمال غير المنتجة وان الوفر والتدبير يليق ويتأتى كل منهما لاهل الفلاحة والتجارة وان طائفة الزراعين والتجار بمكنهم على حد سواء تعييش العمال المنتجين وغير المنتجين بل تعييش غير المنتجين من ربح اهل الزراعة والصناعة أكثر لجسامة ما يعود على الحكومة منهم وهو ايضا أحق وأولى لعموم منفعته وثقله من أيادي أهل الحكومة الى حاجة أناس كثيرين فان مرتبات الامير مثلا يتعيش منها غالبا أناس كثيرون من العلماء والصلحاء والفقراء والخدم والحشم وفاقا لقوله صلى الله عليه وسلم ما عظمت نعمة الله على عبد الا عظمت مؤنة الناس عليه فمن لم يحمل تلك المؤنة فقد عرض تلك النعمة للزوال وقال صلى الله عليه وسلم ان لله أقواما اختصهم بالنعم لمنافع العباد يقرهم فيها ما بذلوها فاذا منعوها نزعها منهم وحولها الى غيرهم ومن الامراء جم غفير يتعلق الناس بأذيالهم ويتعيش من فضول اموالهم كثير من أرباب البطالة والفراغ أكثر ممن يتعيش من ارباب الفلاحة لان ارباب الفلاحة لا يتعيش منهم غالبا الا العمال ارباب الصناعة المنتجة ومع ان العادة تقضى بان أغنياء التجار يستعملون رؤس أموالهم ليعيش منها أناس كثيرون من أرباب الاعمال الشاقة كالاسفار ونحوها فهم فى ذلك كارباب الزراعة يبحثون عن الربح والفائدة الا ان ارباحهم يتعيش منها عادة كثير من الخدم والحشم وأرباب الحرف

« مطلب » التعيش من مرتبات الموظفين

غير المنتجة فهم من هذا الوجه كالامراء يعيش فى جانبهم خلق كثير بدون تريح للمنصرف من أرباحهم فقد حازوا فضيلتى الفلاحين والأمراء

وهذا كله اذا اعتبرنا أن الامراء واصحاب المناصب الملكية وغيرها لايتشبثون بالزراعة والتجارة والا فأكثرهم فى البلاد الزراعية أو التجارية باسوة كبار الاهالى فلهم الدوائر العظيمة الرابحة والأملاك الاستغلالية فهم بهذا المعنى داخلون فى عصابة أهل الفلاحة والتجارة ومتعيش فى دوائرهم كثير من الناس يعنى من العمال المنتجين وغير المنتجين وأيضا ماىرد لهؤلاء من المرتبات المنصرفة من طرف الاعمال المنتجة يصرفون أكثر منه على الوظائف غير المنتجة فى نظير عوائد أملاكهم فيرد اليهم من الخزائن الملوكية مقادير مالية على قدر استعدادهم وأهمية مناصبهم ويصدر منهم أيضا الى تلك الخزائن مبالغ كبيرة أو قليلة على قدر أراضيهم وما عليها من العوائد

وبالجملة فالكلام على الانتاج وعدمه ومصادر الأموال ومواردها انما هو بالنظر للحيثيات فقد يجتمع فى الامير مثلا أن يكون أيضا له زيادة عن مزية امارته مزية الزراعة والتجارة لرأس مال اراده فيكون جامعا للمنافع العمومية ويكون منتجا من جهة وغير منتج من أخرى والله يرزق من يشاء بغير حساب

ثم ان الاعمال بنوعيها منتجة وغير منتجة ممدوحة مطلقا لما فيها من السعى كما ان البطالة مذمومة عند جميع الامم شرعا وعقلا فلنذكر ما قيل فى مدح العمل وذم البطالة فى الفصل الرابع من هذا الباب

الفصل الرابع

(في مدح السعي والعمل وذم البطالة والكسل)

قد اسلفنا ان الاعمال هي اسباب السعادة والثروة ومنبع الاموال والغنى فالارض الزراعية انما هي مورد للاعمال مساعد وان الارض المخصبة بدون العمل لا تنتج شيأ والارض المجدبة بكثرة العمل تخصب وتنتج النتائج الجمة ولذلك قال صلى الله علية وسلم أفضل العمل أدومه وان قل وفي التوراة حرك يدك أفتح لك باب الرزق وقد كان الانبياء والسلف الصالح يعيشون من كسب أيديهم ويحترفون فقد قال الله تعالى في حق داود عليه السلام وعلمناه صنعة لبوس لكم أي عمل الدروع من الحديد فقد علمه الله تعالى صنعة الحديد فصار يحكم منها الدروع فاستعان بها على أمره واشتغل صلى الله عليه وسلم قبل النبوة بالتجارة بالشام للسيدة خديجة رضى الله عنها وبعد النبوة كانت حرفته صلى الله عليه وسلم الجهاد فقد قال صلى الله عليه وسلم جعل رزقي تحت ظل رمحي وقال ان الله يحب العبد المحترف ويبغض الصحيح الفارغ وقال صلى الله عليه وسلم من بات كالا في طلب الحلال أصبح مغفورا له والكال في طلب الحلال الذي يتعب نفسه في العمل لكسبه وقال عمر رضى الله عنه لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني فقد علم ان السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة وقال رضى الله عنه اني لأري الرجل فيعجبني فاقول أله حرفة فان قالو لا سقط من عيني

وكان ابراهيم بن ادهم على ورعه يسعى ويرعى ويعمل بالكراء ويحفظ البساتين والمزارع ويحصد بالنهار ويؤدى الفرائض بالنهار ويصلي النوافل

القليل وكان أغلب الملوك والسلاطين على قدم الأنبياء والاصفياء يتخذون لهم صنائع يكتسبون بها ويتقوتون منها توخيا للاسناق من الحلال وتنزها عن الاخذ من بيت المال وقال سعيد بن المسيب رحمه الله لاخير فيمن لا يجمع المال من حله يخرج منه حقه ويصون به عرضه قال الشاعر

ولاتجمع الأموال الا لبذلها　　كما لايساق الدرالا الى النحر

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنه في قوله عزوجل ويزدكم قوة أي مالا الى مالكم فلامجد الا بالمال والآمال متعلقه بالأموال قال الشاعر

كل النداء اذا ناديت يخذلني　　الا ندائي اذا ناديت يا مالي

والمال أصل السودد والرياسة اذبه تستجمع أسبابها وقد انقاد الناس قديما وحديثا للغنى لان القلوب لا تستمال الا بالمال قال ابن المعتز

اذا كنت ذا ثروة من غنى　　فأنت المسود في العالم

وحسبك من نسب صورة　　تخبر أنك من آدم

ولما وصل المعز بن تميم بن سعد بن منصور العبيدي الى الديار المصرية بعد ماوصل غلامه القائد جوهر وملك مصر واختط القاهرة وكان العبيديون ينتسبون الى فاطمة رضي الله تعالى عنها خرج الناس الى لقائه واجتمع به الاشراف فقال له من بينهم محمد بن عبدالله بن طباطبا العلوي الى من ينتسب مولانا فقال لهم سنعقد لكم مجلسا ونسرد لكم نسبنا فلما استقر في قصره جمع الناس في مجلس عام ونثر عليهم الدنانير والدراهم حتى عمهم وقال هذا حسبي ثم سل نصف سيفه وقال وهذا نسبي فقالوا جميعا سمعنا واطعنا

اذا كنت في حاجة مرسلا　　وأنت بها هائم مغرم

فأرسل حكيما ولا توصه　　وذاك الحكيم هو الدرهم

وقال آخر

ذاكرته عهد الوصال فقال لي ... كم ذا تطيل من الكلام المؤلم
لما رأى الدينار أنشد قائلا ... اين المفر من القضاء المبرم

وقيل درهمك وسيفك فازرع بهذا فيمن شكرك واحصد بهذا فيمن كفرك قال الشاعر

لم أر شيأ صادقا نفعه ... للمرء كالدرهم والسيف
يقضى له الدرهم حاجاته ... والسيف يحميه من الحيف

وقال آخر

ذريني للغنى أسعى فاني ... رأيت الناس شرهم الفقير
وأهونهم وأحقرهم عليهم ... وان أمسى له حسب وخير
يباعده الخليل وتزدريه ... حليلته وينهره الصغير
ومن بلغ الغنى وله جلال ... يكاد فؤاد صاحبه يطير
قليل ذنبه والذنب جم ... ولكن الغنى رب غفير

قيل لميمون بن مهران ان فينا اقواما يقولون نجلس في بيوتنا وتأتينا أرزاقنا فقال هؤلاء حمقى ان كان لهم يقين مثل يقين ابراهيم خليل الرحمن فليفعلوا

لقد هاج الفراغ عليك شغلا ... واسباب البلاء من الفراغ

وسئل الامام احمد بن حنبل رضي الله عنه ماتقول في رجل قعد في بيته أو مسجده وقال لا أعمل شيأ حتى يأتيني رزقي قال هذا رجل جهل العلم أما سمعت قوله صلى الله عليه وسلم جعل رزقي تحت ظل رمحي يعني الغنائم

نروح ونغدو لحاجاتنا ... وحاجة من عاش لاتنقضي

وقيل غبار العمل خير من زعفران البطالة قال الشاعر

قصر الناس بي ولو كنت ذاما ... ل جلبت الجميع بالمال حولي
ولقالوا أنت الكريم علينا ... وتخطوا الى هواي وميل
واكلت المعروف كيلا مليئا ... يعجز الناس أن يكيلوا ككيلي

وقال غيره

خاطر بنفسك كي تصيب غنيمة ... ان الجلوس مع العيال قبيح
فالمال فيه مجلة ومهابة ... والفقر فيه مذلة وفضوح

(غيره)

فلم أر بعد الدين خيرا من الغنى ... ولم أر بعد الكفر شرا من الفقر
ولم أر زين المال الا امتهانه ... وننفده في أوجه الحمد والأجر

وكان أبوبكر رضي الله تعالى عنه اذا خرج في تجارته أخذ بضائع ضعفاء قريش فيبيعها لهم ويشتري ولا يكافئهم شيأ

ليس الفتى بفتى لا هدى له ... حتى يطيب شرابه وطعامه
ويطيب ما يجني ويكسب أهله ... ويطيب من لفظ الحديث كلامه

وحسب ترك العمل ذما أن النبي صلى الله عليه وسلم استعاذ من الكسل (وقال) علي رضي الله عنه خلق التواني والكسل فزوجوهما فنتج من بينهما فاقة (وقال) رضي الله عنه الحركة ولود والسكون عاقر ولا ينشأ عن البطالة الا المفسدة فعلى المرء أن يشغل النفس التي هي عين فارغة بما يصلحه والا شغلته بما يفسده ولذلك قيل الحركة بركة والتواني هلكة وكلب طائف خير من اسد رابض ومن لم يحترف لم يعتلف ومن شمر طالبا جاء الى بيته جالبا قال الشاعر

اذا هبت رياحك فاغتنمها ... فان لكل خافقة سكون

اذا درت نيائك فاحتلبها ... فما تدري الفصيل لمن يكون
اذا ملكت يداك فلا تقصر ... فان الدهر عادته يخون

وبالجملة فالأمل مغناطيس العمل وخير الامل انتظار الحمد والشكر وحب الفخار ودوام الذكر ولولا ذلك لما كان اجتهاد ولا استنباط ولا كسب ارتفاع غب انحطاط ولا اختراع مخترع ولا ابتداع مبتدع فيل يحسن بالعاقل أن يعمل فكره الا فيما يخلد ذكره

تأنق على الخيرات أهل الملا ... فانما الدنيا أحاديث

فقد تولع العقلاء على اختلافهم بامعان الانظار واعمال الافكار في امور يظهر للعامة أنها حقيرة وهي عند أذكياء الخاصة خطيرة

اذا لم يكن الا الأسنة مركبا ... فلا رأى للمضطر الا ركوبها

فمن اخترع حكمة بذكائه وفكره كانت سببا لبقاء ذكره ومن هذا القبيل أزد شير بن بابك وهو أول ملوك الفرس الأخيرة فانه أول من وضع النرد وضربها مثلا للقضاء والقدر وأن الانسان ليس له تصرف في نفسه لاعلك لها ضرا ولا نفعا بل هو مصرف على حكم القضاء والقدر معرض للنفع والضرر ووضعها على مثال الدنيا وأهلها ورتب الرقعة اثنى عشر بيتا بعدد شهور السنة وجعل القطع ثلاثين قطعة بعدد أيام كل شهر والدرج التي تكون لكل برج وجعلها مثلا للحظ الذي ينال العاجز بما يجرى له الفلك والحرمان الذى يبتلى به الحازم بما جرى به عليه الفلك وتوصل الى ايصال تلك المقول بفصين أنزلهما منزلة الليل والنهار وجعل لكل فص ستة أوجه كجهات الانسان فوق وأسفل ووراء وأمام ويمين وشمال يشيرا الى ان الانسان لا يعلم من أين يأتيه الخير ولا الشر وأشار في تقلبها الى تقلب

« مطلب » أول من وضع النرد

القدر بالانسان فيكون مشروفا ثم يصير شريفا ويكون فقيرا ثم يصير غنيا وبالعكس الى مالا نهاية له من التقلبات

الناس مثل زمانهم حذو المثال على مثاله
ورجال دهرك مثل دهرك فى تقلبه وحاله

* مطلب * اول من وضع الشطرنج

ولما افتخر الفرس بوضع النرد وكان ملك الهند يومئذ بلهيث وضع له الحكيم المسمى صصة الشطرنج وجعلها مثلا على ان لا قدر وان الانسان قادر بسعيه واجتهاده أن يبلغ المراتب العلية فان هو أهملها أصاره الخمول الى الحضيض ومما جعله دليلا على ذلك ان البيدق ينال بحركته وسعيه منزلة الفرزان فى الرياسة وجعلها مصورة تماثيل على صورة الناطق والصامت وجعلها درجات ومراتب ومثل الشاه بالمدبر الرئيس وكذلك ما يليها من القطع وبين لاهل فارس ما خفى عنهم من مكايد الحروب وكيفية ظفر الغالب وخذلان المغلوب فظهر للملك مكنون سرها فقال له اقترح ما تشتهى فقال اشتهى ان تضع حبة بر فى البيت الاول واثنين فى البيت الثانى ولا تزال تضعفها الى آخر البيوت ومابلغ تعطينى اياه فاستخف الملك عقله واستقل طلبه وقال كنت اظن رجاحة عقلك وانك تطلب شيأ نفيسا فقال ايها الملك انك لاصرفتنى الى التمنى لم يخطر ببالى غير ذلك ولا سبيل الى الرجوع عنه فأنعم له الملك بما سأل وامر الحساب أن يحسبو ذلك فلم يجدو مايفى للحكيم بمراده وقد احصى ما طلبه فوجدوه الوف مكررا تكريرا جسيما لا تفى به اشوان الملك فاختراع الشطرنج حكمة جليلة تخلدت فى جميع البلدان وقامت على شدة ذكاء مبتدعها البرهان

وأجل من هذا المستخرج للشطرنج من استخرج فن الطب ودونه وهو الحكيم اسقليبنوس بباء موحدة تحتية بعد اللام خلافا لمن جعله بالنون وهو

« مطلب » وضع الطب

من اهل اليونان وبعضهم يقول ان المستخرج للطب اهل مصر وان المستخرج له هرمس المستخرج لسائر الصنائع وقيل المستخرج له المصريون بغير هرمس بالهام من الله تعالى لجماعة ثم ازداد الأمر في ذلك بكثرة التجاريب وقوى وصار علما واسعا واحتج القائلون بذلك بان امرأة كانت بمصر وكانت شديدة الحزن والهم مبتلاة بالغيظ والنكد ومع ذلك كانت ضعيفة المعدة وصدرها مملوء أخلاطا رديئة وكان حيضها محتبسا فاتفق انها اكلت عشبا مرارا كثيرة بشهوة منهالة فذهب عنها جميع ما كان بها ورجعت الى صحتها وجميع من كان به شيء مثل ما كان بها واستعمله بريء به فاستعمل الناس التجربة على سائر الاشياء فالذي جمع هذه التجربات ودونها بمصر هو الواضع له سواء كان هرمس أو غيره ولا مانع ان يكون هذا العلم مما تمدد واضعه بلاد الدنيا حيث ان التجربة قد تمددت فيه وان أقوى التجاريب واكثرها تجاريب اسقلبينوس وتلقاها عنه الحكماء الذين جاؤا بعده في الزمن فعدوا أيضا من الواضعين له

وقال بعضهم ان الله سبحانه وتعالى خلق صناعة الطب والهمها الناس واحتج أهل هذا القول بانه لا يمكن في مثل هذا العلم الجليل أن يدركه عقل الانسان فالواضع الله الذي خلق الداء والدواء وهذا القول ايضا يرجع الى الوحي والالهام وينبغي ان يكون الطب النبوي من ذلك باتفاق لصدق آية وما ينطق عن الهوى وبالجملة فوضع الطب عظيم وتدوينه جسيم وفضل التأليف فيه عميم ولا يستكشف شيأ من منافعه الا ذو لب سليم

ومن فروعه الفرع الذي حفظ اطفال النوع البشري من الآفات والمهالك وهو فن تلقيح الجدري بالمادة البقرية حيث انتشر في المسالك والممالك وفضل استكشافه لحكماء الافرنجة المتأخرين وان كان معلوما قبل ذلك ببعض قرى

مصر وقرى السودان وعند الهنديين ولهم فيه طريقة يعملونها بالخيط والابرة بتلويث الخيط في بثرات أدواء البقرة ويمررونها بين الجلد واللحم من كتفي الطفل ويبقى الخيط في الاكتاف وهي من أعظم الالطاف

« مطلب » اول من وضع اصول النحو

فالوضع الاولى في سائر العلوم هو تصور قواعد أولية ابتكارية لا تزال تأخذ في الزيادة والاستكمال وتتفرع منها فروع تتسع على مدى الايام والليال فيكون للعلم بهذا المعنى عدة من الواضعين وجملة من الافاضل الموسمين كالامام علي رضي الله تعالى عنه فانه قيد الالسنة بعلم النحو حيث أملى على ابي الاسود الدئلي اقسام الكلام وقال له تتبعه وزد فيه ما وقع لك مما يلائم المقام لتمحوا بذلك من اللحن ما خالط اللسان العربي مما كاد يفسده من رطانة الاعجام فوضع أبو الاسود الدئلي قواعد النحو التي فهمها له ثم جاء بعد ابي الاسود سيبويه فوضع كتابه الذي كل من جاء بعده منه يغترف ويتقدمه عليه يعترف واذا أطلق في عرف النحاة لفظ الكتاب فاليه ينصرف

« مطلب » اول من وضع العروض

ووضع الخليل بن أحمد علم العروض وجعل له ميزانا للشعر وصاغ له من التفاعيل أجزاء ثمانية صيرها لوزنه كالمثاقيل وهاهي أنوار تلك العلوم النافعة على جميع آفاق الدنيا ساطعة وهي ثمرات الأعمال الصادرة عن الابدال

ومن الحكم من طلب جلب ومن جال نال ومن جسر أيسر ومن هاب خاب فقد فاز بالدر غائصه وحاز للصيد قانصه والجراءة من اسباب الظفر وغلبة الاقران والشجاع يعرف بالاقدام ولو على الضرغام وبضده الجبان والمتوانى الكسلان لاسيما الشاب القليل الحيلة والملازم للحيلة والمقتنع بالرذيلة والراضي بالحشف وسوء الكيلة فمن دام كسله خاب امله

وقال الخيبة نتيجة مقدمتين الكسل والفشل وثمرة شجرتين الضجر والملل وقال ان الحرمان شعاره الكسل ودثاره التسويف والعلل قال بعضهم

لا تصحب الكسلان فى حالاته كم صالح بفساد آخر يفسد
عدوى البليد الى الجليد سريعة والجمر يوضع فى الرماد فيخمد

وقال بعضهم فى الرد على من قال الكسل أحلى من العسل

ليس البطالة والكسل يا لجاهلين لك العسل
فاعمل فان الله قد حث المطيع على العمل

وفى كتب الادارة آخر طبقات الرعية طبقة البطالة الغوغاء وهم مما ينبغى أن لا يرحمهم الملك لانهم يقلون الطعام ويضيقون الطرق لاسيما ان كانوا من الفسقة فهم أظلم الناس يأكلون رزق الله ولا يعملون لله فلا يصلحون للدنيا ولا للآخرة وكل أحدسواهم يعمل لنفسه وهم لا ينظرون لأنفسهم ولا يعملون لدنياهم ولا عقباهم فمثل هؤلاء يسوغ للملك ان يخرجهم من البلد ان رأى المصلحة فى ذلك أو يحملهم مستعدين لنائبة او حادثة يعملون فيها بخلاف طبقة العمال المحترفين فعلى الملك ان يشوقهم بالعطايا وشمول النظر والمسامحة حتى يتسابقوا الى الحرف البدنية كما انه ينبغى للملك ان يتلطف باصحاب العاهات كالعميان والمجذومين فان منادى الشرع يقول اذا رأيتم اهل البلايا فاسئلوا الله العافية فيجرى عليهم قدر كفاياتهم ويعين لهم موضعا على طرف البلدة لمصلحة الجميع

وقدماء المصريين من الأزمان الخالية والقرون البالية يمانون الأعمال العجيبة ويجتهدون فى انجاز الاشغال الغريبة كالاهرام والمسلات العظيمة والتصاوير والتماثيل العجيبة الجسيمة فهذا كانوا ينفرون من الفتور والكسل

« مطلب » مواظبة قدماء مصر على العمل ونفورهم من البطالة والكسل وتصورهم شخص الكسل بصور مختلفة مستبشعة

كل النفور ويشخصون الكسل ويجعلونه على صورة بشعة توضع فى الميادين العامة لتكون عبرة لاهل المرور والعبور فيصورون الكسلان بهيئة شخص مقعا قعاء الكلاب عليه هيئة الحزن والاكتئاب مطأطئا الرأس الى الارض مجمع اليدين بعضهما مع بعض وبجانبه قضبان مكسورة تفيد هجره للاشتغال ونفوره منه وتارة يصورونه على صورة امرأة مطلوقة الساعدين شعثاء غبراء ذات أطمار رثة مسطوحة على الارض متوسدة أحد ذراعيها وبيد الذراع الآخر منكاب مملوء من الرمل ومقلوب تستدل به على مامضى من النهار من الساعات والدقائق ولها عند المصريين رسم آخر فيما غبر من الزمان وهى رسم الكسل على هيئة امرأة عليها علامة البطء والتوان كأنها تروم أن تبختر فى سيرها المقوت وتجر ثوبا من نسج العنكبوت متكئة على أريكة الجاعة والمخمصة تمضى جميع أوقاتها فى الدعة والاستراحة المقتنصة فى عنفوان شبابها واخضرار وغض عود اهابها لا تميل الى حركة ولا تعطف على بركة وفى زمن الكهولة والهرم ترقد على فراش العدم والندم يشيرون بذلك الى ان الكسلان لعجزه دائما حزين اذا لم يفعل شيأ لمعاشه وتزيد حزنه وأسفه اذا احتاج الى تحصيل شىء لم يقدر على تحصيله ويقال مزرعة الكسلان كثيرة الشوك والسعدان تزدحم عليها الحشائش الطفيلية والأعشاب الفضولية فلا تحصل له منها ما يفى بالقوت فيسطو على جيرانه ليكون كلا عليهم أو يتصف بوصف لص ممقوت قال بعضهم

يانفس ذوقى لذة العمل	وواظبى العدل والاحسان فى مهل
فكل ذى عمل بالخير مغتبط	وفى بلاء وشؤم كل ذى كسل

وقال آخر

دعى نفسي التكاسل والتوانى والا فاليسي ثوب الهوان
فلم أر للكسالى الحظ يجنى ثماراً غير حرمان الأماني

وقيل

وكم حياء وكم عجز وكم ندم جم تولد للانسان من كسل

وما ألطف ما قيل فى الاشارة لمن يؤثر الفناء المدود على الذى المقصور

قال لي اللاحي أما حان أن تترك لوما متعبا قلت حان
قال فهل قلبك حان على من بت مشنوفا به قلت حان
قال فمحبوبك فى قتل من يهواه حان توسه قلت حان
قال فقل لى ما الذى تشتهى حان غناء أو غنى قلت حان

مع ما فيه من محسنات الجناس التام والمراجعة فصفة الكسل مثلبة خبيثة بل هي أم الخبائث فهى تحمل صاحبها على عدم اعمال الفكر والبدن وبعض الفضلاء يزدرى أرباب الرياسات الباطلة والمراتب العاطلة التي يشتريها أهلها ليصلوا بها الى درجات العظمة والكبرياء ليستروا بها كسلهم حتي لا يتبين للناس انهم أرباب بطالة والأفاضل يعدون ذلك من النذالة والسفالة فان فضل الكسلان يدفن معه بدون أن تعود منه على نفسه أو غيره أدنى منفعه

• مطلب • تمثيل المشتغل والكسلان بصرار ونملة

وقد أشار الى الشغل والبطالة الحكيم لفنتينه الفرنساوى في حكاية على لسان المجاوات جعلها مكالمة بين الصرار والنملة وترجمها بعض الافندية فقال

حكاية موضوعها صرار ... أودى به الجوع والاضطرار
وكان قضى الصيف فى الغناء ... وما سعى فى ذخرة الشتاء
وحين جاء زمن الثلوج ... ومنع القوم من الخروج
شاهد بيته بلا مؤنة ... فراح يوما يطلب المعونة
وقال للنملة انت جارتى ... مالى سواك فى قضاء حاجتى
هل تصنعين معي المعروفا ... لاذقت من دهر الردى صروفا
وتقرضينى صواعا غله ... وطبقا ومثردا وحله
فان أتى الصيف فقبل الصبح ... أردها عليك غير الربح
قالت له النملة وهي تجري ... عذرك يامسكين مثل عذري
ماذا فعلت فى حصيد قدمضى ... قال لها كان زمان وانقضى
قالت وما ادخرت فيه للشتا ... قال لها مشهرنا منكتا
كنت أغنى للحمير القمص ... قالت له ياصاحبي الآن ارقص
واعلم بان السعي في الذخيره ... يسعد كل خلة وحيره
والدرهم الابيض وهو فى يدى ... ينفعني لدى النهار الاسود

ومع ميل طباع عامة الناس الى التكاسل والفتور فقد تجبر الاحوال والأوقات العصرية على حركة العمل حتى تصير طبيعية وينتج عنها تقدم الجمعيات فمن هذا لا تيأس ملة الملل ولادولة من الدول من ان تأخذ حظها من براعة العمل لاسيما اذا كان لها فيه سابقة نصيب وافر كديار مصر التى سبقت جميع الامم بالمآثر الغريبة وكباقى الدول الاسلامية التى جددت فيما سلف انواع معارف البشرية والمنافع العمومية والتقدمات المدنية ومن آثارها استنارت ارجاء جميع ممالك الدنيا ثم تنقلت مزاياها الى غيرها وتكاملت المزايا فى ذلك العصر

حتى اراد الله سبحانه وتعالى ان انوار المعارف الفرعية انتشرت في هذا العصر على آفاق أصولها باجتهاد المجتهدين واهتداء المهتدين واقتداء المقتدين والحصول على ما عجزعنه سائر السلف المتقدمين كما فصح عن ذلك ماسطره بعض أهل الانشا حيث بين اسباب ذلك فيما طرز ووشى اذ قال ان عصرنا هذا نشاهد فيه للناس بالتدريج آثارا عجيبة وهذا دليل على ان التأثيرات الطبيعية في قبضة التصرفات الانسانية لان الطبيعة هي الحاكمة لا الانسان بل المذللة اليه ومن هذا يظهر ان هذا العصر مبدأ للتقدمات التي تكون في المستقبل فاستعمال القوة البخارية برا وبحرا سهلت الأسفار والسياحات وفوائد سرعة المخابرات التلغرافية غنية عن البيان اذ بتلك القوة كان الانسان قادرا على تجهيز اشغاله الخاصة به والاستحصال على اجتماع الافكار ومبادلة المحصولات وذلك كرأس مال يترقى شيئا فشيئا ويعم أطراف الدنيا حتى انه في مدة يسيرة تلتئم الجمعيات البشرية وتزول الاختلافات السكية ويسلك بعض الناس مع بعض بكمال الوفاق على وفق ما يقتضيه الاخوة الموافق للعقل والحكمة المرضي لرب العزة وتأخذ في العمران الاراضي الخالية وتصير معادن للخيرات ومنابع للثروات وقد بلغنا ان السياح الانكليزي (سيرساموبل بيكر) الشهير بالسياحة في القطعة الافريقية تعين مأمورا للكشف على اقطارها المجهولة والوقوف على حالها وبمعيته من يلزم ليتوجهوا من طريق النيل ويرشدوا من فيها بالارشادات اللازمة ثم المقرب للمسافات في هذا الاوان ثلاث الاول قنال السويس المشرف على التمام الفاصل بين قطعتي آسيا وافريقية فانهما بذلك تتصلان وتسهل تجارتهما وتجارة اوربا بعد ما كان يتجشم في ذلك الطواف من رأس المشم فبفتح القنال تنقص مسافة البحر

الابيض نحو الثلثين ولقرب قطعة آسيا منه عن غيرها من الممالك الاورباوية تزيد حصتها في الفوائد عما سواها لاريب اذ انها أحدثت طريق حديد الى اوربا ياكان بابا عظيما للتجارة وثروة الخزينة ووقع ذلك عند العالم الموقع فيلزم المبادرة الى انشاء ذلك على الوجه المساعد لنا فان منفعة هذه تزيد عن العادة ويجتمع منها رأس مال وتسارع الناس الى الاستحصال على الرخصة من الحكومة فحينئذ لاينبغى التأخر عن هذا وانما اللازم التأمينات الكافية لاجل منافع سكان المملكة والاسراع بمباشرة العمل

الثانى قنال (هو ندوراس وهو فتح برزخ بناما) المتوسط بين قطعتى امريقا الجنوبية والشمالية الذى أصله شق صغير شكلت لفتحه قومبانية كبيرة فانه بواسطته تصير قطعتا امريقا الجنوبية والشمالية جزيرتين عظيمتين وتزول المشقة عن اصحاب السفن من بعد ما كانوا يسافرون من البحر المحيط الغربى المسمى بالاطلسي الى الصين وليابونيا والجزائر الاقيانوسية مع مكابدة اخطار الرياح العاصفة وطول المسافة مارين من رأس هورن المشحون جميعه بالشباب وذلك لاضطرارهم فاذن لاتحقهم الآن تلك المشاق بواسطة ذلك القنال وتكون مسافتهم على النصف فى بحر معتدل ساكن الهواء على خط الاستواء

الثالث سكة الحديد الجسيمة التى حان منها التمام بشمال قطعة امريقا بالغة الآن مسافة امتدادها ثلاثة آلاف وستمائة وثلاثة وعشرين ميلا وهى فى ارض سهلة تامة المنفعة مبتدأة من نيورق أكبر مدن امريقا الى مدينة (سان فرنسيسقو) بايالة قاليفورنية الشهيرة بمعادن الذهب وكان قد رخص لقومبانيتين فى انشائها (لنقولن) رئيس جمهورية امريقا المتوفي حين

مجاريها الداخلية سنة ١٨٦٢ ميلادية وضرب لها ميعاد أربع عشرة سنة فجدوا كل الجد فيها حتى أكملوها قبل تمام نصف المدة ومن بعد ذلك تقطع مسافة صحارى جهة امريقا الشمالية فى ستة ايام ولا يجهل محل فيها ولا تعطل جهة من الزراعة وسائر الفوائد وقد أنشأت هاتان القوبانيتان نحو ألفى عربية كالدور مشتملة على بيوت واسرة من الحديد ولوقدات وكتبخانات وهى فى حال مرورها السريع يتدارك فيها من الطريق ظروف أوراق الحوادث التلغرافية المعلقة على الأعمدة الخشب وتطبع في المطابع اللاتى فيها وتنشر على الركاب وبهذا يكونون كأنهم في مدن الممالك العظيمة فى الدنيا القديمة وبما ذكر هانت أمور الاسفار وتقاربت المسافات بين جميع الجهات وتواصلت الجمعيات وزالت الوحشات واطلع الناس على ما لم يطلعوا عليه ووصلوا الى ما لم يصلوا من قبل اليه فكان لا مانع من تواصل أمم البرية ومن تسمية هذا العصر عصر المدنية انتهى ما قاله فكل هذا أعان ويعين على تقدم وسائل المنافع العمومية الآتى تقسيمها فى الباب الثانى مع غاية البيان وعلى ذكر الوابورات قلت هذه الابيات

العقل في الوابور حار نبغى الجواب فلا يحير
فاذا أردت الاختبار علما به فاسأل خبير
فلك بأوج اللج دار ومن الحضيض له مدير
يجرى على عجل كبار في رسم شكل مستدير
هو من عطارد لا يغار فكأنه الفلك الاسير
قد اورث الشمس اصفرار لما خلا منه الصفير
قمر منازله البحار نجم السماك له سمير

في كفه الجوزا سوار · بهر الثريا اذ تشير
والمشترى جار اليسار · فغدا بزهرته أسير
ملك له الوحي اثمار · ابدا باجنحة يطير
وبراق أسرى في القفار · يطوى الفيافى اذ يسير
ملك على الأنهار سار · وعلى البحار له سرير
بالعز أكسبها الصغار · مع انه جرم صغير
قد نال من كسرى اعتبار · لبخار عنبره عبير
خاقان هند خوف عار · ما هاله لهب السعير
بركان نار حيث ثار · فورا وصار له هدير
او سائح يهوى السفار · لمصالح الدنيا سفير
او عاشق سلب القرار · أو يحسد الطرف القرير
فى الحب قد خلع العذار · ودموع مقلته غدير
صب وفي الاحشاء نار · شوقا الى القمر المنير
أو شاطر طلب الفرار · للامن من أمر خطير
أو باز صيد قد أغار · مغرى على الظبي الغرير
أو ظبي قاع ذو نفار · يعدو اذا عم النفير
البرق سرعته استعار · والورق منه تستعير
وبري الرياح بالاحتقار · فهبوبها معه حقير
طرف تسايره الدرار · ليلا فتخجل فى المسير
لليل يطوى والنهار · وبه ازدهى الزمن الاخير
ما الفعل ينسب للبخار · بل صنع خلاق قدير

بقنال مصر له منار　　يسمو بأنفاس الامير
وبصيت اسماعيل طار　　في الكون بالجود المطير
وبعدله لما أنار　　في الأفق كالعلم الشهير
هـذا عزيز ذو وقار　　ولمظهر العليا ظهير
وطويل باع في العمار　　يمتاز بالعمل الكثير
للعدل قد شد الازار　　توفيقه نعم الوزير
عش يا عزيز اخا انتصار　　ولمصر دم أقوى نصير
بالمجد كم شدت الجدار　　ولأنت بالعليا جدير
كأثر فكأس الانس دار　　رب الخورنق والسدير

« مطلب »
تقسيم المنافع العمومية وتعريبها بالمعنى العرفي الصناعي

الباب الثانى

في تقسيم المنافع العمومية الى ثلاث مراتب اصلية وهى
حركات الزراعة والتجارة والصناعة وفيه فصول

الفصل الاول

في تعريف المنافع العمومية بالمعنى العرفي الصناعي
ومنه يفهم الانقسام الى ما ذكر

اعلم ان ما عبرنا عنه هنا بالمنافع العمومية يقال له في اللغة الفرنساوية أندوستريا يعني التقدم في البراعة والمهارة ويعرف بأنه فن به يستولى الانسان على المادة الاولية التي خلقها الله تعالى لاجله مما لا يمكن ان ينتفع بها على صورتها الاولية فيجهزها بهيئات جديدة يستدعيها الانتفاع وتدعو اليها الحاجة كتشغيل الصوف والقطن للباس الانسان وكيبعهما فبهذا المعنى يقابل الاوندستريا وتكون عبارة عن تقديم التجارة والصناعة فيقال الملك الفلاني يشوق الزراعة والاوندستريا أي التجارة والصناعة يعني يسعى في تقديم المنافع العمومية وتطلق بمعنى آخر أعم من الاول فتعرف بانها فن الاعمال والحركات المساعدة على تكثير الغنى والثروة وتحصيل السعادة البشرية فتم التشغيلات الثلاثة الزراعة والتجارية والصناعية وتقديمها فتكون مجمع فضائل المنافع العمومية وكثرة التصرف والتوسيع في دائرتها ثم ان براعة المنافع العمومية بالمعنى العام متولدة من كون الانسان له احتيار

وميل الى ما فيه نفعه والى قضاء وطره والى تحصيل حوائجه الماشية وانه محل لهذه الفضائل

وقد سبق فى الفصل الاول من الباب الاول بعض ما يتعلق بالفضيلة ونقول هنا ان الفضيلة صفة نفسية متمكنة فى نفس الانسان ينشأ عنها العمل الصالح ويدعها ارتياح النفس اليها فبها تصل النفس الى أعلى درجات الكمال وتستعد الى الحصول على نيل المحمدة فبهذا تكون أيضا مستعدة لفعل الخير العام للجميع فحركة الفضيلة بهذا المعنى ليست حركة اختيار فليس صاحب الفضيلة من يهمك بجميع حواسه على بذل كل همته في المنفعة الاهلية لان وجود مثل هذا الانسان فى الدنيا مستحيل وانما الفاضل هو من يكون هواه مائلا بحسب الامكان الى المنافع العمومية واستحسانه لذلك فبهذا يكون أقرب من درجة الكمال بقدر مايلزم ان يتجنب بالفضيلة عن المثالب وارتكاب الدنايا

« مطلب » تعريف الفضيلة

ومن اركان الفضيلة الشجاعة وقوة الجسم والعقل وهذه الصفات مهمة جداً فى الفضيلة فهى الوسائل التى تلزم لحفظ الانسان وتحسين حاله لان الشجاع يدفع الضيم عن نفسه ويذب عن دمه وعرضه وحريته وملكه بقدر استطاعته وبعمله وشغله يكتسب عيشته الهنية ويتمتع باللذات المباحة بالهدء والطمأنينة وتكون نفسه دائما متمتعة بالسلم والراحة بعيدة عن الغضب والانتقام فاذا أصيب بنكبة ولم يمكن تداركها بحزمه وتبصره تجلد عليها غاية التجلد والصبر ولهذا عد ارباب الآداب القوة والشجاعة من أعظم الاركان

« مطلب » بعض اركان الفضيلة

ثم الفضيلة ثلاثة أقسام شخصية ومنزلية وأهلية فالفضائل الشخصية

« مطلب » اقسام الفضيلة

ما ينبغى ان يتصف بها كل انسان لتكون وسيلة لحفظه ومادة لصونه ومنها ينتج حفظ العائلة والجمعية المتركبة من افراد الناس والفضائل المنزلية هى سلوك الطريقة النافعة في العمل لجمعية العائلة المعتبر اقامتها فى منزل واحد كالاقتصاد في المصارف وبر الوالدين وحسن العشرة مع الازواج وحسن تربية الاولاد ومحبة الاخوة بعضهم لبعض واداء حقوق السيد لخادمه والخادم لسيده فجميع الفضائل الشخصية والمنزلية متلازمة ومتصادقة على حفظ النوع البشرى وتحسين حاله وهي مخلوقة مع الانسان من اصل فطرة والفضائل الاهلية المدنية متكاثرة بتكاثر منافع الجمعية المدنية وراجعة الى أصل واحد وهو العدل العمومي والانصاف المشترك بين أعضاء الجمعية المستلزم جميع فضائل الجمعية

ومن هذا يفهم ان الفضائل من حيث هي مقولة بالتواطؤ محدودة لا تقبل تغييرا ولا تبديلا فالاقتصاد فضيلة محققة ان حصل فيها الشطط فرت من البخل والشجاعة ان تجاوزت حدها استحالت الى المجازفة والكرم ان تجاوز حده عاد اسرافا والصبر ان زاد عن قانونه أضعف الشهامة والحلم اذا اشتد صار جبنا وانما قد يعترى هذه الفضائل بعض تكيف على حسب مقتضيات الأحوال فان قول الصدق في بعض الاوقات قد يكون مضراً وتكون المداراة واجبة وكذلك ينبغى مع فلان ان لا يصنع الا العدل ومع انسان آخر قد يكون العدل محض ضرر وقد يكون الحلم في هذا اليوم فضيلة ويكون في غد مضراً فمراعاة الاوقات والاحوال واجبة في الجمعية التأنسية ولله در القائل في هذه المعاني

العز ما خضعت لهيبته العدى ... وأقام بالفكر الملوك واقعدا
والمال ما وقاك ذما أو بنى ... عليك أو أبقى لقومك سوددا
والجود ما وصلت به رحم وما ... أوليت ذا أمل أعدك مقصدا
واللؤم أكرام اللئيم لأنه ... كالذئب لم ير عدوة الاعدا
فاذا ظفرت من العدو بفرصة ... فاتتك فقتك اليوم منجاة غدا
والحلم فى بعض المواطن ذلة ... فاصفح وغالب واعجلن وتأيدا
ما كل حلم مصلح بل طالما ... غر السفيه الحلم عنه فافسدا
كل السيادة فى السخاء ولن ترى ... ذا البخل يدعى فى العشيرة سيدا
لا تحسبن المجد رنة مطرب ... وعناق غانية وبردا يرتدى

فالفضائل عليها مدار سلوك الجمعية التأنسية ونجاح أعمالها وتنعيم أحوالها وضدها يضر بتقدم الجمعية فلا أضر على الجمعية من فساد الاخلاق فانه ينشأ عنه الكبر والدعوى وعدم الاستقامة لان الغنى المتكبر مثلا يذهل فى نشوة لذته عن ان المال خيال زائل فيجسر ويجرأ بالتكبر على غيره ويظن انه بعيد عن صروف الدهر فيقع فيها فالعاقل يقيد نعمته بقيد التواضع والانكسار ويدبرها بقانون الفضيلة لتدوم فبهذا يكون مستقيم الحال حيث الاستقامة قوام الفضائل وعليها مدارها وهي معدل حركة النفس وخلوص النية التى يحسن بها الاعمال فهي فى روابط جميع الفضائل المدنية وعبارة عن حسن السلوك فى التعامل وأداء الحقوق للعباد بعضهم على بعض فلاينشئها الا هوى النفس فالعقل يقمع الهوى ويصده والخلق الحسن ينفر منه والانسان المتهاون بحقوق الجمعية المدنية لايعتبر الا عديم الاستقامة وانه لا يعرف ما يجب له وما يجب عليه فى حق الجمعية فليست استقامة الانسان

احترام حقوقه باحترام حقوق غيره والحصول على منافعه بالوفاء بمنافع غيره فاذا عرف هذا الحساب سهل عليه حسن المعاملة فالاستقامة في الانسان علامة اتساع عقله واعتدال مزاجه لان المستقيم في الغالب قد يفوت منفعة عاجلة بقصد ان لايهدم منفعة آجلة واما غير المستقيم فانه قد تفوته المنفعة العظمى الآجلة بحرصه على منفعة هينة عاجلة

فقد اتفقت الاخلاق والعوائد والشرائع والاحكام على ان مكارم الاخلاق منحصرة في قوله صلى الله عليه وسلم لايؤمن احدكم حتى يحب لاخيه مايحب لنفسه وان هذا الحديث قاعدة عظيمة في الدين لان الرجل الصالح المستقيم الحال لا يقتصر على الكف عن فعل الشر بل يرى ان الحقوق الواجبة عليه فعل الخير والمعروف فمن لم يصنع المعروف في موضعه مع التمكن منه لايعد صالحا فالاستقامة تنهى عن الشر والصلاح يأمر بالخير والاستقامة تمدح والمعروف يعظم والاستقامة عبارة عن عدم التعرض لفعل الشر والمعروف العمد الى فعل الخير والمعروف يستحق الشكر عليه واما الاستقامة فقد لا يجب الشكر عليها لكونها فضيلة قاصرة والمعروف فضيلة متعدية فهو من الاعمال التي عليها مدار الجمعية المدنية

وكلما تقدمت براعة المنافع العمومية تقدمت الجمعية واقتضى الحال ميل النفوس الى التمتع بثمار المنافع الكاملة ودقائق المصنوعات الفاضلة فالميل الى التجمل والتزين ومواد الطلطة والابهة يتولد منه غنى جميع الاقاليم التشغيلية لاتساع دوائر الاخذ والاعطاء وكمال الحرية في ذلك فبهذا تتسع دوائر الزراعة والتجارة والصناعة باتساع الرخصة في الاقاليم بالمعاونات والمساعدات من ارباب الحكومات المختلفة

« مطلب » منشا تولد الغنى

ولما كانت الدولة الانكليزية قد احست ان منبع ثروة اهاليها لا تنتج الا من التجارة والصناعة وان كلا منهما يحتاج الى الحرية التامة والى الاستجلاب والتوزيع للبضائع المختلفة واستحصال الاثمان وتكثير أموال المملكة بتوزيعها بين الاهالى براحة جميعهم ليكونوا مشتركين فى السعادة المالية فتحت هذه الدولة بلادا واسعة فى اقطار شاسعة فى الهند و بلاد امريقا وجزائر البحر المحيط الاكبر لتقدم صناعتهم وتجارتهم بالاخذ والاعطاء ليعود ذلك كله بالفوائد الجمة على اهالى مملكتهم بالاصالة وعلى غيرها بالتبعية وكذلك غيرهم من ممالك اوروبا كالاسبانيين والبرتغال والفرنساوية والفلنك وغيرهم ويقال لهذه الحركة التقدمية أندوستريا قولنية يعنى تجارة خارجية

« مطلب » التجارة الخارجية

« مطلب » اقسام حركات المنافع العمومية

ومن المعلوم ان فروع التجارة والصناعة كثيرة متنوعة بقدر ما فى الاقاليم والممالك من طبيعة ارضها واهلها فكل اقليم يوافقه بعض الفروع دون بعض ويروج فيه ما لا يروج فى غيره فالمنافع العمومية على اختلافها مبنية على المعاوضات والمبادلات بما تقتضيه أصول حرية البلدان ومدار حركتها على ثلاثة اشياء ضرورية

الاول هو المواد او الاجزاء الواقع عليها التشغيل كالقطن والصوف والحديد ونحوه من كل ما يصطنع والثانى الآلات والأدوات التى يستعان بها على الصناعة وهذان الشيآن تحصيلهما أصعب من الثالث الذى هو عبارة عن أجرة الاعمال ومكافأة العمال لانه وان كان فى العادة يدفع نقدا ويعطى عدا الا ان المشغولات اذا كانت رائجة ناضة فاجرة العمل تعتبر صنفا فلا مانع أن يعطى الاجير من عمله وشغله لما قدمنا ان قيمة العمل مجسمة للمصنوعات والمشغولات لا سيما فى هذه الاوقات الاخيرة التى صارت فيها الزراعة والتجارة

والصناعة مبنية على أصول ومحاسبات دقيقة فشتان بينها وبين ما كان يعمل في قديم الزمان من اجراء المنافع العمومية فانها كانت ساذجة بسيطة لا تستدعي رأس مال كما في أيامنا هذه فلم يتفكر المتقدمون فيما تفكر فيه المتأخرون من الدقائق اللطيفة وتعميم حال التجارة وتطبيقها على أصول حسابية تكاد ان تكون منطقية ولا تزال آخذة في الدقة والرواج الي غير نهاية بحسن ترتيب الحكومات العادلة واعطاء الحرية الفاضلة وعمل الميزانيات اللازمة وابعاد الاحتكار

الفصل الثاني

(في حالة المنافع العمومية في الازمان القديمة وانها كانت بسيطة سهلة لا تحتاج الى كبير شيء .)

الذي يستبان من كلام المؤرخين والمخططين للبلاد أن الارض الخصبة في مادة الزراعة كانت رأس مال الزارع يستثمرها ويستولي على فائدتها فان الحراثين والعملة في القرى والبلاد كانوا ملكا لمالك الارض بالتبعية لها أو أرقاء بالشراء وكذلك المواشي والسباخ وآلات الحراثة كانت أيضا ملكا لرب الارض فكان العبيد والفلاحون المستعبدون يحرثون الارض ويسوونها ويبذرونها الى ان يحصدوها وينقلوا محصولها الى بيت سيدهم وكانت نظارة الفلاحة ومباشرة الزراعة منوطة بأكبر عبيد السيد او عتقاء ممن يستنجبه منهم وليس لهذا المباشر ولو معتوقا مرتب خاص في نظير عمله بل معيشته في بيت سيده كالعبد وعليه مطعمه وملبسه في نظير الانتفاع بخدمته فاذا جسر المعتوق وخرج من بيت سيده المتربي فيه لا يجد من

يقوم بشؤنه فكانت الحرية فى تلك الاوقات مشؤمة على العتق وامثالهم هذا ما يخص الزراعة من المنافع العمومية فى تلك الازمان

وأما الصناعات فكانت أيضا قاصرة على الامور اللزومية و موكولة لتشغيل الارقاء فكانوا يصطنعون ماتدعو الحاجة اليه للملبس والمطعم وما أشبه ذلك مما تستدعيه الحاجة فقط وأما لوازم الزينة والتجمل فكانت تجلب من بعض ممالك أجنبية أكثر تمدنا من الممالك المجلوب اليها فكانوا يشترون المنسوجات الصناعية الساذجة من مصانع ليست كثيرة الآلات المتقنة الأدوات وكانت تشغيلات الأقدمين قليلة وعمليآتهم هينة فكانوا يستخرجون المعادن ويصطنعون الاسلحة وآلات الحرب المعروفة فى تلك الازمان وكانت هذه الاشغال أيضا وادارتها من وظائف العبيد والمماليك وكان التعامل بين الاهالى فى تلك الازمان بالرقيق فاذا اقتضى الحال للاقتراض لم يكن القدر المقترض دراهم ولا دنانير اذ لم تكن النقود رؤس اموالهم بل يقترض بعضهم من بعض قدرا معينا من الاعيان والاصناف ويستعيرونها ويدفعون لصاحبها فى نظير قرضه أو عاريته قدرا معينا ولم يكن عندهم أخذ واعطاء جسيم ولا تجارة مهمة الامع الاجانب فاذا توفرت عند انسان منهم بضاعة او فرع من الفروع اللازمة لجهة من الجهات البرانية واراد الربح شارك عليها تاجرا اجنبيا واشترط عليه شروطا ملايمة لعادة البلاد وجعل الربح بينه وبين شريكه العامل بان يعطيه جزأ من الربح قليلا اوكثيرا بحسب خطر السفر ومشاقه فكانت التجارة ايضا عندهم بسيطة كالزراعة والصناعة فاذا كانت منافعهم العمومية على هذه الكيفية فلا يتصور أن يعود على الحكومة منهم كبير ايراد

وفى الحقيقة كانت حكومتهم ايضا بسيطة لاتحتاج الى كثرة المصارف لاسيما فى اوقات الصلح فكانت مناصب الحكام القضائية والملكية والعسكرية ليس لها مرتب ولا ماهية لاسيما عند الرومانيين واليونانيين فكانت دولتهم لاتحتاج الا الى قليل من الخراج نعم فى اوقات الحروب والاخطار اذا احتاجت الحكومة الى امور ضرورية لتجهيز جيوش لحرب الاعداء استعانوا باهل الوطن فكان يبينهم من الاهالى كل من يحترم أوطانه ويصدق فى محبة بلاده ومحل ميلاده فيهدون الى الحكومة برسم تشريف الوطن ما يكفى للحاجة بدون الحاح من اهل الحكومة ولا لجاجة

« مطلب » حروب رومية مع قرطاجنة

ومن المعلوم من التاريخ ان الدولة الرومانية كانت في تلك الازمان مقارنة ومعاصرة للدولة القرطاجنية اى التونسية التى كانت اذ ذاك لها السلطنة العظمى فى الاقطار المغربية فكان كل من الدولتين منافسا للآخر وكانت العداوة الفاشية بينهما شديدة ولا تكاد الحروب تنقطع بينهما بالمجاورة والمنافرة والمنافسة كما هو جار الآن بين بعض الدول المتأخرة وتسمى الحروب التى كانت بينهم بالحروب البونيقية أى المغربية المشهور منها ثلاثة فالحرب البونيقى الاول كان قبل الميلاد باربع وستين سنة ومائتين ومكث اثنتين وعشرين سنة أخذ فيه الرومان من القرطاجنيين جزيرتى صقلية وسردينية وصارت قرطاجنة تدفع لرومية خراجا مقررا وقد تعلم الرومانيون من القرطاجنيين فى هذه الحرب صناعة السفن البحرية الحربية ذات المجاذيف

وفى هذه الاوقات صدر امر من مجلس رومية بان يرتب للعساكر مشاة جامكية وكانوا قبل ذلك غير متمكنين فبادر اعيان الاهالى ووجوه الناس باهدائهم لخزينة الجمهورية مقدارا جسيما من متاعهم للاعانة على مرتبات العساكر

الوقتية فجمعوا ما عندهم من النحاس غير المشغول وسقوا العربات من ذلك وبعثوا به الى الخزينة بوصف الاعانة الوطنية فكان يوم ارساله من أفخر الايام الموسمية واحتفل أناس كثيرون للتفرج على موكب هذه الهدية الوطنية العجيبة فمن هذا يفهم ان احتياجات تلك الايام كانت سهلة بسيطة كما أسلفناه ولم تكن كاللوازم في ايامنا هذه وكذلك في الحرب الثاني البونيقي الذي ابتدأه الرومانيون مع القرطاجنيين سنة ٢١٩ قبل الميلاد ومكث ثمان عشرة سنة

وكان سر عسكر قرطاجنة أنيبال وكان شجاعا باسلا هجم على رومة أشد هجوم وهزم جيوش الرومانيين في الوقائع العظيمة وكاد يأخذ رومية ولكن دخل وقت الشتاء فانزوى أنيبال في مدينة يقال لها قبوة ليقضي فيها فصل الشتاء مع جنده فتعود جنده على اللذات والشهوات وفترت هممهم بالانهماك على ذلك وكان في أثناء هذه المدة قد اغتنم الرومانيون الفرصة بتجميع عساكرهم المشتتة فهجموا على جند القرطاجنيين ومع ذلك انهزم جندهم وفر أميرهم

ففي أثناء هذه الحرب والاحتياج للامدادات العسكرية والذخائر تضايق الرومانيون واضطرت الحكومة ان تجمع عساكر جديدة وان تجهز سفنا حربية لتقاوم قوة القرطاجنيين وتمكن من منازلتهم فاحتاجت رومة الى الاعانات الضرورية وتحيرت في طريقة تحصيلها وكانت حكومتهم اذ ذاك منوطة برؤساء يقال لهم القناصل منقادين لمجلس الحكومة الذي بيده الحل والعقد والامر والنهي فالتمس هؤلاء الرؤساء من مجلس رومية ان يعمل كما جرت به العادة بان يحمل الاهالي على ان يدفعوا بحسب

مقادرهم ما يكفي في دفع مرتبات شهر للسفن البحرية من ماهيات وتعيينات ومع ان هذا طلب هين ومقدار يسير في حد ذاته لما علم به الاهالي اغبرت خواطرهم وتكدروا وتوقفوا فيه وقالوا نحن نعين الوطن باللائق والمناسب ونبذل ما عندنا من الاموال والرجال ولكن قد أخذت الدولة عبيدنا وفلاحينا الذين يباشرون الزراعات ومن وقت دخولهم في العساكر البرية والبحرية تعطلت الزراعة والفلاحة ولم يبق لنا الا أنفسنا وأراضينا فنحن قد تعطلنا بالكلية وتضعضع حالنا وضاعت أموالنا ولو كان عندنا شيء ما بخلنا به على أوطاننا فلما استشعر رؤساء الدولة وأمراؤها بأعذار أهل الفلاحة التمس أحد الرؤساء من مجلس رومية أن جميع أعضاء هذا المجلس يتطوعون لخزينة الحكومة بجميع ما عندهم من الذهب والفضة والنحاس ولا يبقوا منه شيأ الا ما في أصابعهم من خواتم الذهب وما في اصابع نسائهم وأولادهم من ذلك وانه لا مانع من ان لا يدعوا عندهم الا النقود اليسيرة للمصارف الضرورية ليقتدي بهم جميع الاهالي ولتكون هذه المكارم الوطنية معدودة في مآثرهم ومأثورة في مناقبهم فأجاب جميع الاعضاء الى هذا الالتماس الممدوح عن طيب نفس وانشراح خاطر ولم يتأخر منهم أحد عن ذلك وتفرق المجلس بالتواطؤ على التجهيز

فكل عضو من أعضاء المجلس شرع في المسارعة والمسابقة ليفتخر بتقيد اسمه وعطيته بالدفاتر قبل غيره فتزاحموا جميعا على كتاب الخزينة أن يكتبوا ماتعهد كل منهم بدفعه على سبيل الاعانة واقتدى بأرباب المجلس من عداهم من أهالي المملكة الرومية فبهذه الاعانات تمكن الروماتيون من قهر أعدائهم

وحماية مدنهم من جهة قرطاجنة فبواسطة اعانات الرومانيين ومكارم أخلاق أهاليهم ومفاداتهم أوطانهم ببذل الاموال والارواح شنوا الاغارة عليها بالجاش القوي والجيش الجرار في الحرب الثالث الذي صار الشروع فيه من سنة مائة وتسع وأربعين قبل الميلاد فحاصر الرومانيون قرطاجنة وهجموا عليها براً وبحراً مدة ثلاث سنين فأخذوها عنوة وسلبوا أموالها وقتلوا من فيها من السكان وحرقوا المدينة فمن ذلك الوقت زالت دولة القرطاجنيين بزوال قرطاجنة التي كانت دائماً قرينة رومية ومعاصرة لها في الفخر

ولم يكن في ذلك العهد ممالك قوية تعادل قوتي هاتين المملكتين حتى تعتبر الموازنة فما أحسن ادارة الممالك في هذه الأعصر الجديدة وما بين ملوكها من المعاهدات والمشارطات واعتبار الميزان السياسي واعتماده لمحافظة الحقوق الملكية وحقوق الدول والملل بعضها على بعض فان هذا حصن حصين لحفظ ذات الممالك بقطع النظر عن حفظ تيجان الملوك فالمملكة الضعيفة في هذا العهد مأمونة الدوام مالم يلم بها أحوال بوليتيقية أهلية بها تخرج عن حدود المشارطات فمحض القوة في احدى ممالك هذا العصر لا يسوغ لها تغلبا على غيرها بدون وجه لمنع الآخرين ذلك بعقد المشارطات القوية وهذا أيضاً مما يعد من التقدمات العصرية في النظامات الملكية ولو تمدنت الممالك الاسلامية المنافرة سياستها لسياسة الدول المتمدنة كممالك التتار ودخلت في النظام العمومي لصانت أوطانها من اغارة من جاورها بالتملك بخشونتها والاستيلاء عليها لقصد تمدنها وتحسين حالها في الازمان السابقة كانت الشهيرة في الدنيا لمدينة رومية ومدينة قرطاجنة لقوة الدولتين ولم يساو هاتين المدينتين مدينة أخرى

ويقال لو لم تكن رومية موجودة لكانت قرطاجنة أول مدن الدنيا ولولا وجود الاسكندرية عوقعها العجيب لكانت قرطاجنة ثانى مدينة من مدن الدنيا فانها كانت حسنة الوضع جيدة الموقع لوجودها بين بوغاز جبل طارق بالأندلس وبوغاز القسطنطينية وبهذا كانت اذ ذاك مركز التجارة وكان أهلها سبعمائة الف نفس أرباب زراعة وصناعة وفنون كثيرة وكان يغلب عليهم التقدم فى الزراعة والملاحة لان هذه الامة القرطاجنية كانت محتاجة الى الاسفار ونقل البضائع من بلادها وجلب ما ليس عندها من الخارج الى الداخل وكانت مولعة بالفتوحات وتوسيع دائرة ملكها فقد استولت على سائر مدن افريقية وسخرت من أوروبا جزيرة سردينية وجزيرتى مايورقه وميونورقه وغيرها من بلاد الاندلس ومن فرانسا وكان لها المحالفات والمعاهدات مع ملوك البلاد التى بينها وبينهم معاملات فخربها الرومانيون لما أعيتهم وأتعبتهم فكان تدميرها وخرابها مما يعاب به عليهم

ثم بنى الرومانيون مدينة فى آثارها بعد مدة من تدميرها وسموها قرطاجنة باسم الاولى ولم تشتهر المدينة الثانية الا فى زمن القيصر اغسطوس حتى صارت ثانى مدينة فى العظم بعد رومية وبقيت الى صدر الاسلام ثم هدمت حتى لم يبق لها الآن أثر وانما بنيت بالقرب من محلها مدينة تونس فانظر الى حال الامم القديمة فان دولة الرومانيين مع تقدمها فى الفتوحات العظيمة لم يكن عندها تقدم فى المنافع العمومية وانما كانت ادارتها بسيطة وكان عندها نوع من الرفق بالملة الرومانية واهل الوطن الحقيقى يعنى من له مزية عنوان الرومانى وكانت اقرب الى الصدق فى تأدية الحقوق لرعاياها لا سيما عقب الحروب

« مطلب » حروب رومية مع مقدونيا

فقد ذكر المؤرخون انه كان لرومية حرب مع مملكة مقدونيا فى بلاد روم ايلى فبعث بولص أميلوس أحد قوادها الى مقدونيا لقتال برشاوس ملك هذه البلاد فهزمه القائد الرومانى واغتنم امواله وعاد الى روميه بالغنائم العظيمة فلما تبين لحكومة رومية ان هـذه الغنائم تقوم بمصارف الدولة وتكفى فى مصالحها رفعت جميع المطالب المقررة على الاهالى الى وقت الحاجة

وبالجملة فقد كان القدماء من الممالك والدول لا يعرفون اقتراض الحكومة من الاهالى او غيرهم بالفوائض والارباح كالجارى الآن اعتمادا على ما يتحصل من الاموال والعوائد بل هذه الطريقة الاختراعية من مستحدثات الدول المتأخرة الاوروباوية وانما كانت طرق المتقدمين أنهم اذا اقتضت الضرورة للمال فان رؤساء الحكومة كمال الأقاليم يعقدون مع اغنياء الاهالى عقد القرض والسلفة فى حالة ما اذا خلت خزينة الدولة عن الدراهم بالكلية ولم يكن عقد القرض باسم الحكومة بل هو اتفاق شخصى بين الحكام والمقرضين لاعتماد الحكام وامانتهم وكانوا يعينون للدفع ميعادا ويحددون له اجلا مسمى فكانت امانة الحكام للمقترضين ومكارم اخلاق الاغنياء المقرضين هى المسهلة لقضاء حوائج الدولة بحيث لم تكن فى اوقات الاخطار عرضة لان تقع فى الحيرة والمضايقة

فقد احتاجت دولة الرومانيين بعد مضى سنوات من الاعانة التطوعية الى الدراهم لتتميم فتوحهم لقرطاجنة وكانوا فى خطب شـديد يخشون من عساكر أنيبال أمير القرطاجنيين فانه طالما أزعجهم وهـددهم حتى كاد يفتح مدنهم ويسترعيهم ففى تلك الاوقات الخطرة اضطر جميع حكامهم أن يقترضوا من بعض أغنياء الاهالى مقادير جسيمة من الامـوال فعاقدوهم

... بما لهم على ثلاثة اقساط متساوية فى ست سنين فجعلوا لكل سنتين قسطا والتزم الحكام بالأقساط فوفوا منها قسطين فى أثناء الحرب وصادف القسط الثالث حل أجله ولم يكن فى الخزينة الرومانية ولا عند الحكام ما يفى به فحضر المقرضون وطلبوه من الحكام فعجزوا عن دفعه فحضروا مجلس رومية وطلبوا دينهم فاعترف المجلس بجميع الديون مع عجز الخزينة عن دفعها اذ ذاك فحصل التراضي بين المجلس والدائنين على أن يأخذ أرباب الديون من املاك الحكومة وأراضيها التي يمكن بيعها بقدر ما بقي بديونهم فينتفعون بغلتها ومحصولها وقوموها لهم بقيمة المثل واشترطت لهم الحكومة انه عند يسار الخزينة كل من اراد أن يتنازل عن الارض التى أعطيت له يرخص له ان يطالب بدينه نقدا بقدر الثمن الذي اخذه كيع الوفاء فاستلم ارباب الديون الاراضي وفرحوا بها وبادروا باستغلالها وهذه معدلة من الحكومة وكرمه من ارباب الديوان من الاهالى الرومانية ومع عدها المآثر الجيلة لا تساوى مكارم الاخلاق العربية التى كان يفعلها من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف

« مطلب » غزوة تبوك التي يقال لها غزوة العسرة

ولنذكر هنا غزوة تبوك التي يقال لها غزوة العسرة ليظهر بها كيفية الاعانات الاسلامية وسبب غزوة تبوك التي هي ارض بين الشام والمدينة المنورة ان متنصرة العرب كتبت الى هرقل ملك الروم بأن النبى صلى الله عليه وسلم هلك واصابت اصحابه سنون أهلكت أموالهم فبعث رجلا من عظمائهم وجهز معه أربعين ألفا ليحارب اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فبلغه صلى الله عليه وسلم أن الروم قد جمعت جموعا كثيرة بالشام وانهم قدموا مقدماتهم الى البلقاء وكان صلى الله عليه وسلم قلما يخرج فى غزوة

الا كنى عنها ووری بغیرها الا ما كان من غزوة تبوك ابنه دونيا فى بلاد
الزمان بالحر وكثرة العدو وليأخذ الناس أهبتهم فأمر الناس بأ برشاوس
الى مكة وقبائل العرب ليستنفرهم وحض أهل الغنى على النفقة والحمومیه بالغنائم
الله واكد عليهم فى طلب ذلك رف الدولة

وكانت آخر غزواته صلى الله عليه وسلم فأنفق عثمان بن عفان الى وقت
عنه نفقة عظيمة لم ينفق احد مثلها حيث جهز عشرة آلاف
عشرة آلاف دينار غير الابل وهي تسعمائه بعير وغير الخيل واض الحكومة
وجهز الزاد وما يتعلق به حتى ما تربط به الأسقية وجاء أيضا الى ما تحصل من
بألف دينار فصبها فى حجر النبي صلى الله عليه وسلم فجعل رس الدول المتأخرة
الله عليه وسلم يقلبها بيديه الشريفتين ويقول ماضر عثمان ما ع رة للمال فان
ويقول غفر لك ياعثمان ما أسررت وما أعلنت وكان أول من رض والسلفة
عثمان أبو بكر الصديق رضى الله عنه جاء بجميع ماله وهو أربع القرض باسم
فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم هل أبقيت لاهلك شيأ قال ابقيت
لهم الله ورسوله وجاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه بنصف ماله فقال له
رسول الله صلى الله عليه وسلم هل أبقيت لأهلك شيأ فقال النصف الثانى
وجاء عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه بمائه أوقية من الفضة لهذا قيل
ان عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما كانا خزانتين من خزائن
الله فى الارض ينفقان فى طاعة الله تعالى

فقد كان عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه تاجرا كثير الاموال بعد
ان كان فقيرا باع مرة أرضا له باربعين الف دينار وتصدق بها كلها وتصدق
مرة أخرى بتسعمائة جمل بأحمالها قدمت من الشام وأعان فى سبيل الله

ثلاث سنين عربية وأوصى لكل رجل بقى من أهل بدر بأربعمائة دينار ستين قسمت مائة رجل وقسمت تركته بعد موته على ستة عشر سهما وكان وتصادف اثمانه الف دينار وعينه عمر رضى الله عنه فى جملة ستة يصلحون عند الحكم بعده فقام هو بأمر البيعة لعثمان وروى الامر عن نفسه لحضروا معه سنا يهم ان تجارة العرب فى الزمن القديم كانت رابحة عظيمة عجز الخزينة عن رضى الله عنه عمال كثير وكذا طلحة رضى الله عنه وبعث يأخذ أرباب الله عنهن بكل ما يقدرن عليه من حليهن وتصدق عاصم بن يق بديونهم عنه بسبعين وسقا من تمر

لهم الحكم وبجل صلى الله عليه وسلم عن ثنية الوداع التي بها المعسكر وهم عن الارض اجها الى تبوك عقد الألوية والرايات فدفع لواءه الأعظم لابي اخذه كبير رضى الله عنه ورايته صلى الله عليه وسلم العظمى للزبير رضي وهذه معدلة اروا حتى نزلوا الى تبوك فوجدوا عينها قليلة الماء فاغترف رمع عدها صلى الله عليه وسلم غرفة من مائها فمضمض بها فاه ثم بصقه ففارت عينها حتى امتلأت وأقام صلى الله عليه وسلم أياما وأتاه بحنة بن رؤبة صاحب أيلة فصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطى الجزية وأتاه أهل جربا وأذرح بالذال المعجمة والراء والحاء المهملة بلدتان بالشام فأعطوا الجزية أيضا ولم يقع فى هذه الغزوة قتال ولكن فتحوا فى هذا السفر دومة الجندل حيث بعث صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد من تبوك فى أربعمائة وعشرين فارسا الى ملكها اكيدر وكان نصرانيا فخرج خالد من تبوك وانصرف صلى الله عليه وسلم منها الى المدينة فصالحه اكيدر على الفى بعير وثمانمائة فرس وأربعمائة درع فرضى خالد بالصلح ففتح له باب الحصن الذي كان على هذه

القرية وانطلق باكيدر وأخيه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان صلى الله عليه وسلم بالمدينة فلما قدم بهما صالحه صلى الله عليه وسلم على اعطاء الجزية وخلى سبيله وسبيل اخيه فمن هـذا يفهم ان عثمان بن عفان رضى الله عنه جهز ثلث الجيش فى هذه الغزوة

وبالجملة فمآثر الصحابة رضى الله عنهم فى مكارم الاخلاق لا تحصى ولا تحصر فبالنسبة اليهم رضى الله عنهم لا يقال ان سبب ذلك البساطة فى الاخلاق وعدم كثرة المعاملات والاخـذ والعطاء فانا نقول ان أهل آسيا فى تلك الأزمان كانت التجارة عندهم رابحة ايا ما كان نوعها فكان للعرب كل سنة رحلتان رحلة الشتاء والصيف ومن المعلوم ان الاسفار من وسائل التقدم ودليل عليه

الفصل الثالث

فى أن الاسفار والسياحات مما يعين على تقدم المنافع العمومية

مطلب اعانة السياحات على تقدم المنافع العمومية

قد اسلفنا فى الفصل الاول من الباب الثانى ان دوائر الزراعة والتجارة والصناعة تتسع باتساع الرخصة فى الاقاليم بالمعاونات والمساعدات من ارباب الحكومات وان دولة الانكليز فتحت بلاد الهند وغيرها للتحيل على اتساع تجارتها وكذلك تحيل غيرهم من الدول على ذلك كما قيل

ومن طلب النجوم أطال صبراً   على بعد المسافة والمنال
وتمر حاجة المحتاج نجحاً   اذا ما كان فيها ذا احتيال

فهمة هؤلاء الامم تميل الى الجد والكد والكدح والانتصاب لسائر الاهوال فى تحصيل المعالى والاموال والترقى الى منازل العز وكسب المجد والاقبال وتوصل الى ذلك بالحركة والنقلة والسياحة والرحلة والاقدام على ركوب الاخطار لنيل الامانى وبلوغ الاوطار ومن الكلم النوابغ والحكم السوابغ صعود الآكام وهبوط الغيطان خير من القعود بين الحيطان ولبعضهم

أما ترينى على بنى العلاء لا عباء الامور حمولا دائم النصب
فما استوى شرف الاعلى كف ولا صفا ذهب الاعلى لهب
فتجشم المشاق عند خاطب المعالى حلو المذاق

« مطلب »
تفسير سورة قريش على حسب الطاقة

فالطريقة الموسعة لدوائر المعيشة قديمة عمومية قضت بسلوك طريقها فى الازل الحكمة الالهية فقد سخر الله سبحانه وتعالى لقريش بالحجاز من وسائط الكم والكيف ما يحملهم على إيلاف رحلة الشتاء والصيف فقال تعالى فى كتابه العزيز لايلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف وتفسير هذه الآية والله أعلم بمراده ان قوله تعالى لايلاف قريش اعجبوا لايلاف قريش لانهم يتمادون فى غيهم وجهلهم والله يؤلف شملهم ويدفع الآفات عنهم وينظم أسباب معايشهم أي اعجبوا من حلم الله وكرمه عليهم ونظيره فى اللغة قولهم لزيد وما صنعنا به أي اعجب لزيد وما صنعنا به من الاكرام والايلاف الالزام يعنى اعجبوا لالزام قريش ومعموله عام يعنى ايلاف قريش كل مؤانسة وموافقة بينهم من مقامهم وسيرهم وجميع أحوالهم ولفظ قريش مأخوذ من القرش وهو الكسب لانهم كانوا كاسبين بتجارتهم

وضربهم في البلاد ومن التقرش وهو التجمع لجمعهم المال بالتجارة أو للاجتماع بعد التفرق في البلاد ثم بعد أن عمم تعالى الايلاف الاول الذى هو نعمة عامة خص إيلاف الرحلتين بالذكر بسبب أنه قوام معاشهم

فقد امتن سبحانه وتعالى عليهم بنعمتين وهما الايلاف العام والايلاف الخاص الذى هو تعودهم على رحلة الشتاء الى اليمن ورحلة الصيف الى الشام قال المفسرون كانت لقريش رحلتان رحلة بالشتاء الى اليمن لان اليمن أدفأ وبالصيف الى الشام وذكر عطاء عن ابن عبس ان السبب في ذلك هو ان قريشا كانوا اذا أصاب واحدا منهم مخمصة خرج هو وعياله الى موضع وضربوا على انفسهم خباء حتى يموتوا الى ان جاء هاشم بن عبد مناف وكان سيد قومه وكان له ابن يقال له اسد وكان له ترب من بنى مخزوم يحبه ويلعب معه فشكي اليه الضر والمجاعة فدخل اسد على أمه يبكي فارسلت الى اولئك المال بدقيق وشحم فعاشوا فيه اياما ثم اتى ترب اسد اليه مرة أخرى وشكي اليه من الجوع فقام هاشم خطيبا في قريش فقال انكم اجدبتم جدبا تقلوا فيه وتزلون وانتم اهل حرم الله واشراف ولد آدم والناس لكم تبع قالوا نحن تبع لك فليس عليك منا خلاف فجمع كل بنى أب على الرحلتين في الشتا الى اليمن وفي الصيف الى الشام للتجارات فما ربح الغنى قسمه بينه وبين الفقير حتى كان فقيرهم كغنيهم فجاء الاسلام وهم على ذلك فلم يكن في العرب بنو أب اكثر مالا ولا أعز من قريش قال الشاعر فيهم

الخالطين فقيرهم بغنيهم حتى يكون فقيرهم كالكافى

فنعمة الله عليهم بايلافهم وتأنيسهم بجمعهم قبيلة واحدة في مكان واحد أمكن في النعمة من ان يكون الاجتماع من قبائل شتى ونبه تعالى بقوله ايلاف على ان

من شرط السفر المؤانسة والالفة لان السفر أحوج الى مكارم الاخلاق من الاقامة

ثم لما كان هذا الايلاف انعاما من الله تعالى عليهم وانه يستحق ان يقابل بالشكر والعبودية أتبعه سبحانه وتعالى بطلب العبودية فقال فليعبدوا رب هذا البيت ومعنى فليعبدوا أي فليتذللوا ويخضعوا للمعبود على غاية ما يكون ليشمل التوحيد والعبادات المتعلقة بالجوارح والمعنى ليتركوا ما هم عليه من عبادة الأوثان ويعبدوا رب هذا البيت أي الحرم وهو الله سبحانه وتعالى وقوله الذى أطعمهم من جوع أي رزقهم بالطعام في السفر والمقام وقوله وآمنهم من خوف أي حماهم حيث جعلهم اهل حرم آمن فكانوا يسافرون آمنين لايتعرض لهم أحد ولا يغير عليهم احد لا في سفرهم ولا في حضرهم كما يشير اليه قوله تعالى اولم يروا أناجعلنا حرما آمنا وقد اطعم الله تعالى قريشا وآمنهم انعاما منه تعالى واجابة لدعوة ابراهيم عليه السلام في قوله رب اجعل هذا البلد آمنا وارزق اهله من الثمرات فكانت رحلة الشتاء والصيف بها ميرتهم ومعيشتهم وثروتهم هذا ما يتعلق بقريش

« مطلب » سياحة العرب مطلقا في الارض قديما

واما العرب على الاطلاق فكانوا من الازمان القديمة يسيحون في الارض سوقة وملوكا حتى بلغوا اقصى المغرب وبلغوا من حدود المشرق سمرقند وبلغوا باب الابواب ودخلوا بلاد الهند ولكن كانوا يغيرون على غير بلادهم ولم يستقروا فيها حتى يصيروا ملوكها بل في الغالب كان يقتصر على ملك أبيه واذا غلبه عليه غيره رحل الى البلاد البعيدة ليستنجد على خصمه بملك اجنبي ذى قوة وبأس كما وقع لامرىء القيس الكندى حيث ذهب الى قيصر الروم ليستنجد به ومر في مسيره اليه على حماة وشيزر كما يشير الى ذلك

في قصيدة مطلعها * سماك شوق بعد ما كان اقصرا * يقول فيها

تقطع أسباب اللبانة والهوى　عشية جاوزنا حماة وشيزرا
بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه　وأيقن أنا لا حقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عيناك انما　نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

فكان كلامه فألا على نفسه حيث مات بقرب أنقرة ودفن في سفح جبل يقال له عسيب وقد أنشد فيه حال مرضه يخاطب حمامة فقال

أجارتنا ان الهموم تنوب　واني مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا انا مقيمان ههنا　وكل غريب للغريب نسيب

« مطلب » ثبوت فضل العرب على غيرهم بالتواتر في أغلب الخصال الحميدة

وقد ثبت بالعقل والنقل تواترا ان العرب أكثر الامم شجاعة ومروءة وشهامة ولسانهم أتم الألسنة بيانا وتمييزا للمعاني جمعا وفرقا يجمع المعاني الكثيرة في اللفظ القليل اذا شاء المتكلم الجمع والتمييز بين كل لفظتين مشتبهتين بلفظ آخر مختصر الى غير ذلك وهذا من خصائص اللسان العربي فالعقل قاض بفضل العرب ولو انهم كانوا قبل الاسلام لا يشتغلون ببعض العلوم العقلية المحضة كالطب والحساب والمنطق ونحو ذلك وانما كان علمهم ما سمحت به قرائحهم من الشعر والخطب وما حفظوه من أنسابهم وأيامهم من التواريخ أو ما احتاجوا اليه في دنياهم ومعاشهم من الانواء او النجوم او الحروب فلما جاء الاسلام وتلقوه من حالة الجاهلية التى احاطت بهم زالت الرين عن قلوبهم واستنار باطنهم بفطرة جديدة وفطنة نيرة سعيدة فاجتمع لهم الكمال التام والخير العام بالقوة المتجددة فيهم

« مطلب » الكلام على مدينة سبا وما يتعلق بها

ودرجة الفضل العظيم فلذلك كان بقاؤهم نورا في الاسلام وفناؤهم فساد فيه (وقد روي) عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا زلت العرب زل

الاسلام فكيف وهم الذين فتحوا بلاد الدنيا وأعزوها بالاسلام ومدنوها بالعلوم وان اتسع فيها غيرهم فلا بأس من كونهم بواسطة النظامات الملوكية العامة يقتبسون معارف الأعصر الجديدة ويزيدون عليها فصيت شعات العرب قديما قد بقيت مخلدة الذكر في جميع تواريخ أهل الدنيا لاسيما اهل اليمن

وقد أطنب المؤرخون في عظم مدينة سبا التي تسمى مأرب وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام فهي بين مملكة اليمن ومملكة المسكت وبسطوا الكلام على ما كانت عليه من الثروة والغنى وكثرة الخيرات المدنية والنباتية وأن ملكها آل الى بلقيس التي قال الله تعالى في حقها ولها عرش عظيم قال تعالى في حق أهل سبا لقد كان لسبا في مساكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور قال المفسرون المراد بالجنتين جماعتان من الجنان ولا تصال بعضها ببعض جعلها جنة وقوله تعالى كلوا من رزق ربكم اشارة الى تكميل النعم عليهم وقوله واشكروا له بيان أيضا لكمال النعمة فان الشكر لا يطلب الا على النعمة المعتبرة ثم لما بين تعالى حالهم في مساكنهم وبساتينهم واكلهم بين بيان النعمة حيث بين انه لا غائلة عليهم ولا تبعة في الدنيا فقال بلدة طيبة أي طاهرة عن المؤذيات ثم قال ورب غفور يعني ان نعمتهم كاملة حيث كانت لذة حالية خالية عن العقوبات الأخروية فلا يترتب على تعاطيها عقاب من جانبه تعالى

وأما ما كان من جانبهم فقد بينه تعالى بقوله فأعرضوا فارسلنا عليهم سيل العرم الآية فبين سبحانه وتعالى انه انتقم منهم بظلمهم بالاعراض

تصديقا لقوله تعالى انامن المجرمين منتقمون فأرسل عليهم للأنتقام منهم سيلا غرق اموالهم وخرب دورهم فهذاكله ظاهر الدلالة على غنى اليمن وثروة أهاليها ورفاهيتهم وتنعمهم فى زمن سيدنا سليمان عليه السلام وتقدمهم فى الزراعة والتجارة والعمارة

« مطلب » استكشاف الحكومة المصرية لمدينة سبا

وفى سنة ستين ومائتين والف من الهجرة استكشف من أرسل من طرف الحكومة المصرية محل مدينة سبا المسماة مأرب ووجد رسومها وأطلالها بالحفر فوجد مايدل على عظمها ثم قال تعالى وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة الى ان قال تعالى فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق المراد بالقرى المبارك فيها قرى الشام فانها هي البقعة المباركة ومعنى فجعلناهم أحاديث أى فعلنا بهم ما جعلناهم به مثلا يقال تفرقوا أيدي سبا وعلى ذكر قرى الشام ناسب ان نذكر هنا أهل سورية وهم اهل الشام فى قديم الزمان حيث سبقوا كثيرا من الامم فى المنافع العمومية وفى الاسفار البحرية والامة التى اشتهرت منهم بذلك هى أهل صور وصيدا وبيروت فكانوا يسمون بالفنيكيين وسيأتى بيانهم فى الفصل الرابع وممن اشتهر أيضا بالاسفار البحرية الهنود

وأما العرب فانما كانوا يشتغلون بالتجارة فى البر بالأخذ والعطاء مع اهل الشام او مع اهل اليمن فيما كانت تأتى به أهل سواحل الشام او الهنود من بلادهم فكانوا ينقلونه من البر الى جميع مواطنهم او ينقلون بضائع مواطنهم الى تلك البلاد للمعاوضات الى أن ظهر الاسلام واستولى على البحور و البرور فتغيرت احوال الترقيات فى العلوم والمعارف

« مطلب » سفره صلى الله عليه وسلم الى الشام فى تجارته لخديجة رضي الله عنها وما حصل فى ذلك من خوارق العادات

وقد سافر النبي صلى الله عليه وسلم الى الشام فى تجارته لخديجة رضى الله عنها بتجارة الي مدينة بصرى باقليم حوران وسبب ذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغ خمسا وعشرين سنة قال له عمه ابو طالب ليرشده الى التجارة والكسب أنا رجل كثير العيال قليل المال وقد اشتد الزمان وهذه عير قومك تخرج الى الشام للتجارة وقد حضر أوانها وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك فى تجارتها فلو ذهبت اليها وقلت لها فى ذلك لعلها تقبل فبلغ خديجة ذلك فأرسلت اليه صلى الله عليه وسلم فى هذا الشأن وقالت له أعطيك ضعف ما أعطى رجلا من قومك لانك الحبيب القريب فقال له أبو طالب هذا رزق ساقه الله اليك فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بتجارة خديجة رضى الله تعالى عنها وارفقت معه غلامها ميسرة ليعينه فساروا حتى دخلوا الشام فنزلوا ببصرة عند صومعة بحيرا الراهب التي بجانب المدينة

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد نزل تحت شجرة رعرعت بنزوله تحتها فخرج من الصومعة نسطورا الراهب وبيده صحيفة ينظر فيها مرة وينظر فى وجه النبي صلى الله عليه وسلم مرة أخرى فاجتمع عليه القوم فقال لهم ياقوم فوالذي رفع السماء بغير عمد ما نزل بى ركب هو أحب الى منكم وانى لأجد فى هذه الصحيفة ان النازل تحت هذه الشجرة هو رسول الله رب العالمين وخاتم النبيين من اطاعه نجا ومن عصاه غوى ثم أقبل على النبي صلى الله عليه وسلم وقال اني لأرى فيك شيأ ما رأيته فى أحد من الناس انى لأحسبك النبي الذي يخرج من تهامة ثم باع النبي صلى الله عليه وسلم تجارته وربح ضعف ما كانوا يربحون

ثم رجع صلى الله عليه وسلم الى مكة وخبر خديجة بربح التجارة فسرت بذلك وكان صلى الله عليه وسلم قد ظهرت منه خوارق عادات ارهاصاً للنبوة كتظليل الغمامة فأخبرها ميسرة بهذه العجائب وبما قال نسطورا الراهب فاضعفت له صلى الله عليه وسلم ضعف ما سمت له وكانت رضي الله عنها امرأة عاقلة شريفة في قومها مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير وكانت كثيرة المال فكان رجال قومها يحرضون على زواجها ولكن شرفها الله تعالى بزواج أشرف العالمين عقب التجارة الرابحة

فما احسن الاسفار التي افادت المال وعادت على العامل وصاحب رأس المال بتحسين الأحوال ونتج عنها نتائج جليلة أعقبت أهل البيت الطاهرين أبناء فاطمة الزهرا بنت خديجة الكبرى سيدة نساء العالمين وهي أول من آمن به على الاطلاق وقال انه صلى الله عليه وسلم سافر لخديجة قبل هذه السفرة سفرتين الى اليمن وثبت أيضاً انه أجر نفسه قبل النبوة لرعي الغنم وكذا ثبت في حق غيره من الانبيا كموسى قيل ان حكمة ذلك ان راعي الغنم التي هي أضعف البهائم يسكن في قلبه الرقة واللطف فاذا انتقل من ذلك الى رعاية الخلق كان قد هذب قبل ذلك وأما رعي موسى عليه السلام لشعيب فانه حصل أيضا عقب السفر من مدينة عين شمس بمصر الى مدين حين قتل القبطي ونصر الاسرائيلي وهم أهل مصر بقتله فقال له مؤمن آل فرعون ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج انى لك من الناصحين فخرج يطلب بلاد مدين بدون زاد ولا راحلة وبينها وبين مصر مسيرة ثمانية ايام ولم يكن له في طريقه طعام الا ورق الشجر حتى ورد ماء مدين فكان ما قال الله تعالى في كتابه ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين

« مطلب » الحكمة في رعي الانبياء للغنم قبل النبوة

« مطلب » سفر موسى عليه السلام الى مدين

تذودان أي تحبسان أغنامهما لان على الماء من كان أقوى منهما فلا تتمكنان من السقي مع كراهة المزاحمة على الماء وخوف اختلاط اغنامهما بأغنام غيرهما ومع التحفظ أيضا بالاختلاط بالرجال فقال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء أي ننتظر ما يبقى من القوم من الماء بعد صدورهم عنه وانصرافهم وقوله وأبونا شيخ كبير كناية عن الضعف ودلالة على انه لو كان قويا لحضر ولو حضر لم يتأخر السقي فعند ذلك سقى لهما موسى قبل صدور الرعاء وعادتا الى أبيهما قبل الوقت المعتاد وكان قد سأل عليه السلام القوم أن يسمحوا فسمحوا

وقيل ان القوم لما زاحمهم موسى عليه السلام تعمدوا القاء حجر عظيم لا يقله ولا يرفعه الا جماعة كثيرون على رأس البئر فرفعه بالقوة على ضعفه من الجوع وسقى غنمهما قال الله تعالى فسقى لهما ثم تولى الى الظل لانه سقى لهما في الشمس والحر وفيه دلالة على كمال قوة موسى عليه السلام وعلى ان احوال أهل البادية غير احوال اهل الحضر يعني ان ما يعد عيبا في الحضر قد لا يعد عيبا في البادية فلهذا ساغ لنبي الله شعيب أن يرضى لابنتيه بسقي الماشية بدون ان يقدح ذلك في حقه بشيء حيث لا مفسدة في ذلك لان الدين لا يأباه في البدو ولا في الحضر ومروءة أهل البدو لا تأباه لا سيما اذا كانت الحالة حالة ضرورة لان الظاهر انه لم يكن لشعيب عليه السلام معين سواهما

ولما كان موسى عليه السلام قد مكث مدة الطريق لم يذق طعاما الا بقل الارض قال رب اني لما أنزلت الي من خير فقير أي اني لاي شيء أنزلت الي من خير قليل او كثير غث او سمين لفقير أي سائل وطالب

فجاءته احداهما تمشي على استحياء أي مستحيية قد استترت بكم قميصها ماشية على بعد مائلة عن الرجال قالت ان أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا وذلك ان البنتين لما رجعتا الى أبيهما قبل الناس قال ما أعجلكما قالا وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا فقد فهمنا من حاله انه سقى أغنامهما تقربا الى الله تعالى فوصفتاه بالصلاح فقال شعيب لاحداهما اذهبي فادعيه لي فأرسلها شعيب الى موسى مع انها شابة وهو شاب لانه عليه السلام كان قد علم بالوحي أو من حسن التربية طهارتها وبراءتها فكان يعتمد عليها فذهب معها موسى عليه السلام مع الاحتياط والتورع وامتثل دعوة أبيها للتبرك برؤية ذلك الشيخ لا طلبا للاجرة وروي انها لما قالت ليجزيك أجر ما سقيت لنا كره ذلك

ولما قدم اليه الطعام امتنع وقال انا أهل بيت لا نبيع ديننا بدنيانا ولا نأخذ على المعروف ثمنا حتى قال شعيب عليه السلام هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا فجلس موسى عليه السلام فاكل بعد أن قص عليه قصته فذكر نسبه الى يعقوب وحكى جميع أمره من لدن ولادته وأمر القبائل والمراضع والقذف في اليم وقتل القبطي وأنهم يطلبونه ليقتلوه فلذلك قال الله تعالى فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين أي لا سلطان لفرعون بأرضنا فلسنا في مملكته فقد أسكن روع موسى عليه السلام وان كان فرعون لقوته وبطشه وكثرة جنوده يمكنه أن يتسلط على أرض مدين اذا قصد ذلك الا ان شعيبا يعلم انه لا سبيل لفرعون على هذه الارض وان الله سبحانه وتعالى عماه عنها وحماها منه فقالت ابنته الصغيرة وكانت آنست منه القوة برفع الحجر عن رأس البئر واستسقائه بالدلو العظيم

« مطلب »
اجتماع موسى بشعيب وما جرى بينهما

وعمدت فيه الامانة حيث أخرها الى خلفه فى السير معها يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوي الأمين فرغب فيه شعيب فكانت ابنته من أفرس الناس حين تفرست الامانة فى سيدنا موسى عليه السلام قال شعيب اني أريد ان أنكحك احدي ابنتي هاتين على ان تأجرني ثماني حجج يعني على ان تكون لى أجيرا ترعى لى ثمانى سنين فان أتممت عشرا فمن عندك وما أريد ان أشق عليك ستجدنى ان شاء الله من الصالحين قال ذلك بيني وبينك أيما الاجلين قضيت فلا عدوان على والله على ما نقول وكيل

« مطلب » تزوج موسى بابنة شعيب

فتزوج موسى صفرا وهى الصغرى منهما وطلب عصا فقال له ادخل بيتي أي الذى يأوى فيه خذ عصاك وكان فيها عصى كثيرة فدخل موسى البيت وأخذ من العصى عصا حمراء فقال له شعيب هذه عصا الانبياء انتقلت من آدم الى شيث ومنه الى ادريس والى نوح وهود وصالح وابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب وكلهم توكأ عليها فلا تخرجها من يدك ثم اوصاه وحذره من أهل مدين وقال انهم قوم حسدة واذا رأوك قد كفيتنى أمر غنمى حسدونى عليك فدلوك على وادى كذا وكذا وهو كثير المرعى وانما فيه حية عظيمة تبتلع الغنم فان دلوك عليه فلا تمر به فانى اخاف عليك وعلى غنمى فخرج موسى بالغنم وكانت يومئذ اربعين رأسا وقال فى نفسه ان من أعظم الجهاد قتل هذه الحية وتوجه بالغنم الى ذلك الوادى كما قاربه اقبلت الحية الى الغنم فقتلها موسى ورعى غنمه الى آخر النهار وعاد الى شعيب واعلمه الخبر ففرح بقتلها وفرح اهل مدين وعظموا موسى وأجلوه وقام موسى بغنم شعيب يرعاها ويسقيها حتى انقضت المدة التي بينهما وبلغت الغنم أربعمائة رأس وعزم موسى على المسير

« مطلب » ثمرة الشفقة على خلق الله

وقد ورد انه لما رعى الغنم لم يضرب واحدة منهن بعصاه انما كان يهش بها فقط وكان لايجيعها ولا يؤذيها بعطش وجاء مرة الى نهر ليسقيها فوجد فيها شاة عرجاء لا تقدر على الوصول الى الماء فحملها ونزل بها فسقاها فلما رأى الحق منه قوة شفقته على غنمه بعثه نبيا وكليما راعيا لبنى اسرائيل وناجاه بالتوراة وغيرها كما يأتي فمن رحم رعيته وشفق عليهم اصطفاه من بين الخلق ومن لم يكن عنده شفقة ورحمة على خلق الله لا يرقى المراقي العلية المسعدة

ولما اراد موسى الانصراف بكى شعيب وقال يا موسى انى قد كبرت وضعفت فلا تضيعني مع كبر سني وكثرة حسادي اتترك غنمى شاردة لا راعى لها قال موسى انها لا تحتاج الى راع وقد طالت غيبتي عن اهلي فقال شعيب انى اكره ان أمنعك وأوصاه على ابنته وأوصاها أن لا تخالفه وسار موسى عليه السلام بأهله يريد مصر حتى بلغ جانب وادي طوى في عشية شديدة البرد فأنزل موسى أهله وضرب خيمته على حافة الوادي وادخل أهله فيها وهطلت السماء بالمطر وكانت امرأته حاملا فجاءها الطلق فجمع حطبا وقدح الزناد فلم يور فرماه وخرج من الخيمة فرأى نارا فقال لاهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جزوة من النار لعلكم تصطلون فلما اتاها نودي من شاطىء الوادى الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى انى انا الله رب العالمين وأمره بخلع نعليه بقوله تعالى فلما اتاها نودي ياموسى اني انا ربك فاخلع نعليك انك بالوادي المقدس طوى وانا اخترتك فاستمع لما يوحى انني انا الله لا اله الا انا فاعبدني وأقم الصلاة لذكرى الآية فاكتسب موسى عليه السلام النبوة في العود الى مصر كما اكتسب الزوجة الصالحة في الورود منها الى مدين فمن الله سبحانه وتعالى عليه في الاسفار بمراتب الاخيار والابرار

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم فيالها اسفارا الهامية أسفرت عن اسفار التوراة التي بينت للناس جميع التواريخ من ايام الخليفة الى زمن موسى كما بينت لامته الاحكام والشرائع وبشرت برسالة خاتم الانبياء والمرسلين فلا شك انه قد ترتب عليها مالا يحصى ولا يحصر من المنافع مما كانت البلاد الشامية له من أعظم المنابع

الفصل الرابع

في ان الصوريين وهم أهل سواحل بر الشام قدموا في سالف الازمان التجارة والعلوم البحرية على وجه نافع

أهل سواحل الشام في القديم والحديث هم أعني اهل بلاد سورية وكانوا يسمون في قديم الزمان الفنيكيين وكانوا على سواحل البحر الابيض الشامي وكانت اعظم مدنهم مدينة صور التي كانت تسمى في سالف الازمان ملكة البحار ويليها مدينة صيدا في شمالها ثم مدينة بيروت ولكون أرض السواحل كانت عقيمة لا تخرج منها ما يكفي لمعيشة سكانها اضطروا الى تعليم الصنائع النافعة لان الضرورة هي الاصل الاصيل لاستفادة المعارف فقد استفادوا باممان افكارهم وتكرار تجاريبهم ووقوع أمور اتفاقية بالمصادفة معرفة كثير من المنافع التي انضمت الى الصنائع

وقد عرفوا من الازمنة الخالية ان ركوب البحر يوصلهم الى التجارات واعانهم على ذلك كونهم سواحلية وبمجاورة جبل لبنان الكثير الغابات والاخشاب فاستسهلوا ركوب البحر المالح مع مايمهدون فيه من الأخطار بلوغ الأوطار

مع ان السفر كما في الحديث النبوي قطعة من العذاب الا أن البركات مع الحركات وفي التوراة مكتوب ابن آدم أحدث سفراً أحدث لك رزقا قال الشاعر

بلاد الله واسعة الفضاء ورزق الله في الدنيا فسيح
فقل للقاعدين على هوان اذا ضاقت بكم أرض فسيحوا

قال الامام الشافعي رضي الله عنه

تغرب عن الأوطان في طلب العلا وسافر ففي الاسفار خمس فوائد
تفرج هم واكتساب معيشة وعلم وآداب وصحبة ماجد

ولم يكن لهم دليل في البحر الا النجمة القطب لأن البصلة التي هي بيت الابرة لم تكن تعرف عند الاقدمين وانما صار استكشافها في الاعصر الجديدة يعني في آخر القرن السابع من الهجرة استكشف صناعتها وخاصيتها العرب فهي من اختراعاتهم المفيدة لعموم الناس وليست من اختراعات الافرنج ولا اطلع عليها العرب عند أهل الصين اذ كانت عندهم معلومة من أزمان قديمة وهي حق مشتمل على ابرة مسقية بالمغناطيس تتجه دائماصوب الشمال يهتدي بها الملاحون صوب مقصودهم كما يهتدون بالنجم الذي أنعم الله به على عباده قال تعالى وبالنجم هم يهتدون بعد قوله وهو الذي سخر البحر الى آخره والاهتداء بالنجم الذي هو الثريا والفرقدان وبنات نعش عام في البر والبحر ولو انه ذكر بعرض البحر وكما يهتدي المسافر بالنجم في البحر والبر في الاسفار يهتدى به أيضا في تحري القبلة اذا عميت عليه وكذلك بيت الابرة مما تحرر به القبلة

فاختراع العرب للبصلة من المنافع العمومية المتأخرة التي كان لا يعرفها المتقدمون ومع ذلك فاهتدوا كغيرهم بالنجم ووصلوا الى الاقطار القاصية كالصوريين الذين نحن بصددهم وذلك انه لما ظهر الاسلام واستولى العرب

« مطلب »
ان اختراع العرب ليت الابرة من المانع السموية المتأخرة التي لا يعرفها المتقدمون

بالفتوحات على ممالك الدنيا برا وبحراً تأهلوا لقبول التمدن الذى كانت آثاره لم تزل موجودة فى الدنيا عقب انقراض دولة الروم فتصدوا للأسفار البحرية واظهروا الحروب وفازوا بظفر الفتوح وكانوا كالرومانيين فى مبدأ امرهم فركبوا السفن وجندوا الجنود وشنوا الغارات واستداموا فى الازمان والاماكن على تجشم الاخطار واقتحام البحار للتمتع بالتجارة واخترعوا بيت الابرة التى أعانت على الاسفار فكانت تجارتهم في القرن الثالث فى الاقطار المشرقية تنمو وتزيد فى البحر المتوسط وقد لاحت أعلام الخلفاء على بحر الهند فتصدى تجار العرب للتجارة فى جميع البلاد فامتدت تجارتهم الى جبل الطارق ومثلهم تجار الفرس وجسمت معاملتهم التجارية فى الهند والصين وصار لهم مراكز تجارية فى تلك الاقاليم حتى ان من العرب من أقام فى جزيرة سيلان وفى المدن الهندية والصينية وانتشروا في اماكن عديدة وفى عهد الدولة العباسية تهذبت العلوم وحسن التمدن وأسست القصبات الجديدة على نهر الدجلة وانتظم امر التجارة وصارت المراكب العربية الخفيفة تجول فى البلدان وتسير الى جزائر الهند وبوغاز ملقة فكانت تجارتهم فى كل جهة وكل مكان وكانت المراكب الكبيرة تتوجه الى جهة سيراف فى بحر العجم وكثرت السياحات العربية في سائر البلاد البرية فارتفع شأن التجارة عند العرب حتى كانت أعظم شيء يشتغل به فى اصلاح المعاش وتأسس في أمور التجارة أصول في ايام الخلافة المشرقية والمغربية وعقدت المعاهدات مع الدول الاجنبية الاورباوية فى شأن الملاحة بلادهم لحسن استقامة اهل الاسلام في المدن الاجنبية لاسيما مع الممالك التي على البحر واستمر الامر على ذلك حتى حصل حرب أهل الصليب فاضعف ذلك فلما انتهت الحروب الجسيمة بين الاسلام

له الحق فى أولوية الانتفاع ،وانما دولة الصوريين كانت فى تلك الازمان ملكة البحار خبيرة بالمسالك والممالك كانت مستحوذة بالفعل على التجارات وكان غيرها من الأمم اذذاك معرفتهم بمسالك البحر قليلة جدا فكانوا يحرصون على أن لا يدلوا احدا عليها .

فقد حكى بعض المؤرخين ان الصوريين كانوا يسافرون الى جزائر بحر الانكليز المسماة جزائر القزدير لاستخراج معادن القزدير والرصاص منها وان احد الصوريين ذهب في سفرة الى تلك الجزائر القزديرية التى لم تكن معلومة الا للصوريين دون غيرهم فلمح ان وراء سفينته سفينة أخرى رومانية ترود هذه السكة وتتعرفها فاختار الصوري ان يقذف سفينته على رصيف هناك لتغرق ويهلك اهلها وتغرق السفينة الأخرى بجانبها ففعل ذلك حتى لا تقفو السفينة الاجنبية أثره فأتلف سفينة نفسه وغيره واجتهد فى ان ينجو بنفسه فنجا وذهب الى اهل صور فى نحو قطيرة فكافؤه على ذلك مكافأة عظيمة وجبروا خسارته وأغدقوا عليه بالانعام واكرموه غاية الاكرام جزاء لما صنعه لمصلحة الوطن الصورى فبعد ان كان لسان حاله ينشد بحسرة

اذا نحن أبنا سالمين بأنفس ... كرام رجت أمر انخاب رجاؤها
فأنفسنا خير الغنائم انها ... تؤوب وفيها ماؤها وحياؤها

عاد ينشد بمسرة

كم فرجة مطوية ... لك بين أثناء النوائب
ومسرة قد اقبلت ... من حيث تنتظر المصائب

فكان اهالى السواحل الشامية لهم فى الوطن محبة مستولية على الطباع مستدعية لشدة الحرص على ثروته وشفاء الاطماع

ومن اخبار حب الوطن وابائه من اهل الشام لاسيما للانبياء عليهم الصلاة والسلام أن يوسف عليه السلام وصى بان يحمل تابوته الى مقابر آبائه

ومما يؤثر عن الصوريين ما ذكره المؤرخون أن الملك نخوس بن أبسميتكوس أمر جماعة من الصوريين البحريين ان يكشفوا له حدود افريقة بأسرها فساروا من بحر القلزم ثلاث سنين حتى طافوا حول افريقة واستكشفوا أطرافها وعادوا في آخر السنة الثالثة من البحر الابيض الشامي ودخلوا مصر من مصب النيل وكان ذلك قبل ميلاد عيسى نحو ثمانية قرون وهو من اعجب ماوقع من الصوريين حيث استكشفوا سواحل افريقة ولابد أنهم مروا برأس عشم الخير خصوصا في زمان كان سير السفن فيه في وسط تلك البحار يكاد أن يكون مستحيلا مع انه لم يستكشفه البورتغاليون الا في آخر القرن التاسع من الهجرة وسموه رأس عشم الخير تفاؤلا والا فهو رأس التلاقيح ومع استكشافهم له فلم يمروا عليه في سياحاتهم البحرية الا بعد خمس عشرة سنة

ولما أرسل البرتغاليون أناسا من أهاليهم في هذا الاقليم للاقامة به ولادخاله في أملاكهم الخارجية أخذه منهم الانكليز واستولوا عليه فمن ذلك الوقت صار هذا الاقليم نافعا للانكليز في سلوك طريق الهند ذهابا وايابا واهله ما بين سود وبيض على التناصف في قبضة الانكليز فقد أسسوا على هذا الرأس مدينة انكليزية تسمى مدينة الكاب وهي أبعد مدينة افريقية جهة الجنوب ترسي عليها جميع السفن الذاهبة الى الهند والحاضرة منه

ومن سياحة الصوريين في افريقية بأمر ملك مصر يستنتج نتيجتان عظيمتان يستدل منهما على تقدم دولتين عظيمتين وهما دولة مصر الآمرة

بهذه السياحة العظيمة وهى مشروع جسيم فى الاعانة على المنافع العمومية لا يخطر الا بخاطر دولة متمدنة محبة للتقدم العجيب ودولة مأمورة ذات ملاحة وسياحة بحرية ذات سفن عظيمة تقتحم اخطار البحار وتبحث عن المنافع العامة فى شاسع الاقطار وكل يدل على ان هاتين الدولتين كان عندهما فى تقديم المنافع اعمال الافكار ان في ذلك لعبرة لأولى الابصار

« مطلب » ان الصوريين هم اول من استكشف الصباغة باللون الاحمر الارجواني

ثم ان الصوريين هم اول من استكشف الصباغة باللون الاحمر الارجواني الذى كانت تتخذ الامراء من مصنوعاته الحلل والثياب والمضارب والقباب وكان استخراجهم لهذا اللون المجهول عندهم من الصدفة والاتفاق وذلك ان بعض رعاتهم رأى كلبا جائعا كسر محارة من صدف البحر فاكلها فتلون حنكه باللون الاحمر الأرجواني فاعجبهم ذلك اللون البهيج فاستخرجوا من المحار هذه الصبغة وصبغوا بها الاقمشة حتى اتقنوا صبغتها فصار هذا اللون بعد مدة زينة للملوك فى ذلك العهد لا سيما لملوك مصر وكثيرا ما تكون الاتفاقيات سببا فى اختراع الصنائع وتكثير المنافع ومن جملة ما اخترعه الصوريون مما أورثهم الشهرة فن الكتابة حيث اخترعوا حروف الهجاء المستخرج منها الحروف الافرنكية

« مطلب » فى ان اول من نقل حروف الهجاء من الصوريين اليونان

واول من نقل حروف الهجاء من الصوريين اليونان ومن كتابة اليونان القديمة استخرج اللاطينيون حروفهم الهجائية ومنهم استخرج جميع اهالي اوروبا حروفهم فهذه الحروف القليلة وصلت الامم الى معرفة العلوم فكانت آلات لجميعها فهي فى الحقيقة تعد من مآثر الصوريين وهذا اما الهام رباني لبعض أنبيائهم على ان الواضع هو الله سبحانه وتعالى فان

هذه الحروف الصورية من وضع البشر فالافعال كلها لله والله خلقكم وما تعملون وعلى كل حال فهي آثار نافعة

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

(وقال آخر)

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به ولا يكون له في الارض آثار

وهذا القول ينبغي أن يكون بالنسبة لحروف الهجاء التي تأسس عليها خط أمم أوربا والا فالكتابة قديمة بدليل صحف شيث ونحوها بل هي داخلة في تعليم آدم الأسماء ومما يدل على ذلك الحروف الأبجدية التي لها خواص واسرار الهية فلا شك في قدمها وانها ليست من محض وضع البشر فان هذا لا يسلمه العقل السليم وعلى كل حال فان كانت الكتابة المخصوصة من اختراع الصوريين وأنهم أول من كتب بالقلم في بلادهم وبين أممهم وانتقل منهم الى اليونان فلهم فضل لا ينكر فان الكتابة في حد ذاتها من الفضائل الأولية وفضل الكتاب دائما متداول على ألسنة ذوي الالباب قالوا الكتاب سياسة الملك وعماده واركان السلطان وأطواده بافلامهم تبسط الارزاق وتبيض الآمال وبها تصان المعاقل اذا عجزت عن صونها الرجال وقالوا الكاتب مالك الملك يصرفه بقلم الانشاء كيف يشاء وقالوا لو ان في الصناعات صنعة مربوبة لكانت الكتابة ربا لكل صناعة وقالوا الكتاب قطب الادب وفلك الحكمة ولسان ناطق بالفضل وميزان يدل على رجاحة العقل وبالكتابة والكتاب قامت الرياسة والسياسة واليهم التي تدبير الأعنة والأزمة وعليهم يعتمدون في حصر الاموال وانتظام شتات الاحوال وما مدحوا باحسن من قول القائل

(مطلب في ان الكتابة من الفضائل الاولية)

قوم اذا أخذوا الاقلام من قصب ثم استمدوا بها ماء المنيات
نالوا بها من أعاديهم وان بعدوا ما لا ينال بحد المشرفيات

ومن قول الآخر

قوم اذا خافوا عداوة بينهم سفكوا الدما بأسنة الاقلام
ولضربة من كاتب بلسانه أمضى وانفذ من رقيق حسام

(مفرد في المعنى)

له يراع سعيد في تقلبه ان خط خطا أطاعته المقادير

وقال ابن المقفع الملوك أحوج الى الكتاب من الكتاب الى الملوك ومن فضل الكتابة أن صاحب السيف يزاحم الكاتب في قلمه ولا يزاحمه الكاتب في سيفه ورسالة الفاخرة بين السيف والقلم مشهورة منها لابن الروي في تفضيل القلم على السيف

«مطلب» المفاخرة بين السيف والقلم

ان يخدم القلم السيف الذي خضعت له الرقاب ودانت خوفه الامم
فالموت والموت لاشيء يعادله ما زال يتبع ما يجرى به القلم

ومن وجيز البلاغات في المكاتبات ما كتبه يزيد بن عبد الملك الى مروان ابن محمد وقد بلغه تلكؤه عليه في بيعته اما بعد فاني أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى فما تدري أيهما أحرى فاذا اتاك كتابي فاعتمد على أيهما شئت ويقرب منه ما كتبه بعض الملوك الى قرا ارسلان وقد بنى عليه الذي نعلم به قرا أرسلان اما نحن نزلنا ببغداد صباحا فساء صباح المنذرين فأمرنا أهلها بالدخول تحت طاعتنا والخروج عن معصيتنا فابوا فحق عليها القول فدمرناها تدميرا فان كنت ممن يدخل تحت طاعتنا ويخرج عن معصيتنا فروح وريحان وجنة نعيم وان كنت الا كالحافر لقتله بظلفه والجادع لمارن أنفه بكفه فسوف

بلحقك بالأخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا فرجع لوقته

ومع كثرة معارف الصوريين واتساع تجاراتهم برا وبحرا فكانوا عبدة أوثان واهل بدع وأوهام فمن بدعهم الفاسدة أنهم كانوا يقربون الآدميين قربانا لآلهتهم وهذه العادة وان كانت بشعة في حد ذاتها وواقعة في كثير من أقاليم الارض عند الامم المتبربرة الا انها أقبح عند الصوريين لتمدنهم

ويقال ان مملكة صيدا كانت دار ملك الفنيكيين يعني اهل السواحل الشامية ثم نشأت مدينة صور المذكورة وصارت عامرة جدا وهي التي كانت منبعا للمنافع العمومية وقد ذهب منها جماعة الى بلاد المغرب فأسسوا مدينة قرطاجنه وعمروها وجعلوها مملكة عظيمة قبل الميلاد بثمانمائة وتسعين سنة

وسبب مهاجرة الصوريين الى بلاد المغرب أنه كان في سواحل الشام على بلاد الصوريين ملك ظلوم غشوم يسمى بغاليون كان من الجبارين وكان له اخت تسمى ديدون متزوجة بأمير يقال له سيشه فقتله ذلك الملك لقصد سلب أمواله فجمعت ديدون ما عند زوجها من الاموال وجميع ما في خزائنه وفرت الى أفريقة بالمغرب وأسست هناك مدينة قرطاجنه فعمرت هذه المدينة حتى فاقت في الغنى والثروة والبطش والقوة مملكة الصوريين وصارت فيا بعد مقارنة لرومية دار سلطنة الرومانيين وفيما بعد اشتدت العداوة بين المملكتين كما تقدم ذكره في الفصل الثاني من الباب الثاني من هذا الكتاب

ثم انتهى أمر الصوريين بعد العز والطنطنة أن صاروا رعايا للعجم واليونان والرومانيين الى ان صار فتح العرب بلادهم بالاسلام بفتوح الشام وقد أسلفنا في أثناء الكلام على الصوريين بعض شيء في حق تمدن العرب بما ناسب المقام

الباب الثالث

في تطبيق أقسام المنافع العمومية في الازمان الاولية على مصر المحمية وانها كانت من التمدن والتقدم بمكانة علية وفيه فصول

الفصل الاول

في تقدم مصر وغناها في عدة أزمان سابقة وأدوار متناسقة وحيازتها للمنافع العمومية بوجه اجمالي

المتبادر لآراء أرباب العقول الذكية ان أعظم البلاد الساحلية قابلية للتقدم في المنافع العمومية هو الديار المصرية وانه لم يتقدم على سواحل البحر الابيض مثل بلاد مصر فيما يخص الزراعة والصناعة وانها كانت أشغالها وعملياتها متقدمة تقدما عظيما وان حركة المنافع العمومية فيها كانت على غاية ما يمكن من النشاط والاتقان فان صعيدها الأعلى الذي هو الوجه القبلي مع اتساع أراضيه لا يبعد من النيل الا مسافة أميال أقاليها بالوجه البحري يقسمها النيل الى عدة فروع في كلا الوجهين يمكن بمساعدة اليد الصناعية والعملية توصيل متاعها ومحصولها من بعض المدن الكبيرة الى بعض كما يمكن نقلها الى القرى والكفور من قرية الى أخرى ومن ضيعة الى أخرى أو الى مدينة وهكذا وهذا بأقل المصارف وبيسير الكلفة برا وبحرا

ومن المعلوم أن نيل مصر واسع جداً يسهل فيه سير السفن في داخل البلاد بعضها مع بعض فالظاهر أنه أقوى سبب في كون الديار المصرية

اكتسبت قبل غيرها من الممالك في الازمان الخالية صفة الثروة والغنى وتقدمت في المنافع العمومية وتمكنت في منقبة التمدنية كما دلت عليه التواريخ فكان تمدنها تمدنا رفيعا متسع الدوائر فيما يخص الصنائع مستوفيا للغنى مستوعبا للمتانة وعلو المكانة كما يشهد لذلك ما يوجد في صعيد مصر من المباني التي لم تزل قائمة على ساقها الى الآن فليس أعدل من شهادة مدينة طيوه ذات المائة باب فان في رسومها القديمة وآثارها الجسيمة ما يعجب منه اولو الألباب وقد توصل السواحون الى الوقوف على ما فيها تحت الارض من المدافن والقبور وقرؤا تاريخ بنائها الازلي فوجدوها قد مر عليها خمسة وعشرون قرنا قبل الميلاد ولم تغيرها العصور والدهور وقد استخرج في هذه الايام بالنبش في معبد قديم بمملكة نابولي احدى ممالك ايطاليا ستة أعمدة من المصنوعات المصرية المنحوتة من الصوان الاحمر منها أربعة كبار طول العمود أربعة أمتار وثلث متر وقطر محيطه اثنا عشر سنتيمترا ويلم من ارتفاعها وتناسب سمكها وبريق لونها أن صنعها بهذه المثابة كان في عصر موجود به فن نحت الاحجار بمصر وان مصر اذ ذاك كان لها التقدم في هذه الصناعة من أحقاب خالية وأما العمودان الآخران فصغيران ولكل منها قاعدة من نوع الطيخ المذهب واكليل غريب الشكل وقد بيعت هذه الاعمدة في باريس بأربعين الف فرنك في المزاد ولا شك ان استخراج هذه الأعمدة كان من محاجر مصر ونقلها الى بلاد الرومان ووضعها في معابدها القديمة ثم استخراجها الآن بعد مرور نحو الألف سنة وهي على حالة حسنة ومبيعها بهذا المبلغ يدل على كمال صناعتها وقوة مادتها فمثل هذه الاعمدة الغريبة والمباني العجيبة الحسنة النقش المختلفة الالوان البهجة المكتوبة

« مطلب » استكشاف أعمدة مصرية بمعبد قديم في نابولي

بالاقلام القديمة المصرية تنطق بلسان حالها بتقدم مملكة مصر فى درجة التمدن ولكن لا يفصح لسان مقالها عن حقيقة الحوادث الداخلية التى أوجبت هذه الرموز الغريبة ونهاية الحال ان ما هومنقوش عليها من التاريخ لبنائها يفيد قوة ملك مصر الذي حصلت هذه المبانى فى ايام سلطنته وان فى ايامه كانت المعارف بالآلات والأدوات عجيبة وهذا كله يدل على شوكة هذه الدولة وتقدمها فى الصناعة والمهارة ويستفاد أيضا من هذه الكتابات القديمة أن هذا الملك المعظم سار بجيش جرار عدة مرات الى أقاصي الممالك وانتصر فيها النصرات العظيمة وفتح الفتوحات الجسيمة وبلغ مناه وشفى غليله من عداه وزاد فخاراً على فخاره واتسعت دائرة علو قدره واعتباره

وهذه الحروب كانت كما يفهم من النقوش والرسوم مع سلطان عظيم صاحب شوكة قوية وارتفاع شأن معلوم وهوسلطان بابل العراق الذي لا يوازيه في القوة والشوكة من ملوك ذلك العصر الا ملك مصر الذي كان بينه وبين ذلك الملك الشقاق والوفاق فان فى ذلك الزمن المعهود كان أشهر مدن الدنيا مدينتين متسابقتين فى ميدان الفخار ومتنافستين فى كسب الاعتبار وهما مصر وبابل

« مطلب »
المنافرة بين سلطنتي مصر والعراق في القديم

وقد دل أقدم التواريخ على انهما كانتا دون غيرهما سلطنتين عظيمتين ودولتين بالحدود متجاورتين تميزهما الحدود الطبيعيه كالبحر المالح والنيل وان غيرهما من الممالك ليس من هذا القبيل فكان لمصر مملكة الغرب مخلدة ولبابل مملكة الشرق مؤبدة وبين مملكتي الشرق والغرب تارة الصلح وتارة الحرب وجميع من كان من الامراء والملوك له عنوان الملوكية والحكومة فانما كان بالنيابة والفرعية عن

هذه الجرثومه وكانتا من اجل الممالك المعتبرة بما اشتهرتابه من عجائب السحر وغرائب السحرة وناهيك بمن تعلم السحر من هاروت وماروت وحسبك ماجمعه فرعون لموسى من المدائن من كل سحار عليم لنصرة الطاغوت وبهذا كان لهم الولاء التام على من جاورهما من الملوك والحكام وكان بين المملكتين كمال الالتئام ووثوق العهد الذي لا يعتريه نقض ولا ابرام وبقي هذا الوصف الجليل الى ايام حرب تروادة كما ذكره أميروس الشاعر فقد نص على انه كان في ايامه بينهما الصلح الكامل ثم استبان مما ذكره المؤرخون انه عرض لهما في آخر القرن الثامن قبل الميلاد ما يطرأ على الممالك من التمزيق فضعفت مملكة مصر وتمزقت مملكة العراق فسبحان مقسم الارزاق ومالك الآفاق

ومن المعلوم ان الذي اسس بابل هو النمروذ الذي هو ابن حفيد سيدنا نوح عليه السلام كما هو نص التوراة واما مؤرخو اليونان والرومان فقد نسبوا تأسيس مدينة بابل الى سميراميس زوجة مينون أحد عساكر ملك بابل المسماة هذه الملكة سميير في التواريخ المشرقية وبيان ذلك ان مملكة بابل كان مجاورها في قديم الزمان مملكة أثور يعني بلاد الكردستان مدينة نينوى يعني مدينة سيدنا يونس عليه السلام بناها الملك أثور ثم حسنها الملك نينوس فكانت مدينة عظيمة في طول ثمانية فراسخ ونصف لا يطوف السائر حولها بمحيطها الا في نحو ثلاثين ساعة وكان ارتفاع سورها الخارج عنها مائة قدم واتساع جدار الاسوار عريض بحيث يسير فوقه ثلاث عجلات بعضها في جانب بعض ولو مع غاية السرعة وكانت مدينة حصينة وفي داخلها خمسة عشر برجا ارتفاع البرج مائتا قدم ولما تزوجت سميراميس نينوس ملك مدينة نينوى التي كانت اذذاك تحت كل من مملكة العراق ومملكة الكردستان اللتين

« مطلب » تأسيس مدينة بابل ومدينة نينوي

صارتا كالملكة الواحدة ألبسها التاج وسلمها البلاد حيث كانت وهي في عصمة زوجها الاول قد اشتهرت بأفعال الشجعان في واقعة من الوقعات المظيمة وكانت قوتها العسكرية نحو مليون من النفوس فصاروا في تصرفها فلما مات نينوس اعقب منها ولدا قاصرا يقال له نيناس فتقلد الملكة وكانت أمه سميراميس وصية عليه فصار بيدها زمام الملك وأرادت احراز الشهرة والصيت وكسب الفخار المخلد فبنت مدينة بابل وزينتها بانواع الزينة على مثال مدينة نينوى وبقدر اتساعها وبنت اسوارها بالآجر والقراميد وجعلت مؤنة البناء مادة قارية صلبة قفرية وجعلتها عريضة الاسوار بحيث عربهاست عجلات متلاصقة تسير متوازية مع بعضها على حزاء واحد مع غاية السرعة ويقال انها حفرت حولها خنادق عميقة وجعلت فوق الخنادق مائة قنطرة من النحاس كل قنطرة توصل الى بابل وعملت فوق بيوت المدينة بساتين معلقة جميلة الشكل تجري بها المياه في الغدران والجداول وتصل اليها من رابخ عجيبة بتدبير عجيب وجعلت في المدينة الميادين الوسيعة والرحبات الفسيحة المغروسة بالاشجار من جميع الاقطار والجهات بحيث يمكن المسير في المدينة من باب الى آخر من ابواب القناطر بدون ان يكون للشمس سلطنة على احد ولا عظيم سلاطة للمطر لالتفاف الاشجار بعضها ببعض وتعريشها وكانت بابل على نهر الفرات على قول أغلب المؤرخين ونينوى على نهر الدجلة

فيفهم من هذا أن باني بابل هي الملكة سميراميس وهو مخالف لكلام التوراة من أن الباني لها هو النمروذ مع ما بين زمانيهما من القرون المديدة والدهور المديدة ولعل هذه الملكة بنت مدينة على أطلال بابل وكانت قد خربت بمر الدهور وكر العصور أو بنت أخرى في غير محلها وسمتها بهذا الاسم

كاة للنمروذ وكان تحت يد هذه الملكة في مملكة العراق من سواحل الشام وفلسطين الى نهر السند بلاد الهند حتى انها عساكرها طردت عساكر مصر من تلك الجهات المشرقية التي كانت متغلبة عليها اذ ذاك وكانت كلما انتصرت بقوة شجاعتها زادت مطامعها في الفتوحات ولشجاعتها وخفة حركتها اسميت سميراميس يعني الحمامة لانها تتردد لفتوح البلاد بل صار اسمها كاسماء الاجناس على كل ملكة اشتهرت بالشجاعة واقتحام الاخطار في البلاد البعيدة لقصد الفتوح ولذلك يقال لكاترينة الثانية ملكة الموسقو سميراميس الشمال يعني الجهات الشمالية ويقال ايضا لمرجريطه ملكة الدانيمرقة سميراميس الشمال ايضا لانها جمعت الممالك الثلاثة وهي مملكة اسوج ومملكة نروج ومملكة دنيمرقة وقد قلنا فيما سبق ان تلك الملكة كانت تحكم العراق والكردستان وما بينهما من الممالك الواسعة بالوصاية على ولدها نيناس لكونه قاصرا

وفي مدة وصايتها بنت ايضا في بابل هيكل الشمس الذي داخله متخذ من الذهب وبنت أيضا عدة مدائن أخر وأرادت ان توغل في بلاد الهند فسارت بجيش كبير فانتصر عليها ملك الهند وفرت مدبرة الى بلادها وكان ولدها قد بلغ رشده وتأهل لان يحكم ممالكه بنفسه فتقلد زمام المملكة واستبد برأيه فاحبت أن تجذبه اليها وتدنو منه باستمالته اليها لجمالها وتشوقه الى وصالها فراودته عن نفسه حتى يصير الحكم في يدها اذا استولت على قلبه فاستعاذ من الفجور وأبى الا النفور لاسيما وأنه استشعر بأنها قتلت والده بالسم فسلك سبيل الانتقام وأذاق حماته كاس الحمام وكان ذلك قبل ميلاد عيسى بثلاثة عشر وألف ومائتين

« مطلب » تسلطن الملك نتياس واخذه زمام المملكة من امه

وكان الملك نتياس قليل الطمع فى الفتوح فقنع بما تحت يده عن الطريف بالتلاد وانزوى فى قصره متمتعاً بأهل بيته بعيداً عن العباد ولم تطرقه وقائع غريبة حصلت فى مملكة العراق وكردستان فى خلال ثمانمائة سنة حتى تسلطن عليها الملك سردنبال سنة سبعمائة وسبعة وستين قبل الميلاد فانهمك هذا الملك على اللذات والشهوات وأغار عليه أهل أذربيجان وحاصروه اشد المحاصرة فن شدة المضايقة أحرق نفسه ونساءه فاستبد أهل أذربيجان بالحكم

« مطلب » تسلطن سردانبال على العراق واحراق نفسه ونساءه

وخلعوا طاعة بابل ثم دخل أهل أذربيجان وبابل تحت مملكة العجم وكان حكماء البابليين يتقنون رصد الكواكب لكثرة الصحو وقلة الغيوم بهذه البلاد فصار لهم كمال الوقوف على العلوم الفلكية وهم الذين اخترعوا المزاول وتشبثوا بعلم التنجيم وزعموا معرفة حوادث الازمنة المستقبلة من انواء النجوم وتولع الناس بتقليدهم وتصديق أوهامهم الفاسدة التي يبطلها الشرع ويكذبها العقل فهل هذه الاشياء تمد من كبوات الاجداد وهفوات الامجاد أو من بدع الجاهلية الاولى الظاهرة الفساد وضلالات أهل الكساد والظاهر أن هذه الامة أضلتها الكواكب ضلالاً مبيناً حتى عبدوا الشمس

« مطلب » دخول اذربيجان والعراق تحت مملكة الفرس

وكانوا يعرفون الاله الحق يقيناً فالتنجيم فن مذموم ولكن لا بأس بعلم النجوم فقد كانت العرب أشد عناية بمعرفة النجوم وقد قيل لأعرابي ما علمك بالنجوم قال من ذا الذي لا يعلم أجداع بيته وقيل لاعرابية أتعرفين النجوم فقالت سبحان الله أما نعرف أشباحاً وقوفاً علينا كل ليلة

« مطلب » ما نسب من تولية كيروش ملك العجم مملكة العراق

وبالجملة فكانت الفنون والعلوم والصنائع ببلاد العراق فى غاية التقدم وكان فيهم سوق التمدن نافقاً فكانوا يتفاخرون ويتفاخرون فى المطاعم والمشارب والزينة والزخرفة واشتد انهماكهم على اللذات والشهوات

خصوصاً لما تولى عليهم كيروش ملك العجم فسدت أخلاقهم وانحل نظامهم وأما مصر المقارنة لبابل فقد تنزهت ملوكها عن مثل هذه الرذائل فقد اجمع المؤرخون على ان مصر دون غيرها من الممالك عظم تمدنها وبلغ أهلها درجة عليا في الفنون والمنافع العمومية فكيف لا وأن آثار التمدن وأماراته وعلاماته مكثت بمصر نحو ثلاثة واربعين قرنا يشاهدها الوارد والمتردد ويعجب من حسنها الوافد والمتفرج مع تنوعها كل التنوع فجميع المباني التي تدل على عظم ملوكها وسلاطينها هي من أقوى دلائل العظمة الملوكية وبراهينها فانظر الى آثار منف وأبنيتها وعجائبها وأصنامها ودفائنها مما يحكيه المؤرخون عنها وانها كانت ثلاثين ميلا بيوتا متصلة وفيها بيت فرعون وهو قطعة واحدة من الحجر وسقفه وفرشه وحيطانه من الحجر الاخضر وكان لها سبعون بابا وهي مدينة المملكة المصرية وكانت منزل الملوك من القبط الاولى والعماليق ومسكن الفراعنة وما زال الملك بها الى ان ملك الروم اليونان ديار مصر فانتقل كرسي المملكة منها الى الاسكندرية ومع ذلك لم تزل عامرة الى ان جاء الاسلام ثم خربت وفيها كانت الأنهار تجري من تحت سرير الملك وكانت أربعة أنهار

* مطلب * ما كانت عليه مدينة منف في الزمن القديم

ويقال ان ملوك الدنيا لو اجتمعوا واتفقوا على أن يصنعوا مثلها لما أمكنهم ذلك وكان فرعون اذا أراد الركوب من منف الى عين شمس صنع صاحب المرقب علامة فاذا رأى صاحب عين شمس تلك الاشارة تأهب لاستقباله وكذا يصنع اذا أراد الركوب من عين شمس الى منف لان كلا من المدينتين كان تخت المملكة ويقال انه كان بمنف قبة فيها صور ملوك

الدنيا

« مطلب » دخول المأمون العباسي مصر

ولما دخل المأمون مصر فى سنة سبع عشرة وما ئتين قد رأى مدينة منف أنشد الابيات الآتية

سألت أطلال مصر عن عين شمس
فما أحارت جوابا ولا أجابت بحرف
وفى السكوت جواب لدي الفطانة يكفى

« مطلب » اساس التمدن

وهل علامات التمدن ودلائل العظم الا ثلاثة أشياء وهى حسن الادارة الملكية والسياسة العسكرية ومعرفة الالوهية فهذه الثلاثة أساس تمدن الممالك العدلية على العموم والمصريون من قديم الزمان كانوا منقادين للحكم الملوكي فكانوا مطيعين لملكهم وكان الملك منقادا أيضا لقوانين المملكة وأصولها فكانت حركاته وسكناته على طبق القوانين وكانت حكماء مصر تذكر الملوك دائما بالحقوق والواجبات وتحثهم على التمسك بالفضائل الملوكية وتلمن من يصرفهم عنها من بطانة السوء وأهل النفاق وكانت الملوك فى تلك الاوقات يشتغلون بمطالعة الحكم والآداب والمواعظ والتواريخ وكل ما يرشد الى العدل والاستقامة وكانت مصر منقسمة الى عمالات على كل عمالة حاكم وأراضيها مملوكة لثلاث طوائف منقسمة بينهم قسم للملك وقسم لامناء الدين وقسم للعساكر المحاربين وأما بواقى الطوائف فكانت معايشهم من اعمالهم وصنائعهم فهذا التقسيم قوى شوكة أمناء الدين وجعلهم مختصين بممارسة العلوم وبتقنين القوانين الملكية وبنفوذ الكلمة فى الحكومة

« مطلب » سياسة مصر فى القديم

« مطلب » توزيع اراضي مصر على طوائف ثلاثة

« مطلب » سياسة العسكرية بمصر فى القديم

وكانت مصر كثيرة الجنود والعساكر ولهم أصول تحملهم على الشجاعة فكان العسكري الذي يظهر الجلادة فى الحرب يعطى علامة الشرف والافتخار والذى يجبن عن الحرب أو يفر من الزحف يعاقب بوسمه بعلامة العيب

والمار والاقتصاد ... ت تكون السمة ظاهرة على بدنه تلونه وتدنسه بين أهل وطنه ... ان اقطاع الاراضي للمحاربين كانت سببا في كثرة أموالهم ورفاهيتهم فترتب عليها فيما بعد فتور همتهم في الحروب وترتب على ذلك أيضا تداول الازمان عدم القدرة على مقاومة كل من كان يهجم على مصر من الامم الا ان هذا لا يمنع من ان الادارة العسكرية كانت متقدمة عندهم بدليل أن الملك سيزوستريس جيش جيشا عظيما اقصد سلب بلاد العراق والعجم والهند وفتوحها فسار اليها من طريق الشام فاستولى على بلاد فلسطين وفتح العراق والعجم والهند وبنى ببلاد العجم مدينة شلينار التي سميت فيما بعد مدينة اصطخر وما ذاك الا بقوة عساكره وضبطهم وربطهم وأما الديانة عند المصريين فكانت أيضا مرتبة اذ كان أمناء دينهم يعتقدون ألوهية الذات العلية وكان لهم اسرار عجيبة فكانوا لا يظهرونها الا لقليل من الناس وكانت العامة يعبدون الاوثان ومنشأ عبادتها عندهم انهم كانوا يؤلهون كل من اخترع أمرا غريبا من قانون أو علم أو فن وكانوا متقدمين في الهندسة والمساحة والآلات الهندسية كعلم الجغرافيا والنجوم وكانت كتابتهم بالقلم القديم البربائي الذي كان يعرفه حكماؤهم وأمناء اديانهم فكان كالرموز بينهم فكانت علومهم سرية مخفية عن العوام حتى لما ظهرت الحروف الهجائية وانتشرت عندهم كما انتشرت في الممالك لم تزل صحف العلوم المصرية ترسم بالقلم القديم البربائي

ومن اختراعاتهم العجيبة آلة الحراثة التي انتفع بها جنس البشر عموما حيث تقدمت الفلاحة وبه تولد التمدن بين جميع الناس مع اختراع السواقي والنواعير الهاما لهم من اللطيف الخبير فانها اساس لآلات السقي باحسن تدبير

وكانت الدولة المصرية تعرف قيمة العدل والانصاف وانه الاصل فى سعادة الممالك فانتخبت من مدنها الثلاثة التى هى عين شمس ومنف وطيوه قضاة لتدبير أحوال المملكة وجعلتهم ارباب المشورة القضائية وكانوا ثلاثين قاضيا فكانت محكمتهم نافذة الحكم على غاية من الاحترام وكانت مصارفها على طرف الحكومة الملوكية وكان الملك يأخذ عليهم العهد ان لا يطاوعوه اذا أمرهم بشىء خارج عن الحد وكانت مذاكرة المجلس فى المصالح والقضايا والآراء تكتب بالقلم والمناقشات والمحاورات والمرافعات كذلك لئلا يخفى الحق بالفصاحة واللسن لما فى البيان من السحر وكان للحق صورة مجسمة فاذا ظهر الحق لاحد الخصمين رفع الرئيس الصورة بيده وأذن للمحق ان يضع يده عليها اشارة الى ان القاضى فى الحقيقة ونفس الامر انما هو الحق فهو الحاكم الحقيق

« مطلب » ترتيب مجالس القضاء فى القديم

وكان فى احكام المصريين عقاب الزنا شديدا جدا لكونه من الكبائر المضرة للامة فكانوا يجلدون الرجل الف جلدة ويجدعون أنف المرأة وان من قدر على تخليص المقتول من القاتل بدون حق ولم يخلصه فجزاؤه القتل وانه لاتسلط للدائن على ذات المدين بل وفاء الدين محله اموال المدين لا شخصه وكانت قوانينهم تميل الى الحث على العمل وقطع عرق البطالة والغش والتدليس وغير ذلك من الموبقات وذلك انه يجب فى آخر كل سنة التفحص عن احوال الاهالى فردا فردا فيسأل كل انسان عن مواد تعيشه ومن اين اكتسبها وكل من ظهر انه تعيش من وجه حرام فجزاؤه القتل وهذا القانون من وضع الملك امسيس فمن هذا يفهم تقدمهم فى التمدن وان تمكنهم فى الازمان السالفة كانت عادة محترسة مستنيرة بالمعارف

« مطلب » العقوبة على الذنوب عند قدماء المصريين

« مطلب » التفحص عن وجه التعيش

وقد دلت التواريخ ان ديوان حكومتها كان فى غاية اللطف والتهذيب واستقامة الاخلاق والآداب وحفظ ناموس العرض والادب والحياء وكان على غاية من حفظ الرسوم الملوكية المعتبرة والعوائد السلطانية المقررة وقد قامت البراهين والدلائل على استمرار أبهة التمدن على تعاقب القرون الكثيرة فى ايام الملوك الاوائل ومما يعضد ما قاله المؤرخون واستكشفه الحكماء الراسخون قصة يوسف عليه السلام فان مضمونها لفصل القول أحد من الحسام كما سنبينه فى الفصل الثانى من الباب الثالث من ذكر هذه القصة الصديقية التى يستنتج منها فى هذا المعنى معارف تصورية وتصديقية

الفصل الثانى

فى تأييد تقدم مصر وامتيازها بالمعارف فى الزمن القديم أخذا من قصة القائل اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم

«مطلب» حسد اخوة يوسف لاخيهم وما ترتب على ذلك

كان يعقوب عليه السلام قد ولد فى زمن جده ابراهيم ونبئ فى زمانه أيضا وتزوج زوجتين اختين أحدهما بعد الاخرى فولدت له الثانية يوسف عليه السلام وبنيامين وماتت فى نفاس بنيامين وكانت الاولى ولدت منه ستة أولاد ثم تزوج بعد الثانية التى ماتت زوجة أخرى ورزق منها أربعة فكان اولاد يعقوب اثنى عشر وهم الاسباط وكان احب اولاده اليه يوسف فحسده أخوته فاحتالوا عليه فقالوا يا يوسف أما تشتاق ان تخرج معنا فلعب ونصيد فقال بلى قالوا فسل أباك أن يرسلك معنا فاستأذنه فأذن له فلما خرجوا الى الصحراء أظهروا له مافى انفسهم من العداوة ففطن لما عزموا عليه

فاخذه اخوه روبيل الذى هو ابن خالته أيضا فضرب به الارض وجلس على صدره ليقتله وقال ليوسف قل لرؤياك تخلصك وكان قد رأى وهو ابن سبع سنين الشمس والقمر والنجوم ساجدين له فصاح على اخيه الاخر يهوذا وقال خل بيني وبين من يريد قتلي فقال يهوذا ألقوه في غيابة الجب فنزعوا قيصه لالقائه فقال ردوه على أستر به عورتي ويكون كفناني في مماتي فلما القوه استقرت قدماه على حجر مرتفع من الماء وذبح اخوته جديا فلطخوا به القميص وقالوا أكله الذئب ومكث في الجب ثلاثة أيام واخوته يرعون حوله ويهوذا يأتيه بالقوت فلما جاءت السيارة الذين حضروا من مدين الى مصر بالتجارة وكانت بضاعتهم من الصمغ لتصبير الاموات فجعلت تسقى من الجب بدون التفات تعلق يوسف بالحبل فأخرجوه فجاء اخوة يوسف فقالوا هذا عبد أبق منا فباعوه منهم بعشرين درهم وحلة ونعلين فحملوه الى مصر وجاؤا به الى مدينة منف فوقفوه للبيع فتزايد الناس في ثمنه فاشتراه قطفير وكان امير ملكهم وخازنه وقال لامرأته زليخا اكرمي مثواه وكان يوسف عليه السلام حسن الخلق والخلق كامل الفطنة عظيم القيافة يتوسم فيه الخير من رآه أحبه حتى ظهرت منه امارات الامانة والصدق فامتاز في بيت العزيز بكمال التميز فراودته امرأة العزيز عن نفسه فعصم منها فترتب على ذلك سجنه وأحبه أيضا من كان معه في السجن كصاحب طعام الملك وصاحب شرابه وعبر لهما رؤياهما وبقى مسجونا الى حين منام الملك فعفا عنه بعد سجنه بضع سنين فلما أخرجه من السجن فوض اليه أمر مصر وجعله أمينا حفيظا على خزائن الملك

ولما تقلد يوسف عليه السلام منصبه وأراد أن يذهب الى ديوانه حلق رأسه وتجمل بالثياب النفيسة وأخذ طراز الزينة وعنوانها وعقد له

موكب جليل وحين تمكنه من منصبه مر على اقاليم المملكة المملقة بامارته وزوجه فرعون مصر بزوج من أعظم العائلات وهي ابنة ملك عين شمس فامتلأت الخزائن من الاقوات في زمن الرخاء لتنفع في زمن القحط وصار تدبيرها وادارتها على أحسن حال وأتم منوال

« مطلب » تدبير يوسف لغلال مصر وحفظ الحب في سنبله

ومن أعجب ماصنعه طريقة حفظ البر في سنبله فقد دام وبقي بهذه الوسيلة محفوظا من آفات الانفساد حتى ان بعض الفراعنة امر بحفظ القمح بذلك بعد عهد يوسف بمائة سنة ولما حفظ يوسف الاقوات في ايامه وباعها في زمن القحط كان يبيعها باغلى مايكون من القيم فكان يبيع مكيال البر بمكيال من الدر فاشترى اهل مصر باموالهم وحليهم ومواشيهم وعقارهم وعبيدهم ثم باولادهم ثم برقابهم وكان يوسف عليه السلام لايشبع في تلك الايام ويقول أخاف ان انسى الجائع وبلغ القحط الى كنعان فارسل يعقوب ولده للميرة قال يابني قد بلغني ان بمصر ملكا صالحا فانطلقوا اليه فاقرؤه مني السلام فمضوا فدخلوا على يوسف فعرفهم وانكروه فقال من اين انتم فقالوا من ارض كنعان ولنا شيخ يقال له يعقوب وهو يقرئك السلام فبكى وعصر عينيه وقال لعلكم جواسيس فقالوا لاوالله قال فكم انتم فقالوا احد عشر وكنا اثني عشر فاكل احدنا الذئب فقال ائتوني باخيكم من ابيكم ثم درج بضاعتهم في رحالهم فعادوا الى ابيهم فقالوا انا منع منا الكيل فأرسل معنا اخانا نكتل فقال يعقوب هل آمنكم عليه الا كما امنتكم على اخيه من قبل ثم حمله احتياجه الى الطعام الى ان ارسله معهم فلما دخلوا على يوسف أجلس كل اثنين على مائدة فبقي بنيامين شقيق يوسف وحيدا يبكي وقال لوكان اخي حيا لا جلسني معه فاعتنقه يوسف وقال انا اخوك ثم احتال عليه فوضع الصاع في رحله فلما لم يقدروا على خلاصه

«مطلب» تعرف اخوة يوسف

«مطلب» ذهاب البشير بقميص يوسف الى ابيه

أقام ورجعوا الى يعقوب يقولون ان ابنك سرق فتلقاهم بصبر جميل ثم قال لبنيه اذهبوا وتجسسوا من يوسف وأخيه فلما عادوا اليه ببضاعة مزجاة وقفوا موقف الذل وقالوا تصدق علينا فقال هل علمتم مافعلتم بيوسف واخيه وكشف الحجاب عن نفسه فعرفوه فقالوا ائنك لأنت يوسف فقال انا يوسف وهذا اخي فقالوا تالله لقد آثرك الله علينا أى اختارك وفضلك وكان قد فضل عليهم بالحسن والعقل والحلم والصبر وغير ذلك وان كنا لخاطئين اى المذنبين آثمين فى امرك قال لاتثريب عليكم اليوم أى لا اعيركم بما صنعتم ثم سألهم عن ابيه فقالوا ذهبت عيناه فأعطاهم قيصه وقال اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه ابي يأت بصيرا فلما خرجوا من مصر حمل القميص يهوذا وقال انا حملت قيص الدم وها أنا أحمل قيص البشارة فخرج حافيا حاسرا يعدو فقال يعقوب لمن حضر من أهله وولد ولده انى لاجد ريح يوسف لولا أن تفندون أي لولا أن تنكروا على لاخبرتكم انه حى فلما ان جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا ثم خرج يريد مصر فى نحو سبعين من أهله وخرج يوسف لتلقيه فلما التقيا قال يعقوب السلام عليك يا مذهب الاحزان فقال يوسف بكيت يا ابى حتى ذهب بصرك أما علمت ان القيامة تجمعنى واياك فقال يابنى خشيت ان يسلب دينك فلا نجتمع واقام يعقوب عند يوسف أربعاوعشرين سنة فى أهنأ عيش فلما حضرته الوفاة أوصى الى يوسف أن يحمله الى الشام حتى يدفنه عند ابيه اسحق ففعل ثم ان يوسف عليه السلام رأى أن امره قد تم فقال توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين وأوصى الى يهوذا فهذا مآل القصة التى قصها الله سبحانه وتعالى فى سورة يوسف بفصيح العبارات البالغة حد الاعجاز وبليغ المعاني المفيدة لبديع النكات مع مراعاة الحال لمايقتضيه مقام

البسط أو الايجاز ولذلك قال سبحانه وتعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام نحن نقص عليك احسن القصص وذلك لما فيه من العبر والنكت والعجائب فان من الفوائد التي في هذه القصة انه لا دافع لقضاء الله تعالى ولا مانع من قدره تعالى وأنه اذا قضى للانسان بخير ومكرمة فلو اجتمع عليه العالم لم يقدروا على دفعه (وقد روى) ان سبب نزول ذلك ان علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين سلوا محمدا لم انتقل آل يعقوب من الشام الى مصر وعن كيفية قصة يوسف فأنزل الله تعالى الر تلك آيات الكتاب المبين انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون الايات وذكر فيها انه تعالى عبر عن هذه القصة بألفاظ عربية ليتمكنوا من فهمها ويقدروا على تحصيل المعرفة بها والتقدير انا انزلنا هذا الكتاب الذى فيه قصة يوسف في حال كونه قرآنا عربيا فسمى بعض القرآن قرآنا لان القرآن يقع على البعض والكل ومن قصته هذه يفهم علو درجة مصر التي قضى الله سبحانه وتعالى بانتقاله اليها لعلو مرتبته فيها حتى انه عليه السلام لما قدم أبوه وسأله عما صنع به اخوته قال سلنى عما فعل بى ربى وأخذ بيده وطاف به في خزائنه فادخله خزائن الذهب والفضة وخزائن الحلي وخزائن الثياب وخزائن السلاح وخزائن القراطيس وكان يوسف يركب في كل شهر ركبة يمر بها على عماله ويدور فيه فينصف مظلوم من الظالم ولا يركب الا في عدد كثير من الجند والألوية ومعه الف سياف ولم يكن معه حكم مصر كله بل بعضه لانه على ما يقال ان طوة بصعيد مصر كانت مملكة مستبدة عليها ملك آخر بدل على ذلك آية رب قد آتيتنى من الملك أى بعض ملك مصر كما أشار له بعض المفسرين فالبلدة التي خزائنها وعساكرها بهذه المثابة لا تكون الا عظيمة الشوكة والثروة والتنظيم

* مطلب * سبب نزول سورة يوسف عليه السلام

* مطلب * استنباط علو درجة مصر من قصة يوسف

والتعظيم وهو عين التمدن وان تأملت حق التأمل فى مبدإ امر يوسف عليه السلام من اقتصار العزيز على سجنه وصبره عليه فى السجن وعدم المبادرة عليه بالانتقام مع انه مملوك للعزيز خازن فرعون مصر علمت ان الدولة المصرية لم تكن امة خشنية تستعجل بالقتل لغلام مستقيم فطن بل كانت امورها تجرى على منهج الاستقامة

ويستدل بهذا ايضا على ان قوانين معاملة الخدم والرقيق كانت عادلة لا يسوغ فيها للسيد الذي اساءه عبده كل الاساءة ان ينتصف منه لنفسه كما يحب ويختار فهذا يفيد ان المملكة كانت متمدنة واما سجن يوسف عليه السلام مع صاحب طعام الملك وصاحب شرابه فيدل على ان فرعون كان له كبراء أصحاب مناصب لقصره كما فى الدول المتمدنة وانهما اتهما بالخيانة الملكية يعنى بارادة سم الملك وان فرعون غضب عليهما حين اتهمهما وامر بسجنهما لحين تحقيق دعواهما فلما تبين له ان احدهما مذنب بما يوجب القتل قتله وان الآخر برىء فرج عنه فعاد الى منصبه كما ان يوسف أيضا لما علمت براءته ارتقى الى ما ارتقى اليه من الوزارة

فنه يعلم انه كان بمصر اذ ذاك أحكام عادلة وقوانين مرتبة وحدود مشروعة خالية عن الاغراض والنفسانيات وهى نتيجة التمدن التام وقد دلت التواريخ الاثرية على انه كان لفرعون يوسف كل سنة عيد عظيم لمولده وان هذا العيد كان يعمل فى ميعاده فى القصر الملوكى بما كل ما يكون من الاحتفال الكامل والرسوم الجليلة فهذا يدل ايضا على جودة التمدن وطول مدته فى مصر قديما حتى ان رسوم المملكة كان يحافظ عليها ويتمسك بها بدون تسامح ولا تساهل فان يوسف عليه السلام لما مات يعقوب وحزن عليه حزن بنى اسرائيل

« مطلب » كيفية عيد فرعون السنوى ودلالته على التمدن

اجتنب ان يتمثل بين يدي فرعون واحترس كل الاحتراس ان يدخل في ديوانه بزى الحزن ولم يستطع ان يخالف الرسوم المعهودة فكانت رسوم ديوان فرعون وآدابه واخلاقه معلومة علم يقين دلت عليه التوراة فهى مبنية على النقل المتواتر والسماع المستفيض فلا يشك فيها ومن المعلوم انه لا يتصف بهذه الآداب الرسمية الا الجمعية المتقدمة فى المعارف فلا شك ان جميع ما كان فى الدول المتاخرة التمدنة من حسن الاخلاق والعوائد كان موجودا نظيره عند دولة مصر القديمة في ايام زهوها فليس التمدن من خصوصيات الازمان الاخيرة وانما ذوقيات التمدن مختلفة بما يلايم طباع الوقت ويطابق مقتضى الحال فلا يمد على مصرف هذا العمران تستجلب السعادة وتكتسب من القوة الملية الحسنى وزيادة وتحصل من وسائل الغنى على مقاصد الافادة والاستفادة لان بنية اجسام أهل هذه الازمان هى عين بنية أهل الزمان الذي مضى وفات والقرائح واحدة ووسائل هذا العصر الاخير متسعة ومتنوعة فلاشك انها مساعدة على اكتساب المنفعة لمن يريد حقيقتها وأعظم وسائلها رخصة الاخذ والاعطاء داخلا وخارجا وكمال الاتحاد مع الممالك الاجنبية فى المعاهدات التجارية العائدة بالمنافع العامة على الوطنية كما فعل ملك مصر ابسميتكوس الاول ابن نخوس ملك مصر من جلب الاجانب فى مملكته كما سياتى فى الفصل الثالث من الباب الثالث

الفصل الثالث

في ان أعظم وسائل تقدم الوطن في المنافع العمومية رخصة المعاملة مع أهالي الممالك الاجنبية واعتبارهم في الوطن كالاهالي

من المعلوم ان ممن أسس في مملكة مصر السعادة والسيادة والامنية وحفظ حقوق الرعية هو الملك رمسيس الذي اشتهر باسم سيزستريس وهو الذي شيد في مصر القصور الشامخة والهياكل السامية المنافسة للاطواد الراسخة واتخذ ما يلزم للوطن من الجسور والقناطر والخلجان ورفع الاراضي المنخفضة المعرضة للغرق عند زيادة النيل واستبدل المدن المنخفضة من محالها بنائها على الربى العالية لسلامة البلاد والعباد ولم يفارق الدنيا حتى ترك مصر على غاية من الثروة والغنى والسعادة والهنا وكل انسان شاكر لفضله وعلى تداول الازمان لا زال التاريخ يثني على شمائله وجميل خصاله الا انه هو ومن قبله وأكثر من بعده من الملوك لم يحصل منهم كما حصل من الملك ابساميطيقوس الاول من مساعدة التجارة داخلا وخارجا فان سعادة الاهالي انما هي بالاخذ والاعطاء والتنقلات الملكية

« مطلب » مساعدة الملك ابساميطيقوس ملك مصر للتجارة داخلا وخارجا

فكان هذا الملك في الحقيقة فخر الدولة المصرية في الازمان الجاهلية ومصباح تاريخها اعتنى بتاريخه مؤرخو اليونان لانه أول ملك مصري قربهم الى بلاده واستمال قلوبهم بتوظيفهم برياسة أجناده وخالف عوائد أسلافه وعامل يونان آسيا واوربا بأخص استعطافه وأقطعهم الاقطاعات من الاراضي المصرية وسوى في الحقوق بينهم وبين الجنود الوطنية وجعلهم من المقربين في المعية وأعطاهم جملة من الغلمان المصريين لتعلم اللغة الاغريقية

ليكونوا مترجمين بينهم وبين المصريين في أيامه انتشرت معرفة اللغة اليونانية وبواسطتها كثرت التجارات والمعاملات والمخالطات وتأسس بالقطر المصري العائر التجارية فكانت هذه أول مرة تكلم فيها اليونان بلسانهم في غير بلادهم ولما رأى ما رآى من صداقتهم ومساعدتهم وسعهم في المعاش وأغدق عليهم غاية الاغداق وسواهم بجنده فكانت منفعتهم جسيمة

« مطلب » فتح الملك أماسيس ثغور مصر للاجانب واحسان مثواهم لاسعاد رعيته بالثروة والغنى

ومن فتح لليونان ثغور مصر وأبوابها من ملوكها الملك أمسوس ويقال له أماسيس فانه كان قوي الفطنة جيد القريحة حسن التدبير لم تسعد مصر في ايام غيره كسعادتها في ايامه الهنية ولم تخصب بالنيل بخصبها في ايام دولته المدلية حتى قيل ولو انه من المبالغات التاريخية ان مدن مصر وقراها بلغت في عهده عشرين الف مدينة وقرية وكلها غنية مثرية وجل أسباب ثروتها التجارات العظيمة لا سيما مع اليونانيين فانهم اذ ذاك كانوا أرباب التجارة والصناعة واتسعت دائرتهم في ذلك من مخالطة المصريين فقد شملتهم أنظار هذا الملك الخصوصية حيث أحسن مثواهم ورخص لهم الاستيطان بالديار المصرية بمدينة نقراطيس التي يقال ان محلها الآن فوة وقيل غيرها

وكانت هذه المدينة دون غيرها مخصوصة بأن ترسي عليها سفن الدول الاجنبية وقد أباح هذا الملك للغرباء أن يتمسكوا في مصر بأصول دياناتهم وأنعم عليهم بأراض مخصوصة ليبنوا فيها معابدهم وهياكلهم ومذابحهم ومحاريبهم على اختلاف مللهم وأديانهم ومذاهبهم وعقد مع دولة أثينا أي مدينة حكماء اليونان معاهدات وعقد أيضا معاهدات أخرى مع دول أخرى كدولة القيروان بالمغرب وكان له مخابرات ومراسلات متواترة مع الملوك

الاجانب كملك جزيرة صيصام احدى جزائر الروم الكبيرة فان التاريخ قد حفظ نصيحته لملك الجزيرة المذكورة ومضمونها لا تأمن صروف الزمان وتفكر في نوائب الحدثان واعص النفس في اتباع هواها وخالفها ولا تبلغها مناها فلما قرأ ملك صيصام البطاقة عزم ان زهد في الدنيا حسب الطاقة وكان باصبعه خاتم جوهر نفيس عظيم القيمة لا يؤثر عليه من زينة الدنيا شيأ ولكن وقعت بقلبه موعظة الملك أماسيس أعظم موقع فنزعه من اصبعه والقاه في اليم وعزم على ترك الزينة وصمم ولكن لما كان جد هذا الملك قائما والسعد له خادما رد الله عليه هذا الخاتم في بطن حوت سمى به اليه صياد من البحر قادم ففهم من ذلك أن الاشياء بخوت وسعود وأن خاتم الملك وان زهد فيه فهو اليه مردود وتاج السعادة على مفرقة معقود

« مطلب » نصيحة الملك أماسيس لملك جزيرة صيصام

« مطلب » مساعدة البخت للانسان ومأقيل في البخت والحظ

قال الشاعر

البخت افضل مايأتي الفتى فاذا ... مافاته البخت لاينفك يتضع
يكفيك في البخت تيسير الاموروان ... يكون مالبس ترضى عنك يندفع

والحظ أجدى لصاحبه من الحجى واهدى في طرق مأربه من نجوم الدجى ومن لطائف المطبوع في هذا الباب قول محمد بن شرف القيرواني

اذا صحب الفتى جد وسعد ... تحامته المكاره والخطوب
ووافاه الحبيب بغير وعد ... طفيليا وقاد له الرقيب

وقال اذا أقبل سعد المرء فالاقد ارتسعده والاوطان تساعده واذا أدبر فالايام تعاديه والنحوس تراوحه وتغاديه قال عبد العزيز بن نباته

الا فاخش مانرجو وجدك هابط ... ولا تخش مانخشى وجدك رافع
فلا نافع الا مع النحس ضائر ... ولا ضائر الا مع السعد نافع

واعلم ان كمال العقل وسوء الحظ كالعلة والمعلول لا ينفك احدهما عن الآخر كما أن قلة العقل وكمال الحظ متلازمان ويصحبهما الجهل والحمق قال ابن المعتز

وحلاوة الدنيا لجاهلها ومرارة الدنيا لمن عقلا

وقال ابو الطيب

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

وقال القاضي الفاضل

ما ضر جهل الجاهلين ولا انتفعت انا بحذقي

وزيادتي في الحذق فهي زيادة في نقص رزقي

وقال شمس الدين الحكيم بن دانيال

قد عقلنا والعقل أي وثاق وصبرنا والصبر مر المذاق

كل من كان فاضلا كان مثلي فاضلا عند قسمة الارزاق

وقال ابو تمام

ولم يجتمع شرق وغرب لقاصد ولا المجد في كف امرىء والدراهم

ومن عدم تعليل الحظ قول ابي الطيب

هو الحظ حتى تفضل العين اختها وحتى يكون اليوم لليوم سيدا

وعلى هذا فيجب على العاقل التسليم في جميع الامور وتلقي المقادير بالرضا والقبول كما قال

تبارك من أجرى الامور بحكمة كما شاء لا ظلما اراد ولا هضما

فما لك شيء غير ما الله شاءه فان شئت طب نفسا وان شئت مت غما

فاذا علمت أن قسمة الحظوظ في سابق الازل لحكمة يعلمها لا تبديل ولا تغيير

في ذلك وسامت الامر لمولاك الفاعل المختار المتصرف في ملكه كيف يشاء بالاختيار فلا عتاب ولاملامة قل من عرف الله ازال التهمه وقل كل فعله لحكمة وان ارزاق العباد قسمه تحصل بالتقدير لا بالهمه كما قيل

مثل الرزق الذي تطلبه مثل الظل الذى يمشي معك
انت لا تدركه متبعا فاذا وليت عنه تبعك

وقال آخر

هون عليك وكن بربك واثقا فاخو التوكل شأنه التهوين
طرح الاذى عن نفسه في رزقه لما تيقن انه مضمون

ومما ناسب ذلك ما يحكى عن عروة بن اذينة انه وفد على هشام بن عبد الملك فشكي اليه حاجته فقال له ألست القائل

لقد علمت وما الاسراف من خلقي ان الذى هو رزقي سوف يأتيني
أسعى اليه فيعييني تطلبه ولو قعدت أتاني ليس يعييني

وقد جئت من الحجاز الى الشام في طلب الرزق فقال يا امير المؤمنين لقد وعظت فأبلغت وخرج فركب ناقته وكر الى الحجاز راجعا فلما كان من الليل نام هشام على فراشه فذكر عروة فقال في نفسه رجل من قريش قال حكمة ووفد علي فجبهته ورددته خائبا فلما أصبح وجه اليه بألفي دينار فقرع عليه الرسول باب داره بالمدينة واعطاه المال فقال ابلغ امير المؤمنين مني السلام وقل له كيف رأيت قولي سعيت فأكديت فرجعت فأتاني رزقي في منزلي ولا يتعجب من بليغ نصيحة اما سيس ووعظه فانه كان بينه وبين سولون حكيم أثينا مراسلات لاقتباس الحكمة اليونانية والمعارف التي تكسب الفضائل فاقتبس من حكمه وفضائله وقوانينه ما تميز به عن غيره من الملوك السابقين

« مطلب »
مناقب سولون
الحكيم اليوناني
وقوانينه

وكان سولون المذكور في مملكة أثينا من ذوي البيوت اكتسب من السياحة في البلاد ما صيره فريد زمانه في الحكمة والتدبير والسياسة وكان ممن دخل مصر من الفلاسفة فعاد الى مملكة أثينا فوجدها مختلة النظام منحلة الاحكام فالتمسوا أن يجعلوه ملكا عليهم وكانوا جمهورية فلم يرض ان يلبس التاج الملوكي ويتسلطن على بلاده وانما اقتصر على تنظيم الجمهورية وانشأ سولون قوانين داخلية منها أن من ثبت عليه من الاهالي انه لم يشتغل بحرفة ولا صنعة بعد المرافعة معه ثلاث مرات وهو مصر على البطالة فانه يفضح على رؤس الاشهاد وكذلك كل ولد اشتغل بصنعة وسلك مسلك التبذير في أمواله فانه يفضح على رؤس الاشهاد ايضا وان الولد الذي لا يقوم بمؤنة ابويه العاجزين عن الكسب فانه يعاقب بذلك العقاب ولا يعاقب بهذه العقوبة الوالد اذا بخل بالانفاق على ولده

ومن قوانينه انه لا يجب على المرأة عند الزواج ان تجهز زوجها باكثر من ثلاثة اثواب وبمتاع قليل الثمن لان تكليفها أكثر من ذلك ربما عاد بالفاقة على اهل الزوجة وان من اجتمع من الرجال بالنساء المتبرجات وعاشرهن لا يسوغ ان يكون من اعضاء مشورة الجمهورية أبدا لانه لا يؤتمن على مصلحة الاهالي وان من ثبت عليه من أرباب المشورة السكر فانه يعاقب بالقتل وان المدين لا يجوز حبسه وان من لم يكن له ذرية فله ان يوصي بجميع امواله قبيل وفاته وان من مات في الحرب وله ذرية فان الوصي على ذريته الحكومة فهي الكافلة والمسؤلة عن اموالهم والمطالبة بتربيتهم واصلاح احوالهم وشؤنهم وانه يجب الاقتصاد في المصارف التي تنفق في الجنائز والاحتفالات الدينية بقدر الامكان وان تدخل الغرباء البلاد اليونانية ولكن لا يسوغ تداخلهم في مناصب الحكومة

فلما كان سولون معدودا من المشرعين والمقننين اقتبس منه اماسيس بعض

قوانين وقد تقدم في الفصل الاول من هذا الباب الثالث ان امآسيس اوجب التفحص عن معيشة الانسان وكسبه من الحلال وانه كان يحكم بالقتل على من يكتسب من الحرام فلا شك انه التمس ذلك من مخالطه اليونان فالمخالطة مغناطيس المنافع فهي تساوي حركة العمل في ذلك وكلاهما لا يستغني عن الحرية والرخصة ومنبع الجميع وكسب المعارف العموميه والمحبة الوطنيه الذي يترتب عليها اجتماع القلوب والتعاون في ابلاغ الوطن المطلوب فمخالطة الاغراب لاسيما اذا كانوا من أولي الالباب تجلب للاوطان من المنافع العمومية العجب العجاب ولو كانت مترتبة على ظواهر التغلب والاغتصاب فربما صحت الاجسام بالعلل ولنضرب لك المثل في فتوح اسكندر لمصر في الايام الاول فقد ترتب على فتوحه في تلك الايام اعادة قديم بهجة مصر بعد ان دمرها حكم الاعجام حيث واسى أهاليها وراعى عوائدهم واباح عقائدهم وساسهم بأحسن مايمكن من السياسة والعدل في الاحكام

الفصل الرابع

فيما ترتب على فتوح اسكندر الرومي للديار المصرية من اتساع دائرة المنافع العمومية الناتجة عن مقدمات الحزم والكياسة وشرطيات أشكال العدل في التدبير والسياسة

من المقرر عند أرباب العقول أن اقوى شيء في حفظ البلاد وراحة العباد وتوسيع دائرة المنافع العمومية وتأسيس قواعد تمدن الوطنية انما هو مراعاة عوائد الاهالي واباحة تمسكهم بعقائدهم وعدم منعهم حسب الامكان بما لا يستطيعون مفارقته من مالوفاتهم المأذونة والمحافظة على ارضاء خواطرهم ولو للفاتح المتغلب والمغير المغتصب فان اسكندر الرومي بحسن

« مطلب » سلوك اسكندر في البلاد المفتتحة له مسلكا باين مسلك الفاتحين

سته وكمال كياسته تغلب على بلاد العجم التى أسسها كيروش وسلفه بعد ثلاثة حروب عظيمة ففتح هذه البلاد الواسعة الاطراف والاكناف باستقامة تدبيره وحسن سلوكه مع أهاليها وتطييب خواطرهم وحفظ عوائدهم وشرائعهم حتى صار فتوحه للبلاد المشرقية زمنا تؤرخ به الوقائع والحوادث فلم يكن فتوحه كفتوح سلفه من اليونان ولا غيرهم من أهل العراق والكردستان ولا كفتوح العجم اذ كانوا جميعا يدمرون البلاد ويهلكون الامم واما اسكندر فكان كلما فتح مملكة أسس فيها وجدد وبنى وشيد ووطأ ومهد ومدن المدائن وأكثر الاموال في الخزائن وأوجد وسائل العمران وأحيا قلوب أهالي البلدان وكان من تقدمه من اصحاب الخروج والفتوحات اذا فتح مدينة أو مملكة عرض أهلها المخالفين له فى الاحكام والعقائد للمهلكة فأغضب جميع الاهالى بسوء سلوكه فسلك اسكندر مسلكا غير ما سلكه الفاتحون قبله من سلاطين ذلك العصر وملوكه فكان يرخص فى كل اقليم فتحه ابقاء الاهالى على عوائدهم القديمة وربما وافقهم على التمسك باتباعها فى عمل خصة نفسه ولو لم تكن بحسب رأيه مستقيمة وذلك لمجرد ايناس نفوسهم وتوطينهم على حب حكومته وتأنيسهم فكان مشايخ قواده وأمرائه يشيرون عليه بنسخ دين ما يفتحه من البلاد وعدم ابقائه فلا يسمع مقالهم حتى ان تماديه على ذلك أغضب أبطالهم فلم يبطل شيأ فيما فتحه من البلدان من أحكام الشرائع والاديان وقصد بذلك تجيز أغراضه الصلحية وايجاد الوحدة لسلطنته الفتوحية فجعل أجناس الامم فى جميع الاقطار المفتوحة ممتزجة كأمة واحدة أو كجسد واحد وجعل حرية التمسك بالشرائع روحه وصمم على أن تكون أمم سلطنته كعشيرة واحدة

ودائرة ملكه وطنا مركزيا وجميع الاهالي خطوطا شعاعية منبعثة من المركز الى المحيط ولم تساعده المقادير حيث الامل طويل والعمر قصير

« مطلب » ترجمة اسكندر للامم المختلفة والتأليف لسائر من تحت حكمه من الملل

ولنذكر نبذة موجزة من تاريخه فنقول هو اسكندر بن فليش المقدونى تولى أبوه على مقدونيا جهة اقليم روم ايلي فرتب المملكة ونظمها ثم عزم على تحصيل مقاصد مهمة من أعظمها ترتيب العساكر والقوانين واخترع كيفية فى صف العساكر يقال لها الكردوس على هيئة المثلث فكانت مرهبة فى ذلك الوقت كارهاب شكل القلعة المربع الذي عليه العمل في الحروب في هذا العهد وجعل الكردوس نحو سبعة آلاف نفر وقسمها الي ستة عشر صفا بعضها وراء بعض وأسلحهم بحراب طوال جدا حتى ان حراب الصف الاخير كانت تصل الى الصف الاول فصاروا بهذه الهيئة مهيبين لا يستطيع العدو أن يظفر بهم

« مطلب » نسب اسكندر وولاية ابيه وما رتبه ابوه في العسكرية

« مطلب » قصد فليش حرب العجم وحزم امم اليونان على المساعدة

وكان يعامل العساكر بالرفق واللين ويدعوهم بالاصحاب ويعلمهم قواعد الحرب والقتال وكان حسن سياسته بقدر كمال شجاعته وقوة ذكائه وفطنته فتوصل بذلك كله للاستيلاء على جميع اليونان فأحبه الجميع وأطاعوه فأداه طمعه فى الفخار وحب الاشتهار الى امر عظيم لا يمكن لغيره الاقدام عليه وهو انه قصد محاربة العجم ظنا منه انه يظفر بمملكتهم وطلب من جميع امم اليونان أن يكونوا معه فى ذلك فتلقوا ذلك بالقبول وحمدوه على هذا المقصد الحسن وقلد نفسه رياسة الجيوش الحربية وكان قد استشار الكهنة فى ذلك على حسب عادة اليونان فأجابوه بكلام متشابه واقوال مبهمة محتملة لمعان متعددة حيث قالوا لبس الثور التاج والاكليل ودنا اجله فهو ذبيح عما قليل فحمل ذلك على ملك العجم فبينما هو يصنع عرسا لزواج بنته اذ قتله بعض

« مطلب » قتل فليش فى عرس ابنته

الامراء فات لوقته وكان قد رزق ابنه اسكندر الذي شب في حياته واينع نضير غصنه في حدائق العز ورياضه فعزم على أن يعلمه العلوم والمعارف فرأى انه لا نجيب الا اذا أعطاه لاعظم حكماء زمانه فلم يجد أفضل من أرسطاطاليس فكتب له جوابا مضمونه قد رزقني الله بولد فحمدته وانثيت عليه لا سيما انه أعطاني اياه في زمنك فالمرجو أن تجتهد في تعليمه وحسن تربيته ليكون أهلا لان يخلفني على مقدونيا فامتثل الحكيم أمره فهذب اخلاق اسكندر وجعله اهلا للامرة فكان اسكندر في ايام شبوبيته تلوح على وجهه بشائر الخير العميم مع ما تعلمه من ابيه ومن استاذه من انواع التعاليم فقد أخذ عن معلمه ماله دخل في رياضة ذهنه وتنوير عقله بأنوار معرفة الاخلاق والآداب ومآثر التواريخ التي هي مرآة افعال الملوك الماضين ينظر فيها المتأخر حسنات أو سيئات السابقين

* مطلب * تربية ارسطاطاليس لاسكندر

قال بعض المؤرخين لو فرضنا ان التاريخ غير نافع للآحاد فلا يستغني عنه احد من ملوك الدنيا الذين ولاهم الله رقاب العباد فانهم يطلعون فيه على مأساوئه الانفس والشهوات واقتضته المنافع بحسب الاحوال والاوقات وينظرون فيه وقائع الازمنة والامكنه والاحوال الظنية والمتيقنة والآراء الصائبة والاهواء الكاذبه وهل التاريخ الا أعمالهم السياسية واشغالهم الرياسية ترجع امورهم اليه ومدار عملهم عليه فانه مشتمل على التجاريب وهي لازمة لهم في حزمهم واجراء احكامهم على وجه مصيب فاذا رأوا في التاريخ ما يمدح نموه أو ما يذم هجروه واجتنبوه فبذلك اضافوا اليه تجاربهم المستفادة وانتفعوا بالاصل والزيادة فينبغي لهم ان يتشبثوا بذلك ويتركوا ما اعتادوا عليه من سلوك أقرب المسالك من الاقتصاد على الامور الوقتيه التي تستنتج من احوال الرعية

* مطلب * ثمرة التاريخ للملوك

اوتستدعيها مفاخرهم الذاتية الهوائية فيقعون في الحيره لعدم استنارة البصيرة فاذا استعانوا بالتاريخ أصلحوا عقولهم بالتجاريب ولم يقعوا في مضار الحوادث الماضية ولم ياخذوا منها بنصيب واذا طلعوا في الوقائع التاريخية على ماوقع لغيرهم من العيوب الخفية التي يمدح الملوك في حال حياتهم من اهل النفاق وتبقى ملوثة لصحفهم التاريخية التي تسير بها الركبان في جميع الآفاق اتعظوا بذلك واعتبروا كل الاعتبار فاذا تملق اليهم المتملقون وتذكروا ما اغتر به في مثل ذلك السابقون خجلوا من فرحهم بباطل المديح ورجعوا في العمل للرأى الرجيح وايقنوا ان الفخر الحقيق لا تستحقه الملوك الا بالفضائل المأثورة للخلف وان عاقبة الفعل السيء الندم والاسف فقد تنزهت نفس اسكندر عن ذلك وقد كان مولعا بمطالعة تاريخ نصرة تروادة اليونانيه التي جمع حربها جميع امراء الممالك فكان جل رغبته وميله للمفاخر العسكرية لما شاهده من هذا التاريخ من الثناء على فحول الرجال من الامة اليونانية وطالما شوهد تنفسه الصعداء غير مرة حين اخبر ان اباه فليش انتصر في الوقائع قائلا لبعض اخصائه هاهو ابي قد تغلب على جميع البلدان بسيفه وما ابقي لسبق شيأ وبينما كان يتحدث ذات يوم مع سفراء ملك العجم فما سألهم عن زينة بلادهم ولازخارفها وتنعماتها بل سألهم عن المسافات بين البلاد وقوة الدولة وكيفية سياستها وتدبيرها وسلوك ملكها فتعجبوا غاية العجب وقال بعضهم لبعض ان هذا الامير لعظيم واما ملكنا فهو امير غني فقط وكان يتراءى في طبيعة اسكندر في حال صغره الشجاعة وحب الرياسة والتدبير وشدة الميل للتلذذ بذوق اقتحام العظائم حتى انه امتاز واشتهر غير مرة في الحرب تحت لواء ابيه في حداثة سنه

ولما مات ابوه كان ابن عشرين سنة فخلفه على المملكة وكان جديرا بالقائه

الرعب والهيبة فى قلوب الامم وكان يظن بعد ممالك اليونان الذين كانوا تحت طاعة ابيه انهم يغتنمون الفرصة بالخروج على اسكندر فاشهرو السلاح فانتصر عليهم جميعا فى غزواته التى كان رئيسها بنفسه فلما رجع الى مقدونيا استعد لفتح بلاد آسيا وابى ان يتزوج خوفا من ضياع الزمن فى وليمة العرس ومن ضياع الاموال فى الافراح بل اغدق بما عنده من الاموال على كبار عسكره برسم الانعام فقال له بعض الامراء ما اعددت للانفاق على نفسك وعسكرك قال اعددت لذلك كله قوة الرجاء فأبقى فى مملكته ثلاثة عشر الف رجل للمحافظة واستصحب معه خمسة وثلاثين الف مقاتل لكنهم ابطال تحت طاعة شيوخ مجربين ثم توجه الى آسيا وليس معه من المال الا نحو سبعين مثقالا من الذهب ومن الذخيرة اهبة شهر واحد وثوقا بقوة وطالع سعده وضعف اعدائه وطالع نحسهم وكانت بلاد آسيا تحت طاعة العجم يحكمون على جميع ممالكها وكانت قد اشرفت على الخراب لاتساع سلطنتها وسوء تدبيرها واستبدادها للامم وظلم ملوكها حتى ان ولات اقاليمها كادوا يكونون ملوكا مستقلين لبعدهم عن مركز السلطنة الذى كان اذ ذاك منبعا للفتن والاختلال وكان دارا هو ملك الملوك يحكم على بلاد آسيا الشرقية ويحكم من بلاد افريقية مملكة مصر ففتح اسكندر البلاد التى كانت تحت ملوك العجم جميعها حتى وصل الى الشام وفتحها وعقب فتوح بلاد الشام انطلق الى مصر وكانت دولة العجم مبغوضة للمصريين لازدراء العجم بدين اهل مصر وتشديدهم عليهم فى تركه فتلقى المصريون اسكندر بالترحيب ورغبوا فى حكومته لينقذهم من اعداء دينهم ثم قصد استمالة قلوبهم اليه واستعطافهم لمحبته وانقيادهم اليه بالقلب والقالب عليه فاعذر لهم ان يتمسكوا بشرائعهم وعوائدهم واسس بمصر مدينة اسكندرية التى صارت من أعمر

« مطلب » توجه اسكندر لحرب بلاد آسيا باهبة يسيرة

« مطلب » فتوح اسكندر لبلاد العجم وانطلاقه الى مصر عقب ذلك

مدائن الدنيا وأزهاها وانيعها بالعلوم النافعه والتجارات الساطعة لان الابنية الجسيمة من المنافع العمومية العظيمه التى تمنح بانيهامن العز والفخار بقدر ماتكسبه الغزوات المخربة من الكراهة والنفار

« مطلب » وفاة اسكندر في عنفوان شبابه بدون ان يعهد الى أحد في السلطنة

ثم كانت وفاة اسكندر بعد فعاله العجيبة بمدينة بابل قبل الميلاد بثلثمائة وثلاث وعشرين سنة وعمره ثلاث وثلاثون سنة ولم يرض ان يعين وارثا بعده بل قال قد أبقيت وراثة السلطنة للأحق بها وأخبر أنه سيسفك الدم في جنازته فكانت الحروب الداخلية وانفصال الممالك عن اتصالها عاقبة فتوحاته بعد انقضاء حياته فكل واحد من امراء جيوشه أخذ مملكة جسيمة فلما تقاسم امراؤه سلطنته سموا بملوك الطوائف ولم تعد فتوحاته من النوفل بل ترتب عليها مزايا جسيمة للتمدن والمنافع العمومية حيث بقيت الاجتماعات والعلاقات السياسية مدة عشرة قرون بين أهالى المشرق والمغرب وذلك لان قطعة آسيا قبل فتوح اسكندر كانت مغلوقة الابواب عن قطعة أوربا لما بينهما من العداوة

فمن عهد هذا الفاتح فتحت أبوابها للتجارات فبواسطة ذلك انتشرت العلوم والمعارف فى المدن لاستفادة بعضها من بعض وكذلك ترتب على فتوحاته تجدد عائلات الملوكية فى البلاد اليونانية شيدت ممالكها فى البلاد فكانت من الدول القوية وحسب اسكندر أنه خلفه على مصر الملوك البطالسة فهم الذين أعلوا درجتها وأعادوا بهجتها حتى صارت مصر في عهدهم على هيئة جليلة وصورة استعداد جميلة وعاد اليها فخرها القديم في تلك الحال الراهنة وكان قد انمم باستيلاء الاعجام وتغلبهم على ملك الفراعنة فتحققت ثمرة فتوح اسكندر وبدا صلاحها فى مصر ومضافاتها وظهرت

تاج عقل ذلك الفاتح المقدوني في عهد البطالسة بالاصالة وبعدهم بالتبعية وكان الوطم بطليموس اللاغوسي وكان يعرف أهمية مصر ورفعة قدرها وامتيازها بين الممالك فأول ما تقلد ملكها أحسن التدبير والسياسة واهتم بالمدافعة عنها ممن يريد الهجوم عليها فكان لا يغلبه غالب وسبب ذلك منعة ميناها التي يصعب الدنو منها وميل المصريين اليه لعدله وتحببه اليهم لان ميل الرعايا للموكم هو الحرز الحريز والحصن الحقيق لحفظ الملوك والممالك

« مطلب » ظهور نتائج فتوح اسكندر لمصر في عهد البطالسة ومن بعدهم

وقد تفرغ هذا الملك بعد النصرة على أعدائه في الخارج الى تنظيم لملكة فشرع في تتميم مباني سكندرية لتصير من اعظم مدائن الدنيا فبنى ضريح اسكندر الاكبر وكان قد أحضر معه جثته من بابل الى الاسكندرية فبنى له هيكلا عظيما ويغلب على ظن أرباب المعارف ان قبر اسكندر بقرب المحل المسمى نبي الله دانيال أو هو هو وكذلك أنشأ منارة الاسكندرية الشهيرة بجوار الميناء البحرية لمنافع التجارات والاسفار البحرية وفوائد المعاملات الاهلية والاجنبية التي هي احدى عجائب الدنيا كما قال فيها بعض الشعرا

« مطلب » مدفن اسكندر ومنارة اسكندرية المعدودة من عجائب الدنيا

وسامية الارجا تهدي أخا السرى ضياء اذا ما حندس الليل أظلما
لبست بها بردا من الانس صافيا فكان بتذكار الاحبة معلما
وقد ظللتني من ذراها بقبة ألاحظ فيها من صحابي أنجما
تخيل ان البحر تحتي غمامة واني قد خيمت في كبد السما

ومن أنفع ما أنشأه بطليموس في الاسكندرية المدرسة المظيمة التصلة بقصره فقد جمع فيها جميع العلوم المألوفة في ذلك الزمان من فلسفة ورياضيات وطبيعيات والهيات وعلوم طبية وجلب اليها علماء لليونان وغيرهم

فصارت اسكندرية فى قليل من الزمان مركزا للمعارف جميعها وأنشأ فى هذه المدرسة الوسعية كتبخانة ملوكية جمع فيها نفائس الكتب القديمة وجلب اليها الناسخين والمصححين والمجلدين والمذهبين

وكان يستعير الكتب الجليلة من محالها فينسخها ويرسل المنسوخ لاربابه ويبقى الاصل فى خزائنه فكثرت الكتب النافعة من جميع الفنون والعلوم فى هذه الكتبخانة وكان له العناية الكاملة بالفنون البحرية وبناء السفن لتكثير الاسفار والترغيب فى ركوب البحار فكأنه أراد محاكاة الصوريين حيث صاروا أصحاب تجارة الدنيا بأجمعها بحسن موقع مدينتهم للتجارة وبابتداع سفنهم البحرية حيث أطاعتهم الامواج وخضع لسفنهم البحرية العجاج ولم يكترثوا بالعواصف والقواصف وجربوا البحار واعماقها وجسسوا قرارها وعرفوا مخاضها واغوارها ورصدوا النجوم بالبعد عن البر وفى بحبوحة البحر وجمعوا الامم الاجنبية التى فصلت بينهم البرور والبحور ونظموهم فى سلك نضيد كأنهم عقود فى نحور فكانوا فى الصنائع والفنون عطاردية وأرباب صبر وتجلد على الحركات العملية وحازوا النظافة فى المسكن والملبس والمطعم وكانوا مع ذلك أرباب قناعة واقتصاد فيما خولهم به المولى المنعم وكانت حكومتهم ذات ضبط وربط وتدقيق وحسن الملاحظة وتفتيش وتحقيق لا يدخلون بين الاهالى الشحناء والشقاق ولا يحيدون عن سبيل الوفاق بل هم دائما اخوان صفاء ورفاق وهم أشد الامم تمسكا بهذه الخصال كما أنهم أهل صداقة وامانة وكمال عندهم الراحة للامم الاجنبية بل يعتبرونهم كاهالى الوطنية فبهذا أينعت عندهم أزهار التجارة النافعة والمعاملة مع سائر امم البرية وقد تنزهوا عن العداوة والحسد وتمسكوا بالاقتصار

« مطلب » كتبخانة اسكندرية

« مطلب » تقدم الملاحة والاسفار البحرية فى عهد بطليموس الاول

والكد وأكرموا أرباب الفنون وحافظوا على الامانة فى سر التجارة المصون ولم يحتكروا التجارة ولا الصناعة ولا تركوا البشاشة والترحيب لارباب البراعة فلهذا كانت شوكتهم قوية ومملكتهم مثرية غنية فسير ملك مصر السالف الذكر على سنن الصوريين عاد فن الملاحة على مصر بالثروة لكثرة المعاملات التجارية مع البلاد الدانية والقاصية والامم الاجنبية كاهل بلخ وهمدان والهند والسودان والحبشة والقيروان وبثروة الاهالى أثرت الحكومة المصرية وقويت شوكتها وعظم سلطانها وارتفع شأنها وانتشرت الاعلام الملوكية على هذه السفن فكانت محترمة الناموس عند جميع الملل والدول وعظمت قوة مصر البرية والبحرية فكانت فى ايامه يمكنها الاستحضار على مائتى ألف من العساكر المشاة واربعين ألف من الفرسان وعلى ثلثمائة من الافيال الحربية وعلى الفى عربة مسلحة بالمناشير والمناجل وكان فى خزينة المهمات المصرية ثلثمائة الف طقم مجهزة من الزرد وكان بالترسانات نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة سفينة ما بين كبيرة وصغيرة وكان ما يبقى من الخزينة موفرا فى كل سنة من الايراد بعد الصرف الوافى نحو مائة الف كيس فكان الوفر كثيرا كم على ممر السنين وتداول الايام فكانت المملكة غنية وعلى حالة فى ثروة تلك الازمان مرضية وكانت التجارة الاهلية والقادمة الى الاسكندرية تحت حماية السفن الملوكية فصارت الاسكندرية بذلك عامرة بالسكان المحبين للمكثهم بترخيصه لهم فى التجارة والارباح وحسن معاملاته مع الاجانب فكانت التجارة تكتسب كل يوم النمو والزيادة

« مطلب » ذخائر خزائن مصر فى أيام بطلميوس الاول

وكان هذا الملك يجلب دائما الاهالى من أوطانهم للاستيطان فى الاسكندرية حتى انه رغب طوائف اليهود بالدخول اليها حتى تكاثروا فيها

« مطلب » جلب بطلميوس اليهود الى اسكندرية وتأسيسه لهم حارة خصوصية

ومروا فيها خطة كبيرة تسمى حارة اليهود ومع ذلك لم يهجروا مدينة منف بل جعلها دار المملكة الرسمية فلما تولى بعده بطليموس الثانى محب أخيه قبل الهجرة بسبع وتسعمائة كانت مدته أيضا خيرا من مدة ابيه فصرف همته فى تقديم العلوم والمعارف والتجارات فكانت مصر فى ايامه أعمر بلاد الدنيا الان أباه كان قد أضاف الى مصر بلادا كثيرة كمملكة القيروان وسواحل الشام وبلاد العرب المجاورة لمصر وجزيرة قبرص وجزائر بحر الروم وأغلب مينات أماطلى الجنوبية ومينات سواحل روم ايلى فتمتع الملك بهذا الميراث العظيم والتفت الى العمليات الجسيمة التى تعود على مصر وعلى ممالك الدنيا بالمنافع العظيمة فاعتنى باستكشاف طرق البحار بالاسفار لمعرفة المسالك والممالك فاستكشف بلاد افريقية وثغور بحر عمان وفارس وأرسل من يستكشف منبع النيل فوصل فطانه الى جزيرة مروة بقرب شندي وهي جزيرة أتبرة وارسل قائدا آخر الى تلك الجهات فوصل فوق ما هنالك وانعطف الى جهة المغرب فبهاتين السياحتين اتسعت دائرة المعاملات التجارية وكثرت المخالطة بين الديار المصرية والسودانية وتقدمت المعارف الجغرافية وعلمت فى مصر احوال البلاد والعباد واجتهد هذا الملك فى تأييد المعاملات التجارية بين مصر والممالك الهندية والشرقية وارسل سفنه أيضا لاستكشاف سواحل الحبشة وأمر رؤساءها ان تبنى فيها تستكشفه محطات عسكرية ومراكز تجارية وكان مسيرها من مينا القصير فكان بندر القصير موردا ومصدرا للتجارات السودانية والعربية والعجمية والهندية وكانت اسكندرية مركز العموم ومحط رحال التجار كما هو معلوم ولم تنتقل عنها فضيلتها الاولية فى ايام حكومة البطالسة فكانت قطب دائرة الدنيا بدون أن يسوغ لمدينة

أخري ان تكون لها منافسة

« مطلب » ضيق دائرة المنافع المصرية في الادوار الاخيرة

ثم بتداول الازمان ضاقت دائرة تجارتها ومحيط صناعتها فى الاعصر الاخيرة ومع ذلك فلم تزل منابع للمنافع النسبية غزيرة لا سيما بعد فتوح الاسلام فقد عوض الله تعالى مصر دون غيرها فى صدر الاسلام وبعده تجارة لن تبور واكتسبت تمدنا آخر أعلى من الاول وبق القرون العديدة وأخذت منه مدن الدنيا بحظ موفور وناهيك بتقدم التمدن أيام خلفاء بغداد ونقل الخلافة بمصر فى أيام الفاطميين فانه انسحب أثره على جميع البلاد فان يكن التمدن قد قصر فى مصر وانحط عن قدره الاصلي فانما كان ذلك في أيام المماليك الذين أساؤا فى تدبيرها وسعوا في خرابها وتدميرها بما جبلوا عليه من العسف والتعدى وعدلهم عن الجادة بسلوك ما ليس بجدى حتى

« مطلب » استيلاء السلطان سليم خان على مصر

أنقذهم منها شوكة آل عثمان وغارت دولة الغورى بمصر واطمأنت قلوب أهلها بسلامة السلطان سليم خان وقتله للسلطان طومان ومع ذلك فصارت مصر مترددة متحيرة لتداول أيدى الولاة العثمانيين المختلفين في درجات العدل المعتبرة مع بقاء نفوذ أوجاقات الشراكسة أهل الحمية والعصبية ولم يكن لاكثرهم أدنى حظ فى قصد التمدنية فاستبدلوا الربح بالخسران وآثروا التدمير

« مطلب » تغلب الفرنساوية على مصر

على العمران وحل الخوف فى أيامهم محل الامان فانحل نظامهم واختلت أحكامهم فطمعت دولة الفرنساوية في أن تجعل حكومة مصر ملحقة مضافة الى ملكهم بالجر على وجه الاضافة وتغلبت عليها وأرادت بها ما أرادت وأراد الله خلافه فأعيدت كما كانت الى دار الخلافة ولكن كان لحكم المماليك قوة نفوذ غالبة وأظفار أسود ناشبة تفتك بالرعية ولا ترعى حقوق الدولة العلية ولا واجب الانسانية حتى آن الاوان وسخر الله سبحانه وتعالى لخلاصها من أيديهم

« مطلب » استخلاص المرحوم محمد على مصر من قبضة المماليك

بفتكهم أول أمير مجيب خرج من قوله وثاني لقول أمراء مقدونيا محمد الاسم على الشأن كما اشار لذلك بعض شعراء الفرنساوية بما معناه

فملك الخير بعده حسن ذكر — مستمر على مدى كل دهر

فاغنم حوز مشتهى نيل مصر — فلقد شابه دما سيف نصر

وغدا في حماك ينفق رفدا — فأتما اعم نفعه كل قطر

فانه بقريحته العجيبة أوصل مصر الى درجة مهيبة ثم لما آلت المملكة المصرية الى الحكومة الاسماعيلية بعد فترة تضعضع فيها الاساس اجتهد في ان يكسوها من المجد والفخار أعظم لباس وأن يصونها داخلا وخارجا من الشدة والبأس حتى تكون هي المصر وناسها هم الناس ولا يتم مثل هذا التقديم بدون انجذاب قلوب الاهالى صوب مركز التمدن والتنظيم وتوجه نفوسهم بالطوع والاختيار الى الوفاء بحقوق هذا الوطن العظيم بمعنى أنه اذا تشبثت الحكومة المصرية بكليات المصالح الوطنية ساعدها الاهالى كل على قدر حاله بايجاد المصالح الخيرية الجزئية بحسب ما تقتضيه الوقت والحال فبهذه الوسائل تحصل على المنافع العمومية فى أطراف مصر واكنافها بجميع المحال فالقوة الوطنية والنخوة الاهلية مما ينتج أظهار شعائر الاسلام ويبتهج به دين خير الانام والفضل فى ذلك للمؤسس الاول الجليل ولمن يقفو أثره من كل وارث نبيل وسيأتى ان ما فعله المؤسس الاول هو مبنى عليه من بعده لا سيما ما حصل من التجديدات فى هذه الايام مما يكاد أن يعجز عنه البشر فالاعمال الاخيرة شواهد وها هى نصب عين كل مناظر ومشاهد

الباب الرابع

في التشبث بعود المنافع العمومية الى مصر حسب الامكان في عهد محيي مصر جنتمكان وفيه فصول

الفصل الاول

في مناقب جنتمكان محمد الاسم على الشان وانه نادرة عصره ومحيي مآثر مصر والمقابلة بينه وبين عدة من مشاهير ملوك الاعصر القريبة

كان المرحوم محمد على سليم القلب صادق اللهجة أمينا في تصرفه حكيما في أعماله كريما الى الغاية حريصا على عمار البلاد وفيّاً في معاشرته محرصا على ود عشيرته وجنوده ورعيته متحببا اليهم وان كان في بعض المواطن سريع الغضب فقد كان قريب الرضا حليف الحلم صفوحا عن الجاني مقداما على اقتحام الاهوال صبورا على الشدائد وتقل الاحوال شديد الحرص على شرف نفسه وصونها، وسعه قوي الفطنة سريع الادراك يجول فكره في الامور البعيدة بصيرا في الحساب الهوائي العقلي عجيب البداهة غريب الروية تعلم القراءة والكتابة في أقرب وقت وعمره خمس وأربعون سنة اذ ذاك جبرا لما فاته في زمن الصغر وتداركا لما يزيد في مجده في زمن الكبر فرغب في مطالعة التواريخ ولا سيما تواريخ الفاتحين كتاريخ اسكندر الاكبر المقدونى وتاريخ بطرس الاكبر ايمبراطور الروس أي الموسكو وتاريخ نابليون الاكبر وغير ذلك من التواريخ المترجمة الى التركية مع المواظبة على الاطلاع

على ما في الكازيتات الافرنجية التي كانت تترجم له وكان صاحب فراسة اذا تكلم أمامه أحد بلغة أجنبية فهم من النظر الى حركاته واشاراته مقصده يستشير العقلاء والدهاء في جل أموره وكان نشيطا يحب الحركة ويكره الكسل والبطالة قليل النوم سريع اليقظة يستيقظ غالبا عند الفجر يسمع بنفسه العرضحالات التي تعرض له يوميا عند الصباح ويعطي عنها جوابا ثم يذهب لمناظرة العمارات الميرية التي كان مغرما بها وكان متديا الى حد الاعتدال بدون حمية عصبية ولا تشديد فكان يتغر لاهل الملل والدول في بلاده التمسك بعقائدهم وعوائدهم مما أباحته في حقهم الشريعة المطهرة وهو أول من أعطى للمسيحية الداخلين في الخدامات الميرية لما فيهم الاقتضاية مزايا المراتب المدنية وكان يؤثر الفعل على القول بمعنى أنه اذا أراد ترتيب لائحة مهمة فيها منفعة للامة شرع فيها بقصد التجريب وأجراها شيأ فشيأ على طريق الاصلاح والتهذيب فاذا سلكت في الرعية وصارت قابلة لاعمال المعمولية كساها ثوب الترتيب والانتظام وأخرجها من القوة الى الفعل في ضمن قانون الاصول والاحكام لما أنه كما يقال أحسن المقال ماصدق بحسن الفعال وكان مولعا ببناء العمائر وانشاء الاغراس وتمهيد الطرق واصلاح المزارع واتقان الصنائع والاعمال يرغب في توسيع دائرة التجارة ويستميل عقول الاهالي ليجذبهم الى ما فيه كسب البراعة والمهارة

وبالجملة فكان وحيد زمانه في جميع أوصافه وفريد أوانه في عدله وانصافه لا سيما بعد ان صفا له الوقت عقب توليته على مصر فانه مكث قبل ذلك نحو خمس سنين وهو يقاسي ما يقاسي من الشدائد ويعاني من أخصامه جميع أنواع المكائد حتى عزم على رجوعه الى وطنه الاولي بدون صلة وعائد لكن

لوفور سعده وتعبه وكده وسبق القدر بوصله الى تمام عزه ومجده صرف النظر عن المودة ونال واهب المطايا ما يهيأه له من تبوىء بحبوحة الملك واعده ولا شك أنه عرف داء مصر وعلاجها في أثناء هذه المدة ولا بد أيضا انه كان نوى لها تحسين الحال والمآل ان بلغه الله الآمل وأمده ولا يخفى أن من قصد الاستيلاء على مملكة لا يخلو عن أحد أمرين اما ان يكون كالصياد يقتنص مصيده بكل مكيدة أو كالمتقط لليتيم المفارق أبويه لينقذه من الهلكة ويحمله وليده فالامر الثاني هو الممدوح وهو مقصد حميد لاولي الفضائل من اصحاب الفتوح فانه مقصد سني ومطلب هني فاستقامة الامور لهذا الامير الكبير وما حصل له في الاستيلاء على مصر من التسخير والتيسير يدل على حسن النية وصفاء الطوية فكأنما أرشده الى بلوغ هذه المنزلة مصداق حديث اعملوا فكل ميسر لما خلق له فكان دأبه في العناية بشؤون تقديم مصر الاخلاص وحسن النية فأعماله صارت على ذلك مبنية وقد خلصت نيته فهبت صوبه نسمات القبول وأصاب بشرف النفس وعلو الهمة واخلاص العمل ادراك المأمول (قال) عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمعت ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرء ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه ومرجع هذا الحديث ان الامور بمقاصدها وهو معنى قوله تعالى يريدون وجه الله فالمدار على الاخلاص في العمل * وعن أبي موسى الاشعري قال يا رسول الله أرأيت الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء فأي ذلك في سبيل الله تعالى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قاتل لتكون كلمة

« مطلب » كون قاصد الفتح اما كالصائد او كالملتقط للتربية وكسب الاجر

« مطلب » انما الاعمال بالنيات

الله هى العليا فهو فى سبيل الله عز وجل يعنى فالعمدة على النية لقوله صلى الله عليه وسلم انما الاعمال بالنيات وقوله صلى الله عليه وسلم ليس للعامل من عمله الا ما نواه فتحت هاتين الكلمتين من كنوز العلم ما لا يوقف له على غاية ولذا قال الشافعى رضي الله عنه حديث الاعمال بالنيات يدخل فى نصف العلم وذلك أن للدين ظاهرا وباطنا والنية متعلقة بالباطن والعمل هو الظاهر وايضا فالنية عبودية القلب والعمل عبودية الجوارح (وقال) بعض الائمة حديث الاعمال بالنيات ثلث الدين ووجهه ان الدين قول وعمل ونية * وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله لا ينظر الي صوركم وأموالكم وانما ينظر الى قلوبكم وأعمالكم وفي حديث آخر تصعد الملائكة بالاعمال فينادى الملك ألق تلك الصحيفة فتقول الملائكة ربنا قال خيرا حفظناه عليه فيقول الله تبارك وتعالى لم يرد به وجهي وينادي الملك اكتب لفلان كذا وكذا فتقول الملائكة يارب انه لم يعمل فيقول الله عز وجل انه نواه (وقال) الثورى كانوا يتعلمون النية للعمل كما يتعلمون العمل فكان بعضهم يقول دلونى على عمل لا أزال به عاملا لله فيقال له إنو الخير فانك لا تزال عاملا وان لم تعمل فالنية تعمل وان عدم العمل والناس في النيات على ثلاث طبقات الطبقة الاولى من ينوي بالعمل وجه الله عز وجل والطبقة الثانية من ينوى العمل لله تعالى ويشوبه بقصد الخلق تبعا لا أصلا والطبقة الثالثة ما يكون الباعث على العمل الرياء فالاخلاص في الطبقة الاولى والتجرد من الثواب في الثانية والحرمة فى الثالثة

وقد كان السلف لا يعملون شيأ الا ان تتقدمه النية الخالصة ومع ذلك فقد نص العلماء أن من حج بنية التجارة كان له ثواب بقدر قصده الحج

فكذلك الفاتح لمملكة اذا نوى اصلاح حالها وتربية أهلها وتهذيب أخلاقهم واسعادهم وتنعيم بالهم وتحسين أحوالهم برفع الظلم عنهم كما يقتضى به حسن الظن فى حق المرحوم محمد على كما هو الواقع فهو مثاب قطعا ولو داخله قصد منفعة دنيوية مما لا يفارق الملوك من حب المحمدة فى غالب الاحيان ولو لم يكن من أفعاله الخيرية الا تخليص الحرمين الشريفين والاقطار الحجازية من عبد الله بن سعود شيخ الوهابية لكفاه فان ابن سعود المذكور اتعب الحجاج بقطع الطرقات وأزعج عباد الله فغزاه جند محمد على جنتمكان وهزمه بعد حروب طويلة وأرسله الى الاستانة فأمرت الدولة العلية بضرب عنقه ليكون عبرة للناظرين وكذلك حروبه فى مورة فانها من أجل الافعال المبرورة حيث ان أروام تلك الجهة هجموا على الاسلام فى الجوامع والمساجد فقتلوا منهم الجم الغفير ولم يرحموا الشيخ الكبير ولا الطفل الصغير وفتكوا بالجميع فتكا ذريعا بطريقة فظيعة تأباها النفوس الابية وتنفر منها الطبيعة وطالما قبضوا على سفن الاسلام وقتلوا من فيها وأذاقوه كأس الحمام وكثيرا ما عذبوا المقتولين بالتمزيق والتحريق وأضرموا نار الفتنة فى جزائر البحر الابيض بين كل فريق وحرضوا جزائر كريد ورودس وساقس وغيرها على العصيان وما خلا من فتنتهم فى الاروام الرعايا بلد ولا مكان ولم يقتصروا فى الجبروت والطغيان على مخالفة الشريعة العيسوية بل هتكوا حرمة النواميس الطبيعية فارسل اليهم محمد على باشا عمارته البحرية لقمعهم وادخالهم تحت الطاعة فخاربهم نجله الاكبر جنتمكان فدمرهم وشتت شملهم ثم استقلوا بلادهم وفارقوا الجماعة ولم ينتج من هذا الحرب نتيجة تعود على مصر بالمنفعة اللهم الا ان اكتسبت عدة من أرباب الامتياز الوافر من أعيان الاعيان الا كابر من

أهالى تلك البلاد الرومية ممن هاجر الى الديار المصرية وبها قام وأدى بها الخدمة الصادقة ونال علو الرتبة والمقام ومن هذا الجنس الرومي من تناسل بالقطر وعد من أبناء الوطن المظام وان كان في غزوة البلاد اليونانية فائدة أخرى جليلة فاهى الا تمرين الرجال العسكرية المصرية على الحروب وممارستهم للغزو والجهاد وتعودهم على اقتحام الخطوب تحت قيادة أحد رؤساء الجنود المعدودين الذى لا يزال صيت صوته الجهادي باقيا الى يوم الدين وكذلك فتح محمد الاسم على الشأن لغير هذه البلاد من البلدان كفتحه للاقطار السودانية مما وسع دائرة المنافع الوطنية وحروبه مع والى عكا معلومة وجولان جنوده في الشام وغير الشام مفهومة لم تكن تلك من محض العبث ولا من ذميم تعدى الحدود اذ كان جل مقصوده تنبيه أعضاء ملة عظيمة تحسبهم أيقاظا وهم رقود والدليل على حسن النية انهذه الحسنة التى على صورة الجنية انتجت أصل ورائة مصر التى ترتب عليها رفع الاصر ولولا بقاؤه تحت ولاء الدولة العلية ومراعاة حفظ الحالة الراهنة على ما هى عليه من الراجحية والمرجوحية لجال في الفتوحات الخارجة مجال اسكندر الاكبر وحسن حالة التمدن وجد في جادة العمران وفعل ما فعله اسكندر حيث اتحدا في البلد فكان لا مانع أن تحدا في المظهر فمن سعد مملكة مقدونيا وتخليد فخارها أنها موطن أميرين جليلين بقى ذكرهما في الخافقين أحدهما من بيت الملك رأس اليونان وقادهم وفتح معهم سائر البلدان فانتصر بالتدبير والاعوان وتقلب بذكاء العقل وتجارب الشجعان والثانى من بيت مجمل ونسل أمثل ساعفته المقادير واستقاد بحسن العقل والتدبير ولم يكن له بعد مولاه غير عقله نصير فنعم المولى ونعم النصير ألهم جموع أبناء جنسه المجردين عن الانتظام اقتحام العقبات وحسن

الاقدام والاحجام واستسهال الصعب لنيل المرام

« مطلب » كون مقدونيا موطن اميرى جليلين اسكندر ومحمد على

لاستسهلن الصعب أوأدرك المنى	فما انقادت الآمال لا لصابر

فلما هزم بهم جيوش المماليك بسائر الجهات وأذهب دولة سناجقهم وتحققت الحقائق وزالت الشبهات خلع على حزبه المراتب السنيـة وجعلهم حكاما فى اقطار مصر وحصلت بهم الامنية ورباهم كما يربي الاستاذ الطلبة ونال بهم قصده ومأربه فلو كان الاسكندر بهذه المثابه لم يصب من العز ما أصابه ولا بلغ نصيب محمد على ولا نصابه وعلى كل حال فقد حل الثانى محل الاول فكأنما ذلك وثق بهذا وعليه فى تميم المقاصد عول كما قلت في تاريخ بداية القدماء وهداية الحكماء في هذا المعنى من ضمن قصيدة

لمصرية شأن شريف زهت به	وعز منيف قد أظلت ظلاله
أتاح لها المولى مليكا قد انتمى	اليها ومن أقصى البلاد ارتحاله
محمد أفضال على مكارم	بديع صفات لا تعد فضاله
يقول أناس طالع السعد حظه	وما السعد الا عقله وعقاله
دفاتر تاريخ السلاطين سطرت	مناقبهم فاستجمعتها خصاله
وما مثلها مقدونيا اذ سمت به	وقد كان فيها حمله وفصاله
منازلها منها اسكندر فاتح الورى	اذا لم يكن عم الامير خاله
يضاهيه في أوصافه الغر نجله	اذا ما تصدى نحو شأ وساله

وفى هذا البيت الاخير اشارة الى جنتمكان ابراهيم باشا كالاشارة اليه في قصيدة أخرى فى الرحلة بقولى

من كان مثل أميرنا فقرينه	اسكندرا وكسرى أنو شروان
في كفه سيفان سيف عناية	والشهم ابراهيم سيف ثاني

بطل مكارمه الجليلة قلدت   هام الزمان بكال التيجان

ولما كان محمد على يحس من نفسه بان عزماته اسكندرية كان متولع بقراءة تاريخ اسكندر ومنكبا عليه وشبيه الشئ كما يقال منجذب اليه وفي الحقيقة فكان بينهما من جميل الصفات والشمائل ماشهدت به الشواهد ودلت عليه الدلائل فلو استولى أميرنا على مصر وفيها بقايا من حكما الأعصر المصرية القديمة لحكموا بما يعتقده قدماؤهم في ايام الجاهلية الذميم من تناسخ الارواح بعد الموت وانتقالها لاجسام أخرى وان روح اسكندر انتقلت بعده الى شبيهه فهو بها أحرى وأما نحن معاشر أهل السنة فنقول ان تشريك اثنين وتسويتهما في الصفات الفاضلة والمعاني الكاملة هو محض فضل من الله ومنه وربك يخلق مايشاء ويختار وهذا القياس الفارق بينه وبين اسكندر يجري ايضا في قياسه باصحاب الخروج والفتوحات الملكية فقد أعانهم بمالكهم وجنودهم وقوادهم على كسب العز والتمكين

وقد كان عصر السلطان سليمان الثاني اعظم الاعصار اذ هو الذي قد الدولة العثمانية الى اوج الفخار فافتتح الفتوحات المعظمة وأعلى كلمة الدولة المنار وباشر الغزو بنفسه في ثلاث عشرة غزوة والنصر في جميعها بقوة التدبير وتنظيم الجيوش وأي قوة وبنى الابنية العجيبة وفعل كثيرا من الافعال الخيرية الغريبة وأنشأ الدونما العثمانية وكان كهفا وملاذا لكل ملوك البلاد القاصية والدانية وكان في أيامه باوربا اثنان من الملوك العظام الاول شرلكان الذي كان متوليا على النمسا بلقب امبراطور وكان يسمى كرلوس الخامس يعني خامس كرلوس من الامبراطوره المسميين بهذا الاسم وكان متوليا أيضا على اسبانيا بلقب ملك اسبانيا وكان يسمى بالنسبة لمملكة

« مطلب » فتوح السلطان سليمان

« مطلب » الملك شرلكان ملك النمسا واسبانيا

كرلوس الاول يعني أنه اول ملك تولى عليها باسم كرلوس والملك الثاني
من الملوك العظام هو فرنسيس الاول ملك فرانسا وكان يلقب بابي العلوم
لانه كان محب العلوم والمعارف كما كان مولعا بالمآثر العظيمة فقد أسس
بفرانسا مدرسة ملكية وكتبخانة وبنى كثيرا من السرايات والقصور وادخل
في دوانه الرفاهية وآداب التمدن وتهذيب الاخلاق ومع كثرة مصارفه
وما كان ينفقه في المنافع والمنازه من خزينته الخصوصية فقد ترك فيها نحو
ومائة الف دينار غير ما لم يقبضه من خزينة المملكة من مرتب التاج الملوكي
السنوي وهو ربع مرتب السنة وكان بينه وبين شرلكان امبراطور النمسا
سالف الذكر منافسات ومشاجرات أدت الى تواتر الحروب بينهما ومع
ان دائرة الهزيمة كانت دائما على شرلكان الا ان فرنسيس انهزم في واقعة
ووقع في قبضة خصمه وهو شرلكان وأخذه أسيرا الى اسبانيا فاستنصر
ثم فرنسيس المذكور بمولانا السلطان سليمان وكتب اليه كتابا مؤرخا
بسنة تسعمائة واثنين وثلاثين يشكو من تغلب أعدائه على مملكته ويستصرخ
ويستغيث فأجابه بعد صدر الكلام بقوله ان الكتاب الذي أعرضته الى
الاستانة الملوكية مع رسولك المستحق لامانتك أفادان الدوحاكم في مملكتك
ثم صرت الآن أسيرا وتلتمس من طرفي فك أسرك فجميع ذلك عرض
الى اقدام سرير سلطنتي العلية التي هي ملجأ العالم وقد أحاط علمي الشريف
بجميع شرح كلامك ولا غرابة في أيامنا هذه اذا انهزمت الملوك ووقعت
في الاسر فشجع قلبك ولا تترك نفسك تجبن في مثل هذه الاحوال
لان رأينا سلفنا المجدين واجدادنا الاكرمين لم يتأخروا عن الدخول في قتال
الاعداء وفتوح البلاد فانا مقتف لأثرهم فطالما فتحت في هذا العهد كثيرا

من الولايات والحصون القوية التي لا يدنو منها أحد وقد حرمت على نفسي النوم وجعلت سيفي لا يفارق جانبي والله يسهل علينا اتمام الخير وغير ذلك فاسأل رسولك عن جميع ما جرى مما استقر عليه الحال وافتح بنا يخبرك به من المقال فانه واقع لا محالة ثم بعد رد الجواب أرسل مولانا السلطان سليمان عمارة بحرية وأمر عليها خير الدين باشا يتحد بها ملك فرانسا

« مطلب » بعث السلطان سليمان عمارة بحرية الى فرانسا لنجدة ملكها

ولما وصلت الى مرسيليا انضمت الى عمارة الملك فرنسيس وساعدته على أخذ بعض البلاد ونصرته على أعدائه ثم عادت الى القسطنطينية وكان خير الدين باشا من أعظم قباطين الدنيا وكان قد فتح أخوه بلاد الجزائر في أيام السلطان سليم ونزعها من يد شيخ العرب سالم بن تيمى وكان حاكما عليها ثم تقدم أخو خير الدين باشا المذكور في توسيع الفتوحات فارعب كرلوس الخامس حتى خاف بطشه وخشي أن يتغلب على أملاك اسبانيا التي بافريقية فبعث اليه جيشا عظيما جرارا واستشهد هذا الامير الخطير عند هذه المدينة فخلفه أخوه خير الدين باشا المذكور على حكومة جزائر الغرب المذكورة ودخل في حماية السلطان سليم وقرر على نفسه خراجا للدولة العليه فلما تولى السلطان سليمان جعله قبطان باشا على جميع الدونغا العثمانية فحصن بلاد الجزائر بالاستحكامات اللازمة

« مطلب » سفر السلطان سليمان بجيشه من جهة البر الى أوربا وعوده منصورا

وفي شهر رجب سنة احد وأربعين وتسعمائة أرسل خير الدين باشا الى غزوة الجزائر البحرية الملحقة باسبانيا وغيرها من الجهات البرية كايطاليا وتوجه السلطان بجيشه من جهات البر وأرسل بطريق البحر لطفي باشا وخير الدين باشا نحو خمسمائة غراب مشحونة بعساكر البحر وأمرها أن يسير وتنزل في عسكره المنصور فنزلت في ثلاث وأربعين وتسعمائة فقتلت في البر والساحل

كثيرا من الاعداء واغتنمت غنائم عظيمة وافتتحت فى جزائر ذلك البحر اثنين وثلاثين حصنا حصينا من ممالك ايطاليا وغيرها واقتلعتها من اساسها وغنمت جيوش المسلمين من الاموال والسبايا ما لا يحصى وعاد السلطان مع سائر عساكره المجهزة برا وبحرا

« مطلب » اخذ خير الدين باشا لتونس من يد مولاي حسن من بنى حفص ورجوعها اليهم ثم اخذها أيام السلطان سليم

وكان فى سنة احدى وأربعين تقدم خير الدين باشا الى اسوار مدينة تونس وكان ملكها مولاي حسن من بنى حفص وكان فى مدة ولايته قد قتل أربعة وعشرين من اخوته مشتغلا بلذاته وشهواته غير ملتفت الى تحصين بلاده فافتتحها خير الدين باشا وطرده من البلاد غير ان هذا الفتوح لم يمكث الا مدة قليلة حيث ان مولاي حسن التجأ الى كرلوس الخامس فجيش على تونس واسترجعها بالحرب لدولة بنى حفص ثم فى أيام السلطان سليم بن السلطان سليمان صار فتحها بالدولة العثمانية وبقيت فى أيديهم

« مطلب » البلاغ عصر لويس الرابع عشر اوروبا درجة الكمال

فى تلك الايام كانت الهيئة العثمانية عظيمة مرعبة ملوك اوروبا مع وجود فرنسيس الاول ملك فرانسا وشرلكان امبراطور النمسا وملك اسبانيا وفى أيام هذين القرالين اتسعت دائرة بلاد أوروبا فى الفنون والمعارف وأخذت فى كمال التقدم ومن ذلك العهد لا زالت اوروبا آخذة فى تقدم الجمعيات التمدنية الى أن بلغها درجة الكمال عصر لويز الرابع عشر وكان ذلك بهمة هذا القرال الذى تاريخه لا ينبغى أن يهمل لما بينه وبين جنتمكان محمد على من الشبه الا كمل الامثل عشرفى المفصل والمجمل

فلنذكر منه نبذة وجيزة فنقول تولى هذا الملك على تخت فرانسا من سنة ألف وثلثمائة وخمسين الى سنة ١٠٧٢ من الهجرة وكان عمره اذ ذاك خمس سنوات ومكث الى بلوغ رشده تحت ولاية امه فنابت بنفسها عنه

فى المملكة وقلدت الوزارة للكردينال مازارين فكانت مدة مملكته أثنين وسبعين سنة فلما تم عمر الملك أثنين وعشرين سنة باشر احكام مملكته بنفسه وكان يميل الى المجد والشوكة فلا زال مستوزرا مازارين فلما دنت وفاة هذا الوزير وأحس بدنو أجله وكان معهودا منه الصداقة لوطنه ولملكه أوصى الملك أن يستوزر بعده كولبرت وكان من كبار الرجال الفرنساوية فعمل الملك بوصيته وكان كولبرت حسن التدبير كامل الاستقامة فبذل جهده فى تنظيم المالية وترتيب القوانين العدلية النافعة وجعل من الاصول مكافأة أرباب المعارف وتشويق أرباب الصنائع من الاهالى والاجانب وجدد فى المملكة الفرنساوية عمارة سفن حربيه وأسس مدارس العلوم والفنون واعتنى بالعلوم المستظرفة كالرسم والنقش وجعل لها مكاتب خصوصية وجدد من المنافع العمومية ما صير مملكه مهابا عند الدول الاجنبية وأبطل أسباب الظلم والجور فى داخل البلاد وأقام قسطاس العدل والانصاف لراحة العباد وتحولت أحوال الاقاليم فى الداخل بالعمليات النافعة وتحسنت الاحكام والقوانين وصارت رياض المنافع يانعة

وفى أثناء ذلك استنار فكر الملك وصار قابلا للاحظة السياسة بنفسه ولانتخاب رؤساء مملكته من كل رئيس نافع لابناء جنسه وكما أن الوزير كولبرت متقلد بالوزارة الملكية كان المارشال تورين متقلدا برئاسة العسكرية وكان هذا الامير من فحول رجال عصره نافذ الكلمة فى الجيوش الفرنساوية فى نهيه وأمره حليف الصبر والحلم فى حالتى الحرب والسلم لم يعهد عليه غضب مخل ولا حقد ولا حسد بل كان يتحبب لكل أحد مع ما كان عليه من الانفراد بالفضائل والمعارف والغرائب واللطائف وكان اذا

« مطلب »
وزارة كولبرت
على الملكية
ووزارة تورين
على العسكرية

وجد من غيره عيبا ستره وخللا سده وجبره وكان مقداما على الحروب جلدا عند الخطوب يحسن مكايد تدارك الاعداء ولا يحمل أحدا من العسكرية على أن يخطو خطوة سدى فقد قضى زمانه في خدمة الاوطان وحاز من المجد العسكرى أبهى عنوان

ولما مات أمر الملك بدفنه في القبور الملوكية وتشرف بعد انقضاء حياته بهذه المزية وكتب على قبره من الشعر ما معناه قد دفن تورين في مقابر الملوك وامتاز بهذه الحظوة بسلوكه في الحروب أقوم سلوك وقد أذن لويز الرابع عشر بذلك ليتوج بعد الموت بتاج المجازاة اذ كان هذا البطل قد أحسن رئاسة الغزاة وليفيد ما يأتي بعده من القرون الآتية انه لا فرق في الدرجة بين من بيده قضيب المملكة والقائد الذي يصون بحسن تدبيره الوطن من التهلكة

« مطلب »
تجديد كولبرت
المنافع العمومية
وجلب خصائص
المصنوعات
الاجنبية ومحاسنها
لوطنه

فجميع ما كان من الغزوات الفرنساوية والانتصار فيها على الاخصام الاجنبية كان من حسن تدبير تورين واما كولبرت رئيس الوزراء فانه قد جدد المنافع العمومية ووسع دائرة التجارة الفرنساوية بكثرة الاخذ والاعطاء في الهند وافريقية وجعل في هذه الممالك الاجنبية قبانيات فرنساوية وسهل التجارة الداخلية بفتح مسالك في الانهر بحيث صارت مسلوكة للسفن وكذلك فتح طريقا بين البحرين يعني المحيط الغربي والبحر الابيض وهو خليج لنغدوق وقد كان تصور فتحه فرنسيس الاول ملك فرانسا ولم يشرع فيه ففعله كولبرت في ايام لويز الرابع عشر وانشأ المصانع والمعامل والورشات والكراخانات المتنوعة بتنوع المشغولات حتى سلب من البنادقة الاختصاص بصنعة المرايا والتجارة فيها دون غيرهم ومن الفلمنك صنعة الملابس والمفروشات

ومن بلاد الدولة العلية الاختصاص بصنعة البسط والسجاجيد الجيدة ورتب المصالح البحرية من ترسانات ودواوين وعوائد وحسن الزراعة والفلاحة واكتسب الملك من أيام وزرائه الصادقة في العمل فلاحه وتنقيح الاحكام والقوانين وهو المؤسس لمدارس العلوم الكبيرة الملوكية ولمدارس الرسم لا سيما مدرسة رومية التي هي بمحسن الرسم معهودة ولم تزل باقية الى الآن على طرف الفرنساوية ومرصودا لها دراهم معدودة ورتب مكاتب النحت والنقش والمباني وحسن مدينة باريس بتشييد الارصفة على نهر الصين وزينها بالميادين العمومية الفسيحة وقوى علم النجوم بالرصدخانة الملوكي وجدد فيها الحسبة والضبط والربط الداخلية وأدخل حسن التربية في الجيوش العسكرية وسوى بالعمارات السواحل المينات المأمونة وبنى عليها قلاع الثغور المصونة وجدد لنفع الملة تمامها قشلة العساكر السقط على أتم أسلوب وأكمل نمط وعقد لمملكة فرانسا على غيرهم من الدول عقود المعاهدات والمحالفات النافعة وجعل الروابط والعلاقات بينهم وبين خلفائهم متوافقة متماثلة وأكثر من الفتوحات الفاخرة التي وسمت لعموم الوطن محيط الدائرة وقد رثى ولتير الشاعر لويز الرابع عشر بذكر بعض المآثر فقال ما معناه لم يتول قبله ملك من تلك العصابة ولا ساواه غيره في تربية الرعية بهذه المثابة فالفخار شعاره والمجد دثاره وكان أحظى الملوك باكتساب الطاعة من رعاياه والانقياد كما كان أعظمهم في الهيبة عند الاخدان والاضداد وربما كان دونهم في ميل الرعية اليه ومحبتهم له بانعطاف القلوب عليه فطالما رأيناه تتقلب عليه صروف الزمان وتتلاعب به حوادث الحدثان وهو عند النصرة يظهر الفخار ويتجلد عند الهزيمة ولا يظهر بمظهر الذل والانكسار فقد أرهب

* مطلب * رثاء ولتير الشاعر لويز الرابع عشر

عنده عشرين أمة عليه تعصبت وعلى قتاله تحالفت وتحزبت وبالجملة فهو اعظم الملوك في حياته كما كان عظيم العبرة عند مماته انتهى

وكان في عصر هذا الملك من مشاهير الرجال جماعات كثيرون في كل فن فكان الملك في أعلى درجات الفخار بالجمعيات العظيمة المؤلفة من هؤلاء المشاهير أرباب القرائح الكاملة والعقول الراجحة الفاضلة وقد استعان بجميعهم وعرف لكل منهم فضله وقلده من الوظائف بقدر استحقاقه فهو مع هذه الجمعيات العظيمة التي ساعدت مظاهر سعده مخلد الذكر عند من جاء من بعده وفى بحر مدة حكمه تولى على الدولة العثمانية ستة من السلاطين فقد تولى لويز الرابع عشر على دولة فرانسا وكان اذ ذاك متوليا على الدولة العثمانية السلطان ابراهيم بن السلطان أحمد خان الاول فخلفه ابنه السلطان محمد الرابع سنة ثمانية وخمسين والف ومات في سنة تسعة وتسعين ومائة وخلفه ابنه في هذه السنة السلطان سليمان الثانى ويقال له الثالث ثم توفى في أوائل شعبان سنة الف ومائة واثنين من الهجرة

« مطلب » فيمن كان من السلاطين العثمانية في عصر لويز الرابع عشر

ثم تولى فى هذه السنة السلطان احمد الثاني ابن السلطان ابراهيم خان وتوفى سنة الف ومائة وواحد من الهجرة خلفه فى هذه السنة السلطان مصطفى خان الثاني ابن السلطان محمد الرابع وتوفي فى اوائل سنة الف ومائة وخمسة عشر ثم تولى السلطان احمد الثالث بن السلطان محمد الرابع سنة خمسة عشر ومائة والف من الهجرة وفى ايامه توفى لويز الرابع عشر فقد عمر لويز المذكور عمرا طويلا بقدر عمر خمسة من الملوك العثمانية فكان طول عمره مما أعانه على كثرة مشروعاته وانجازه جميعها

فقد علم من هذا مساعدة كبار الملوك على مقاصدهم رجال مجربين يكاد

[redacted]

« مطلب » مساعدة كبار الوزراء ارباب القرائح للوكيم على التمدن

ان تنسب الافعال العظيمة اليهم كمساعدة خير الدين باشا وامثاله لمولانا السلطان سليمان وكمساعدة الوزير مازارين ورئيس الوزراء كولبرت وكالمرشان تورين وغيرهم من مشاهير الابطال الذين لا يحصون عددا فلرحظى المرحوم محمد علي في اوائل توليته بأمثال هؤلاء الفحول المتصفين بالسياسة والرياسة وذكاء العقول لكان أعظم ابطال الدنيا ومع ذلك فله الفضل الذي كاد ان يختص في كونه اعمل قريحته في تربية رجاله الذين جاؤا معه الى الديار المصرية او الذين انتخبهم ورباهم فاحسن تربيتهم في هذه الديار وببركة همه وحسن نيته الخيرية سلكوا معه سبيل الفخار ونالوا بتربيته كمال الشهرة والاعتبار فهو بهذه الملاحظة بالنسبة لتلك الازمان حاز قصب السبق في ميدان الملوك السابقين فهو جدير بأن يعد من عظماء ملوك الدنيا بيقين وحسبه انه احسن تربية نجله الاكبر ابراهيم باشا تربية عسكرية حتى شهد له بالفضل الحربي جميع امراء جيوش الدولة الاوروباوية وايقنوا اجمالا انه من كبار قواد الجنود الذين اشتهروا في القديم والحديث وانه اول امير من امراء الجنود في الدول الاسلامية من القرون الاخيرة واما في السياسة الملكية فكان من كبار المدبرين وادارته الخصوصية اعدل شاهد على انه لو طال عمره بعد توليته لكان من اعظم المعمرين وقد اقتضت حكمة الحكيم ان وضع في اسمعيل سر ابراهيم وانه حين آل سر الملك اليه اجرى الله تعالى كل خير التمدن على يديه وما تجدد في عهده من المحاسن الجمة شاهد عدل على ان مولاه وضع فيه سر أبيه وجده وهي نعمة عظيمة وأي نعمة

الفصل الثاني

فى أن منافع مصر العمومية قد تمكنت كل التمكن من الذات المحمدية العلية وتسلطنت على قلبه وأخذت بمجامع لبه

« مطلب » كون الفلاحة هى منبع ثروة مصر الحقيق وتحفظ حكماء الملوك على ثروتها

لا شك ان المومى اليه أدرك بقريحته الصحيحة وفطنته الرجيحة أن المملكة المثرية السعيدة ووسائل الثروة فيها والسعادة هى عين وسائل الصيانة والمجادة وانه ينبغى أن يعض عليها بالنواجذ وأن لا يفتح لشواردها سبل ولا منافذ ومن المعلوم أن منبع سعادة مصر بالاصالة الزراعة فلا يسوغ لها أن تتوقع الثروة الا من المحصولات الزراعية دون غيرها فليس من بلاد الدنيا بلد يسهل استخراج غزارة محصولاتها كالاراضى النيلية كما أنه ليس من أقاليم الدنيا ما هو أقرب للتلف كمصر اذ أراضيها أشد عرضة للفساد بفساد النيل فهي تابعة له وجودا وعدما فاذا أغمض النيل عينه عنها سنة من السنين وحجب عنها فيضانه الممزوج بالطينة المخصبة كانت السنة عقيمة ومجدبة كما اذا أغرقها بمائه الزائد عن الحاجة واللزوم فان السنة الغرقية كسنة الشراقى تورث الهموم وحسبك في الخصب وضده ما ذكر في سورة يوسف الصديق من ذكر سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف فالآية قد اجادت فى وصف مصر على وجه التحقيق وقوله فما حصدتم فذروه في سنبله يرشد الى الاحتياط والاحتراس لجميع ملوك مصر وسائر من فيها من الناس فلهذا كان حكماء ملوك مصر يحتاطون فى سني الخصب فلا يخرجون الزائد لغيرها من البلاد ويعتنون كل الاعتناء بحفظ مجرى النيل وتنظيم القناطر والجسور والترع والخلجان لمصلحة الرى في كل طريق وسبيل فلذلك ترى من مبانى

الفراعنة ما عظم نفعه من المصالح الخيرية لحفظ المزارع والمنافع النيلية فبهذا أبدوا سعدهم وخلدوا ذكرهم لمن بعدهم واقتدى بهم غيرهم من الملوك

وعند فتوح الاسلام سلك الخلفاء والسلاطين والولاة بقدر استطاعتهم في هذا السلوك وانما لما صارت مملكة مصر في قبضة الكولمان وصار لهم عليها الرياسة واختلت أحوالهم وضعفت عندهم السياسة ولم يبق لهم من شهامة الحكام الا مجرد احسان ركوب الخيل والفروسية بدون فراسة أهملوا عمليات النيل فخسروا من نيل الثروة وكسب السعادة خسرانا مبينا وهجم عليهم الفرنساوية فلم يجدوا لهم من النظام المعنوي ولا الحسي منجدا ولا معينا فتبدد شملهم بالكلية وصارت مصر في يد الفرنساوية تعد اقليما من أقاليم الجمهورية ولم تعد للدولة العلية الابعد التي والتيا فزحف عليها المماليك والهمة المحمدية العلية لم يلبثوا بها مليا ثم بتوطن هذا الامير وتوطيد هذا السرير أدرك أنه لم يستول من الاراضي الا على موات ولم يسترع الا أحياء ضعاف الهمة وهم في الحقيقة لاختلال الهيئة الاجتماعيه في حيز الاموات

ولعل البطل الهمام المؤسس فهم بقوة فطنته ما أجاب به عن سؤال عمر بن الخطاب بعد الفتوح ملك مصر المقوقس وذلك ان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه كتب الى عمرو بن العاص ان يسأل المقوقس عن مصر من أين تأتي عمارتها وخرابها فسأله عمرو فقال له المقوقس عمارتها وخرابها من وجوه خمسة الاول ان يستخرج خراجها في ابان واحد عند فراغ أهلها من زروعهم الثاني ان يرفع خراجها في ابان واحد عند فراغ اهلها من عصر كرومهم الثالث ان يحفر في كل سنة خلجانها الرابع أن تسد ترعها وجسورها الخامس ان لا يقبل مطل اهلها فاذا فعل هذا فيها عمرت وان فعل فيها بخلافه خربت

فكان المماليك المستولون عليها لا ينظرون الى عمارتها وانما يأخذون ما لديهم ويراح في كل عام حتى صارت يابا وازدادت خرابا فقد كان أهملها المماليك نحو خمسين سنة بدون عملية نيلية ككات الاراضي تفسد في كل عام في كثير من الاقاليم حتى هجمت جيوش رمال البرارى على وادى النيل الصالح للزراعة فكون من الرمال على شواطىء النيل تلال واكوام ولو بقي حكم ابراهيم بك ومراد بك عشرين من الاعوام لفسدت جميع أراضي مصر الزراعية

« مطلب » راى نابليون في محسن اراضي مصر واستغلالها وتكثير أهاليها

قال نابليون حين تأمله في أراضي مصر لو حكمت هذه الديار بحكومة منتظمة مضاهية لحكومة فرانسا وايطاليا وانكلترا والنمسا لزادت مزارعها وأهاليها ثلاث أضعاف ما كانت عليه في أيام المماليك فان المزارع تجلب من سواحل أفريقية ومن جزيرة العرب خلقا كثيرين ينتجعون اليها للميرة لما فيها من الخيرات انتهى فقد سخر الله تعالى لها محمد على لاحياء مواتها وقد قال صلى الله عليه وسلم من أحيا أرضا ميتة فهي له وليس لعرق ظالم حق يعني من عمر أرضا فقد ملكها بالاحياء والتعمير وليس لمن غرس عرق شجرة فيها حق فيما غرسه وورد أيضا من احيا ارضا ميتة فله فيها أجر وما اكله العافية منها فهو صدقة والمراد بالعافية كل طالب رزق من آدمي أو غيره وصفة الاحياء التي يملك به الموات شرعا ما يعد مثله في العرف عمارة للمحيي فيختلف ذلك بحسب الغرض منه الا ان احياء الديار المصرية هي حياة عمومية ملوكية فمنه خطر في خاطر ولي النعم الملحوظات الآتية

« مطلب » ماخطر لوالي محمد على من الملحوظات السنة لاحياء اراضي مصر من الموات والتشبث باسباب الاحياء

الاولى أنه لم يكن للنيل في هذه الايام الا فرعان فرع رشيد وفرع دمياط وأنه يجب عمل أقفال وسدود لهذين الفرعين بطريقة تقتضي ان لا

ينصب ماء النيل في البحر الابيض الا ما لا يمكن تركه فبهذه الوسيلة يكون ماء النيل الفائض جسيما ويمتد على كثير من الاراضي زيادة عماهو عليه فبهذا تتسع الارض الصالحة للزراعة أو للسكنى أزيد من الحالة الراهنة

الثانية اذا صار الاعتناء بتطهير الترع والخلجان كما ينبغي وصار الاجتهاد في تكثيرها بقدر اللزوم تمسكت المياه على الاراضي جزأ عظيما من السنة فيتسع وادي النيل ومجراه ويمتد فيروي الاراضي الصالحة للزراعة من هذه الاراضي القابلة لغرس الواحات الخارجة وجزء عظيم مبدؤه من برية الفرما وسائر البحيرة ومريوط وما حوالى الاسكندرية فان جميع تلك الاراضي كانت في الازمان القديمة عامرة بالزراعة ليست من ماء النيل محرومة

الثالثة فصحيح بوجه الحدس والتخمين ان بواسطة الطريقة السابقة المستحسنة جدا اذا اجريت بالضبط والمواظبة وحسن الهندسة الصادرة عن فكرة سليمة الناتجة عن حكومة منظومة تزيد في مزارع مصر العامرة ما ينيف عن تسعمائة فرسخ مربع

الرابعة الظاهر أن النيل في الاعصر السابقة سبق مروره بالفيوم بالارض المسماة هناك بحر بلا ماء وجرى من الفيوم الى بحيرات النطرون وكان يخرج منها فينصب في المالح من المحل الذي خلف قلعة العرب والظاهر أيضا ان بركة قيروز المسماة بحيرة موريس التي هي كذلك بالفيوم سدت هذا الفرع وصارت بحيرة

الخامسة من المعلوم مما سبق أن خصب مصر ونموها متسبب عن النيل ومن غيرها الزراعي متسبب عن اختلاف الفصول والامطار فبهذا كانت مصر مستعدة لكسب السعادة اكثر من غيرها بشرط انتظام حكومتها واجتهاد أهاليها لان اختلال حكومتها يخل بمزارعها بخلاف اختلال غيرها

من الحكومات فلا يؤثر شيأ في جريان الفصول والامطار فينتج من هذا ان مصر اذا توفرت فيها شروط انتظام الحكومة واصلاح النيل وسهولة وسائل المنافع العمومية ودفع المضار النيلية كثر خيرها وربها واذا اختلت فسدت مزارعها واختلال مصر من السنين الماضية أضر بها كثيرا مع انه يمكن أن تكون أرض مصر ومزارعها مستوية الخصوبة في جميع اجزاء الاقاليم خصوبة واحدة اذا صار تعهدها على الوجه السالف الذكر بخلاف ما اذا اهملت جسورها على عملها المعتاد وتركت الترع بدون تطهير فان ذلك يوجب تلف الاقليم بتمامه ويجعله صحراء لا ينتفع بها فتأخير العمليات عن مواعيدها موجب للتلف فان الزراعة والحصد مبنيان على ازمان فيضان النيل وكميات مياهه وبفوات العمليات تفوت مواعيد الزراعة والحصادة

السادسة اقتصار الشروع في عملية قناطر عظيمة تسد فرع دمياط ورشيد في المحل المسمى بطن البقرة وعمل لها أبواب ورباحات ومصارف بن بواسطة ذلك يحصل تحويل النيل للمحلات التى لا يصل اليها بدون ذلك فمصلحة الرى تصير كاملة ويصير ماء النيل عند الفيضان ضعفين بحجز مياهه ومنع الاسراف فيها بانصبابها في البحر هذا ما تصورته الفكرة الجليلة المحمدية العلية لا سيما ما أرادت إجراءه فيما بعد بناء القناطر الخيرية وبالجملة فكان ميل جنتكان متوجها بكلية الى بذل مجهوده وقوة نشاطه لاحياء عملية الرى والزراعة وعن ذلك نتج احياء مصر وأهلها واستنشقت في أيامه رائحة الزراعة لانه لما كان الري مضمونا بهذه العمليات صارت الاراضى المصرية التي هى عناصر ارزاق الاهالي ذات أثمان غالية لكونها تؤدي محصولاتها بغاية من السهولة بشرط ترتيب المياه والاقتصاد فيها فكانت الحكومة المصرية دائما متشبثة

بتحسين مصلحة الري والاحتراس من الغرق والتشريق فقد سلك جنتمكان في ذلك مسلكا حسنا اذ في أقرب زمن اكتسب من مالية الاراضي أضعاف ايرادها الاول بقدر ست مرات قبل أن يتفرغ لتكثير العمليات النافعة وانما تأخرت أعمال الري الجسيمة التي هي أهم من غيرها في حد ذاتها وبالنسبة للاهالي وتكثير ايراد المملكة لان غيرها كان في ذلك الوقت أهم منها وهو ايجاد العساكر وتكثيرهم والاحتياج المهم لتصميم ملكه والامن على نفسه وحماية الوطن فكانت بالنسبة الى الباشا المرحوم جميع المنافع العمومية الملكية عرضية وتابعة للعسكرية التي بها تصميم كرسي الديار المصرية فلم يلتفت لرواج الزراعة البلدية الا التفاتا ثانويا ولم يصرف عليها في أوائل حكمه الا مقادير غير جسيمة بالنسبة لما صرفه على تاسيس العسكرية ومع قلة الايرادات اذ ذاك فكان يحسن تدبيره ويقنن ايراده على قدر مصرفه فلهذا لم تكن تحسينات الترع والجسور في مبادي أحكامه متممة بل كان يقتصر فيها على الضروري منها

• مطلب • صرف محمد علي في مدة امارته لتعميم العسكرية والتنمية لها في كثير من المنافع العمومية

ومن المعلوم ان النيل لا يقاس به غيره من انهار الدنيا فانه يستدعى للاقتصاد فيه تدقيقا مستمرا وتأملا متكررا فلا ينبغي ان يقاس بالانهار الواسعة البوغازات فان لها عند مصبها ما يسمونه حاجزا وهو السيف الذي يرسب من الطين وغيره من الاشياء المتجمعة في البوغاز وهذا الحاجز يصادم مياه النهر عند انصبابها في البحر فيجعل مجرى المياه وانصبابها بطيأ وأما النيل فان بوغازه عريض عرضا ذريعا مخصوصا به في ايام فيضانه وفي مائه من الطين الذي يحول معه من بلاد الحبشة جزء عظيم فيتكون منه عند بوغاز رشيد حاجز كبير جداً يعوق السفن المارة من النيل الى البحر عن الدخول فيه

• مطلب • عدم قياس النيل بغيره من الانهار

أو يجعل دخولها خطرا وليس لمصر الآ طريق واحد من النيل الى هذا البحر تنقل منه محصولاتها فلما كان فى أوائل حكومة المرحوم محمد على طريق رشيد هي دون غيرها الموصلة لنقل المحصولات لمن يسافر الى البلاد الاجنبية اضطر فى سنة اربع وثلاثين ومائتين وألف من الهجرة أن يفتح ترعة بين النيل والاسكندرية وكان فى قديم الزمان ترعة تسمى بالخليج الاشرفى باقية الأثر وكانت توصل مياه النيل الى صهريج اسكندرية وقت الزيادة فكان يمكن توسيعها والسفر فيها الا ان جنتمكان محمد على عمد الى انشاء ترعة جديدة سماها المحمودية فكانت من أعظم الترع التى أنشأها على كثرتها فقد نتج كثيرا من الترع والخلجان الا انها متفرقة فى جهات عديدة ونافعة فى موقعها ولم يعمل صورة رى واحدة عمومية بحيث يجتمع المهندسون لرسم ميزانية مصرية مؤلفة من مجموع الترع والجسور اللازمة لمشغوليته عما هو أهم من ذلك مدة طويلة فى مبادي أمره وفى أثناء ولايته وانما بعد مدة طويلة اتسعت آراؤه فى العمليات وعرف الاسباب والمسببات واكتسب التجاريب وتفرغ للعمليات النافعة وكان قد جاء أوانها وتوفرت وسائلها ونفقاتها وذلك أن النيل فى الحقيقة منه تكون قلب مصر وقالبها وهو الموجد للرطوبة الضرورية للقطر اذ لا يستغنى القطر عنها فالنيل نائب عن الامطار المرطبة فى البلاد الاخرى وزيادة على ذلك هو الجاذب للطمى الذي هو عنصر الخصوبة وأصل النماء والبركة حتى استظهر بعض الطبائعيين أن جميع وادي النيل متولد من الطمى ويؤيد هذا القول ما ذكره الاقدمون من أن الوجه البحري متولد من تراكم الطمى الطينى الراسب من فيضان النيل السنوى وأن شكل ساحل البحر الذي على هيئة نصف دائرة علامة قوية

« مطلب » انشاء ترعة المحمودية لتسهيل النقل

« مطلب » تفرغ محمد على للعمليات النافعة لثروة مصر عند الاوان

« مطلب » زعم بعض الحكماء أن ارض مصر حادثة من الطمى

على صحة هذه الدعوى

وعلى كل حال فمن المحقق ان النيل كل سنة يحصل منه تغييرات وتبديلات وتحويلات يترتب عليها ثلاث مضرات ينبغي الامعان فيها لتداركها

« مطلب » الانباء للمضار الثلاث النيلية التي يجب التحفظ منها

الاولى ان تراكم الارساب الطينية يتسبب عنه ارتفاع ارض وادي النيل بقدر لا يصله الري فتضيق كميات الاراضي الزراعية التي يصل اليها الماء عند الزيادة

الثانية ان النيل حين يفيض يحفر الارض وينحر الحصباء فينفذ في خلال القيوف فيسقطها فيحدث من ذلك كل سنة انخفاضات جسيمة فيتسع فرش النهر ومجراه وبقدر ذاك تتناقص تسوية ميزانية النهر ويحط سطحه فيتولد عن هذا أن الاراضي التي كانت تغرق سابقا بالماء مدة الزيادة صارت بعيدة الآن عن النيل بمسافة بحيث لا يصعد اليها الماء فبهذا صارت يابسة ولو في زمان الزيادة وهذه الحالة ملازمة للحالة الاولى

« مطلب » مضار البحر عند مصب النيل

الثالثة أن النيل من حيث انه غير محبوس يجور على البحر عند بوغازه المصادم ماؤه ماء البحر عند مدة ويجور البحر المالح أيضا على الاراضي المستجدة التي يضيق عنها نطاق الري فيتلفها وسيأتي فيما بعد معالجة هذه العلل الثلاثة المضرة بوادي النيل وبيان مضرة البحر المالح للاراضي الزراعية انه في شهري برموده وبشنس يكون ماء النيل قليل المياه منخفضا فيصعد البحر المالح نحو ثلاثة فراسخ فوق دمياط ورشيد فيرسب منه رسوب كالربوات من المياه المالحة المنخفضة الزراعة فيتكون من ذلك البرك المالحة فمن ذلك بحيرة المنزلة وغيرها من البحيرات التي كانت مزارع وزالت ثم ياخذ النيل في الزيادة في الصيف ويحصل الوفاء في الخريف فيبقى النيل مستمرا على زيادته مدة ايام ثم ياخذ في النقص شيأ فشيأ

« مطلب » مضار البحر المالح عند مصب النيل

حتى اذا دخل فصل الشتاء كان ماؤه منخفضا جدا ولكن لا تزال المياه موجودة فى الترع الكبيرة فى هذه الحالة يدخل فصل الزراعة فاذا انقضى فصل الخريف يبست جميع الترع ونضب ماؤها ماعدا عدة ترع مستثناة يسقى منها بالراحة او بالآلات ففى هذا الفصل تسقى الزروع والغروس فى اكثر محال الديار المصرية بالتوابيت والسواقي الا ان طريقة السقى على هذا الوجه ضعيفة شاقة كثيرة المصاريف ومع ذلك كله لا ينتفع منها الا قليل من المزارع لا سيما القريبة من النهر

فبواسطة السقى الدائم يتحصل من مزارع الديار المصرية ثلاث محصولات او اربع فى كل سنة ولكن اغلب اراضي مصر ماهى غير رواتب فلا تسقى بتلك الطريقة بل يعمها الماء وقت الرأى حسب العادة فلا تزرع الا مرة واحدة ولا تؤدي الا محصولا واحدا فى السنة فقد لوحظ بالقانون الهندسى انه اذا صار تعميم النيل بترتيب مساقي مرتبة على فصول السنة وتوفيق السقى على مزاج القطر وما يناسب من اصناف الزراعة فانه يترتب على هذا ايجاد عدة محصولات للمزارع فى السنة

• مطلب • تكثير عدد المحصولات بجعل الاراضى رواتب

فاذا تأمل أهل الزراعة الى اسباب تكثير المحصولات وتعددها وما تستدعيه من القوى غير المعتادة والاعمال المدبرة فان هذه القوى تساوى القوى الطبيعية فى تنمية المحصولات فقد لاحظ جنتمكان محمد على باشا انه ينبغى قبل كل شيء ابطال الاسباب الطبيعية الموجبة فى اكثر الاوقات لتقييص اراضى الزراعة على التدريج وانه لا يدرك مرامه فى الثروة والغنى الا بالانتصار عليها وهزمها اذ هى اعدى عدو للبلاد كما انتصر فى وقائعه الحربية

• مطلب • ازالة الموانع الطبيعية الموجبة لتقليل اراضى الزراعة

الاول من هذه الاسباب ارتفاع وادي النيل المانع لرى عدة محلات

« مطلب » مساعدة كبار الوزراء ارباب القرائح للوكيهم على التمدن

ان تنسب الافعال العظيمة اليهم كمساعدة خير الدين باشا وامثاله اولاتا السلطان سليمان وكمساعدة الوزير مزارين ورئيس الوزراء كولبرت وكالمرشان تورين وغيرهم من مشاهير الابطال الذين لا يحصون عددا فلرحقلي المرحوم محمد على في اوائل توليته بأمثال هؤلاء الفحول المتصفين بالسياسة والرياسة وذكاء العقول لكان أعظم ابطال الدنيا ومع ذلك فله الفضل الذى كاد ان يختص في كونه اعمل قريحته في تربية رجاله الذين جاؤا معه الى الديار المصرية او الذين انتخبهم ورباهم فاحسن تربيتهم في هذه الديار وببركة عمه وحسن نيته الخيرية سلكوا معه سبيل الفخار ونالوا بتربيته كمال الشهرة والاعتبار فهو بهذه الملاحظة بالنسبة لتلك الازمان حاز قصب السبق في ميدان الملوك السابقين فهو جدير بأن يعد من عظماء ملوك الدنيا بيقين وحسبه انه احسن تربية نجله الاكبر ابراهيم باشا تربية عسكرية حتى شهدله بالفضل الحربى جميع امراء جيوش الدولة الاورباوية وايقواجميعا انه من كبار قواد الجنود الذين اشتهروا في القديم والحديث وانه اول امير من امراء الجنود في الدول الاسلامية من القرون الاخيرة واما في السياسة الملكية فكان من كبار المدبرين وادارته الخصوصية اعدل شاهد على انه لوطال عمره بعد توليته لكان من اعظم المعمرين وقد اقتضت حكمة الحكيم ان وضع في اسمعيل سر ابراهيم وانه حين آل سرير الملك اليه اجرى الله تعالى كمال خير التمدن على يديه وما تجدد في عهده من المحاسن الجمة شاهد عدل على ان مولاه وضع فيه سرأبيه وجده وهي نعمة عظيمة وأى نعمة

الفصل الثاني

ى أن منافع مصر العمومية قد تمكنت كل التمكن من الذات المحمدية العلية وتسلطت على قلبه وأخذت بمجامع لبه

« مطلب » كون الفلاحة هى منبع ثروة مصر الحقيقى ومحط حكماء الملوك على نموها

لا شك ان المومى اليه أدرك بقريحته الصحيحة وفطنته الرجيحة أن المملكة المثرية السعيدة وسائل الثروة فيها والسعادة هى عين وسائل الصيانة والمجادة وانه ينبغى أن يعض عليها بالنواجذ وأن لا يفتح لشواردها سبل ولا منافذ ومن المعلوم أن منبع سعادة مصر بالاصالة الزراعة فلا يسوغ لها أن نتوقع الثروة الا من المحصولات الزراعية دون غيرها فليس من بلاد الدنيا بلد يسهل استخراج غزارة محصولاتها كالاراضى النيلية كما أنه ليس من أقاليم الدنيا ما هو أقرب للتلف كمصر اذ أراضيها أشد عرضة للفساد بفساد النيل فهي تابعة له وجودا وعدما فاذا أغمض النيل عينه عنها سنة من السنين وحجب عنها فيضانه الممزوج بالطينة المخصبة كانت السنة عقيمة ومجدبة كما اذا أغرقها بمائه الزائد عن الحاجة واللزوم فان السنة الغرقية كسنة الشراقى تورث الهموم وحسبك في الخصب وضده ما ذكر في سورة يوسف الصديق من ذكر سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف فالآية قد اجادت فى وصف مصر على وجه التحقيق وقوله فما حصدتم فذروه في سنبله يرشد الى الاحتياط والاحتراس لجميع ملوك مصر وسائر من فيها من الناس فلهذا كان حكماء ملوك مصر يحتاطون فى سنى الخصب فلا يخرجون الزائد لغيرها من البلاد ويعتنون كل الاعتناء بحفظ مجرى النيل وتنظيم القناطر والجسور والترع والخلجان لمصلحة الرى في كل طريق وسبيل فلذلك ترى من مبانى

الفراعنة ما عظم نفعه من المصالح الخيرية لحفظ المزارع والمنافع النيلية فبهذا أبدوا سعدهم وخلدوا ذكرهم لمن بعدهم واقتدى بهم غيرهم من الملوك

وعند فتوح الاسلام سلك الخلفاء والسلاطين والولاة بقدر استطاعتهم في هذا السلوك وانما لما صارت مملكة مصر في قبضة الكوليمان وصار لهم عليها الرياسة واختلت أحوالهم وضعفت عندهم السياسة ولم يبق لهم من شهامة الحكام الا مجرد احسان ركوب الخيل والفروسية بدون فراسة أهملوا عمليات النيل فخسروا من نيل الثروة وكسب السعادة خسرانا مبينا وهجم عليهم الفرنساوية فلم يجدوا لهم من النظام المنوي ولا الحسي منجدا ولا معينا فتبدد شملهم بالكلية وصارت مصر في يد الفرنساوية تعد اقليما من أقاليم الجمهورية ولم تعد للدولة العلية الا بعد التي واللتيا فزحف عليها المماليك والهمة المحمدية العلية لم يأثوا بها مليا ثم بتوطن هذا الامير وتوطيد هذا السرير أدرك انه لم يستول من الاراضي الا على اموات ولم يسترع الا أحياء ضعاف الهمة وهم في الحقيقة لاختلال الهيئة الاجتماعية في حيز الاموات

ولعل البطل الهمام المؤسس فهم بقوة فطنته ما أجاب به عن سؤال عمر بن الخطاب بعد الفتوح ملك مصر المقوقس وذلك ان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه كتب الى عمرو بن العاص ان يسأل المقوقس عن مصر من أين تأتي عمارتها وخرابها فسأله عمرو فقال له المقوقس عمارتها وخرابها من وجوه خمسة الاول ان يستخرج خراجها في ابان واحد عند فراغ أهلها من زروعهم الثاني ان يرفع خراجها في ابان واحد عند فراغ اهلها من عصر كرومهم الثالث ان يحفر في كل سنة خلجانها الرابع أن تسد ترعها وجسورها الخامس ان لا يقبل مطل اهلها فاذا فعل هذا فيها عمرت وان فعل فيها بخلافه خربت

فكان المماليك المستولون عليها لا ينظرون الى عمارتها وانما يأخذون ما بدالهم وراح فى كل عام حتى صارت يبابا وازدادت خرابا فقد كان أهملها المماليك نحو خمسين سنة بدون عملية نيلية فكانت الاراضى تفسد فى كل عام فى كثير من الاقاليم حتى هجمت جيوش رمال البرارى على وادى النيل الصالح للزراعة فتكون من الرمال على شواطىء النيل تلال واكوام ولو بقى حكم ابراهيم بك ومراد بك عشرين من الاعوام لفسدت جميع أراضى مصر الزراعية

« مطلب » راى نابليون فى محسن اراضى مصر واستغلالها وتكثير أهاليها

قال نابليون حين تأمله فى أراضى مصر لو حكمت هذه الديار بحكومة منتظمة مضاهية لحكومة فرانسا وايطاليا وانكلترا والنمسا لزادت مزارعها وأهاليها ثلاث أضعاف ما كانت عليه فى أيام المماليك فان المزارع تجلب من سواحل أفريقية ومن جزيرة العرب خلقا كثيرين ينتجعون اليها للميرة لما بها من الخيرات انتهى فقد سخر الله تعالى لها محمد على لاحياء مواتها وقد

« مطلب » ما خطر فى بال محمد على من الملحوظات السنة لاحياء مات مصر من الموات والتشبث باسباب الاحياء

قال صلى الله عليه وسلم من أحيا أرضا ميتة فهى له وليس لعرق ظالم حق يعنى من عمر أرضا فقد ملكها بالاحياء والتعمير وليس لمن غرس عرق شجرة فى حق فيا غرسه وورد أيضا من احيا ارضا ميتة فله فيها أجر وما اكله العافية منها فهو صدقة والمراد بالعافية كل طالب رزق من آدمى أو غيره وصفة الاحياء التى يملك به الموات شرعا ما يعد مثله العرف عمارة للمحيى فيختلف ذلك بحسب الغرض منه الا ان احياء الديار المصرية هى حياة عمومية ملوكية فلهذا خطر فى خاطر ولى النعم الملحوظات الآتية

الاولى أنه لم يكن للنيل فى هذه الايام الا فرعان فرع رشيد وفرع دمياط وأنه يجب عمل أقفال وسدود لهذين الفرعين بطريقة تقتضى ان لا

ينصب ماء النيل في البحر الابيض الا ما لا يمكن تركه فبهذه الوسيلة يكون ماء النيل الناقص جسيما ويتد على كثير من الاراضي زيادة عما هو عليه فبهذا تتسع الارض الصالحة للزراعة أو للسكنى أزيد من الحالة الراهنة

الثانية اذا صار الاعتناء بتطهير الترع والخلجان كاينبغي وصار الاجتهاد في تكثيرها بقدر اللزوم تمكث المياه على الاراضي جزأ عظيما من السنة فيتسع وادي النيل ومجراه ويتد فيروي الاراضي الصالحة للزراعة من هذه الاراضي القابلة للغرس الواحات الخارجة وجزء عظيم مبدؤه من برية الفرما وسائر البحيرة ومربوط وما حوالى الاسكندرية فان جميع تلك الاراضي كانت في الازمان القديمة عامرة بالزراعة ليست من ما تر النيل محرومة

الثالثة قد صح وجه الحدس والتخمين ان بواسطة الطريقة السابقة المستحسنة جدا اذا اجريت بالضبط والمواظبة وحسن الهندسة الصادرة عن فكرة سليمة الناتجة عن حكومة منظومة تزيد في مزارع مصر العامرة ما ينيف عن تسعمائة فرسخ مربع

الرابعة الظاهر أن النيل في الاعصر السابقة سبق مروره بالفيوم بالارض المساة هناك بحرابلا ماء وجرى من الفيوم الى بحيرات النطرون وكان يخرج منها فينصب في اللح من المحل الذي خلف قلعة العرب والظاهر أيضا ان بركة فيرون المساة بحيرة موريس التي هي كذلك بالفيوم سدت هذا الفرع وصارت بحيرة

الخامسة من المعلوم مما سبق أن خصب مصر ونموها متسبب عن النيل ومن غيرها الزراعي متسبب عن اختلاف الفصول والامطار فبهذا كانت مصر مستعدة لكسب السعادة اكثر من غيرها بشرط انتظام حكومتها واجتهاد أهاليها لان اختلال حكومتها يخل بمزارعها بخلاف اختلال غيرها

من الحكومات فلا يؤثر شيأ في جريان الفصول والامطار فينتج من هذا ان مصر اذا توفرت فيها شروط انتظام الحكومة واصلاح النيل وسهولة وسائل المنافع العمومية ودفع المضار النيلية كثر خيرها وارها واذا اختلت فسدت مزارعها كاختلال مصر من السنين الماضية أضر بها كثيرا مع انه يمكن أن تكون أرض مصر مزارعها مستوية الخصوبة في جميع اجزاء الاقاليم بخصوبة واحدة اذا صار تمهدها على الوجه السالف الذكر بخلاف ما اذا أهملت جسورها على عملها المعتاد وتركت الترع بدون تطهير فان ذلك يوجب تلف الاقاليم تمامه ويجعله صحراء لا ينتفع بها فتأخير العمليات عن مواعيدها موجب للتلف فان الزراعة والحصد مبنيان على ازمان فيضان النيل وكميات مياهه وبفوات العمليات تفوت مواعيد الزراعة والحصادة

السادسة اقتصار الشروع في عملية قناطر عظيمة تسد فرع دمياط ورشيد في المحل المسمى بطن البقرة وعمل لها أبواب ورباحات ومصارف فان بواسطة ذلك يحصل تحويل النيل للمحلات التي لا يصل اليها بدون ذلك فمصلحة الري تصير كاملة ويصير ماء النيل عند الفيضان ضعفين بحجز مياهه ومنع الاسراف فيها بانصبابها في البحر هذا ما تصورته الفكرة الجليلة المحمدية العلية لا سيما ما أرادت إجراءه فيها بعد بناء القناطر الخيرية وبالجملة فكان ميل جنتمكان متوجها بكليته الى بذل مجهوده وقوة نشاطه لا حياء عملية الري والزراعة وعن ذلك نتج احياء مصر وأهلها واستنشقت في أيامه رائحة الراحة لانه لما كان الري مضمونا بهذه العمليات صارت الاراضي المصرية التي هي عناصر ارزاق الاهالي ذات أثمان غالية لكونها تؤدي محصولا تاما بغاية من السهولة بشرط ترتيب المياه والاقتصاد فيها فكانت الحكومة المصرية دائما متشبثة

بتحسين مصلحة الرى والاحتراس من الغرق والتشريق فقد سلك جنتمكان في ذلك مسلكا حسنا اذ في أقرب زمن اكتسب من مالية الاراضى أضعاف ايرادها الاول بقدر ست مرات قبل أن تفرغ تكثير العمليات النافعة وانما تأخرت أعمال الري الجسيمة التى هي أهم من غيرها في حد ذاتها وبالنسبة للاهالى وتكثير ايراد المملكة لان غيرها كان في ذلك الوقت أهم منها وهو ايجاد العساكر وتكثيرهم والاحتياج المهم لتصميم ملكه والامن على نفسه وحماية الوطن فكانت بالنسبة الى الباشا المرحوم جمع المنافع العمومية الملكية عرضية وتابعة للعسكرية التى بها تصميم كرسى الديار المصرية فلم يلتفت لرواج الزراعة البلدية الا التفاتا ثانويا ولم يصرف عليها في أوائل حكمه الا مقادير غير جسيمة بالنسبة لما صرفه على تاسيس العسكرية ومع قلة الايرادات اذ ذاك فكان يحسن تدبيره ويتقن ايراده على قدر مصرفه فلهذا لم تكن تحسينات الترع والجسور في مبادي أحكامه متسعة بل كان يقتصر فيها على الضروري منها

« مطلب »
صرف محمد علي في مدة امره لتنظيم العدة العسكرية واتباعها عن كثير من المنافع العمومية

ومن المعلوم ان النيل لا يقاس به غيره من أنهار الدنيا فانه يستدعى للاقتصاد فيه تدقيقا مستمرا وتأملا متكررا فلا ينبغي ان يقاس بالانهار الواسعة البوغازات فان لها عند مصبها ما يسمونه حاجزا وهو السيف الذى يرسب من الطين وغيره من الاشياء المتجمعة في البوغاز وهذا الحاجز يصادم مياه النهر عند انصبابها في البحر فيجعل مجرى المياه وانصبابها بطيئا وأما النيل فان بوغازه عريض عرضا زائدا خصوصا في ايام فيضانه وفي مائه من الطين الذى يتحول معه من بلاد الحبشة جزء عظيم فيتكون منه عند بوغاز رشيد حاجز كبير جدا يعوق السفن المارة من النيل الى البحر عن الدخول فيه

« مطلب »
عدم قياس النيل بغيره من الانهار

أو يجمل دخولها خطرا وليس لمصر الا طريق واحد من النيل الى هذا البحر تنقل منه محصولاتها فلما كان في أوائل حكومة المرحوم محمد على طريق رشيد هي دون غيرها الموصلة لنقل المحصولات لمن يسافر الى البلاد الاجنبية اضطر في سنة اربع وثلاثين ومائتين وألف من الهجرة أن يفتح ترعة بين النيل والاسكندرية وكان في قديم الزمان ترعة تسمى بالخليج الاشرفي باقية الأثر وكانت توصل مياه النيل الى صهريج اسكندرية وقت الزيادة فكان يمكن توسيعها والسفر فيها الا ان جنتمكان محمد على عمد الى انشاء ترعة جديدة سماها المحمودية فكانت من أعظم الترع التي أنشأها على كثرتها فقد فتح كثيرا من الترع والخلجان الا انها متفرقة في جهات عديدة ونافعة في مواقعها ولم يعمل صورة وى واحدة عمومية بحيث يجتمع المهندسون لرسم ميزانية مصرية مؤلفة من مجموع الترع والجسور اللازمة لمشغوليته بما هو أهم من ذلك مدة طويلة في مبادي أمره وفي أثناء ولايته وانما بعد مدة طويلة اتسعت آراؤه في العمليات وعرف الاسباب والمسببات واكتسب التجارب وتفرغ للعمليات النافعة وكانت قد جاء أوانها وتوفرت وسائلها ونفقاتها وذلك أن النيل في الحقيقة منه تكون قلب مصر وقالبها وهو الموجد للرطوبة الضرورية للقطر اذ لا يستغنى القطر عنها فالنيل نائب عن الامطار المرطبة في البلاد الاخرى وزيادة على ذلك هو الجاذب للطمى الذي هو عنصر الخصوبة وأصل النماء والبركة حتى استظهر بعض الطبائعيين أن جميع وادي النيل متولد من الطمى ويؤيد هذا القول ما ذكره الاقدمون من أن الوجه البحري متولد من تراكم الطمى الطيني الراسب من فيضان النيل السنوى وأن شكل ساحل البحر الذي على هيئة نصف دائرة علامة قوية

« مطلب » انشاء ترعة المحمودة لتسهيل النقل

« مطلب » تفرغ محمد على للعمليات النافعة لثروة مصر عند الاوان

« مطلب » زعم بعض الحكماء أن ارض مصر حادثة من الطمى

على صحة هذه الدعوى

وعلى كل حال فمن المحقق ان النيل كل سنة يحصل منه تغييرات وتبديلات وتحويلات يترتب عليها ثلاث مضرات ينبغي الأمن فيها لتداركها

« مطلب » الانتباه للمضار الثلاث المبينة التي يجب التحفظ منها

الاولى ان تراكم الارساب الطينية يتسبب عنه ارتفاع ارض وادي النيل بقدر لا يصله الري فتضيق كميات الاراضي الزراعية التي يصل اليها الماء عند الزيادة

« مطلب » مضار البحر عند مصب النيل

الثانية ان النيل حين يفيض يحفر الارض ويجر الحصباء فيئذ فى خلال القوف فيسقطها فيحدث من ذلك كل سنة انخفاضات جسيمة فيتسع فرش النهر ومجراه وبقدر ذلك تتناقص تسوية ميزانية النهر ويحط سطحه فيتولد عن هذا أن الاراضى التى كانت تغرق سابقا بالماء مدة الزيادة صارت بعيدة الآن عن النيل بمسافة بحيث لا يصعد اليها الماء فبهذا صارت يابسة ولو فى زمان الزيادة وهذه الحاله ملازمة للحالة الاولى

« مطلب » مضار البحر المالح عند مصب النيل

الثالثة أن النيل من حيث انه غير محبوس يجور على البحر عند بوغازه المصادم ماؤه ماء البحر عند مدة ويجور البحر المالح أيضا على الاراضي المستجدة التي يضيق عنها نطاق الري فيتلفها وسيأتى فيما بعد معالجة هذه العلل الثلاثة المضرة بوادي النيل وبيان مضرة البحر المالح للاراضى الزراعية أنه فى شهري برموده وبشنس يكون ماء النيل قيل المياه منحفضا فيصعد البحر المالح نحو ثلاثة فراسخ فوق دمياط ورشيد فيرسب منه رسوب كالربوات من المياه المالحة المنخفضة الزراعة فيتكون من ذلك البرك المالحة فمن ذلك بحيرة المنزلة وغيرها من البحيرات التى كانت مزارع وزالت ثم ياخذ النيل فى الزيادة في الصيف ويحصل الوفاء فى الخريف فيبقى النيل مستمرا على زيادته مدة ايام ثم ياخذ في النقص شيأ فشيأ

حتى اذا دخل فصل الشتاء كان ماؤه منخفضا جدا ولكن لا تزال المياه موجودة في الترع الكبيرة ففي هذه الحالة يدخل فصل الزراعة فاذا انقضى فصل الخريف يبست جميع الترع ونضب ماؤها ماعدا عدة ترع مستثناة يسقى منها بالراحة او بالآلات ففي هذا الفصل تسقى الزروع والغروس في اكثر محال الديار المصرية بالتوابيت والسواقي الا ان طريقة السقي على هذا الوجه ضعيفة شاقة كثيرة المصاريف ومع ذلك كله لا ينتفع منها الا قليل من المزارع لا سيما القريبة من النهر

فبواسطة السقي الدائم يتحصل من مزارع الديار المصرية ثلاث محصولات او اربع في كل سنة ولكن اغلب اراضي مصر ماهي غير رواتب فلا تسقى بتلك الطريقة بل يعمها الماء وقت الرأي حسب العادة فلا تزرع الا مرة واحدة ولا تؤدي الا محصولا واحدا في السنة فقد لوحظ بالقانون الهندسي انه اذا صار تعميم النيل بترتيب مساقي مرتبة على فصول السنة وتوفيق السقي على مزاج القطر وما يناسب من اصناف الزراعة فانه يترتب على هذا ايجاد عدة محصولات للمزارع في السنة

« مطلب » تكثير عدد المحصولات بمحال الارض رواتب

فاذا أمل أهل الزراعة الى اسباب تكثير المحصولات وتعددها وما تستدعيه من القوى غير المتادة والاعمال المدبرة فان هذه القوى تساوي القوى الطبيعية في تنمية المحصولات فقد لاحظ جنتمكان محمد علي باشا انه ينبغي قبل كل شيء ابطال الاسباب الطبيعية الموجبة في اكثر الاوقات لتنقيص اراضي الزراعة على التدريج وانه لا يدرك مرامه في الثروة والغنى الا بالانتصار عليها وعزمها اذهي اعدى عدو للبلاد كما انحصر في وقائعه الحربية

« مطلب » ازالة الموانع الطبيعية الموجبة لتقليل اراضي الزراعة

الاول من هذه الاسباب ارتفاع وادي النيل المانع لري عدة محلات

والحاجز لعمومها بالماء

الثاني تلف القوف المسبب عنه توسع فرش النيل وانحطاط ميزانية مائه

الثالث جور مياه البحر المالح وامتدادها على الارض الزراعية وسلبها منها على التدريج مقادير واسعة فهذه ينبغي معالجتها وقتيا بما يليق بها من الاصلاحات كتسبيخها وتسميدها وتوصيل المياه اليها ولو لم تنتج بهذه المعالجات قدر عدة المحصولات السنوية الا ان فائدتها تسبب الزراعة على اسلوب واحد بحيث ان الماء يصلها فلا تهمل الى حد حصول التداركات الوفية بالغرض واسهل طريق في منع تلك الاسباب المضرة وازالة ضررها دفعة واحدة في آن واحد مع الاقتصاد في المصاريف هو ان يحصر النيل بسدود لا ئقة يبنى ان يعمل له بالهندسة والهندسة فرش محصور محدود لا يمكن معه اتلاف القيوف فالجزء الزائد من ميزانية النهر الذي يعلو على السدود من الفيضان يصير تصريفه بالتوزيع على الاراضي والحيضان كما كان جاريا قبل عمل السد فيحصل الطمي كالعادة

فهذه العملية تجعل فرش النيل محصورا وتزيد في سرعة جريان ماء النهر عند مصبه فيتجدد من هذه القوة فائدة عظيمة لان ماء النيل يزاحم حينئذ مياه البحر الملاطمة له ويغلب عليها فيصدها ويرد امتدادها وانتشارها بما فيه من السرعة والقوة ويطردها طردا عنيفا كما فعل ذلك في بعض انهر اوروبا التي بهذه المثابة وهذا المعنى هو الباعث للمرحوم على عمل الجسور العظيمة وعلى عمل القناطر الخيرية التي هي من اعظم المنافع العمومية المصرية كما ذكر في الفصل الثالث من الباب الرابع

الفصل الثالث

فيما دبره المرحوم محمد علي من اصول المنافع العمومية الجسيمة والوصول بها الى الحصول على التقدمات العميمة في زمن يسير بما لو أجزء من الملوك جم غفير لعد من العمل الكثير وحسن التدبير

الغرض الكلام على ري الاراضي وسقيها بما يخص العادة والامور الهندسية التي هي ايضا من تدبير الحكمة الالهية والا فلو نظرنا لمحض الحكمة الالهية لقلنا كما قال الغزالي رحمه الله تعالى في احياء علوم الدين ان الرغيف لا يستدير ويوضع بين يدي الآكل حتى يعمل فيه ثلثمائة وستون صانعا اولهم ميكائيل عليه السلام وهو الذي يكيل الماء من خزائن الرحمة ثم الملائكة التي تزجر السحاب والشمس والقمر والافلاك ودواب الارض وآخر ذلك الخباز انتهى ويقاس على ذلك كل فرع من فروع المعاش فالعمل هو الذي عليه المدار وهو القوة الاولية في ابراز المنافع لاهليه كما سبق في الفصل الثاني من الباب الاول فان ما يأتي في العمليات الدالة لخصب ارض مصر يؤيد ما ذكر في ذلك الفصل ومن المعلوم أن مصلحة الري التي هي عبارة عن عمل الترع والجسور والقناطر من أهم مصالح الحكومة لان هذه المصلحة الجليلة لها مدخل عظيم في غنى الاهالي وسعادتهم كما ان لها تأثيرا عظيما في تكثير ايراد المملكة المصرية لان النيل هو رأس مال البلاد والاقاليم كما قال بعضهم

لمصرنا من نيلها ثروة   فالرزق من اصبعه يجري
يقول من أبصره احمرا   قوموا انظروا للذهب المصري

فاذا كان النيل في يد مدبر نشط أحسن التصرف فيه فانه يربح ربحا

عظيما بخلاف ما اذا كان فى يد انسان مهمل أو جبان أو فاتر همة أو جاهل لا يدرك العواقب فانه يتلفه بسوء تصرفه ويكسد رأس ماله الذى هو النيل وتذوق مصر عذاب القحط الوبيل لانها بدون الري ليست الابلاقع فعمارتها بقدر حسن التصرف فى مياهها النيلية فالنيل بالنسبة اليها كالدم لجسم الانسان فقوة البدن بقدر ما فيه من الدماء كما قال بعضهم

ان الدماء قوام لكل جسم صحيح
وحمرة النيل فيها قوام جسم وروح

« مطلب » ما يترتب على انتظام مصلحة الري

فصلحة الرى العمومي هى عملية الاقتصاد فى النيل وتدبير مياهه فقد كانت مصر فى أيام الفراعنة ذات قناطر وجسور حسنة التدبير والتقدير حتى ان الماء كان يجرى تحت منازلها بمقدار منافعها فيحبسونه حيث شاؤا ويرسلونه حيث شاؤا وذلك معنى قوله تعالى فيما حكي عن فرعون أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ولم يكن يومئذ ملك أعظم من ملك مصر

فاذا انتظمت العمليات باصول واسعة فان أرض مصر الزراعية تزيد وتمتد وتكثر وسائل ثروتها وتمدنها وتعظم شوكتها وقوتها المملكية وأما اذا بقيت قليلة الترع والجسور عديمة الانتظام والتطهير والاصلاح والترميم فانه ينحط قدرها ويظهر الفقر والمسكنة على أهلها ويضعف تمدنها فلا بد من صورة تنظيمية وأصول اجتماعية مستوفية للمذاهب المائية وقوة اجرائية ومثل هذا لا يكون من وظيفة الآحاد والافراد ولا من محض وظيفة القرى والبنادر والبلاد سواء كان بالاجتماع أو الانفراد بل هذه وظيفة القوة الحاكمة العمومية التى هى من المولى تبارك وتعالى كالوصى على مصر وعلى جميع

الرعية فنفوذ الحكومة هو الذي يشهد اصلاح هذه الدرة اليتيمة وليس في ممالك الدنيا مملكة لصاحبها النفوذ الحقيقي على الزراعة والفلاحة الا صاحب مصر فانه لا يجد في اهمالها فلاحة وبقدر نفوذه على ادارة الزراعة يكون له نفوذ على الاهالي وأما غير مصر من البلاد التي ريها بالمطر فليس للحكومة عليها ولا على قلوب أهلها كبير تسلط

ولما كان ري مصر دائما صناعيا مدبرا كان لا بد فيه من حسن الادارة المائية والضبط والربط في تطهير الترع وبناء الجسور والقناطر فان كانت الحكومة المتولية على مصر سيئة التدبير أو قليلة العدل أو ضعيفة القوة فانها تقتصر على تدبير بعض الاقاليم دون بعض أو بعض الاملاك الخصوصية على قدر منفعتها وتجحف بالمصلحة العمومية فلا تخلو الاقاليم في داخلها من المشاجرات بين الاهالي واذا فتحت الحكومة ترعة عظيمة خصوصية أو أهملت ترعة في الترع وجعلتها عرضة للتلف ترتب على ذلك ان الري لا يكون الا في أماكن قليلة فتتناقص كمية الاراضي الزراعية عن أصولها الاتساعية وهذا الخلل انما يترتب على عدم الحكومة المركزية فان حكومة المماليك الاختلالية لما تجردت عن القوة المركزية ووحدة الحكومة تجردت بالضرورة عن صورة الري العمومية المصرية

« مطلب » حالة الري في عهد حكومة المماليك

فقد كانت حكومة المماليك مؤلفة من عدة سناجق تتوزع بينهم اقاليم مصر وكل سنجق يقطع لكشافه القرى والنواحي وكان كل سنجق منفصلا عن غيره بادارته وسياسته لا يتبع الا هوى نفسه ولا يطع الا ما يسوله له عقله من وسائل التخريب وان كان مستقيما للصدفة والاتفاق فالغالب عليه التكاسل وعدم النشاط فكان في أيامهم لكل قسم وكل قرية ترع وجسور خصوصية لا ينتفع من السقي منها الا أهاليها ولم يكن بينهم روابط عمومية

فكان اصحاب الاراضى والزارعون لها المجاورون شطوط الماء يحتكرون الري والسقي ويحتلون من المياه ما هو قريب منهم ويمنعون الاراضى البعيدة من ذلك مع كونها لها حق فى مشاركتهم فى المياه عند الفيضان فكان ينشأ من هذا ما لا مزيد عليه من عداوة قرية لاخرى ويترتب على ذلك القتال وسفك الدماء فلهذه الحوادث الجارية فى أيام حكمهم تمهرت العمليات الهندسية الموروثة عن الفراعنة والرومانيين ومن بعدهم من الخلفاء والسلاطين ممن كانت دولة مصر فى أيامهم منظومة كأيام احمد بن طولون فانه لما تولى الامير احمد على مصر تسلمها من احمد المدبر وقد تلاشى أمرها وانحط خراجها فاهتم ابن طولون فى عمارة جسورها وبناء قناطرها وحفر خلجانها وسد ترعها فاستقامت أحوال الديار المصرية فى أيامه ووصل خراج مصر مع وجود الرخاء أربعة آلاف ألف دينار وثمانمائة ألف دينار يعنى أربعة ملايين دينار وثلث مليون تقريبا وهذا غير ما يحصل من المكوس وكان ملكا شجاعا صاحب جيوش وسخاء كثير الاموال والخزائن مستقلا بمملكة مصر يستوفى خراجها وكانت مصر فى أيامه عامرة آهلة كثيرة المحصول لرفقه برعيته وتكثير ثروتهم وفوتهم وعدم ظلمه وجوره عليهم فما كان تحصيل الاموال الكثيرة جدا منها الا بسبب عماراتها كالروض البهيج فى زهرها ونضارتها

فقد بنى مدينة شرقى مدينة الفسطاط وسماها القطائع وكانت مدينة جليلة بنيت قبل القاهرة وكانت ميلا فى ميل أولها من كوم الجارح الى الصليبة وعرضها من قناطر السباع الى جبل المقطم فلما فرغ من بنائها اسكن بها جنده وكان قربها من المائة ألف ثم ابتدأ بناء جامعه الذى بلغت النفقة عليه مبلغا جسيما ورأي أحمد بن طولون الصناع يبنون فى الجامع وآخرون

الى دخول الليل وكان فى شهر رمضان فقال متى يشتري هؤلاء الضعفاء إفطارا لعيالهم وأولادهم اصرفوهم بعد العصر فصارت سنة غالبة الى اليوم بمصر قيل لم يكن بمصر بقعة أعظم من البقعة التى بنى فيها هذا الجامع وكانت تسمى جبل يشكر وهو مشهور باجابة الدعاء فيه وبنى أيضا بجوار هذا الجامع مارستانا وصرف عليه ستين الف دينار والظاهر انه أول مارستان بمصر وجعل به خزينة الشراب والادوية وكان يجلس على بابه كل يوم جمعة طبيبان برسم مناظرة الضعفاء وأرصد عليه الاوقاف الكثيرة الدارة وقد أصلح أيضا مقياس مصر وصرف عليه الف دينار فان حسن عدله وتدبيره من ظلم المماليك الكيلمان فى الاعصر الاخيرة وتدميرهم للبلاد فمدار العمار على العدل وبضدها تتميز الاشياء كما قيل

عليك بالعدل إن أوليت مملكة واحذر من الظلم فيها غاية الحذر
فالملك يبقى مع الكفر الذميم ولا يبقى مع الجور فى بدو ولا حضر

فلذلك فى مدة أحكامهم صارت مصر تفقد كل يوم عناصر حياتها على التدريج باختلال الانتظام فكانت مصر محتاجة الى نظمها في وحدة حكومة مركزية فادركت مرامها بنادرة العصور وهي الذات المحمدية العلية ولولا ان رزقت بالمرحوم محمد على باشا لدرست رسومها بالكلية فقد أسعدهم الله سبحانه بسيادته وكان انقاذه لهم من قبضة الظلمة سببا لسعادتهم وسعادته فانه اهتم باصلاح الترع القديمة بترميم وجدد ما اقتضته الضرورة من الترع والجسور والقناطر ما عاد على الزراعة بالتحسين والتقديم

« مطلب » تسخير المولى تبارك وتعالى محمد على لاحياء عمارية مصر

وقد اسلفنا الكلام على ترعة المحمودية وعلى منفعتها العمومية ولا يسعنا هنا سرد جميع العمليات المائية التي صارت في ايام حكومته العادلة وانما

نذكر بعضا منها فنقول ان من جملة أعماله عمل الجسر الاعظم الممتد بطول النيل على الساحلين مبدؤه من جبل السلسلة في الصعيد وانتهاؤه الى بحر اسكندرية وهو محيط بالوجه البحري فهذا الجسر سد عظيم يحفظ بقاء مياه النيل في فرشه ومجراه فاذا ارتفع الماء عند الفيضان حفظته الجسور من انتشاره وتفرقه للبلاد كما ان هذه الجسور تحفظ أيضا مياه النيل فى زمن الري مدة طويلة على الارض حتى يرسب طينها النافع وتحصل فائدة الطمى وقد صار عمل هذا الجسر الاعظم الحافظ للمياه فى ظرف سنة واحدة بدون اتعاب للأهالي اذ كل بلد أعانت في عمله بقدر ما يخص بلدها منه وهذا كله غير القناطر والجسور الخصوصية المنشأة في الاقاليم البحرية والقبلية لا سيما بالجهات البحرية فانها اخصبت جدا وتكاثرت فيها زراعة الاصناف وعلى الخصوص زراعة الاقطان اذ صارت ضامنة الري ايا ما كانت زيادة النيل بخلاف الصعيد فانه لم يصل الى هذه الدرجة القصوى اذ لم تغفل عنه عين المرحوم طرفة عين وان لم يجتهد فى اصلاح الصعيد بمثل ذلك الاجتهاد مع أن أغلب ملوك مصر في الازمان القديمة كانت همتهم في تحسين الصعيد وتمدنه حتى قيل ان الاقاليم القبلية كانت سابقة التمدن قبل الاقاليم البحرية قيل ولعل سبب تراخي اعتنائه به كل الاعتناء أن الصعيد لا يصلح لزراعة الاصناف كالوجه البحري لا سيما زراعة القطن وان كان الصعيد ينجح فيه زراعة الكتان والافيون وغير ذلك بل والقطن على قلة حتى ان زراعته فى بلاد النوبة التابعة لمصر ناجحة وانما تحتاج امزجة الحكومة فكمال الاهتمام فى المصالح النيلية مبقية لعناية حكومة الذرية المتولية العزازة

ومن أحوال الصعيد الآن أن السنين التي فيها زيادة النيل متوسطة

لا بد أن يبقي فيها منه جزء بدون ري وانما أكثر مزارع مديريتي اسيوط وجرجا ضامنة في هذه الحالة للري والظاهر أن هذا الوصف في تلك الجهة حاصل من قديم الزمان

« مطلب » تصوير الاراضي للرشيد واستحسانه منها اقاليم الاسيوطية

فقد ذكر بعض المؤرخين أن الدنيا كلها لما صورت للرشيد لم يستحسن منها الا كورة اسيوط لان من مساحتها ثلاثين الف فدان في استواء الارض لو وقع فيها قليل الماء لانتشر في جميعها لا يشرق منها شيء يزرع بها الكتان والقمح والقرطم وسائر أنواع الغلات فلا يكون على وجه الارض بساط أعجب منه وبها مناسج الارمني والدبيقي والمثلث وسائر انواع الملبوس الذي لا يخلو منه ملك اسلامي ولا جاهلي وبها الخس والسفرجل الذي يزيد على كل بلد في كثرته وبهائه والليمون الذي يحمل الي سائر الآفاق وبمدينة أخميم من عمل الاسيوطية الطراز الصوف الشفاف والمطارف والمآزر والملم الابيض والملوكي ويحمل منه الى أقصى البلاد والى سائر الآفاق يبلغ الثوب منه عشرين دينارا والمطرز مثله فهذا يدل على حسن الزراعة والصناعة بتلك الجهات انتهى فانظر ما حكاه المؤرخون في شان أسيوط واخميم فانه يتراءى استبعاده مع ان الواقع أن قطرهما الى الآن قابل لمثل ذلك ولعله يعود الامر كما كان وفي قريب من الزمان

وقد كان تصميم جنتمكان على ان يعمله ترعة عظمى محاذية للنيل على استقامة الصحراء وتكون فوهتها من عند جبل السلسلة فلم يتم مرامه الا انه صار عمل بعض ترع فوق البلينة اصلحت كثيرا من المحال بتلك الجهة حتى صارت حيضان تلك الجهات تروي من بعضها في ايام اخذ النيل في النقص ومع صرف المرحوم المشار اليه همته العلية في مصلحة الري في الاقاليم البحرية

على صحة هذه الدعوى

وعلى كل حال فمن المحقق ان النيل كل سنة يحصل منه تغييرات وتبديلات وتحويلات يترتب عليها ثلاث مضرات ينبغي الأمن فيها لتداركها

« مطلب » الاشياء المضار الثلاث النيلية التي يجب التحفظ منها

الاولى ان تراكم الارساب الطنية يتسبب عنه ارتفاع ارض وادي النيل بقدر لا يصله الري فتضيق كميات الاراضي الزراعية التي يصل اليها الماء عند الزيادة

الثانية ان النيل حين يفيض يحفر الارض ويجر الحصباء فينفذ في خلال القوف فيسقطها فيحدث من ذلك كل سنة انخفاضات جسيمة فيتسع فرش النهر ومجراه وبقدر ذلك تتناقص تسوية ميزانية النهر وينحط سطحه فيتولد عن هذا أن الاراضي التي كانت تغرق سابقا بالماء مدة الزيادة صارت بعيدة الآن عن النيل بمسافة بحيث لا يصعد اليها الماء فبهذا صارت يابسة ولو في زمان الزيادة وهذه الحالة ملازمة للحالة الاولى

« مطلب » مضار البحر عند مصب النيل

الثالثة أن النيل من حيث انه غير محبوس يجور على البحر عند بوغازه المصادم ماؤه ماء البحر عند مدة ويجور البحر المالح أيضا على الاراضي المستجدة التي يضيق عنها نطاق الري فيتلفها وسيأتي فيما بعد معالجة هذه العلل الثلاثة المضرة بوادي النيل وبيان مضرة البحر المالح للاراضي الزراعية انه في شهري برموده وبشنس يكون ماء النيل قليل المياه منخفضا فيصعد البحر المالح نحو ثلاثة فراسخ فوق دمياط ورشيد فيرسب منه رسوب كالربوات من المياه المالحة المنخفضة الزراعة فيتكون من ذلك البرك المالحة فمن ذلك بحيرة المنزلة وغيرها من البحيرات التي كانت مزارع وزالت ثم ياخذ النيل في الزيادة في الصيف ويحصل الوفاء في الخريف فيبقى النيل مستمرا على زيادته مدة ايام ثم ياخذ في النقص شيأ فشيأ

« مطلب » مضار البحر المالح عند مصب النيل

حتى اذا دخل فصل الشتاء كان ماؤه منخفضا جدا ولكن لا تزال المياه موجودة في الترع الكبيرة في هذه الحالة يدخل فصل الزراعة فاذا انقضى فصل الخريف يبست جميع الترع ونضب ماؤها ماعدا عدة ترع مستثناة يسقى منها بالراحة او بالآلات فى هذا الفصل تسقى الزروع والغروس فى اكثر محال الديار المصرية بالتوابيت والسواقي الا ان طريقة السقى على هذا الوجه صعبة شاقة كثيرة المصاريف ومع ذلك كله لا ينتفع منها الا قليل من المزارع لا سيما القريبة من النهر

فبواسطة السقى الدائم يتحصل من مزارع الديار المصرية ثلاث محصولات او اربع فى كل سنة ولكن اغلب اراضى مصر ملق غير رواتب فلا تسقى بتلك الطريقة بل يعمها الماء وقت الرأى حسب العادة فلا تزرع الا مرة واحدة ولا تؤدي الا محصولا واحدا فى السنة فقد لوحظ بالقانون الهندسى انه اذا صار تعميم النيل بترتيب مساقي مرتبة على فصول السنة وتوفيق السقى على مزاج القطر وما يناسب من اصناف الزراعة فانه يترتب على هذا ايجاد عدة محصولات للمزارع فى السنة

« مطلب » تكثير عدد المحصولات بمحال الارض رواتب

فاذا تأمل أهل الزراعة الى اسباب تكثير المحصولات وتعددها وما تستدعيه من القوى غير المعتادة والاعمال المدبرة فان هذه القوى تساوى القوى الطبيعية فى تنمية المحصولات فقد لاحظ جنتمكان محمد على باشا انه ينبغى قبل كل شيء ابطال الاسباب الطبيعية الموجبة فى اكثر الاوقات لتنقيص اراضى الزراعة على التدريج وانه لا يدرك مرامه فى الثروة والغنى الا بالانتصار عليها وهزمها وهي اعدى عدو للبلاد كما انتصر فى وقائعه الحربية

« مطلب » ازالة الموانع الطبيعية الموجبة لتقليل اراضى الزراعة

الاول من هذه الاسباب ارتفاع وادي النيل المانع لرى عدة محلات

والحاجز لعمومها بالماء

الثاني تلف القيوف المسبب عنه توسيع فرش النيل وانحطاط ميزانية مائه

الثالث جور مياه البحر المالح وامتدادها على الارض الزراعية وسلبها منها على التدريج مقادير واسعة فهذه ينبغي معالجتها وقتيا بما يليق بها من الاصلاحات كتسبيخها وتسميدها وتوصيل المياه اليها ولو لم تنتج بهذه المعالجات قدر عدة المحصولات السنوية الا ان فائدتها تسييب الزراعة على اسلوب واحد بحيث ان الماء يصلها فلا تهمل الى حد حصول التداركات الموفية بالغرض واسهل طريق في منع تلك الاسباب المضرة وازالة ضررها دفعة واحدة في آن واحد مع الاقتصاد في المصاريف هو ان يحصر النيل بسدود لائقة يعني ان يعمل له بالهندسة والهندسة فرش محصور محدود لا يمكن معه اتلاف القيوف فالجزء الزائد من ميزانية النهر الذي يطفو على السدود زمن الفيضان يصير تصريفه بالتوزيع على الاراضي والحيضان كما كان جاريا قبل عمل السد فيحصل الطمي كالعادة

فهذه العملية تجعل فرش النيل محصورا وتزيد في سرعة جريان ماء النهر عند مصبه فيتجدد من هذه القوة فائدة عظيمة لان ماء النيل يزاحم حينئذ مياه البحر الملاطمة له ويغلب عليها فيصدها ويرد امتدادها وانتشارها بما فيه من السرعة والقوة ويطردها طردا عنيفا كما فعل ذلك في بعض انهر اوروبا التي بهذه المثابة وهذا المعنى هو الباعث للمرحوم على عمل الجسور العظيمة وعلى عمل القناطر الخيرية التي هي من اعظم المنافع العمومية المصرية كما يذكر في الفصل الثالث من الباب الرابع

الفصل الثالث

في دبره المرحوم محمد علي من اصول المنافع العمومية الجسيمة والوصول بها الى الحصول على التقدمات العميمة في زمن يسير مداولو الجزء من الملك جم غفير لعدم من العمل الكثير وحسن التدبير

الغرض التكلم على ري الاراضي وسقيها مما يخص العادة والامور الهندسية التي هي ايضا من تدبير الحكمة الالهية والا فلو نظرنا لمحض الحكمة الالهية لقلنا كما قال الغزالي رحمة الله تعالى في احياء علوم الدين ان الرغيف لا يستدير ويوضع بين يديك الا كل حتى يعمل فيه ثلثمائة وستون صانعا اولهم ميكائيل عليه السلام وهو الذي يكيل الماء من خزائن الرحمة ثم الملائكة التي تزجر السحاب والشمس والقمر والافلاك ودواب الارض وآخر ذلك الخباز انتهى ويقاس على ذلك كل فرع من فروع المعاش فالعمل هو الذي عليه المدار وهو الثروة الاولية في ابراز المنابع لاهليه كما سبق في الفصل الثاني من الباب الاول الى ماياتي في العمليات الدالة لخصب ارض مصر تؤيد ماذكر في ذلك الفصل ومن المعلوم أن مصلحة الري التي هي عبارة عن عمل الترع والجسور والقناطر من أهم مصالح الحكومة لان هذه المصلحة الجليلة لها مدخل عظيم في غنى الاهالي وسعادتهم كما ان لها تأثيرا عظيما في تكثير ايراد المملكة المصرية لان النيل هو رأس مال البلاد والاقاليم كما قال بعضهم

لمصرنا من نيلها ثروة   فالرزق من اصبعه يجري
يقول من أبصره احمرا   قوموا انظروا الذهب المصري

فاذا كان النيل في يد مدبر نشط أحسن التصرف فيه فانه يربح ربحا

عظيما بخلاف ما اذا كان في يد انسان مهمل أو جبان أو فاتر همة أو جاهل لا يدرك العواقب فانه يتلفه بسوء تصرفه ويكسد رأس ماله الذى هو النيل وتذوق مصر عذاب القحط الوبيل لانها بدون الري ليست الابلاقع فمارتبها بقدر حسن التصرف في مياهها النيلية فالنيل بالنسبة اليها كالدم لجسم الانسان فقوة البدن بقدر ما فيه من الدماء كما قال بعضهم

ان الدماء قوام لكل جسم صحيح
وحمرة النيل فيها قوام جسم وروح

« مطلب » ما يترتب على انتظام مصلحة الري

فمصلحة الري العمومي هي عملية الاقتصاد في النيل وتدبير مياهه فقد كانت مصر في أيام الفراعنة ذات قناطر وجسور حسنة التدبير والتقدير حتى ان الماء كان يجري تحت منازلها بتقدار منافعها فيجسونه حيث شاؤا ويرسلونه حيث شاؤا وذلك معنى قوله تعالى فيما حكي عن فرعون أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ولم يكن يومئذ ملك أعظم من ملك مصر

فاذا انتظمت العمليات باصول واسعة فان أرض مصر الزراعية تزيد وتمتد وتكثر وسائل ثروتها وتمدنها وتعظم شوكتها وقوتها الملكية وأما اذا بقيت قليلة الترع والجسور عديمة الانتظام والتطهير والاصلاح والترميم فانه يحط قدرها ويظهر الفقر والمسكنة على أهلها ويضعف تمدنها فلا بد من صورة تنظيمية وأصول اجتماعية مستوفية للمذاهب المائية وقوة اجرائية ومثل هذا لا يكون من وظيفة الآحاد والافراد ولا من محض وظيفة القرى والبنادر والبلاد سواء كان بالاجتماع أو الانفراد بل هذه وظيفة القوة الحاكمة العمومية التي هي من المولى تبارك وتعالى كالوصى على مصر وعلى جميع

الرعية فنفوذ الحكومة هو الذي يتعهد اصلاح هذه الدرة اليتيمة وليس في ممالك الدنيا مملكة لصاحبها النفوذ الحقيقي على الزراعة والفلاحة الا صاحب مصر فانه لا يجد في اهمالها فلاحة وبقدر نفوذه على ادارة الزراعة يكون له نفوذ على الاهالي وأما غير مصر من البلاد التي ريها بالمطر فليس للحكومة عليها ولا على قلوب أهلها كبير تسلط

ولما كان ري مصر دائما صناعيا مدبرا كان لا بد فيه من حسن الادارة المائية والضبط والربط في تطهير الترع وبناء الجسور والقناطر فان كانت الحكومة المتولية على مصر سيئة التدبير أو قليلة العدل أو ضعيفة القوة فانها تقتصر على تدبير بعض الاقاليم دون بعض أو بعض الاملاك الخصوصية على قدر منفعتها وتجحف بالمصلحة العمومية فلا تخلو الاقاليم من داخلها من المشاجرات بين الاهالي واذا فتحت الحكومة ترعة عظيمة خصوصية أو أهملت ترعة في الترع وجعلتها عرضة للتلف ترتب على ذلك ان الري لا يكون الا في أماكن قليلة فتتناقص كمية الاراضي الزراعية عن أصولها الانساعية وهذا الخلل انما يترتب على عدم الحكومة المركزية فان حكومة المماليك الاختلالية لما تجردت عن القوة المركزية ووحدة الحكومة تجردت بالضرورة عن صورة الري العمومية المصرية

فقد كانت حكومة المماليك مؤلفة من عدة سناجق تتوزع بينهم اقاليم مصر وكل سنجق يقطع لكشافه القرى والنواحي وكان كل سنجق منفصلا عن غيره بادارته وسياسته لا يتبع الا هوى نفسه ولا يطع الا ما يسوله له عقله من وسائل التخريب وان كان مستقيما للصدفة والاتفاق فالغالب عليه التكاسل وعدم النشاط فكان في أيامهم لكل قسم وكل قرية ترع وجسور خصوصية لا ينتفع من السقي منها الا أهاليها ولم يكن بينهم روابط عمومية

« مطلب »
حالة الري في عهد حكومة المماليك

فكان اصحاب الاراضى والمزارعون لها المجاورون شطوط الماء يحتكرون الري والسقي ويختلسون من المياه ما هو قريب منهم ويعمون الاراضى البعيدة من ذلك مع كونها لها حق فى مشاركتهم فى المياه عند الفيضان فكان ينشأ من هذا ما لا مزيد عليه من عداوة قرية لاخرى وربما ترتب على ذلك القتال وسفك الدماء فبهذه الحوادث الجارية فى أيام حكمهم تقهقرت العمليات الهندسية الموروثة عن الفراعنة والرومانيين ومن بعدهم من الخلفاء والسلاطين ممن كانت دولة مصر فى أيامهم منظومة كأيام احمد بن طولون فانه لما تولى الامير احمد على مصر تسلمها من احمد المدبر وقد تلاشى أمرها وانحط خراجها فاهتم ابن طولون فى عمارة جسورها وبناء قناطرها وحفر خلجانها وسد ترعها فاستقامت أحوال الديار المصرية فى أيامه ووصل خراج مصر مع وجود الرخاء أربعة آلاف ألف دينار وثمانمائة ألف دينار يعنى أربعة ملايين دينار وثلث مليون تقريبا وهذا غير ما تحصل من المكوس وكان ملكا شجاعا صاحب جيوش وسخاء كثير الاموال والخزائن مستقلا بمملكة مصر يستوفى خراجها وكانت مصر فى أيامه عامرة آهلة كثيرة المحصول لرفقه برعيته وتكثير ثروتهم وقوتهم وعدم ظلمه وجوره عليهم وما كان تحصيل الاموال الكثيرة جدا منها الا بسبب عمارتها وكانت كالروض البهى فى زهرتها ونضارتها

فقد بنى مدينة شرق مدينة الفسطاط وسماها القطائع وكانت مدينة جليلة بنيت قبل القاهرة وكانت ميلا فى ميل أولها من كوم الجارح الى الصليبة وعرضها من قناطر السباع الى جبل المقطم فلما فرغ من بنائها اسكن بها جنده وكان قريبا من المائة ألف ثم ابتدأ بناء جامعه الذى بلغت النفقة عليه مبلغا جسيما ورأى أحمد بن طولون الصناع يبنون فى الجامع وآخرون

الى دخول الليل وكان فى شهر رمضان فقال متى يشتري هؤلاء الضعفاء إفطارا لعيالهم وأولادهم اصرفوهم بعد العصر فصارت سنة غالبة الى اليوم بمصر قيل لم يكن بمصر بقعة أعظم من البقعة التى بنى فيها هذا الجامع وكانت تسمى جبل يشكر وهو مشهور باجابة الدعاء فيه وبنى أيضا بجوار هذا الجامع مارستانا وصرف عليه ستين الف دينار والظاهر انه أول مارستان بمصر وجعل به خزينة الشراب والادوية وكان يجلس على بابه كل يوم جمعة طبيبان برسم مناظرة الضعفاء وأرصد عليه الاوقاف الكثيرة الدارة وقد أصلح أيضا مقياس مصر وصرف عليه الف دينار فانى حسن عدله وتدبيره من ظلم المماليك الكيلمان والاعصر الاخيرة وتدميرهم للبلاد فمدار العمار على العدل وبضدها تتميز الاشياء كما قيل

عليك بالعدل إن أوليت مملكة واحذر من الظلم فيها غاية الحذر

فالملك يبقى مع الكفر الذميم ولا يبقى مع الجور في بدو ولا حضر

فلذلك فى مدة أحكامهم صارت مصر تفقد كل يوم عناصر حياتها على التدريج باختلال الانتظام فكانت مصر محتاجة الى نظامها فى وحدة حكومة مركزية فادركت مرامها بالدولة المنصورة وهى الذات المحمدية العلية ولولا ان رزقت بالمرحوم محمد على باشا لدرست رسومها بالكلية فقد أسعدهم الله سبحانه بسيادته وكان انقاذه لهم من قبضة الظلمة سببا لسعادتهم وسيادته فانه اهتم باصلاح الترع القديمة بترميم وجدد ما اقتضته الضرورة من الترع والجسور والقناطر ماعاد على الزراعة بالتحسين والتقديم

« مطلب » تسخيرالمولى تبارك وتعالى محمد على لاحياء عمارية مصر

وقد اسلفنا الكلام على ترعة المحمودية وعلى منفعتها العمومية ولا يسعنا هنا سرد جميع العمليات المائية التي صارت في ايام حكومته العدلية وانما

بتحسين مصلحة الري والاحتراس من الغرق والتشريق فقد سلك جنتمكان في ذلك مسلكا حسنا اذ في أقرب زمن اكتسب من مالية الاراضي أضعاف ايرادها الاول بقدر ست مرات قبل أن يتفرغ لتكثير العمليات النافعة وانما تأخرت أعمال الري الجسيمة التى هى أهم من غيرها في حد ذاتها وبالنسبة للاهالي وتكثير ايراد المملكة لان غيرها كان في ذلك الوقت أهم منها وهو ايجاد العساكر وتكثيرهم والاحتياج المهم لتصميم مملكة والامن على نفسه وحماية الوطن فكانت بالنسبة الى الباشا المرحوم جميع المنافع العمومية الملكية عرضية وتابعة للعسكرية التي بها تصميم كرسي الديار المصرية فلم يلتفت لرواج الزراعة البلدية الا التفاتا ثانويا ولم يصرف عليها في أوائل حكمه الا مقادير غير جسيمة بالنسبة لما صرفه على تاسيس العسكرية ومع قلة الايرادات اذ ذاك فكان يحسن تدبيره ويقتن ايراده على قدر مصرفه فلهذا لم تكن تحسينات الترع والجسور في مبادي أحكامه متسعة بل كان يقتصر فيها على الضروري منها

* مطلب * صرف همة محمد علي في مبدء امره الى تنظيم العدة العسكرية واتباعه لها من كثير من المنافع العمومية

ومن المعلوم ان النيل لا يقاس به غيره من انهار الدنيا فانه يستدعى للاقتصاد فيه تدقيقا مستمرا وتأملا متكررا فلا ينبغي ان يقاس بالانهار الواسعة البوغازات فان لها عند مصبها ما يسمونه حاجزا وهو السيف الذى يرسب من الطين وغيره من الاشياء المتجمعة في البوغاز وهذا الحاجز يصادم مياه النهر عند انصبابها في البحر فيجعل مجرى المياه وانصبابها بطيأ وأما النيل فان بوغازه عريض عرضا زائدا مخصوصا به في العالم فيضانه وفي مائه من الطين الذى تحول معه من بلاد الحبشة جزء عظيم فيتكون منه عند بوغاز رشيد حاجز كبير جداً يعوق السفن المارة من النيل الى البحر عن الدخول فيه

* مطلب * عدم قياس النيل بغيره من الانهار

أو بحمل دخولها خطرا وليس لمصر الا طريق واحد من النيل الى هذا البحر تنقل منه محصولاتها فلما كان فى أوائل حكومة المرحوم محمد على طريق رشيد هي دون غيرها الموصلة لنقل المحصولات لمن يسافر الى البلاد الاجنبية اضطر فى سنة اربع وثلاثين ومائتين وألف من الهجرة أن يفتح ترعة بين النيل والاسكندرية وكان فى قديم الزمان ترعة تسمى بالخليج الاشرفى باقية الاثر وكانت توصل مياه النيل الى صهريج اسكندرية وقت الزيادة فكان يمكن توسيعها والسفر فيها الا ان جنتمكان محمد على عمد الى انشاء ترعة جديدة سماها المحمودية فكانت من أعظم الترع التي أنشأها على كثرتها

« مطلب » انشاء ترعة المحمودية لتسهيل النقل

فقد فتح كثيرا من الترع والخلجان الا انها متفرقة في جهات عديدة ونافعة فى مواقعها ولم يعمل صورة رى واحدة عمومية بحيث يجتمع المهندسون لرسم ميزانية مصرية مؤلفة من مجموع الترع والجسور اللازمة لمشغوليته فما هو أهم من ذلك مدة طويلة فى مبادي أمره وفى أثناء ولايته وانما بعد مدة طويلة اتسعت آراؤه فى العمليات وعرف الاسباب والمسببات واكتسب التجارب وتفرغ للعمليات النافعة وكان قد جاء أوانها وتوفرت وسائلها ونفقاتها وذلك أن النيل في الحقيقة منه تكون قلب مصر وقالبها وهو الموجد للرطوبة الضرورية للقطر اذ لا يستغنى القطر عنها فالنيل نائب عن الامطار

« مطلب » تفرغ محمد على للعمليات النافعة لثروة مصر عند الاوان

المرطبة فى البلاد الاخرى وزيادة على ذلك هو الجاذب للطمى الذي هو عنصر الخصوبة وأصل النماء والبركة حتى استظهر بعض الطبائعيين أن جميع وادي النيل متولد من الطمى ويؤيد هذا القول ما ذكره الاقدمون من أن الوجه البحري متولد من تراكم الطمى الطينى الراسب من فيضان النيل السنوى وأن شكل ساحل البحر الذي على هيئة نصف دائرة علامة قوية

« مطلب » زعم بعض الحكماء ان ارض مصر حادثة من الطمى

على صحة هذه الدعوى

وعلى كل حال فمن المحقق ان النيل كل سنة يحصل منه تغييرات وتبديلات وتحويلات يترتب عليها ثلاث مضرات ينبغي الأمل فيها لتداركها

« مطلب » الانتباه للمضار الثلاث الىبية التي يجب التحفظ منها

الاولى ان تراكم الارساب الطينية يتسبب عنه ارتفاع ارض وادي النيل بقدر لا يصله الري فتضيق كميات الاراضي الزراعية التي يصل اليها الماء عند الزيادة

الثانية ان النيل حين يفيض يحفر الارض وينحر الحصباء فينفذ في خلال القيوف فيسقطها فيحدث من ذلك كل سنة انخفاضات جسيمة فيتسع فرش النهر ومجراه وبقدر ذاك تتناقص تسوية ميزانية النهر ويحط سطحه فيتولد عن هذا أن الاراضي التي كانت تغرق سابقا بالماء مدة الزيادة صارت بعيدة الآن عن النيل بمسافة بحيث لا يصعد اليها الماء فبهذا صارت يابسة ولو في زمان الزيادة وهذه الحاله ملازمة للحالة الاولى

« مطلب » مضار البحر عند مصب النيل

الثالثة أن النيل من حيث انه غير محبوس يجور على البحر عند بوغازه المصادم ماؤه ماء البحر عند مدة ويجور البحر المالح أيضا على الاراضي المستجدة التي يضيق عنها نطاق الري فيتلفها وسيأتي فيما بعد معالجة هذه العلل الثلاثة المضرة بوادي النيل وبيان مضرة البحر المالح للاراضي الزراعية انه في شهري برموده وبشنس يكون ماء النيل قبل المياه منخفضا فيصعد البحر المالح نحو ثلاثة فراسخ فوق دمياط ورشيد فيرسب منه رسوب كالربوات من المياه المالحة المنخفضة الزراعة فيتكون من ذلك البرك المالحة فمن ذلك بحيرة المنزلة وغيرها من البحيرات التي كانت مزارع وزالت ثم ياخذ النيل في الزيادة في الصيف ويحصل الوفاء في الخريف فيبقى النيل مستمرا على زيادته مدة ايام ثم ياخذ في النقص شيأ فشيأ

« مطلب » مضار البحر المالح عند مصب النيل

حتى اذا دخل فصل الشتاء كان ماؤه منخفضا جدا ولكن لا تزال المياه موجودة في الترع الكبيرة في هذه الحالة يدخل فصل الزراعة واذا انقضى فصل الخريف يبست جميع الترع ونضب ماؤها ماعدا عدة ترع مستثناة يسقى منها بالراحة او بالآلات ففي هذا الفصل تسقى الزروع والغروس في اكثر محال الديار المصرية بالتوابيت والسواقي الا ان طريقة السقي على هذا الوجه ضعيفة شاقة كثيرة المصاريف ومع ذلك كله لا تنتفع منها الا قليل من المزارع لا سيما القريبة من النهر

فبواسطة السقي الدائم يتحصل من مزارع الديار المصرية ثلاث محصولات او اربع في كل سنة ولكن اغلب اراضي مصر ماق غير رواتب فلا تسقى بتلك الطريقة بل يعمها الماء وقت الرأى حسب العادة فلا تزرع الا مرة واحدة ولا تؤدي الا محصولا واحدا في السنة فقد لوحظ بالقانون الهندسى انه اذا صار تعميم النيل بترتيب مساقي مرتبة على فصول السنة وتوفيق السقي على مزاج القطر وما يناسب من اصناف الزراعة فانه يترتب على هذا ايجاد عدة محصولات للمزارع في السنة

« مطلب »
تكثير عدد المحصولات بجعل الارض رواتب

فاذا أمل أهل الزراعة الى اسباب تكثير المحصولات وتعددها وما تستدعيه من القوى غير المعتادة والاعمال المدبرة فان هذه القوى تساوي القوى الطبيعية في تنمية المحصولات فقد لاحظ جنتمكان محمد على باشا انه ينبغي قبل كل شيء ابطال الاسباب الطبيعية الموجبة في اكثر الاوقات لتنقيص اراضي الزراعة على التدريج وانه لا يدرك مرامه في الثروة والغنى الا بالانتصار عليها وهزمها ازهى اعدى عدو للبلاد كما انتصر في وقائعه الحربية

« مطلب »
ازالة الموانع الطبيعية الموجبة لتقليل اراضي الزراعة

الاول من هذه الاسباب ارتفاع وادي النيل المانع لرى عدة محلات

والحاجز لعمومها بالماء

الثاني تلف القيوف المسبب عنه توسع فرش النيل وانحطاط ميزانية مائه

الثالث جور مياه البحر المالح وامتدادها على الارض الزراعية وسلبها منها على التدريج مقادير واسعة فهذه ينبغي معالجتها وقتيا تما يليق بها من الاصلاحات كتسبيخها وتسميدها وتوصيل المياه اليها ولو لم تنتج بهذه المعالجات قدرعدة المحصولات السنوية الا ان فائدتها نسيب الزراعة على اسلوب واحد بحيث ان الماء يصلها فلا تهمل الى حد حصول التداركات الموفية بالغرض واسهل طريق في منع تلك الاسباب المضرة واز لة ضررها دفعة واحدة في آن واحد مع الاقتصاد في المصاريف هو ان محصر النيل بسدود لانه يلزم ان يعمل له بالهندسة والهندسة فرش محصور محدود لا يمكن معه اتلاف القيوف فالجزء الزائد من ميزانية النهر الذى يعلو على السدود من الفيضان يصير تصريفه بالتوزيع على الاراضي والحيضان كما كان جاريا قبل عمل السد فيحصل الطمى كالعادة

فهذه العملية تجعل فرش النيل محصورا وتزيد في سرعة جريان ماء النهر عند مصبه فيتجدد من هذه القوة فائدة عظيمة لان ماء النيل يزاحم حينئذ مياه البحر الملاطمة له ويغلب عليها فيصدها ويرد امتدادها وانتشارها بما فيه من السرعة والقوة ويطاردها طردا عنيفا كما فعل ذلك في بعض انهر اوروبا التي بهذه المثابة وهذا المنى هو الباعث للمرحوم على عمل الجسور العظيمة وعلى عمل القناطر الخيرية التي هي من اعظم المنافع العمومية المصرية كما يذكر في الفصل الثالث من الباب الرابع

الفصل الثالث

فيما دبره المرحوم محمد على من اصول المنافع العمومية الجسيمة والوصول بها الى الحصول على التقدمات العميمة فى زمن يسير مما لو انجزه من الملوك جم غفير لعد من العمل الكثير وحسن التدبير

الغرض التكلم على ري الاراضى وسقيها مما يخص العادة والامور المدنية التى هى ايضا من تدبير الحكمة الالهية والافلو نظرنا لمحض الحكمة الالهية لقلنا كما قال الغزالى رحمة الله تعالى فى احياء علوم الدين ان الرغيف لا يستدير ويوضع بين يدى الآكل حتى يعمل فيه ثلثمائة وستون صانعا اولهم ميكائيل عليه السلام وهو الذى يكيل الماء من خزائن الرحمة ثم الملائكة التي تزجر السحاب والشمس والقمر والافلاك ودواب الارض وآخر ذلك الخباز انتهى وقاس على ذلك كل فرع من فروع المعاش فالعمل هو الذي عليه المدار وهو القوة الأولية فى ابراز المنافع الاهليه كما سبق فى الفصل الثانى من الباب الاول فان ما يأتي فى العمليات الدالة لخصب ارض مصر يؤيد ما ذكر فى ذلك الفصل ومن المعلوم أن مصلحة الري التى هي عبارة عن عمل الترع والجسور والقناطر من أهم مصالح الحكومة لان هذه المصلحة الجليلة لها مدخل عظيم في غنى الاهالى وسعادتهم كما ان لها تأثيرا عظيما فى تكثير ايراد المملكة المصرية لان النيل هو رأس مال البلاد والاقليم كما قال بعضهم

لمصرنا من نيلها ثروة ... فالرزق من اصبعه يجري
يقول من أبصره احمرا ... قوموا انظروا للذهب المصري

فاذا كان النيل فى يد مدبر نشط أحسن التصرف فيه فانه يربح ربحا

عظيما بخلاف ما اذا كان فى يد انسان مهمل أو جبان أو فاقد همة أو جاهل لا يدرك العواقب فانه يتلفه بسوء تصرفه ويكسد رأس ماله الذى هو النيل ويذوق مصر عذاب القحط الوبيل لانها بدون الري ليست الابلاقع فمارية بقدر حسن التصرف فى مياهها النيلية فالنيل بالنسبة اليها كالدم لجسم الانسان فقوة البدن بقدر ما فيه من الدماء كما قال بعضهم

ان الدماء قوام لكل جسم صحيح
وحمرة النيل فيها قوام جسم وروح

* مطلب * ما يترتب على انتظام مصلحة الري

فمصلحة الرى العمومي هى عملية الاقتصاد فى النيل وتدبير مياهه فقد كانت مصر فى أيام الفراعنة ذات قناطر وجسور حسنة التدبير والتقدير حتى ان الماء كان يجري تحت منازلها بمقدار منافعها فيحبسونه حيث شاؤا ويرسلونه حيث شاؤا وذلك معنى قوله تعالى فيما حكي عن فرعون أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ولم يكن يومئذ ملك أعظم من ملك مصر

فاذا انتظمت العمليات باصول واسعة فان أرض مصر الزراعية تزيد وتمتد وتكثر وسائل ثروتها وتمدنها وتعظم شوكتها وقوتها الملكية وأما اذا بقيت قليلة الترع والجسور عديمة الانتظام والتطهير والاصلاح والترميم فانه ينحط قدرها ويظهر الفقر والمسكنة على أهلها ويضعف تمدنها فلا بدمن صورة تنظيمية وأصول اجتماعية مستوفية للمذاهب المائية وقوة اجرائية ومثل هذا لا يكون من وظيفة الآحاد والافراد ولا من محض وظيفة القرى والبنادر والبلاد سواء كان بالاجتماع أوالانفراد بل هذه وظيفة القوة الحاكمة العمومية التى هى من المولى تبارك وتعالى كالوصى على مصر وعلى جميع

جعية فنفوذ الحكومة هو الذي يتعهد إصلاح هذه الدرة اليتيمة وليس فى ذلك الدنيا مملكة لصاحبها النفوذ الحقيقى على الزراعة والفلاحة الا صاحب مصر فانه لا يجد فى اهمالها فلاحة وقدر نفوذه على ادارة الزراعة يكون له نفوذ على الاهالى وأما غير مصر من البلاد التى ريها بالمطر فليس للحكومة فيها ولا على قلوب أهلها كبير تسلط

ولما كان رى مصر دائما صناعيا مدبرا كان لا بد فيه من حسن الادارة المائية والضبط والربط فى تطهير الترع وبناء الجسور والقناطر فان كانت الحكومة المتولية على مصر سيئة التدبير أو قليلة العدل أو ضعيفة القوة فانها تقتصر على تدبير بعض الاقاليم دون بعض أو بعض الاملاك الخصوصية على قدر منفعتها وتجحف بالمصلحة العمومية فلا تخلو الاقاليم فى داخلها من المشاجرات بين الاهالى واذا افتحت الحكومة ترعة عظيمة خصوصية أو أهملت ترعة فى الترع وجعلتها عرضة للتلف ترتب على ذلك ان الري لا يكون الا فى أماكن قليلة فتتناقص كمية الاراضى الزراعية عن أصولها الاتساعية وهذا الخلل انما يترتب على عدم الحكومة المركزية فان حكومة المماليك الاختلالية لما تجردت عن القوة المركزية ووحدة الحكومة تجردت بالضرورة عن صورة الرى العمومية المصرية

« مطلب » حالة الرى فى عهد حكومة المماليك

فقد كانت حكومة المماليك مؤلفة من عدة سناجق تتوزع بينهم اقاليم مصر وكل سنجق يقطع لكشافه القرى والنواحى وكان كل سنجق منفصلا عن غيره بادارته وسياسته لا يتبع الا هوى نفسه ولا يطمع الا ما يسوله له عقله من وسائل التخريب وان كان مستقيما للصدفة والاتفاق فالغالب عليه التكاسل وعدم النشاط فكان فى أيامهم لكل قسم وكل قرية ترع وجسور خصوصية لا ينتفع من السقي منها الا أهاليها ولم يكن بينهم روابط عمومية

فكان اصحاب الاراضى والمزارعون لها المجاورون شطوط الماء يحتكرون الري والسقي ويحتالون من المياه ما هو قريب منهم وعمون الاراضى البعيدة من ذلك مع كونها لها حق في مشاركتهم في المياه عند الفيضان فكان يلشأ من هذا ما لا مزيد عليه من عداوة فرقة لاخرى وربما ترتب على ذلك القتال وسفك الدماء فهذه الحوادث الجارية في أيام حكمهم تهجرت العمليات الهندسية الموروثة عن الفراعنة والرومانيين ومن بعدهم من الخلفاء والسلاطين ممن كانت دولة مصر في أيامهم منظومة كايام احمد بن طولون فانه لما تولى الامير احمد على مصر تسلمها من احمد المدبر وقد تلاشى أمرها وانحط خراجها فاهتم ابن طولون في عمارة جسورها وبناء قناطرها وحفر خلجانها وسد ترعها فاستقامت أحوال الديار المصرية في أيامه وصل خراج مصر مع وجود الرخاء أربعة آلاف ألف دينار وثمانمائة ألف دينار يعني أربعة ملايين دينار وثلث مليون تقريبا وهذا غير ما تحصل من المكوس وكان ملكا شجاعا صاحب جيوش وسخاء كثير الاموال والخزائن مستقلا بمملكة مصر يستوفي خراجها وكانت مصر في أيامه عامرة آهلة كثيرة المحصول لرفقه برعيته وتكثير زروعهم وفوتهم وعدم ظلمه وجوره عليهم بما كان تحصيل الاموال الكثيرة جدا منها الاسباب عمارتها فكانت كالروض البهي في زهرها ونضارتها

فقد بنى مدينة شرقي مدينة القسطاط وسماها القطائع وكانت مدينة جليلة بنيت قبل القاهرة وكانت ميلا في ميل أولها من كوم الجارح الى الصليبة وعرضها من قناطر السباع الى جبل المقطم فلما فرغ من بنائها اسكن بها جنده وكان قريبا من المائة ألف ثم ابتدأ بناء جامعه الذي بلغت النفقة عليه مبلغا جسيما ورأى أحمد بن طولون الصناع يبنون في الجامع وأخرون

الى دخول الليل وكان فى شهر رمضان فقال متى يشترى هؤلاء الضعفاء إفطارا لعيالهم وأولادهم اصرفوهم بعد العصر فصارت سنة غالية الى اليوم بمصر قبيل لم يكن بمصر بقعة أعظم من البقعة التى بنى فيها هذا الجامع وكانت تسمى جبل يشكر وهو مشهور باجابة الدعاء فيه وبنى أيضا بجوار هذا الجامع مارستانا وصرف عليه ستين الف دينار والظاهر انه أول مارستان بمصر وجعل به خزينة الشراب والادوية وكان يجلس على بابه كل يوم جمعة طبيبان برسم مناظرة الضعفاء وأرصد عليه الاوقاف الكثيرة الدارة وقد أصلح أيضا مقياس مصر وصرف عليه الف دينار فان حسن عدله وتدبيره من ظلم المماليك الكيلمان والاعصر الاخيرة وتدميرهم للبلاد فمدار العمار على العدل وبضدها تتميز الاشياء كما قيل

عليك بالعدل إن أوليت مملكة واحذر من الظلم فيها غاية الحذر
فالملك يبقى مع الكفر القديم ولا يبقى مع الجور فى بدو ولا حضر

ولذلك فى مدة أحكامهم صارت مصر تفقد كل يوم عناصر حياتها على التدريج بانحلال الانتظام فكانت مصر محتاجة الى نظامها فى وحدة حكومة مركزية فادركت مرامها بادرة المصور وهى الذات المحمدية العلية ولولا ان رزقت بالمرحوم محمد على باشا لدرست رسومها بالكلية فقد أسعدهم الله سبحانه بسيادته وكان انقاذه لهم من قبضة الغلمة سببا لسعادتهم وسعادته فانه اهتم باصلاح الترع القديمة بالترميم وجدد ما اقتضته الضرورة من الترع والجسور والقناطر ما عاد على الزراعة بالتحسين والتقديم

« مطلب »
تسخير المولى تبارك وتعالى محمد على لاحياء عمارية مصر

وقد اسلفنا الكلام على ترعة المحمودية وعلى منفعتها العمومية ولا يسعنا هنا سرد جميع العمليات المائية التى صارت فى ايام حكومته العدلية وانما

نذكر بعضا منها فنقول ان من جملة أعماله عمل الجسر الاعظم الممتد بطول النيل على الساحلين مبدؤه من جبل السلسلة في الصعيد وانتهاؤه الى بحر اسكندرية وهو محيط بالوجه البحري فهذا الجسر سد عظيم يحفظ بقاء مياه النيل في فرشه ومجراه فاذا ارتفع الماء عند الفيضان حفظته الجسور من انتشاره وتفرقه في البلاد كما ان هذه الجسور تحفظ أيضا مياه النيل في زمن الري مدة طويلة على الارض حتى يرسب طينها النافع وتحصل فائدة الطمى وقد صار عمل هذا الجسر الاعظم الحافظ للمياه في ظرف سنة واحدة بدون اتعاب للاهالى اذ كل بلد أعانت في عمله بقدر ما يخص بلدها منه وهذا كله غير القناطر والجسور الخصوصية المنشأة في الاقاليم البحرية والقبلية لا سيما بالجهات البحرية فانها اخصبت جدا وتكاثرت فيها زراعة الاصناف وعلى الخصوص زراعة الاقطان اذ صارت ضامنة الري اياما كانت زيادة النيل بخلاف الصعيد فانه لم يصل الى هذه الدرجة القصوى اذ لم تنفل عنه عين المرحوم طرفة عين وان لم يجتهد في اصلاح الصعيد بمثل ذلك الاجتهاد مع أن أغلب ملوك مصر في الازمان القديمة كانت همتهم في تحسين الصعيد وتمدينه حتى قيل ان الاقاليم القبلية كانت سابقة التمدن قبل الاقاليم البحرية قيل ولعل سبب تراخي اعتنائه به كل الاعتناء أن الصعيد لا يصلح لزراعة الاصناف كالوجه البحري لا سيما زراعة القطن وان كان الصعيد ينجح فيه زراعة الكتان والافيون وغير ذلك بل والقطن على قلة حتى ان زراعته في بلاد النوبة التابعة لمصر ناجحة وانما تحتاج لعزمة الحكومة فكمال الاهتمام في المصالح النيلية مبقية لعناية حكومة الذرية المتولية المزازة

ومن أحوال الصعيد الآن أن السنين التي فيها زيادة النيل متوسطة .

لا بد أن يبقى فيها منه جزء بدون ري وانما أكثر مزارع مديريتي اسيوط وجرجا ضامنة فى هذه الحالة للري والظاهر أن هذا الوصف فى تلك الجهة حاصل من قديم الزمان

« مطلب » تصوير الاراضي للرشيد واستحسانه منها اقاليم الاسيوطية

فقد ذكر بعض المؤرخين أن الدنيا كلها لما صورت الرشيد لم يستحسن منها الا كرة اسيوط لان من مساحتها ثلاثين الف فدان فى استواء الارض لو وقع فيها قليل الماء لانتشر فى جميعها لا يشرق منها شيء يزرع بها الكتان والقمح والقرطم وسائر أنواع الغلات فلا يكون على وجه الارض بساط أعجب منه وبها مناسج الارمني والدبيقي والمثلث وسائر انواع الملبوس الذي لا يخلو منه ملك اسلامي ولا جاهلي وبها الخس والسفرجل الذي يزيد على كل بلد فى كثرته وبهائه والليمون الذى يحمل الى سائر الآفاق وبمدينة أخميم من عمل الاسيوطية الطراز الصوف الشفاف والمطارف والمطرز والملم الابيض والموكي ويحمل منه الى أقصى البلاد والى سائر الآفاق يبلغ الثوب منه عشرين دينارا والمطرز مثله فهذا يدل على حسن الزراعة والصناعة بتلك الجهات انتهى فانظر ما حكاه المؤرخون فى شان أسيوط واخميم فانه يتراءى استبعاده مع ان الواقع أن قطرهما الى الآن قابل لمثل ذلك ولعله يعود الامر كما كان وفى قريب من الزمان

وقد كان تصميم جنتمكان على ان يعمله ترعة عظمى محاذية للنيل على استقامة الصحراء وتكون فوهتهم من عند جبل السلسلة فلم يتم مرامه الا انه صار عمل بعض ترع فوق البلينة اصلحت كثيرا من الحال بتلك الجهة حتى صارت حيضان تلك الجهات تروي من بعضها فى ايام اخذ النيل فى النقص ومع صرف المرحوم المشار اليه همته العلية فى مصلحة الري فى الاقاليم البحرية

فلم ياخذ الري فيها حده الا كمل بسبب تعذر تطهير الترع في مواعيدها كل سنة مع اتساع الدوائر الزراعية اتساعا وافرا في الاقاليم البحرية ولا يكمل مصلحة الرى الا بايجاد القناطر الخيرية على فرعي النيل المفترقين من شلقان الذين احدهما شرقى وهو فرع دمياط والثاني غربى وهو فرع رشيد وذلك ان هذين الفرعين يتكون منهما مثلث وهو الجزيرة المسماة ايضا الدلتا ومنها تروى عدة مديريات وهى مديرية القليوبية والشرقية والدقهلية والمنوفية والغربية الا ان انتفاع هذه المديريات منهما لا تكون تامة الا فى زمن فيضان النيل واما فى ايام التحاريق فان مياههما تنصب فى البحر المالح ولا تعود منها على الزراعة أدنى منفعة فانصبابها فى البحر المالح محض خسارة على الزراعة فاستصوب المرحوم قنطرتهما من أمام شلقان الى بر الماشي بقنطرتين احداهما على البحر الشرقى والثانية على البحر الغربي بعيون كثيرة وأن تكون القنطرتان على استقامة واحدة من البرين يعني من بر شلقان الى بر الماشي وان يبنى على رأس الجزيرة رصيف يكون ابتداؤه من الشط الغربى من فرع دمياط وانتهاؤه الى الشط الشرقى من فرع رشيد وفائدة هذا الرصيف منع المياه من ان تقطع رأس الجزيرة فتغرق المنوفية والغربية وان يكون هذا الرصيف عاليا جدا بحيث لا يرتفع اليه الماء عند الفيضان وان يعمل لعيون هذه القناطر الخيرية وابواب محكمة تقفل وتفتح بحسب الاقتضاء لحبس المياه وارسالها وان يعمل ايضا لمساعدة القناطر الخيرية ثلاث ترع رياحات تكون فوهاتها من فوق تلك القناطر الخيرية احدى هذه الترع يكون معدا لري القليوبية والشرقية والدقهلية بالراحة وفوهتها من الشط الشرقي مثل شلقان و الترعة الثانية تكون فوهتها من وسط رأس الجزيرة يعني من منتصف الرصيف وتكون معدة لرى المنوفية والغربية والترعة الثالثة تكون فوهاتها من فوق القناطر الخيرية ببر الماشي وتكون معدة لري

« مطلب » كان مصلحة الري باتمام القناطر الخيرية

« مطلب » لزوم الرياحات للقناطر الخيرية والمديريات المنتفعة بها

مديرية البحيرة وان يعمل لهذه الترع الثلاثة التي هي عبارة عن فروع خارجة من بحر دمياط ورشيد قناطر وعيون على حسب ميزانية الارض وان يعمل لها بوابات تقفل وتفتح على حسب الاقتضاء

فاذا تمت على هذا الوجه ترتب عليها انه في وقت فيضان النيل تفتح القناطر الخيرية وقناطر الثلاث ترع المسماة بالرياحات لتصريف ما زاد من مياه النيل عن لزوم الري في البحر المالح وحبسه بقدر اللزوم بقفلها بقصد السقي ويحمل سفر المراكب ممكنا وفي ايام التحاريق تقفل بوابات القناطر الخيرية قفلا محكما بحيث ترتفع المياه امام القناطر المذكورة بقدر عدة امتار فتنصب بالضرورة في الرياحات الثلاثة المستمدة الماء منها في هذه المدة وكذلك تقفل أبواب قناطر الرياحات الثلاثة المستمدة الماء بحيث تفيض مياهها على الاراضي التي أمامها ولا يترك منها الا القدر الزائد ليتوزع على الاراضي والحيضان من حوض الى آخر

وبهذا القفل في القناطر الخيرية وفي الرياحات يمكن السفر في السفن في هذه الجهة في النيل وقت التحاريق فالقناطر الخيرية والرصيف والرياحات هي المقصد الذي به تتم مصلحة الري في المديريات الستة السالفة الذكر وقد تم منها في أيام المرحوم جنتمكان القناطر والرصيف ولم يتم عمل الرياحات بل الذي صار اعماله جزء من رياح القليوبية وجزء من رياح المنوفية وجزء من رياح البحيرة فجزء رياح القليوبية تلف الآن بالكلية وجزء رياح المنوفية يستعمل الآن استعمالا غير المقصود منه فان مصلحة ري المنوفية أحوجت الى استعماله بتوصيله المياه الى الترع القديمة وأما جزء رياح البحيرة فلم يزل الى الآن باقيا لكن بدون ثمرة بل بوابات القناطر الخيرية التي هي أهم منفعة القناطر لم يتم منها الى الآن الا بعضها لا جميعها والبعض الذي صار عمله لم يكن محكم القفل والفتح بالسهولة فلا يكون

الانتفاع بالماء بالصعوبة فلوتم عمل البوابات كالغرض المطلوب منها في الفتح والقفل بغاية السهولة وتمت الرياحات الثلاثة المذكورة وقناطرها الثلاثة حكم المرغوب لحصات الترات العظيمة للمديريات المذكورة وتوفرت المياه التي تسقي بالراحة وتوفرت أيضا جميع السواقي والدوايب واكتسبت الاهالى المكاسب العظيمة من الزراعات مع قلة المصاريف حيث انها لا تحضر مياه النيل التي لا ينصب منها في المالح الا القدر الزائد عن اللزوم فلا شك أنها اذا تمت القناطر الخيرية على الوجه الاكمل بموجب تصميمات الحكومة في الحالة الراهنة فانها تكون من أعظم ما يوجب كال الافتخار للجد والحفيد والموجود منها الآن فهو من آثار جوهرى العقل الفريد اذ أنوار عقله السواطع هي أشعة المنافع

قد بلغ النيل كل نفع من فيض تلك اليد الكريمه
وصار ذا غلة ورزق فهذه نعمة جسيمه

وقد ذكرنا عناية جنتمكان بعلاج مصب النيل وقد اعتنى أيضا رحمه الله بالبحث عن استكشاف منبعه اقتداء بمشاهير قدماء ملوك مصر وملوك العجم واسكندر والبطالسة وقياصرة الروم وعقلاء خلفاء مصر ونبلاء سلاطينها وملوكها بعد الفتح فارسل في ظرف أربع سنوات ثلاث ارساليات متوالية وكانت في سنة ١٢٥٧ الارسالية الثانية تحت رياسة سليم بك قبودان ودرنو بك مهندس وهي أنفع الارساليات فسارت هذه الارسالية من الخرطوم في النيل المسمى هناك بالبحر الابيض مسافة خمسمائة فرسخ حتى وصلت الى جزيرة جانكير بمشرع كندكرو وعندها رمال وصخور متكاثرة كالشلالات تمنع السير عن النيل منعا كليا فاقتصر القبودان المذكور على أخذ الاستعلامات اللازمة مما يعلم من أهالى تلك الجهة فاستبان من ذلك ان منبع النيل بقرب دائرة الاستواء على ثلاثين

« مطلب » ارسالية المرحوم محمد علي لاستكشاف منبع النيل

مرحلة فوق جزيرة جانكير المذكورة فتكون المسافة بين جانكير ومنبع النيل نحو مائة وخمسين فرسخا تقريبا وبهذا الاستكشاف سهل لسياحي الانكليز تمام استكشافهم بين ارسالية جنتمكان الذى كان ولم يزل طرفه للبحث عن احراز المكارم يقظان

ملك أسهر عينا لم تزل همها تشريد هم الراقدين
ما روى الراوون بل ماسطروا مثل ما خطت له أيدى السنين

(غيره)

أصبحت دون ملوك الارض منفردا بلا شبيه اذ الا ملاك أشباه
مشمرا و بنو الاسلام فى شغل عن بذه غرس لهم أثمار عقباه

فقد انفق على مصلحة النيل النفقات الخارجة عن حد العادة كما قيل

لو ان فيض النيل فائض نيله لم تفتقر مصر الى مقياس

فقد اشترى وسائل التمدن ومقاصد المآثر العالية ومقدمات التقدم بالاثمان الغالية

ومن يصطبر للعلم يظفر بنيله ومن يخطب الحسناء يصبر على البذل
ومن لم يذل النفس فى طلب العلا يسيرا يعش دهرا طويلا أخا ذل

« مطلب » انشاء المدارس المصرية

فلله اليد الطولى التي نقلت صورة الاهالى من صورة الى اخرى ومن هيولى الى هيولى فقد اوجد عزم محمد على بالتوفيقات الصمدانية من الامة المصرية أطباء أبرار وأرباب هندسة عالية وتراجمة سامية وأرباب إدارة ملكية وضباط عسكرية وأرباب صنائع وتجارات وكان هذا للمدارس والمكاتب من أفضل النتائج وأجمل الثمرات

فقد أنشأ من أول الامر مدرستي قصر العيني والدرسخانة فكانت

أولاها كالتجهيزية والمبتديان وكانت الثانية كالخصوصية يخرج منها المستخدمون باي ديوان ثم جدد مدرسة الطب والهندسخانة بعد تجديد عساكر النظام فكان يخرج منها الاطباء والمهندسون للمصالح الملكية والعسكرية من المهرة العظام ثم جدد مدارس الجهادية من بادة وسوارى وطوبجية ليخرج منها الضباط الفخام وكذلك جدد مدرسة العمليات لتعود بالنفع على الفنون والصنائع من سائر أنواع المنافع ومدرسة الالسن الاهلية والاجنبية لمعرفة اللغات واستفادة ترجمة الكتب الاجنبية ونتج عنها تكثير المعلومات واحرزت ديار مصر منها الفوائد الجمة والمعارف المهمة وجدد مدارس ومكاتب عديدة للمبتديان والتجهيزية على صورة جديدة واجتنى ثمرات الجميع على وجه منتظم رفيع

فقد أرشد الملة القاصرة الى النافع المفيدة حتى صارت الملة المصرية رشيدة فتعلمت المبادي والمقاصد وتمكنت من معرفة فوائد الانحاء المراصد ولم يكتف بتوسيع دائرة التعلم في بلاده بل أرسل الى فرانسا عدة ارساليات لتعليم العلوم والصنائع واستخراج الفنون من معادنها لتنى براده فتكفل باستخراج المنافع من معادنها وباستنباط عيون المعارف من مواطنها ومع ذلك فقد أنشأ كما سبق مدرسة للالسن في الاكثر لقصد ترجمة الكتب الغربية فكانت للوفاء بحل مقصده مجيبه وترجم فيها كثيرا من العلوم المتنوعة ودخل رجالها في الخدامات الميرية وعادت منهم على البلاد المنفعة وقد نتج عن انشاء مدرسة الطب مشورة صحيه تدير عموم الصحة الاهلية كما نتج عنها عدة اسبتاليات نفعها عميم حيث ترتبت في جميع الاقاليم ومدرسة الولادة تعد من أعظم المآثر كما ان مصلحة تلقيح الجدري وقت النفوس من الاخطار وترتب

عليها الصون من التشويه وتنمية الاهالي وتكثير العمار وأما تجديده لترتيب العساكر الجهادية برية وبحرية على صورة جميلة وهيئة جليلة فقد عجز عنها على هذا الوجه قبله ملوك الاسلام وانصاغت هذه التنظيمات لهذا الهمام المقدام واقتدى به بعد ذلك سواه ولكن لم يصلوا في زمنه الى درجة ما أحسن ترتيبه وسواه لا سيما سفنه البحرية فكانت بحسن النظام حرية فقد رتبها قبل حرب موره حيث استدعتها الضرورة وذلك لانه لما طلب منه ديوان القسطنطينية الاعانة بالقوة في غزوة موره التي هي أعجب غزوة مشهورة لم يبعث هذا الديوان سفنه الحربية ولا عمارته العثمانية لنقل العساكر المصريه والذخيرة الى جزيرة موره ولم يكن اذ ذاك عند المرحوم محمد على بمصر الاسفيتان كل سفينة منهما ذات ثلاثين مدفعا لم يكمل شغلهما فجهز ثلاثة وثلاثين سفينة حربية كاملة الآلة والعدة في أقرب مدة ومائة سفينة من سفن العادة لنقل المهمات

وقد تكامل هذا المدد في واقعة اناوارين وتلف أكثره باحراق المتعصبين فشرع في عمارة سفن اخرى أعظم منها بأشر انها من البلاد الاجنبية الاوروباوية ثم شرع في عمل ترسانة الاسكندرية سنة الف ومائتين وسبعة وثلاثين التي لم تكن دون ترسانة طولون بلاد الفرنساويه

فقد رتب بهذه الترسانة مصانع ومعامل متنوعة ومخازن مهمات ومفاتل احبال وأنشأ بهذه الترسانة ايضا كثيرا من السفن الحربيه التي كل سفينة منها من ذوات المائة مدفع وغير ذلك من السفن حتى صارت دوننما عظيمة واستخدم فيها الاهالي وكذلك كان الشغالون وارباب الصنائع فيها من الاهالي المصرية وكان جميع المستخدمين بالدوننما والترسانة على الطراز العسكري فكان اهلها

يرقون الى الرتب العسكرية على حسب معارفهم

فتعلم ابناء الاوطان جودة صناعة السفن فبهذه الطريقة صارت أثمان هينة جدا على الحكومة وبطل شراؤها من الاجانب وكانت همة جنتمكان في هذه المادة السفينة الحربية كهمة سلطان الموسقو بطرس الاكبر في الاجتهاد والاعتناء بهذه المادة اذ كان دائما مواظبا على مناظرة الاشغال بالترسانة والاقامة فيها الساعات المديدة من النهار ولو ان ملك الموسقو كان قد تعلم عمارة السفن بنفسه الا أن محمد على رخص لمهندس السفن سيريزى بك الرخصة التامة في حسن ادارتها فكان مهندسها ينفذ أغراض سيده كما يحب ويختار كانه هو فلا يعيب الاصيل ما رآه الوكيل حسنا ولا ينقض عليه ما ابرمه فكان تنازل المرحوم لهذا الحد في التفويض يوازى تنازل بطرس الاكبر في كونه تعلم صنعة السفن بنفسه وعلمها لاهل وطنه ولم يتكبر في ذلك وكان ابنه جنتمكان ابراهيم باشا يبادر بتسهيل التشغيل مبادرة زائدة ويقوي عزيمة المهندس والشغالين ويترقب اتمام السفن الحربية في أقرب وقت ويكرم المهندس الاكرام الكلي ويمضي النهار تمامه في الترسانة بجانب الاشغال وكان جنتمكان محمد على يديم النظر في السفن عند صناعتها وتصور الغرض منها وكلما شارفت الاتمام ازداد فرحا وسرورا واذا نزلت سفينة في البحر لم يتمالك نفسه مع ماكان عليه من كمال الهيبة وحفظ ناموس الوقار ان يظهر امارة السرور فلهذا كانت عنده دونمًا ملوكية على طبق مرامه وطقمها بالمدافع والعساكر ونظمها على نسق نظام العساكر البرية وانشأ مدرسة بحرية بثغر سكندرية ليخرج منها من الضباط ما تحتاج اليه هذه الدونما وترجم العلوم البحرية وصار لها كتب كافية كسائر العلوم الاخرى كما قيل

اذا شئت ان تلقى عدوك راغما وتقتله هما وتحرقه غما
فسام العلى وازدد من الفضل انه من ازداد علما زاد حاسده هما

وايضا كان من جملة الارسالية الاولى عدة من الافندية المبعوثين الى باريس تعلموا العلوم البحرية وسافروا الى افريقة والهند وغير ذلك من البلاد وتمكنوا من العلوم البحرية فلما حضروا قلدهم بوظيفة قبودانية السفن وكان لهذه الدنما قبودان من الباشاوات وكان معه بوسون بك الفرنساوى بوظيفة رياسة رجال البحرية فكان بمنزلة رئيس الرجال سليمان باشا في الجهادية البرية

ثم ان المرحوم ابراهيم باشا لما غزا مورة وحضر منها جدد ألايات السوارى وبيان ذلك ان جنتمكين محمد علي كان قبل غزوة مورة يعتقد ان فرسان المماليك أعظم فرسان الدنيا حيث شاهد ذلك منهم في الحروب المتكررة معه وان تعليم فروسيتهم علي اجود ما يكون وكان يظن ان حركات الخيالة الاوروباوية كلا شيء بالنسبة لحركة المماليك فكانت فرسانه جارين على طريقة الكولمان وكذلك المرحوم ابراهيم باشا كان يعتقد ذلك فقد ظهر للمرحوم ابراهيم باشا في حرب موره ان تعليم السوارى على طرز اوروبا اكمل وألزم لما شاهده من سوارى الفرنساوية هناك فرتب ألايات السوارى بجميع انواعها على طراز فرنسا من شرخجية ودراغون وغير ذلك فبهذا صار انشأ مدرسة السوارى في الجيزه ليتعلم بها الفروسية النظامية والمسابقة والرسم وغير ذلك ليخرج منها الضباط العظام وكان عدد تلامذتها ثلاثمائة وستين نفرا وكان عدد تلامذة مدرسة الطوبجيه بطره ربمائة تلميذ وعدد تلامذة مكتب الرجال في الخانقاه نحو مائتى تلميذ وكان لا يقبل في مكتب الرجال أي أركان حربية الا الترك والمماليك ثم انضم اليهم ابناء العرب وكانوا لا يحرزون عند الامتحان رتب

الضباط فالمرحوم ابراهيم باشا أبطل هذه الطريقة فى حق أولاد العرب وفى حق أبناء السودان وسواهم بغيرهم

وبالجملة فكان المرحوم محمد على لا تكل همته ولا تفتر عزيمته ولا يرتاح بدنه وعقله بل دائماً مشغول بما يخص التمدن والفكر فى التجديدات وحميد المشروعات ولا يبالى بالمصارف والتكاليف للحرص على تقديم وطنه المنيف واخراج الرعايا من ورطة التخشن المنيف

المال مال ء يد والقوم ملك يد   ولا أطيل وهـذا جملة الخبر

اذ لولاه لما صلت مصر الى هذه الدرجة من التقدم والرفاهية بعدان مكثت عدة قرون فى الذل والمسكنة وكانت حبال منافعها واهنة

فقد تجدد فى ايامه من الامور المقربة للتمدن اشارة الاخبار وابورات البخار والدوالیب البخارية وقد عمل تجربة فى كفر مجر لسكة الحديد وكان صمم فيها على الانشاء والتجديد فتجز بعضها على وجه هين ثم تكاملت الآن بالاصل والفرع على وجه فى درجة الكمال بين

زيادة النيل نقص عند فيضها   فما لنا نتقاضى منة الديم

فلو لم يكن للمرحوم محمد على من المحاسن الا تجديد المخالطات المصرية مع الدول الاجنبية بعد ان ضعفت الامة المصرية بانقطاعها المدد المديدة والسنين العديدة لكفاه ذلك فقد أذهب عنها داء الوحشة والانفراد وآنسها بوصال أبناء الممالك الاخرى والبلاد لنشر المنافع العمومية واكتساب السبق فى ميدان التقدمية فما أحست بنتيجة الدواء الشافى والعلاج المافى الا فى هذه الايام الاخيرة التى ضاعفت الادوية الحسية والمعنوية النظرية والعملية بطرق من النجامة جليه وأضعفت داء الجهالة المدية فكل لصنيعها متشكر ومقر باحسانها غير منكر

ولدينا تضاعفت نعم اللـ ـه وجلت عن كل عد وحصر
عرف الحق أهل مصر وكانوا قبله بين منكر ومقر
وحصلنا بالحمد والاجر والنصـ ـر وطيب الثنا وحسن الذكر
قد بلغنا بالصبر كل مراد وبلوغ المراد عقبى الصبر
ليس مثري الرجال من ملك المالـ ـل ولكنما اخو اللب مثري

وما أحسن هذا البيت الاخير الذي هو من الحكم اللطيفة ومن جوامع الكلم المنيفة

وقد كان المرحوم محمد على من وقت حيازته واستيلائه على السودان التي استولى عليها بسيفه سنة ثمان وثلاثين ومائتين وألف مشغول البال باستكشاف معادنها واستخراجها فلذلك سافر اليها بنفسه ليمتحن معادنها ويلطف أهلها ويشوقهم الى اكتساب التمدن والتقدم كما فعل بمصر وتفصيل ذلك فى الفصل الرابع من هذا الباب

الفصل الرابع

فى سفر جنتمكان محمد على الجليل الشان الى جبال فازغلو ببلاد السودان لاستكشاف المعادن الذهبية والكشف عنها بحضوره واعمال الطرق التحرية

« مطلب » امهات المعادن المستخرجة فى هذا العهد

لما مهد محمد على فى مصر الزراعة والتجارة والصناعة التى هي المنافع العمومية وكثرت ثروة مصر بالاخذ والعطاء وحظى أهلها بطيب العيش والرفاهية وذاقوا ثمرة العدل والاحسان والفضل والامتنان وكان أواخر عصر المرحوم محمد على بالنسبة اليهم ما كان يسمى عصر الذهب عند أمة اليونان فى أوائل تلك الازمان حيث عوض الله سبحانه وتعالى أهل مصر

في مقابلة ماذاقوه من الشدائد في أول الامر ذوقهم طعم الهناء والراحة التامة في آخره وذلك مصداق قوله تعالى فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا وكان المرحوم لا يزال يصرف وقته في تكميل المنافع العمومية للديار المصرية وكانت الاقطار السودانية التي تحت حكومته تجرقديما وحديثا لا سيما في الذهب وشهيرة بما فيها من المعادن المشبعة صرف همته العلية الى توسيع استخراج المعادن بتلك الجهة لما أن معدن الذهب من أشرف نعم الله على عباده اذ به قوام الدنيا ونظام أحوال الخلق فان حاجات الناس اليه كثيرة وكلها تقضى بالنقدين ويباع بهما ويشرى كل شيء بخلاف غيرهما من المعادن فانه يرغب فيه كل أحد رغبته في النقدين حيث هما كالقاضيين المصالح لكل من لقيهما ولذلك قال الله عز وجل والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم لان المقصود منهما تداولها بين الناس لقضاء الحوائج فمن كنزها فقد أبطل الحكمة التي خلقا لها وكان كمن حبس قاضي البلد ومنعه أن يقضى بين الناس فالذهب والفضة كالجلبان النافع بجلبان المضار

« مطلب » معادن الفضة في امريقه

وأمهات معادن الذهب المستخرجة في هذا العهد هي معادن بلاد الامريقه تخرج من جوف الارض أو من تنظيف الرمال الذهبية وفي بلاد أفريقه التبر فرع عظيم في تجارة السودان وليس في بلاد أوروبا الامعادن سيبرن بلاد الموسقو ومعادن بلاد المجر في مملكة النيمسا وفي آسيا معادن الذهب ورماله وأما معادن الفضة الشهيرة في بلاد أمريقه باقليم برو وغيره وهي التي تعطى كية عظيمة من الفضة المتعامل بها في أيدي التجارفني بلادمقسيقا أزيد من ثلاثة آلاف معدن مستخرج وكذلك معادن بلادبرو بامريقه فانهامثمرة

حدا ومعادن قاليفورنا المشهورة بالذهب المشبع التي استكشفت سنة خمسة وستين ومائتين وألف وهي في جمهورية مقسيقا فبلاد افريقه لمشابهة بأمريقه فهذا أرسل المرحوم محمد على باشا عدة مرات من يلزم من المعدنجية لتجريب معادنها فلم يقف منهم على حقائق تامة في شأن ذلك فشك في مهارتهم وفي اجتهادهم

« مطلب » مشابهة افريقه لامريقه وظن انها يستكشف منها معادن الذهب والبحث فيها

وقد كان حكمدار بلاد السودان أرسل اليه عدة فلزات من الذهب على سبيل العينة فكاد يطير بها فرحا فأرسل في نحو سنة مائتين والف كلا من موسيو روسيجير وموسيو بريالى الكيماوي فالاول كان قد ذهب الى المعادن قبل الثاني بكثير فشرع في التجربة ورجع الى الخرطوم فوجد موسيو بريالي قد أقام بها بانتظار الفصل المناسب فكتب موسيو روسيجير من الخرطوم الى المرحوم محمد علي ما مضمونه ان النفر الذي يشتغل في المعدن باليومية يستخرج ذهبا بعشرة فرنكات كل يوم يعني بأربعين قرشا ميريا وكان ذلك في مدة ولاية خو رشيد باشا لحكمدارية السودان واخبر المعدنجي الحكمدار بذلك فلم يصدق ذلك الحكمدار المذكور واما المية السنية فأخذت كلام المعدنجي المذكور قضية مسلمة واعتقد ذلك أيضاً المرحوم محمد علي وتباشر بأنه اذا صار استخراج المعادن على هذه الكيفية يصير أغنى الملوك وانتقلت الرغبة في الزراعة التي بها غذاء أهل مصر والتي هي كالثدي لرضاعهم الى الرغبة في المعادن فصار مطمح النظر من النيل أنه وسيلة المسير فيه لاستخراج الذهب وجلبه وكأنما هذا الغرض هو المقصد منه بالاصالة

« مطلب » ارسال محمد على معدنجيه بالسودان لاستكشاف المعادن

ثم لما اعتدل الوقت للياقة السفر الى المعادن خرج موسيو روسيجير وموسيو بوريالي من الخرطوم ومعهما من الخفر الف من عساكر الجهادية تحت رياسة مير اللوي مصطفى بك وصاروا جميعا حتى وصلوا الى فازغلو

« مطلب » نتيجة تجربة معادن فازغلو

وشرعوا فى استخراج المعدن والبحث عنه فوجد حفائر حفرتها العبيد قبل ذلك وبجوانبها قصاع من الخشب فكل واحد من المدنجية أخذ قصعة وعمل صنعة التنظيف للرمل الخارج من الحفرة فلم يظهر لاحد منهم ربح بل ما تبقي من بعد التصفية انما هو فلزات مشوبة بالحديد والتراب ثم كرروا التجربة فلم تنتج أزيد من ذلك فان موسيو بورياني أخذ قنطارين من الرمل وصفاهما فلم يخرج منهما سوى حبة ونصف من الذهب وكذلك موسيو روسيجير ثم توجهوا الى جهة سنجه وهى ابعد محل فتحه المرحوم اسمعيل باشا ومشهور بكثرة الذهب فمكثوا فيه ليلة بواد يسمى خور البابا كان العبيد قد حفروا فيه حفائر لاستخراج الذهب ثم ذهبو الى محل يقال له زنبو حوله غابات عظيمة ووديان وسفوح منخفضة ووصلوا الى وادي يسمى وادي توماتو جارى المياه فوجدوا فيه حفائر وقصاعا معدة لتنظيف الذهب وتنقيته فكانت نتيجة التجربة كالسابقة فاقتضى الحال أن يمروا بغابات غير مسلوكة فوصلوا الى جبل ابو غولجى ونزلوا بهذه الجهة المشهورة بمعادنها الذهبية فأرسلوا بطلب شيخ السودان هناك ليستعلموا منه عن ذلك فأبى الحضور فرجعوا من طريقهم بوادى ابو غولجي نفسه فكان يبسا لا ماء فيه بكثرة وانما كانوا يجدون فى طريقهم فى الحفر بعض مياه وبعض حفائر حفرها العبيد وعلى حكايتهم أن هذه المعادن التى بهذا الوادي كثيرة الذهب ثم بعد ذلك بمسير مسافة ساعة صوب الغرب وجدوا واديا آخر عالى الحوافى الصخرية فلم يقفوا عنده وبينما هم سائرون فى أباطحه قبض موسيو بورياني قبضة من الرمل فوجد بها أربع فلزات من الذهب كل فلز منها وزن حبة فساروا من وادي الى آخر حتي وصلوا تجاه جبلي سنجه وغوزه وبسفحها

« مطلب » تجربة جهات سنجه وزنبو وتوماتو

« مطلب » تجربة معادن ابو غولجي

« مطلب » فرض جبل سنجه

بنو شنغول وسنجه ولهم مساكن لطيفة مقبوة يقال لها توكول وعدتها نيف عن الفى بيت وعرض جبل سنجه فى الدرجة العاشرة والعشرين دقيقة شماليا ولا يزرع سودانها الا قليلا من الذرة والدخان حول مساكنهم فلما رأوا العسكر قربوا من مساكنهم ولوا هاربين فدخل العسكر مساكنهم فوجدوا بها الآلات والادوات المستعملة لتنظيف الرمل واستخراج الذهب منه فبعث رؤساء العسكر لطلبهم فلم يحضروا ولا حضر المندوبون في طلبهم ولاظهر عنهم خبر ولا بان لهم أثر فاحترس العرضى كل الاحتراس وضربت الخيام فى محال عالية من الوادى خوفا من الهجوم فظهر على حين غفلة فوق الجبل وعلى البعد عدة من العبيد حتى دنوا من العرضى وصاروا يرمون العساكر بسهامهم وحرابهم وكان العسكر قد سكنوا بمساكنهم فهجم عليهم العسكر فهربوا ثم عادوا وصاروا يحاربون الى الليل

« مطلب » هجوم أهل سنجه على العسكر

ولما اعتكر الليل أحاطوا بالعسكر من كل جانب ولم يتشتت شملهم الا بضرب النيران فلما أصبح الصباح صعدوا على ذروة الجبل وفوقوا نبالهم وسهامهم على العسكر كالامطار ومع هذه الحروب الخطرة فكان مع المدنجية مائة نفر يخفرونهم فاشتغلوا فى وقت الحرب بتجربة النهر الخارج من هذا الجبل فتحصل موسيو بوريانى على فلزات ذهبية خرجت بالتنظيف عدة مرات ووضعها فى زجاجة ليمتحنها فيما بعد ولا زال العبيد ينقضون على العسكر حتي تركوا جبل سنجه بدون تميم التجربة فاقتفى السودان أثرهم الى جهة وادي بولغيدية فأخذوا قنطارين من دقيق رمل هذا الوادى وغسلوهما وحسبوا زمن شغلهما فكلما خرج منهما وضع فى الزجاجة ووجدوا أن الذخائر كادت تنفد منهم فرجعوا من طريق سنار وقد جربوا تجاريب

« مطلب » تجربة وادي بولغيدية

« مطلب » رجوع المدنجية من تلك الجهات

كثيرة في طريقهم وكلما تحصلوا عليه من الفلزوات وضعوه في الزجاج وسدوا عليه وكانوا يجدون في عودتهم كثيرا من المعادن الحفرية التي حفرها العبيد ولم يجد العسكر في طريقهم بيوتا ولا مساكن مسكونة بأحد لان العبيد لخوفهم من العساكر كانوا يهرعون منها فلذلك لم يقف المدنجية على حقيقة الحال ولم يمكنهم أن يذهبوا الى المحلات المشهورة لحصول الذهب كجبل دول لفقد الذخيرة وقد وجدوا على شطوط نهر هادي عدة آبار مستديرة عميقة يبلغ عددها نحو ستمائة بئر عمق البئر الواحدة أربعة وعشرون قدما وقطرها نحو أربعة اقدام وفي قاع كل بير مماشي يتوصل اليها بواسطة سلالم صغيرة

وهذا النهر كثير الذهب جداً فقد عثر موسيو بورياني على الذهب في ثلاث صوانات أخذها من هذا النهر وكذلك موسيو روسيجير وجد به قطعا من الاحجار مشتملة على الذهب

فباستكشاف معادن هذا النهر اطمأنت قلوب اهل المرضى وفرحوا به فرحا شديدا حتي نهض العساكر على الانقضاض بهذا النهر اعتمادا على حكاية اهل الجهة وجمعوا ما عثروا عليه من الحجر ثم عادوا الى مدينة الخرطوم التى خرجوا منها من نحو ستة اشهر فلم يجدوا الحكمدار فيها حيث كان قد توجه لقتال الحبشة المغيرين على الاطراف فأخذوا في تحليل ما تحصلوا عليه فوجدوا العينات مختلفة الريع وذلك ان موسيو ابورياني عمل التجربة التنظيفية بطريقة التحليل بالزئبق فكانت النتيجة في احدى التجريبات بالنسبة الي اقليم كامين لم يحتو قنطار الرمل الا على ثلاث حبات من الذهب فالرجل الذي معه اثنان مساعدان لنقل الماء والتراب اذا كان ينظف كل يوم عشرة قناطير من الرمل

ن اثنى عشر فلا يجمع الا سبعة قروش ميري من الذهب بالنسبة الى رمال
بيم فاشنارولا تحصل الا على ثلاثة قروش ونصف من الذهب في اليوم
واحد فكتب بهذه التجربة خطابا وارسله مع العينة الى الحكمدار خورشد
باشا فارسل الحكمدار المذكور ذلك بصحبة موسيو بورياني الى المعية السنية
وكان ذلك في سنة اربع وخمسين ومائتين والف

واما تجربة موسيو روسيجير فكانت نتيجتها بخلاف ذلك فان الاحجار
المدنية الذهبية تحصل منها انثاز في المائة يعني ان صافي المائة درهم مثلا درهمان
واما الذهب الصفائحي الذي يوجد في المعادن كالعروق فانه تحصل في كل الف
قنطار من مائة وستين الى مائة وثمانين صفيحة من الذهب يعني من ثمانمائة
وخمسة وثلاثين درهما الى الف ومائة وستة وثلاثين درهما من الذهب وقيمة
الدرهم ثمانية وثلاثون قرشا وتحقق عند هذا المدنجي ان الشخص الواحد
ينظف كل يوم ثلثمائة وخمسين أقة من الرمل فيتحصل منها ذهب قيمته من
ثمانين قرشا الى مائة قرش فكان هذا المعدل يزيد عن معدل موسيو بورياني
عشرين مرة فلما اطلع المرحوم محمد على على المعدلين ووجد الفرق بينهما جسيما
...تمالك نفسه من الغضب على موسيو بورياني لانه كان يميل بالطبع لما فيه
الارجحية في الربح فهذا مال الى تقرير موسيو روسيجير ولاجل الوقوف على
الحقيقة صمم على السفر الى بلاد السودان لتصير التجربة امامه مع تقدمه في
السن وشيخوخته وطبيعة اقليم الاقطار السودانية وتعب الاسفار الشاقة بها
الا انه كان ملحوظا بالعناية الربانية ومحفوظا بالتوفيقات الصمدانية كما قيل

« مطلب » تصميم المرحوم محمد على على السفر الى بلاد السودان

ان حل فالشرف التليد انيسه   او سار فالظفر الطريف قرينه
فالدهر خاذل من اراد عناده   أبدا ورزاق العباد معينه

وامر موسيو بورياني بالذهاب قبله بمدة ايام فأراد ان يخلص من ذلك وقال ان طريقة التحليل بالزئبق التي ملكها موسيو روسيجير ربما يمكن ان ينال بها اكثر من طريقة القصعة التي عليها العمل عند السودان فكأنه سلم ان طريقة صاحبه مربحة وكان قوله ذلك لمحض الاعتذار والخروج من الورطة ثم قال ايضا ان الرمل لامانع من ان يعطي كل يوم للشغال نحو اربعين قرشا ومع انه قال ذلك النجرد المسايرة الا ان المرحوم محمد على اخذه بالقبول وفرح به وكان المرحوم محمد على جلب من فرنسا مدنجيا شهيرا بعلم المعادن وهو موسيو ليفيره كان سبق استخدامه في مدرسة المعادن المصرية وكان موسيو بورياني قد سافر الى السودان امتثالا للامر العالي وبعده بثلاثة أيام ركب المرحوم محمد على البحر وصحبته خير الدين بك قبودان السفن وعدة اشخاص منهم موسيو ليفيره المدنجي ودار نودبك المهندس ولمبربك المهندس واحمد افندى يوسف الجشنجي فسافر بالسلامة بالنيل حتى دخل السودان

« مطلب » استصحاب المرحوم محمد على في سفره جما من ارباب الخبرة في المعادن وغيرها

اركب النيل ما استطعت فقيه | راحة المتقي وغاية بغيه
كم تفرجت حين سافرت فيه | في بلاد وكم ظفرت بمنيه

فلما دخل مدينة الخرطوم كان يوما مشهودا لحضر جميع من هناك للتشريف فلطفهم جميعا ودعوا له بخير وفرحوا به غاية الفرح واثنوا عليه بجميل الثناء ومكارم اخلاقه كما قيل

« مطلب » دخول المرحوم محمد على الخرطوم وما حصل من الاحتفال به وارساله المدنجية الى عدة جهات واقامته بالخرطوم لاستقبال الوافدين عليه

كل الامور تبيدعنك وتنقضى | الا الثناء فانه لك باقى
لو انني خيرت كل فضيلة | ما اخترت غير مكارم الاخلاق

ثم امر موسيو ليفيره المدنجي ان توجه الى جبال مويه وسكادى وهي على ثمان فراسخ في الجنوب الغربي من سنار ليجرب معادن الفضة ومعادن

« مطلب » سفر المرحوم محمد علي من الخرطوم الى جهة سنار

لنحاس التي هي على ميمنة النيل باقليم روسيري وارسل خلفهم كلا من موسيو وريانى ودر نودبك وأما حضرته العلية فقد بقى فى الخرطوم ليستقبل رؤساء بلاد السودان الوافدين عليه من جميع الجهات على احتلافها كلهم ووعدوه بالمساعدة على مشروعه وان يمدوه بستين الف نفس للشغل اذا اقتضى الحال هذا القدر

« مطلب » ارشاد المرحوم محمد علي اهل السودان الى وسائل الزراعة وغيرها

ثم سافر الى جهة سنار ونزل باقليم روسيرى وحضر اليه ملوك سنار وفازغلو وصار يستعلم منهم عن المعادن ومحل وجودها وعن احوال زراعة البلاد وما يناسبها وارشد رؤساء السودان الى طرق جديدة فى الزراعة وفي الصنائع والفنون التي لا يعرفونها وامرهم بالحصول عليها واستعمالها لتصل نوبة القدم للنوبة باكتساب وسائل المنافع المحبوبة المجلوبة وينوب الخيط الابيض من فجر الفنون عن الخيط الاسود من فجور الفنون وليكونوا من أهل التبصرة ونكون عندهم آية النهار مبصرة ثم حضر المعدنجى ليخبره من جبل موبه وأخبره أنه لم يجد أثر المعدن الفضة ولا معدن النحاس فى المحل الذى حكى عنه موسيو روسيجير فنفر من الاقامة بهذه الجهة لعدم الحصول على مقصده ولكن

« مطلب » مسير المرحوم محمد على الى اقليم فازغلو

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه … وليس عليه ان يساعده الدهر

فرفع معسكره ونهض الى اقليم فازغلو وكان أحمد باشا قد تولى حكمدارا عوضا عن خو رشيد باشا وكان قد بعثه محمد على الى محاربة جبال رجريج وكانوا عاصين فنوى أن ينتظر عودة الحكمدار بعد وصوله فى طرف ثلاثة أيام وصل المرحوم محمد على الى قرية فاموكو تجاه فازغلو وهى على ميمنة البحر الازرق فضرب خيامه بها وأعجبه حسنها وطرافتها فأمر ببناء قصر فيها على اسمه ليذكر سفره بها وعين حالا درنود بك لهذه المأمورية فهندسه

« مطلب » وصول المرحوم محمد على الى فربنقا وكو واستحسانه اياها وامره ببناء قصر فيها على اسمه

البك المذكور وبنيت حوله الدور حتى صار بلدة شهيرة هناك سميت بمحمد على وهي من الأثر الجليل الجلى الا انها صارت محل التغريب ينشد فيها المنفى الغريب

يا عين ان بعد الحبيب وداره ونأت مرابعه وشط مزاره
فلقد ظفرت من الزمان بطائل ان لم تريه فهذه آثاره

ولما عاد أحمد باشا من غزوه كان فصل المطر قد دنا والذخائر كادت تنفد وكان المرحوم محمد على توجه الى اقليم فاشنغارو وكان قد بعث حين توجهه احد مماليكه ليأخذ الرمل من وادى قراده فاستخرج المعدنجية من هذا الرمل نحو ثلاثة قرارات من الذهب اليسير القيمة القليل الجودة

« مطلب » وصول المرحوم محمد على الى فاشنغارو

ولما نزل المرحوم محمد على فى فاشنغارو ضرب خيمه تحت شجرة تين والمعسكر حوله ولم يبق معه من المأكولات الا البقسماط واليسير من الارز فسئمت نفوس الجميع من قلة الزاد والحط والترحال بهذه الحالة ولام كل الناس موسيو بورياني على تأميل الباشا المذكور وتجسيمه له فى ربح المعادن الذهبية فجمع الباشا المذكور المعدنجية والمهندسين ليأخذ رأيهم فقرروا جميعا على عمل تجربة جديدة بطريقة أخرى مفيدة وهي أن يجمع الرمل من جميع المحلات بمقادير متناسبة ويعلم كمية ما يخرج منها فخرجت النتيجة بهذه التجربة مثل السابق فى قلة الربح ولكن قد استكشف موسيو بورياني فى بئر من آبار وادى قراده فى عمق اثنين وعشرين قدما طبقة معدنية يتراءى انها كثيرة الذهب ليمتحنها مع التأنى وقبل أن يرحل موسيو ليفبره المعدنجى من الخرطوم كان عثر أيضا على رطلين من الزئبق فى مخازن الحكمدارية فأحب موسيو بورياني ان يعمل امتحانه لما أخذه بطريقة التحليل فسكت

« مطلب » جمع المعدنجية وعمل تجربة عمومية

عن ذلك وصار منهمكا على اتباع هذه الطريقة فى التجربة فلم يشعر اذ وجد في قرار القرازة جرما معدنيا ذهبيا مخلوطا بغيره ولم يعرف سبب هذا الغش فأخبر غيطاني بك وموسيو لمبير بك بذلك وهم أخبروا المرحوم محمدعلي فوسيو بورياني بأنهم بعض أخصامه انهم أرادوا أن يفسدوا عليه تجربته وأراد إخبار من ذكر البحث عن صاحب الفعلة فادعى احمد افندي الجشنجي ان موسيو بورياني المذكور هو الذى خلط الذهب بالزئبق عمدا لعدم نتاج تجربته وأخبر بذلك أمام الباشا وصدق عليه الحاضرون في اليوم الثاني استعمل موسيو بورياني طريقة الغسل بالقصاع فغسل مائة قنطار من الرمل مأخوذا من فرش الوادي بجبال قراده فاستخرج منها تسعا وأربعين حبة من الذهب

فهذه التجربة الكبيرة ظهر منها اشباع معدن وادي فاشنفار والذي جرب عينته موسيو روسيجير سابقا فوجد بين طريقة موسيو بورياني وموسيو روسيجير فرق جسيم فبهذا الاختلاف الفاحش ضاق صدر الباشا المرحوم وفترت همته حتى كاد أن يصرف النظر عن قضية استخراج المعادن ولكن عاد الى تجلده وصبره وأمر بعقد جمعية تستخرج مقدار قيم مجاميع الاشغال التي حصلت كلها فبادرت الجمعية باستخراج ذلك فنتج انه لا تحصل من عملية الصانع الواحد من الذهب الا بقيمة ثلاثة قروش كل يوم

فمن هذا الوقت سقطت قيمة المعادن الذهبية من أعين الجميع وقل اعتبارها فتغير خاطر المرحوم محمد على من ذلك وداخله اليأس من رواج معادن السودان ولوكان موسيو روسيجير حاضرا معه لسلاه وعلله بالاماني الكاذبة

« مطلب »
يأس المرحوم محمد علي من استخراج معادن الذهب بالسودان في نفسه وعوده الى مصر

وأما موسيو بوريانى فقد كان حاضرا وأخبر بالصدق ولم يدلس ولكن لكونه كان يهاب سيده كثيرا لم يستطع أن يذب عن نفسه فضرب عنه المرحوم محمد على صفحا وأنعم على جميع المهندسين والمدنجية عند ارتحاله من السودان بركوبة ورخت مذهب وما استثناه من هذا الانعام ولا غض عنه البصر ويئس من وجود الذهب المشبع من بلاد السودان ولكن لم يظهر له الحقد ولا صرف عنه النظر بل أمر الجمعية أن تمكث وتبحث مع غاية الدقة عن الطريقة اللازمة لاستخراج هذه المعادن فكان العسكر المحافظون على أهل هذه الغزوة الدلية يعتقدون أن سيدهم أبقى هؤلاء المهندسين رسما فقط وان اشغال هؤلاء المهندسين ليست الاصورية فكانوا الايساعدونهم على اشغالهم ولا يصرفون همتهم في اعطاء ما يلزم لتتميم التجربة وكان قد تعين لادارة المعدن خير الدين باشا فكان يسىء السلوك لانه كان مكرها على الاقامة بتلك الديار وترك وطنه فهذا كان يعتقد ان الافرنج المدنجية هم السبب فى طول غربته فكان يجاهر بتقريعهم وتوبيخهم

ثم ان موسيو ليفبره أصابته حمى شديدة وكان قد وعده المرحوم محمد على أن يعطيه بعد تمام الاشغال رتبة ميرالاي فكان على غاية من الاجتهاد فات بالحمى وقبل موته صرح بأن تقرير الجمعية بعدم تربيح المعادن فى السودان ليس قطعيا ولا ينبنى عليه حكم وانه لا ينبغى ان يقطع الرجاء بالكلية من ربح هذه المعادن لاسيما وان موسيو بوريانى قرر تقريرا شفاهيا يؤيد رأي ليفبره السابق وعبارته ليس من ارباب الجمعية تماما من هو معتمد فى قوله فيما يخص قيمة ما يحصل من الرمال من الذهب حيث جميعا لا معرفة له تامة باستخراج المعادن فلسنا متبحرين فى هذا الفن بل الظاهر انه لو صارت الادارة على صورة

« مطلب »
موت رئيس المدنجية وافادته قبل موته ان تقرير الجمعية بعدم ربح استخراج المعادن لا يعول عليه

حسنة مستقيمة وصدق الممتحنون في تجاربهم وصار الاجتهاد في الاستخراج على وجه مرضي فلا بد أن تظهر نتائج عظيمة خصوصا اذا كان الماء وبذلك من المدنجية المتبحرين في هذا العلم ولهم سابقة عمليات صحيحة واما سفر نا هذا فلم يكن الا محض مناظرة واطلاع على نفس المحال المدنية بالبلاد السودانية مجردا عن راحة الفكر والبدن وقوله في محله لان المرضى كان دائما عرضة لاغارة السودان الهمل وكان بدون أهبة ولا ذخيرة وكانت عساكر الاتراك المحافظين على المدنجية أشد عليهم عداوة من السودان

فبهذا لم يمكن الوقوف على حقيقة الحال من الاهالي وكانت التجاريب تعمل بالخوف والعجلة وكانت الامراض ايضا من جملة الموانع ومع ذلك فقد صح بتجربة موسيو بورياني التي استمرت نحو ثلاث سنوات أن بعملية استخراج المعادن بالعبيد يعطي قنطار الرمل نحو خمس حبات من الذهب مع قبول الزيادة عن ذلك لو وجدت المعرفة والصداقة ومع هذا كله فنقول ان ذهب السودان لا ينكر وأن الاقطار السودانيه التابعة للحكومة المصرية وان كانت دون أقاليم افريقة بكثير فهي كمصر ان لم تسعفها المعادن المتطرفة فمعادن الزراعة فيها محققة ولولا التغافل والتكاسل من بعض الحكام واتصاف بعض آخر بالجهل التام لكانت ايراداتها ومحصولاتها على اكمل نظام فان خصوبة ارضها عجيبة وحيواناتها عجيبة واخشابها جيدة ومعادنها متعددة فالمواليد الثلاثة فيها على غاية من الكمال

« مطلب » ان معادن الذهب بالسودان لا تنكر وان الزراعة تفلح فيها اذا اعتني بها وان خيراتها كثيرة

لا نظر الى ما يعتقده عامة الناس من أن اكثرها رمال فقد يوجد من الاهالي من يترافع مع اخصامه في ملكية ألوف من الفدادين لنفسه ويريد نزعها من أبناء جنسه وفي ايام حكمدارية حضرة لطيف باشا أعطي الف فدان لاحد سناجق وهو دموزاغا من البور فلم تبرح مدة يسيرة أن صارت من المعمور

وصح فيها جميع البقول والغلال لاسيما زرع الحنطة الذي في تلك البلاد له بال وهناك اراض بمديرية دنقله لايعلوها النيل الافي زمن الفيضان الغزير وليست داخلة في دفتر مكلفات الاقليم وقد التمس زراعتها في سنة من السنين بعض الاهالي بدفع المشور فزرعها من صنف الذرة فأدت محصولا فوق الاربعين الف أردب فدفع الى شونة الميري عشرها فصار صنف الذرة رخيصا في هذه السنة فشكا الاهالي المزارعون كساد محصولاتهم فأبى مدير تلك الجهة المتولى في ذلك الوقت أن يعطيها بعد ذلك لاحد وأحب أحد الكباشات المستخدم بتلك الجهة ان يتعاهدها في كل سنة بقيمة مكافئة لعشرها السنوى فلم يساعد على ذلك وأمثال هذه الاراضى كثيرة جدا والاراضى منبتة للنباتات الناتجة بنفسها بدون عمل مع قبول أهلها للتمدن الحقيقي لدقة أذهانهم فان اكثرهم قبائل عربية لاسيما الجعليين والشاقية وغيرهم فان اشتغالهم بما ألفوه من العلوم الشرعية شغل رغبة واجتهاد ولهم مآثر عظيمة في حسن التعلم والتعليم حتى ان البلدة اذا كان بها عالم شهير رحل اليه من البلاد الاجنبية للمجاورة من طلبة العلم العدد الكثير والجم الغفير فيمنه أهل بلدته على ذلك بتوزيع المجاورين على البيوت بحسب الاستطاعة فكل انسان من الاهالى يخص الواحد أو الاثنين فيقيمون بشؤنهم مدة التعلم والتعليم

« مطلب » استعداد أهالي السودان للمعارف والكمالات ووجود التعاون عندهم على طلب العلم

ولقد رأيت في طريقي ببلاد الشاقية بمديرية دنقله حرم سنجق يدعى الملك الازرق تسمى السيدة أمونة تقرأ القرآن التشريف وبسمة مكتبين أحدهما للغلمان والثاني للبنات كل منها لقراءة القرآن وحفظ المتون تنفق على المكتبين من كسبها بزراعة القطن وحلجه وغزله وتشغيله ولا ترضى ان يشوبه شيء من مال زوجها وبجانب المكتبين خلوات لمن يختلي من العباد

والزهاد الحاضرين من أقصى البلاد لاداء فريضة الحج الشريف ومنزلها كالتكية للفقراء وابناء السبيل والقاصدين بيت الله الحرام وامثال ذلك كثير هناك في ظل الحكومة المصرية

ومما يدل على حسن مقاصد المرحوم محمد على أنه في عودته من البلاد السودانية استصحب معه عدة غلمان من أبناء وجوه السودان الى مصر وأدخلهم في المدارس المصرية ليتعلموا مبادى العلوم ثم نقلهم الى مكتب الزراعة ثم الى مدرسة الالسن وكان القصد من ذلك أن يذوقوا طعم المعارف التمدنية لينشروها في بلادهم وقد شاهدت بعضهم مستخدما بمديرية الخرطوم بوظيفة كاتب ويغلب على الظن انه بواسطة تنظيمات سعادة شاهين باشا الاخيرة المؤسسة على حب تقديم الجمعية المدنية وهمة سعادة جعفر باشا صاحب الانظار التمدنية تمكن ايصال التقدمات المصرية بعناية الحكومة المصرية في اطراف وأكناف تلك البلاد التي هي الآن لم تخل قراها عن نوع التقدم في الحضارة مع مساعدة الوارد والمتردد اليها في هذه الايام لقصد الزيارة أو التجارة فانها اقرب للتمدن من اقاليم افريقة بكثير وجميع أهلها ماعدا بعض الجبال لسانهم عربي فصيح حيث ان جلهم من نسل العرب المنتجعة القبائل قديما يحفظون احسابهم وانسابهم وفيهم كل الاستعداد وذكاء الفطنة وانما يحتاجون في حصول المطلوب الى استئلاف النفوس وتأليف القلوب من حكام ارباب صداقة وعفاف وعدل وانصاف لا تحملهم المطامع الدنيوية على محض الالتفات الى الامور الدنية بل توجد القابلية أيضا في الاهالي المتأصلين

ويدل على هذا ما حكي للخليفة أبي جعفر المنصور مما جرى بين عبد الله بن مروان بن محمد وبين ملك النوبة مما ذكره المؤرخون في حق الملك المذكور مع انه كان من ملوك السودان المتأصلين والجنس القطين اذ لم تكن القبائل العربية انتجعت الى السودان ولا تسلط على هذا الاقليم ملك من أهل الاسلام ولا من العربان وهو ان أبا جعفر المنصور حضره ليلة عبد الله بن علي وصالح بن علي في نفر معهما فقال عبد الله بن علي يا أمير المؤمنين ان عبد الله بن مروان بن محمد لما هرب الى بلاد النوبة جرى بينه وبين ملكها كلام فيه أعجوبة سقط عني حفظه فان رأى أمير المؤمنين ان يرسل اليه بحضرتنا ويسأله عما ذهب عنا وكان في الحبس فأرسل اليه أبو جعفر فلما دخل قال له يا عبد الله قال لبيك يا أمير المؤمنين قال اخبرني بحديثك وحديث ملك النوبة قال يا أمير المؤمنين هربت بمن تبعني باثاث سلم لي الى بلاد النوبة فلما دخلت بلادهم فرشت ذلك الاثاث فجاء أهل النوبة ينظرون الي متعجبين مني الى ان بلغ ملك النوبة حضوري فجاء ومعه ثلاثة نفر فاذا رجل طويل آدم أغبر مسنون الوجه اي أملسه فلما قرب مني قعد على الارض وترك البساط قلت ما يمنعك ان تجلس على اثاثنا هذا قال اني ملك وحق لكل ملك ان يتواضع لعظمة الله اذا رفعه الله قال ثم نظر الي فقال لم تشربون الخمر وهي محرمة عليكم فقلت عبيدنا واتباعنا يفعلون ذلك بالجهل منهم قال فلم تلبسون الديباج والحرير وتحلون بالذهب وهو محرم عليكم فقلت زال عنا الملك وانقطعت المادة واستنصرنا بقوم من الاعاجم كان هذا زيهم فكرهنا الخلاف عليهم فاطرق يقلب يده ويقول عبيدنا واتباعنا وأعاجم دخلوا في ديننا يكرر الكلام على نفسه ثم نظر الى فقال

بس ذاك كما تقول ولكنكم قوم ملكتم فظلمتم وتركتم ما به أمرتم وركبتم ما عنه نهيتم فسلبكم الله العز وألبسكم الذل بذنوبكم ولله فيكم نعمة لم تبلغ غايتها بعد وانا أخاف أن تنزل بكم النقمة وانتم ببلادي فتصيبني معك فارتحلوا عن جواري انتهى فقام أبو جعفر وقد ذا من كلامه فدخل حجرته قال الله تعالى واذا أردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا قال المفسرون فى الآية حذف دل عليه باقيها أي أمرنا مترفيها أي منعميها بالطاعة فخالفوا ففسقوا فدمرناها تدميرا انتهى فيا لها موعظة بيضاء من ملك أسود ولعل ملوكهم في الازمان القديمة كانوا كصلحائهم الآن على قدم عظيم في الاستقامه وطريقة قويمة وأما موضع معرض الذم فى حق اهل السودان فهو متوجه على جمهور اهل البلاد وهم العبيد والولدون ومن يحذو حذوهم من رعاع أهالي تلك البلاد ارباب الدناءة والخسة

« مطلب » موعظة ملك السودان لمروان بن محمد حين التجا اليه

وفى سنة سبع وستين ومائتين والف كنت سافرت الى السودان بسعي بعض الامراء بضمير مستتر بوسيلة نظارة مدرسة بالخرطوم فلبثت نحو الاربع سنين بلا طائل وتوفى نصف من جمعيتى من الخوجات المصريين فنظمت هذه القصيدة برسم المرحوم حسن باشا كتخدا مصر رجاء نشلي من أوحال تلك الاحوال فلم يتيسر ارسالها ثم أسعد الحال بتبديل مر الماضى بالحال الذى هو حال وذلك عقب تخميسى لقصيدة نبوية برعية متوسلا فيه بشفاعة خير البرية وهاهي القصيدة الاولى

« مطلب » سفري السودان وطي قصيدة نشرا لاحوال تلك البلاد وعوائدها وتخميس قصيدة وعقب منها نسيج امرح ببركة مدح خير البرية

الا فادع الذى ترجو ونادي ... يجيبك وان تكن فى أي نادي
فمن غرس الرجا فى قلب حر ... أصاب جنى النجا غب الحصاد

ومن حسن الخلائق سله صنعا　　جميلا فهو أوفى بالوداد
وحدث عن وفا خل وفى　　بمرسل حبه فى القلب بادى
ورب أخ تلاهى عنك يوما　　فرب وداده أبدا ودادى
بنو الآداب اخوان جميعا　　وأخدان بمختلف البلاد
خلائف عنصر كل تغذى　　بأثداء العلا دون اقتصاد
وآداب الفتى تعليه يوما　　الى الانجاد من بعد الوهاد
وآدابى تسامى بي الدراري　　على شمثي وتبلغنى مرادى
ومالي لا أتيه بها دلالا　　وقد دلت على نهج الرشاد
الى سبل الفخار تقود حزمى　　وفى ميدانه عزم انقيادى
عصاى طريف المجد سعيا　　عظاى شريف بالتلاد
سوى نسب العلوم لى انتساب　　الى خير الحواضر والبوادى
حسينى السلالة قاسمى　　بطهطا معشري وبها مهادى
لسان العرب ينسب لى نجارا　　ويدنيني الى قس الايادى
وحسبي انني أبرزت كتبا　　تبيد كتائبا يوم الطرادى
فنها منبع العرفان يجرى　　وكم طرس تحبر بالمدادي
على عدد التواتر معرباتي　　تنى بفنون سلم او جهاد
وملطبرون يشهد وهو عدل　　ومنتسكوا يقر بلا تمادى
ومفترفو قراح فرات درسي　　قد اقترحو سقاية كل صادي
ولاح لسان باريس كشمس　　بقاهرة المعز على عمادى
ومحيي مصر أحيا كان قدري　　وكافأنى على قدر اجتهادى
سأشكر فضله مادمت حيا　　وماشكري لدي تلك الايادى

رعى الحنان عهد زمان مصر ... وامطر ربعها صوب المهاد
رحلت بصفقة المغبون عنها ... وفضلى فى سواها في المزاد
وما السودان قط مقام مثلي ... ولا سلماي فيه ولا سعادى
بها ريح السموم يشم منه ... زفير لظى فلا يطفيه وادي
عواصفها صباحا أو مساء ... دواما في اضطراب واطراد
ونصف القوم أكثره وحوش ... وبعض القوم اشبه بالجماد
فلا تعجب اذا طبخوا خليطا ... بمخ العظم مع صافى الرماد
ولطخ الدهن فى بدن وشعر ... كدهن الابل من جرب القراد
ويضرب بالسياط الزوج حتى ... يقال اخو بنات فى الجلاد
ويرتق ما بزوجته زمانا ... ويصعب فتق هذا الانسداد
واكراه الفتاة على بغاء ... مع النهى ارتضوه باتحاد
نتيجته المولد وهو غال ... به الرغبات دوما باحتشاد
لهم شغف بتعليم الجواري ... على شبق مجاذبة السفاد
وشرح الحال منه يضيق صدرى ... ولا يحصيه طرسى أو مدادي
وضبط القول فالاخيار نزر ... وشر الناس منتشر الجراد
ولولا البيض من عرب لكانوا ... سوادا فى سواد فى سواد
وحسبي فتكها بنصيف صحبي ... كأن وظيفتي لبس الحداد
وقد فارقت اطفالا صغارا ... بطهطا دون عودى واعتيادى
أفكر فيهم سرا وجهرا ... ولا سمري يطيب ولا رقادى
وعادت بهجتي بالنأى عنهم ... بلوعة مهجة ذات اتقاد
أريد وصالهم والدهر يأبى ... مواصلتي ويطمع فى عنادي

وطالت مدة التغريب عنهم ... ولا غنم لدى سوى الكساد
وما خلت المعزز يريد ذلي ... ولا يصغى لاخصام لداد
لديه سموا بالسنة حداد ... فكيف صغى لألسنة حداد
مهازيل الفضائل خادعوني ... وهل في حربهم يكبو جوادى
وزخرف قولهم اذ موهوه ... على تزيينه نادى المنادي
فهل من صيرفى المعنى بصير ... صحيح الانتقاء والانتقاد
قياس مدارسى قالوا عقيم ... بمصر فما النتيجة فى بمادى
وكان البحر منهج سفن عزمى ... فكدت الآن أعرف فى الثماد
ثلاث سنين بالخرطوم مرت ... بدون مدارس طبق المراد
وكيف مدارس الخرطوم ترجى ... هناك ودونها خرط القتاد
نعم ترجى المصانع وهى احرى ... لتأييد المقاصد بالبوادي
علوم الشرع قائمة لديهم ... لمرغوب المعاش أو المعاد
خدمت بموطنى زمنا طويلا ... ولي وصف الوفاء والاعتماد
فكنت بمنحة الاكرام أولى ... بقدر للتعيش مستفاد
وغاية مطلبى عودى لاهلى ... ولو من دون راحلة وزاد
وصبري ضاع منذاشتد خطبي ... وهون الخطب عند الاشتداد
وكم حسنا دعوت لحسن حالى ... وكم نادى فؤادي يا فؤادى
وارجو صدره صدر لشرح صدري ... وجهد الطول فى طول النجاد
وكم بشرت أن عزيز مصر ... تفوه بالنكاك ولم يفاد
وحاشا أن أقول مقال غيرى ... وذلك ضد سرى واعتقادى
لقد أسمعت لو ناديت حيا ... ولكن لا حياة لمن تنادي

وفي دار المزازة لى عياذ يقيني نشب أظفار العوادي
أمير كبار أرباب المعالى فتى في شرعة العرفان هادي
عروف ألمعي لا يبارى بمضمار العلا طلق الجياد
بوافر فضله الركبان سارت وغنى باسمه حاد وشاد
وقالوا فى معارفه فريد فقلت وفي الرياسة ذو انفراد
وفى الاحكام قالوا لا يضاهى فقلت وذو تحر واجتهاد
وقالوا فى الذكاء ذكا فقلنا وثاقب ذهنه وارى الزناد
وقالوا وافق الحسن المثنى فقلت وكم حدا بالوصف حاد
وبحر حجاه يبدو منه در لغواص العلوم بلا نفاد
فيا حسن الفعال أغث أسيرا بسجن الزنج يحكى ذا القياد
عليه دوائر الاسواء دارت وطالت وفق أهواء الاعادى
وقد فوضت للمولى أمورى وذا عين الاصابة والسداد
عسى المولى يقول امضوابعيدى فيقضى لى بتقريب ابتعادى
وما نظم القريض برأس مالى ولا سندى أراه ولا سنادي
ووافر بحره ان جاد يوما فممدوحي له وصف الجواد
وليس لبكر فكرى من صداق سوى تطليف عودى في بلادى
فا أسمى ذراها من بيوت رزان فى حماسها شداد
ومسك ختامها صلوات ربي على طه الشفع في المعاد
وآل والصحابة كل وقت مواصلة الى يوم التناد

وأما تخميس القصيدة البرعية التى عبق مسك ختامه أرج الفرج فهو هذا

تبدى الغرام وأهل العشق تكتمه ودمعه جدا لا من يسلمه

« مطلب » تخميس القصيدة البرعية التي مطلعها خل الغرام لصب دمعه دمه

ما هكذا الحب يامن ليس يفهمه   خل الغرام لصب دمعه دمه
حيران توجده الذكرى وتعدمه

دع قلبه فى اشتغال من تقلبه   وليه في اشتغال من تلبيه
واصنع جميل فعال فى تجنبه   واقنع له بعلاقات علقن به
لو اطلعت عليه كنت ترحمه

فؤاده في الحمى مسعى جآذره   وفى نجوم السما مرعى نواظره
فيا عذولا سعى فى لوم عاذره   عذلته حين لم تنظر بناظره
ولا علمت الذى فى الحب يعلمه

أما ترى نفسه مرعى الهوى انتجعت   وساقها الحب فانساقت ولا رجعت
فاعذر أو أعذله ما ورق الحمى سجعت   لو ذقت كأس الهوى العذرى ما هجعت
عيناك فى جنح ليل جن مظلمه

ولا صبوت لسلوان ولا ملل   ولا جنحت الى لوم ولا عذل
ولا انثنيت لخطب فى الهوى جلل   ولا ثنيت عنان الشوق عن طلل
بال عفت بيد الانواء ارسمه

فكيف ناقشته في أصل مذهبه   وما تحريت تحقيقا لمطلبه
فو الذى صانه عن وصمة الشبه   ما الحب الا لقوم يعرفون به
قد مارسوا الحب حتى هان معظمه

تجيبه ان دعا للوجد أمته   وعزمة بينهم سام وهمته
قوم لديهم بيان الحب حجته   عذابه عندهم عذب وظلمته
نور ومغرمه بالراء مغنمه

يا من دعاه هواه أن يباشرهم   أسلك مشاعرهم والزم شعائرهم

وان تكلفت أن تدري أشارهم   كلفت نفسك أن تقفو مآرم

والشيء صعب على من ليس يحكمه

في حب ليلى خلى البال يعذلني   ان لم أغالط فما ينفك يخذلني
فو الذي منزل العشاق ينزلني   اني أوري عذولي حين يسألني

بزينب عن هوى ليلى فاوهمه

لم في الهوى والنوى قاسيت من الم   وكم ملأت طروس العشق من كلم
وكم سهرت سمير النجم في الظلم   وطالما سجعت وهنا بذي سلم

ورقاء تعجم شكواها فأفهمه

ماالسحب الادموع العين باكية   ولا لظى غير احشائي محاكية
لاشك أني أناغي الورق شاكية   وثني عذبات البان حاكية

علم الفريق فادري ما تترجمه

امام عشق تولى نصر ملته   على الوشاة وفاداها بمهجته
نادى وقد ذاب وجدا مع ثنيته   يا من أذاب فؤادي في محبته

لو شئت دوايت قلبا أنت مسقمه

متى بربع صحابي أبلغ الاملا   فكم سقى ماء دمعي السهل والجبلا
وما شفى معهدا من ساكنيه خلا   سقى الجبال فرعن الطود منه الى

شعب الريحات هامي المزن مرهمه

ملث غيث يسح الوابل الهطلا   وصيب طيب يستخصب الطللا
أضحى بنهمر الانواء منهملا   وبات يرفض من وادي الخزام على

وادي ارام وما والى يلملمه

حيا منازلها فيض الحيا وملا   أرجاءها من بروق يبتسمن حلا

ولا عداعن رباها الجود اذ نزلا يسوقه الرعد من خير البطاح الى
أم القرى ورباح البشر تقدمه
وسمى جود سريات نجائبه ولى عهد مربعات رغائبه
ووا كف بالندى تكي سواكبه وكلما كف اوكات ركائبه
باداه بالرحب مسماه وزمزمه
مادر من قبله غيث يعارضه ولا اضرت بمسراه عوارضه
تخاله وهو لاريح يناقضه لما الث على البطحاء عارضه
علا المدينة برق راق مبسمه
برق بواسمه فى الجو قد سطعت فقهقه الرعد بالنبرا وقد خشعت
والرجع سح من الخضرا وما جمعت سقى الرياض التى من روضها طلعت
طلائع الدين حتى قام قيمه
مغارب الارض طرا أومشارقها تسمى الى طيبة منها خلائقها
مدينة العلم هل تخفى حقائقها حيث النبوة مضروب سرادقها
والنور لا يستطيع الليل يكتمه
يلوح في روضة مأثورة الشرف درى كوكبها يجلو دجى السدف
والبدر يطلع فى افق بلا كلف والشمس تسطع فى خلف الحجاب وفى
ذاك الحجاب أعز الكون أكرمه
يازائرا قبر خير البدو والحضر انعم ترى تربه المعشوشب النضر
يلقاك حيا بأهنى عيشة الخضر محمد سيد السادات من مضر
خير النبيين محي الدين مكرمه
عرج بساحته ينحك تكرمة فلا تخف بعدها بغيا ومظلمة

هذا المشفع يوم العرض مرحمة　فرد الجلالة فرد الجود مكرمة
فرد الوجود أبر الكون أرحمه

من في صباحته يحكيه مبتسما　من في ملاحته حاز البها وسما
كم أقسم الحق باسم المصطفى قسما　نور الهدى جوهر التوحيد بدر سما
المجد واصفه بالبدر يفلمه

طيب عنصره طابت سريرته　شمائل المجد دون الحد سيرته
وسورة الفتح مثل الحمد سورته　من نور ذي العرش منشاه وصورته
ومنشأ النور من نور بجسمه

من لاذ من فزع بالهاشمي أمن　أو حاد عنه فمن سبل الرشاد عمي
بالفضل قد خصه ولا دوهو قمن　ومودع السر في ذات النبوة من
علم وحلم واحسان يقسمه

ما حكمة الله الا تعجز الحكما　قد أبرزت للورى أسمى الورى عظما
لب اللباب تسامى أصله ونما　فذاك من ثمرات الكون اطيب ما
جاد الوجود باعلاه واعلمه

سيوفه بالردى نحو العدا لمعت　وكفه بالندى قبل الندا همعت
صفوفه في المداروم الهدى اجتمعت　فما رأت مثله عين ولا سمعت
اذن كأحمد أين الآن نعلمه

لا تمتز روما وتركا اوجراكسة　لحسنه ان في هذا مواكسة
تقول آمنة فيه منافسة　أضحت لمولده الاصنام ناكسة
على الرؤس وذاق الخزي مجرمه

فلا ترى الفرس للنيران جاحمة　بعد الخمود ولا الانوار لائحة

والمانوية لا تنفك نائحة　　واصبحت سبل التوحيد واضحة
والكفر يندبه بالويل مأتمه

كم ظلمة عند اهل الزيغ كامنة　　قد انجلت بيد للنفع ضامنة
وعصبة من هجوم الروع آمنة　　والارض تبهج من نور ابن آمنة
والعدل ترمي تنور الجور أسهمه

فلا ترى كاهنا للغيب يسترق　　كلا ولا ماردا الا ويحترق
والجن خابوا الرجا بل مسهم فرق　　وان يقم لاستراق السمع مسترق
رصدنه أنجم الارجاء ترجمه

فكم تحدى وأبدى فى دلالته　　من معجزات توالت فى رسالته
فقل لطاغ تمادى في ضلالته　　ان ابن عبد مناف من جلالته
شمس لافق الهدى والرسل أنجمه

ماجاء من سلب الاعدا غنيمته　　به قتادة قدردت كريمته
فى كل آونة تزداد قيمته　　العدل سيرته والفضل شيمته
والرعب يقدمه والنصر يخدمه

فى حومة الدين أصمى البغي والجدلا　　وجندل الكفر حتى صار مبتذلا
بمم طويل نجاد حكمه عدلا　　أقام بالسيف نهج الحق معتدلا
سهل المقاصد يهدى من يمه

يا صاح كن برسول الله مقتديا　　في فعله وبنور الحق مهتديا
فكم أباد من الباغين معتديا　　وكما طال ركن الشرك منتهيا
فى الزيغ قام رسول الله يهدمه

بسعد طالعه تسمو كواكبه　　وطالما ابتهجت زهوا مواكبه

سل البراق عاذا فاز راكبه سارت الى المسجد الاقصى ركائبه
يزفه مسرج الاسرا وملجمه

سرى به وهو فى أقصى تعجبه وفاز طه بأعلى المجد اعجبه
له انجلا ما توارى فى تحجبه والشوق يهتف يا جبريل زج به
فى النور والنور مرقاه وسلمه

في رؤية الرسل ليلاكم قضى اربا وكم دنا وتدلى ثم واقتربا
لقد رأى الآية الكبرى ومااضطربا والعرش يهتز من تعظيمه طربا
اذ شرف العرش والكرسي مقدمه

اعتز بالله حبا فى معزته وحل فى الملاء الاعلى بحوزته
فكيف فازني شطر فوزته والحق سبحانه فى عز عزته
من قاب قوسين أو أدنى يكلمه

فى السبع فاز بخمس فوز منصرف بأجر خمسين يسدى شكر معترف
ونال ما نال من مجد ومن ترف فكم هنالك من عز ومن شرف
لمن شديد القوى وحيا يعلمه

كفار مكة ما كانت مجوزة لا زال يمنح آيات معززة
حتى اذا جاء بالتنزيل معجزة بل اصبحت بالاحاجي فيه ملغزة
يمحو الشرائع والاحكام محكمه

اجاب كل مصيح بالسجود كما آيانه أخرستهم منطقا وفما
وحيث كل لديها القوا السلما هانت صفات عظيم القريتين وما
يأتيه جهلا ابو جهل ويزعمه

فظالما بالغوا فى السب أو ثلموا عرضا وأنفسهم والله قد ظلموا

لوميزوا قدرهم من قدره سلموا   حال السهى غير حال الشمس لو علموا

بل أهل مكة فى طغيانهم عمهوا

عمى البصائر عن قدر وعن قدر   صم المسامع عن تقدير مقتدر

فمن تخلف فى ورد وفى صدر   فاصدع بأمرك يا ابن الشم من مضر

فقد بعثت لانف الشرك ترغمه

من يبغ شأوك فى قاب الكمال يمن   بحظ منهزم يكبو وعجز زمن

لك الشفاعة مولاك الكريم ضمن   لك الجميل من الذكر الجميل ومن

كل اسم جود عظيم الجود أعظمه

ففى البداية كنت السيد الحكما   وفى النهاية حزت الحكم والحكما

فرجه ودع الكهان والحكما   يا ايها الآمل الراجي ليهنك ما

ترجوه ذا كعبة الراجى وموسمه

يمم ضريحا اذا ما قام يحصره   عاد ملائكة الرحمن تنصره

روضا تباهت به في الدهر أعصره   قبرا أشاهد نورا حين تبصره

عيني وانشق مسكا حين الثمه

خضم جود تناهى فى غزارته   فيه الامير برىء من امارته

من لى ولو بنصيب من خفارته   كم استنبت رفاقي فى زيارته

عنى وما كل صب القلب مغرمه

قلبي طليق اللقا جسمى مقيده   فليت شعري متى يفديه سيده

كم أمه زائر مثلي يؤيده   وكم تصافحه من لا يدى يده

ولا فمي عند تقبيل الثرى فمه

أراه كالبدر فى العلياء أرصده   قرين بعد وبالآمال أقصده

من للمريد وقد أقصاه مرشده　مني أناديه من قرب وأنشده
قصيدة فيه أملاها خويدمه
حديثة السن ما نيطت تمائمها　نضيرة الغصن قد غنت حمائمها
راجت حواسدها جارت لوائمها　مهاجرية افترت كمائمها
عن ثغر در لسان الحال ينظمه
عذراء منذورة فى خدمة الحرم　عسى يكون بها صفح لمجترم
ويبلغ القصد قبل الموت بالهرم　كم يأمل الروضة الغراء ذو كرم
يرجو الزيارة والاقدار تحرمه
لما تجنى زمانى الذنب وافتعلا　وابيض مسود شعر الرأس واشتعلا
قصدت من جل فى سلطانه وعلا　مستعديا بحبيب الزائرين على
دهر تنكر بالاهمال معجمه
هل سام نفرك انسان ولا ملك　أو رام قدرك سلطان ولا ملك
فان ألم زمان خطبه حلك　فنم بعيدك يا شمس الوجود وكن
حماه من كل خطب مر مطعمه
فكم سقاه الردى اقذى مشاربه　من حيث ساق له ادهى نوائبه
فاجعل زيارته أبهى مناقبه　وادع الاله اذا ضاق الخناق به
ما خاب من أنت فى الدارين مكرمه
أرجوك نصرة اعزاز موزرة　على هوى النفس اذ كانت معذرة
وقد توالت جيوش الهم منذرة　يا سيد العرب العرباء معذرة
لنادم القلب لا يغنى تندمه
الى حماك ضعيف أمره وكلا　وكم مليك حمى بالجاه رعى كلا

أصبحت كلا على نعماك بل ثكلا ... أثقلت ظهري بأوزاري وجئتك لا
قلب سليم ولا شيء أقدمه
سلكت في هذه الدنيا سلوك غبي ... وما غدت ومن الاخرى على رهب
لكن تعلقت في أذيال خير نبي ... ياصاحب الوحي والتنزيل لطفك بي
لا زلت تعفو عن الجاني وتكرمه
وفاعة يشتكي من عصبة سخرت ... لما رأت أبحر العرفان قد زخرت
فارفع ظلامة نفس عدلك ادخرت ... وهاك جوهر ابيات بك افتخرت
جاءت اليك بخط الذنب ترقمه
قبول تخميسها فضل عليه ومن ... لانه زمن قاسى صروف زمن
تلا مؤلفها يرجو الخلاص ثمن ... فانهض بقائلها عبد الرحيم ومن
يليه ان هم صرف الدهر يهزمه
فاكشف بحقك عند اليوم مظلمة ... من الهموم غدت كالليل مظلمة
وانظر اليه بعين الفضل مكرمة ... واجعله منك بمرأى العين مرحمة
اذا ألم به من ليس يرحمه
ارحم غريبا بعيد الدار غائبه ... حبل النوى حمل الأثقال غاربه
فصل رغائبه وافصل غرائبه ... وان دعا فأجبه واحم جانبه
ياخير من دفنت في الترب أعظمه
أسير بين قليل الصبر قاصره ... وعصره بفراق الاهل عاصره
وانت ذو كرم لا شيء حاصره ... فكل من أنت في الدارين ناصره
لم تستطع محن الدارين تهضمه
وهذه حاجة الملهوف بحملها ... وأنت أعلم والمولى يحملها

وتشهى وقريب العفو يشملها　　عليك مني صلاة الله أكملها

ياماجدا عمت الدارين أنعمه

يسقي البرايا جميعا ري عارضها　　انسا وجنا ووحشا في مرابضها

تشفي الخلائق طراً من تمارضها　　يبدي عبيرا ومسكا مسك عارضها

ويبدأ الذكر ذكراها ويختمه

وها تحية ربي أكرم الكرما　　تخوض بحرك ياخير الورى كرما

سواطع النور منها تملأ الحرما　　ما رنح الريح أغصان الاراك وما

حامت على أرق الحنان حومه

تحية بصلات البر عائدة　　بالخير موصلة للرشد قائدة

تثني عليك وليست عنك حائدة　　وتشتمل فتشمل الآل جائدة

بكل عارض فضل جاد مسجمه

رفاعة خمس المنظوم مرتجلا　　قريضه وهو بالخرطوم قد وجلا

قالت هواتفه بالله كن رجلا　　فان جدك طه للخطوب جلا

فأمر خطبك هذا الجد يحسمه

ما ذا العناء وأهل البيت قد كفلوا　　عودا جميلا وما عن وعدهم غفلوا

لا تعن بالغير جدوا السير او قفلوا　　هم أجمعوا أمرهم للكيد واحتفلوا

والامر لله ما يرضاه يحكمه

ومع ان مدة الاقامة تلك الجهات كانت تجرد الحرمان من النفع وطني فقد اقتضت الحكمة الالهية ان سفرسيء لم يضع هباء منثورا فقد اعتنيت في مدتي هنالك بترجمة وقائع تليماك وهو بكل من في حماك وهو الذي صار طبعه فيما بعد في مدينة بيروت ولا شك انه من انفع كتب الآداب

والحكم حيث اعتني بترجمته في سائر لغات الامم وكذلك قد تعلم فقهاء الخرطوم ممن معي من المشايخ القراء تجويد القرآن الشريف وعلم القراآت حتى صاروا ماهرين فى ذلك وفى آخر الامر تنظمت المدرسة نحو تسعة شهور وتعلم فيها التلاميذ من ابناء المصريين القاطنين هناك طرفا من النحو والحساب والهندسة وحسن الخط وظهرت نتيجة ذلك فى الامتحان العام والآن حين جددت الحكومة الاسمعيلية عدة مدارس بالاقاليم السودانية توظف بها البعض من هؤلاء المتعلمين ولا بد انه يرجى نجاح تلك المدارس بداعي ان تأسيسها مبنى على الاخلاص فى النية وحسن الطوية الخديوية

وبالجملة فمتى زالت من السودان وسائل الوخامة والسقامة ودخلت اهاليها بحسن الادارة فى دائرة الاستقامة صارت هى وديار مصر فى العمار كالتوأمين وفى ايناع الاثمار صنوين حتى ينشد لسان حالهما

نحن غصنان ضمنا عاطف الوجـــد جميعا في الحب ضم النطاق
فى جبين الزمان منك ومنى غرة كوكبيــة الائتـلاق

وقد لاح على قرب عمارتها علامة ظاهرة وهى فتح المدارس الخمسة من ابتداء الحكومة الاسمعيلية الباهرة وكذلك ارسالية اسماعيل بك الفلكى ناظر المهندسخانة والرصدخانة الى سواكن في رمضان سنة الف ومائتين وثلاثة وثمانين مع بعض المهندسين والرسامين لتعيين الطرق الحديديه المزمع على انشائها بالاقاليم السودانيه وارسالية بعض أرباب المعارف الانكليزية في سنة ١٢٨٦ لاستكشاف منابع النيل واعطاء معلومات خيرية كل هذا وامثاله دلائل قاطعة على ان السودان سيحظى عن قريب بالوسائل النافعة ولا شك أن سياحة المرحوم جنتمكان في بلاد السودان وان لم تفتح بها كنوز الذهب

فقد أدى فى حقها من البحث عنها ماوجب فاذا كانت الغايات لاتدرك فالميسور منها لا يترك فكأن لسان حاله يقول

سأضرب في بطون الارض ضربا وأركب فى العلا غرر الليالى
فاما والثرى وأصيب عذرا واما والثريا والمعالى

وفى الحديث اعملوا فكل ميسر لما خلق له وفي رواية فكل مهيأ لما خلق له وبالجملة فكان تهيؤه للمعالى عجيب

الحمد لله انني رجل مذ كنت لا تنقضى اعاجبي

« مطلب » ان المرحوم محمد على كان يجعل كسب المعالي دائما نصب عينيه وكان لا يحرم منها

وحسبه من الافعال العجيبة وقاية مصر من الاوبية بحسن النظافة وبالاحتراسات الحكمية وتجديد المطبعة لنشر المؤلفات العلمية وانشاء مسجد القلعة العامرة لتشييد المعالم الاسلامية وقطع دابر المفسدين للحصول على التأمينات العمومية ومع ذلك فكم ترك الاول للآخر وكم ابقى لمن بعده من تكميل المفاخر فلهذا وجب على الخلف تتميم مالم يتيسر فعله للسلف واعمال فكره فى استنتاج نفائس المنافع كما يعلم ذلك من فصول الباب التابع

الباب الخامس

في الأعمال الحسنة والاعمال المستحسنة من الاصلاحات المصرية بمقتضى اصطلاحات الحال العصرية وفيه فصول

الفصل الرابع

(في ذكر تقدم مصر في هذا الوقت الحالي)

من المعلوم ان مصر في هـذا العهد من احسن البلاد المشرقية حكومة وافضلها ادارة اذ فيها من كمال حسن الادارة والضبط والربط ما يفيد الامن على الارواح والاموال والاعراض كما في اعظم الممالك المشرقية والمغربية وفيها الصنائع آخذة في النمو والازدياد وما أنشىء فيها من سكك الحديد الكثيرة الفروع ومن الترع والجسور والقناطر زاد كثيرا في تجارتها وزراعتها ولولم يكن للحكومة الحالية الاحوض السويس العجيب والترعة الابراهيمية التي صار انشاؤها بالصعيد على وجه من السعة غريب لكفاها ذلك على رغم حاسدها المريب فناهيك بترعة كادت ان تكون بحرا وحفرها في اقرب مدة يكاد أن يعد سحرا وكم للحكومة الحالية غير ذلك من التجديدات والمآثر الخالدات فلو نظرت الى تحسين المحروسة بتوسيع الشوارع والمسالك وأنها في أقرب مدة صارت كاعظم مدن الدول الكبيرة والممالك لازدريت من تولى حكومة مصر من الملوك والخلفا ولصغر في عينك مجدهم الأثيل الذي ذهب جفاء واختفى فشأن مصر اليوم مما يغبط عليه فهي حرية أن تكون قدوة لجميع البلاد

« مطلب » توسيع الشوارع والمسالك

المجاورة لها وبالجملة فأرض مصر الاريضه الطويلة العريضة طيبة التربة كريمة النبت ومضافاتها من بلاد السودان جسيمة المقدار خصبة ايضا على الاكثر وتربتها أيضا معشوشبة فيها تعظم سعة الخديوية الجليلة المصرية بحيث لا تنقص في المقدار عن ثلث الممالك العثمانية فساحتها بمساحة الممالك العظيمة وجميع أهاليها واهالي البلاد الملحقة بها نحو ستة ملايين كل ذلك يجعلها مضاهية حساو معنى بعض الممالك المعتبرة في ميزان البوليتيقية

فلا غرو أن كانت بمزاياها وخصائصها منتظمة في سلوك أحاسن الممالك بل هي واسطة سلوك العقود الجوهرية والممالك الكبار وخير مالك ومن وقت ما حسن فيها مذهب الادارة والترتيب جاد مصدر ايرادها بالمحصول العجيب فمن قدره بزهاء مليون من الاكياس فقد أصاب حدسه وما حاد عن القياس

وأقوى الدلائل في الحالة الراهنة على طيب حال مصر وما يرجى لها في المستقبل من نمو الخير وانتهاء نحو الاصر ماهو جار الان من ازدياد تجارتها وامتداد معاملتها فان ما خرج منها الى البلاد الاجنبية سنة سبع وستين ومائتين وألف هجرية قد زاد الآن خمسة أضعاف على السابق والذى دخل اليها زاد ضعفين فاليوم صارت قيمة تجارتها الداخلة والخارجة جسيمة جدا من رؤس أموال وأرباح حتى أبلغها بعضهم نحو مائة وخمسين مليونا من الليرات وان كان هذا لا يخلو عن المبالغة

ولا تزال مصر بالتقدمات التحسينية المتشبثة بها الحكومة الحالية تنادى فى الازدياد وتتهادى بحسن سلوك سبيل الرشد والسداد فلا غرو وأن استحالت حالة الحكومة في أحوال متعددة الى أطوار حسنة متجددة ونهض بها حسن الجد والطالع الى أسمى الطوالع وأسنى المطالع فما أحسن

الحكومة التي أنعم الله علينا بمن يسارع في اعزاز الوطن وتبليغه مناه واعلاء الحي وتكثير غناه ولو بانفاق المال لتحسين الحال

أصون عرضي بمالي لا أدنسه ... لا بارك الله بعد العرض في المال
أحتال للمال ان أودى أحصله ... ولست للعرض ان أودى بمحتال

فالملك العاقل من يستطيب المتاعب في استحصال المؤنة ويستجلب المكاسب ليقوم أود وطنه ويتعهد شؤونه ويجتهد في تنمية الايراد والمصرف الى حد التعديل بسلوك أرشد طريق وأعدل سبيل حتى يبلغ السعي في التنمية درجة الموازنة والتسوية فاذا امتلأ الحوض وسقي الروض لطف السعي وذاقت الرعية حلاوة الري وظهرت ضخامة مصر التجارية ونظامها السياسية الفرس أصول المنافع الاساسية فان حسن الادارة والاقتصاد والتدبير باب عظيم لفتوح الخير الكثير وطريق لتأسيس الثروة وتمهيد الغنى ولتجديد النعمة وازدياد الهنا وكل ما يوجب حسن الثنا مما يحسن فيه قول الشاعر

بدائع من صنع القديم وحدث ... تأتي فيه المحدث المتأنق
اذا أنت من اعلاه أشرفت ناظرا ... تجيل عنان الطرف فيه وتطلق
وتجمع فيه كل حسن مفرق ... وشمل الاسى من حاضريه تفرق
فكم من غياض في رياض وجنة ... بها كوثر من مائها يتدفق

ولقد حصل في هذا الزمن الاخير في الحكومة توسيعات وتسخيرات عجيبة لم تتمكن منها المرحوم محمد علي وكان تمنى حصولها بعض المؤرخين حيث أبدى فيه ملحوظة لطيفة تفيد أنه لو ظفرت دار مصر بهذا التكميل لتم لها الدست وفازت بالحظ الجزيل فاتمناه المؤرخ المذكور تم في هذه الحكومة الحالية كما سنذكر ملحوظ ذلك في الفصل الثاني المتكفل لبيان مباني تلك المعاني

الفصل الثاني

ى ملحوظات عمومية تتعلق بالديار المصرية أبداها بعض من أرخ مصر من أرباب السياحة وحرض فيها على ما يلزم من تقديم التمدن بتحسين أحوال المنافع العمومية تجارة كانت أو زراعة أو فلاحة وهذا باعتبار ما كان كما لا يخفى على ذوى العرفان

ومضمون كلام هذا المؤرخ ان خصوبة أرض مصر واعتدال قطرها وصحو زمنها كل ذلك يؤذن باستعدادها الى الوصول لدرجة السعادة وأوج ثروة ومع ذلك فقد توالى عليها من منذ قرون عديدة عدة من الدول ولم يتشبث أحد من ملوكهم الى ابلاغها درجة كمال ولا مرتبة اعتدال وذلك لانها فى عهد الخلفاء كان يتولى عليها من العمال والنواب من لا يسلك أكثرهم في حسن الادارة والتدبير سبيل الصواب وانما كان النائب فاعلا مختارا يسيء معاملة الرعية بما عنده من المرخصية وربما حدث فى أيام نيابته اختلال جسيم يتسبب عنه الدمار واختلال العمار فقد رأى نيل مصر بعينيه أن رمال الصحراء والبرارى انهالت عليه وامتدت على جزء عظيم من الارض التى كان يرويها حتى أعقمت سواحله ببوار نواحيها وأفسدت رساتيقها وضواحيها

« مطلب » عدم الوقوف على حقيقة مصر لأرباب السياحة

وقد ازداد هذا الضرر وتجسم الخطب والخطر فى أيام حكومة سلاطين شراكسة وبقيت أيضا فى أيام الدولة العلية للاختلاف الواقع بين ولاتهم والمماليك الوجاقلية فقسدت مملكة مصر بين الفريقين وضاعت كضياع سفينة ذات الرئيسين ولم يصفها أرباب السياحة من المتقدمين والمتأخرين حق وصفها الصحيح بل تكلموا عليها بكلام ناقص فيما يتعلق بالتعديل والتجريح ولا وفوا لها بما يجب من الطب والعلاج ولا بينوا طرق التقدم والرواج

« مطلب » راى الفرنساوية حين تغلبهم على مصر في عمارها

ولما حل بها جيش الفرنساوية أمعن النظر فيها وعرف قيمة الطرق الماشية وان مصر لو حكمت بحكومة مماثلة لدول أوروبا المنتظمة لامكن تكثير أهلها وبلوغهم الى ثمانية ملايين متممة وانها قابلة لنمو الزراعة والصناعة والتجارة وأن أهلها فيهم القابلية لاجتناء ثمرات العقول وفوائد المهارة وقطرها مستعد لتحسين الصحة العمومية بطرد الامراض الوبائية وماء النيل اذا توزع على الاراضى بالوجه اللائق يروي من الفدادين فوق اربعة ملايين وتكون كثيرة المحصول فان فلاحتها المختلفة تمكث ثمانية اشهر من السنة يتقلب عليها الحرث والزرع المختلف باختلاف الفصول فان اراضى اقاليم البحرية متساوية الاطيان تقريبا فى طبيعة المزارع مستوية الاجزاء لجميع اراضيها صالحة للزراعة والفلاحة بالسهولة لان الرطوبة تبقى بها مدة فصل الشتاء وبعده فيسهل انباتها بواسطة ما ينزل فيها من الامطار بدون الاستعانة بالسواقي فتخرج منها الحنطة الجيدة فما يوجد فيها من البور بدون زرع فهو ناشيء من مجرد اهمال الاهالى وسوء ادارة الحكام مثلا جميع الاراضي الواقعة على شطوط ترعة الاسكندرية هي أشبه بالصحراء والبرية لخلوها عن الحرث والغرس ولو زرعت جميعها لخرج من المحصول الجسيم مقادير وافرة فالاراضي التي لا تزرع بمديرية البحيرة نحو مائة وثمانين الف فدان تقريبا منها أرض بحيرة مريوط تشتمل على ستين الف فدان مع انه يمكن تجفيف جزء منها وزرعه

« مطلب » حالة اطيان مديرية البحيرة

« مطلب » حال اطيان مديرية روضة البحرين

واما روضة البحرين فانها خصبة جدا الا انها لم يعطها الفلاحون فى الفلاحة ما يجب لها فهي في الجملة تعطي محصولات جيدة ولو أعطي لها حقها من الفلاحة لكثر محصولها كثرة بالغة فى أقسامها تخرج الحنطة والذرة

والفول والشعير والكتان والنيلة والدخان الا أنه لا بد من تقدم الزراعة بها تقدما أجسم من ذلك لازدياد المحصول وكثرته فان روضة البحرين التى هى عبارة عن الغربية والمنوفية فيها نحو مائة وعشرين الف فدان من البور منها بالغربية نحو ثمانين الف فدان والباقى وهو مقدار النصف من ذلك بالمنوفية

ومن تحسين الزراعة بمصر ان تخصص جزء من اراضى الشرقية والدقهلية لزراعة القطن والكتان والنيلة وما يتبقى بعد هذا التخصيص يكون لزراعة الحنطة والذرة والفول والشعير والعدس ونحو ذلك وتخصص فى مديرية الشرقية جملة أفدنة لزرعها على هيئة المروج الصاعية والمراعى المدبرة ويصح فى هذه المديرية زراعة الكرم والتوت كما صحت زراعة التوت في بعض الجهات الاخرى من الاقاليم الجنوبية الافرنجية الشبيهة بالاراضى المصرية فان تربية دود القز بمصر تعطى مع السهولة محصولا عظيما لمساعدة الحكومة له واستثنائه من دفع العوائد تمييزا له فى الحال المقتضى لها ذلك فان فى مملكة فرانسا أشياء تستثنى من دفع العوائد والضرائب لقصد ترغيب الزراعة وتكون معافاة من ذلك وقتيا يعنى لا تدفع العوائد الا بعد مدة فمن ذلك التزام ردم قدر مخصوص من البرك والمستنقعات لمن يريد غرسها فانه يجوز فى فرنسا الترخيص له فى ذلك القدر ومعافاته من دفع المال مدة لا تزيد عن خمس وعشرين سنة تمضى بعد التنشيف وصيرورته صالحا لغيره هذا فى الاراضى البور وأما الاراضى المعمورة فيجوز بموجب اللوائح الصادرة فى ذلك معافاتها من المال لمنفعة الاراضى نفسها اذا زرعت بزراعات مخصوصة أنفع من غيرها للمملكة كزراعة الكرم أو الاشجار أو التوت كتنمية دود القز أو الاثمار فتكون لها امتيازات خصوصية فى

« مطلب »
ما يستثنى من دفع العوائد المالية ترغيبا لتكثير العمارة

فرنسا وقد سلك هذا المسلك المرحوم محمد على فى مبدأ الامر برفع الاموال عن اراضى الضواحى التى يزرع فيها قدر مخصوص من شجر الزيتون وكما صدر فى هذا العهد الاخير من قرارات مجلس النواب فيما يخص الاراضى المستبحرة والموات من تمييزها برفع الاموال عنها مدة محدودة للمنفعة العمومية ولا بأس ان يعمل فى مصرمثل ما يعمل فى فرنسا فى ربط الاموال على العقارات المجددة من بيوت الابحار والورش والمعامل وهو ان لا يربط عليها عوائد الا فى آخر السنة الثالثة التى تمضى من تمام عمارتها ترغيبا للمجددين حيث انهم فى اثناء هذه السنين الثلاثة يجنون جميع ثمرة مبانيهم ويوفون غالبا ما عليهم من الديون للصناع وارباب مهمات البناء فمثل هذه الترغيبات يكثر التجديد للامور النافعة النادرة فالتشويق لغرس شجر التوت لتنمية دود القز يكون من هذا القبيل

فيحسن ادارة تربيته يكون عدة وعمدة لامداد الفبريقات الاوروباوية كما سيأتى توضيح ذلك فيما بعد الفصل الثالث من هذا الباب

« مطلب » اطيان مديرية الشرقية

وفى اقليم الشرقية نحو أربعين الف فدان من البور اذا صار تمهيدها بالزراعة بتبديل البوار بالعمار وقلة الحصول بالاستكثار وكذلك بالدقهلية نحو ستين الف فدان بدون زراعة اذا انصلحت راجت وكانت كنزا للبراعة واذا تقدمت زراعة الارز بجوار رشيد ودمياط عما هو جار الآن وتحسن تبييض الارز بتكثير الطواحين التى تدور بالآلات المائية فان أرباب الزراعة تلك الجهات يكتسبون الاموال الجمة من هذا الفرع الذى هو أجود من أرز ايطاليا وأمريقة والاقطار الهندية لا سيما وان بتلك النواحى يوجد من الاراضى البور الصالحة لزراعة الارز نحو اربعين الف فدان

* مطلب * اطيان مديرية الجيزة ومديرية القليوبية

واما مديرية الجيزه ومديرية القليوبية فاطيانهما تطيان محصولات مماثلة لمحصولات المنوفية والغربية اذا صار تمهدها بالحرث والغرس كما ينبغي بل يزيدان على ذلك بصلاحيتهما لزراعة القرطم واذا صار اصلاح مافيهما من البور الذي يناهز ثمانين الف فدان يكثر محصولهما كثرة بالغة وكذلك اقليم الفيوم اذا استمر على زراعة الزيتون والورد واخذ في الكثرة فان محصول هذين

* مطلب * اطيان اقليم الفيوم

الفرعين يزيد في قيمته زيادة ذريعة فانه اقليم طريف مخصب بكثرة الاجتهاد وتقديم فن الزراعة فيه وانما يخصص منه جزء عظيم من الاراضي لزراعة الغلال بقدر الحاجة والباقي تصح فيه زراعة النيلة والكتان والبرسيم بترتيب زراعة كل صنف بما يلائمه من فصول السنة لصلاحية أرضه للزراعات الراتبة ومافيه من الاخراس يقارب ستين الف فدان قابلة للاصلاح فكأنه أراضيه التي فسدت بالحروب واغارة العرب قابلة للاستحسان وان يعود خصبها كما كان

* مطلب * اطيان مديرية بني سويف

واما مديرية بني سويف فهي منبتة للحنطة والذرة والفول والكتان والنيلة والدخان ومع ذلك ففيها من الاخراس نحو أربعين الف فدان اذا انصلحت تصير جسيمة المحصول

* مطلب * اطيان الاطفيحية

وفي اقليم الاطفيحية يصح القمح والفول والذرة والدخان وفيه من الاراضي البير المفلحة نحو ثلاثين الف فدان اصلاحها من الواجبات واما أراضي المنية فاكثرها صالح لزراعة قصب السكر لاسيما نواحي ملوي (قال) الحكيم جالينوس لولا قصب السكر بمصر ما ورثت أهاليها من العلل سريعا وقيل يعمل من قصب السكر نحو الف نوع من الحلو اقال بعضهم واحسن في الجناس

سبحان من أنبت في ارضنا ... مابين شوك وحلافيها
أنبوبة في حشوها سكر ... قد كان ماء وحلا فيها

والطف منه بكثير قول بعضهم فيه ملغزا

جعلت فداك هل لك من حبيب　مجيب في الوصال بلا محال
نقي الثغر معسول الثنايا　له ريق ألذ من الزلال
له قد القضيب اذا تثنى　وهزت عطفه ريح الشمال
يقام عليه حد القطع ظلما　ولم يسرق ولم يهم بنال
ويعصر كعبه من غير ذنب　فيبدي الشكر من كرم الخلال

وهو كثير في الديار المصرية لايكاد ينقطع عنها الا في خمسة أشهر في السنة (وقد نقل) عن الشافعي رضي الله عنه انه قال لولا قصب السكر بمصر ما سكنتها وكان يكثر من مصه للذته التي لايعلمها أحد وقد تجدد صنف آخر من قصب السكر مشبع في المائية والحلاوة لكنه لايساوي في اللذة القصب البلدي وقد كثر هذا الصنف باقاليم مصر ولكن استنجحت أعوداه في مديرية المنية لشدة صلاحيتها لزرعه وفيها نحو ألف فدان من البور فاذا زرعت يحصل منها محصولات عظيمة

« مطلب » طيان مديرية المنية

واما مديرية أسيوط وجرجا فانها مشتملة أيضا على نحو ستين ألف فدان بدون فلاحة لكنها صالحة لذلك ينجح في أرضها الحنطة والفول والذرة والعدس والنيلة والدخان والسلجم والقرطم والخشخاش وقصب السكر وغير ذلك ومن أسيوط الى أسنا سائر الاراضي صالحة للقطن والكتان والقرطم والسلجم وقصب السكر والقمح والفول والذرة والعدس واللوبيات وغير ذلك وجميع

« مطلب » اطيان مديرية اسيوط وجرجا

أراضيها صالحة لزاعة شجرة البن وانما تستدعي بها أعمالا خصوصية يعني اذا خدمت الارض خدمة مخصوصة وزرعت فيها شجرة البن فانها تثمر أثمارا عظيما فبهذا تستغني مصر عن بن بلاد اليمن والارض الصالحة لهذه الشجرة

« مطلب » صلاحية ارض الصعيد الاعلى لزراعة شجرة البن

تلك الجهات الصعيدية تبلغ تقريبا نحو نصف مليون فدان من الاطيان التي تحرست بالحلفاء وبغيرها من الحشائش الطفيلية كالشوك والسعدان ويصح في هذه الاراضي الصعيدية شجر التوت الذي يتغذى به دود القزلان الصعيد ينبت الجيز في كل ناحية من نواحيه فيفلح فيه التوت ولا يخشى على دود القز فيه من التلف لقلة الامطار والعواصف المتلفة لدود القز في بلاد امريقه ويمكن في مصر وقايتها والتحفظ عليها من هبوب الرياح الجنوبية المريسية بغرس الاشجار الملطفة لتلك الرياح

« مطلب » نتاج اغنام المارينوس باودية الفيوم

وفي اودية الفيوم تنتج اغنام المارينوس ذوات الصوف الموصوف وتحسن للغاية لجودة مرعاها فبذلك تحصل في مصر الاصواف الجيدة وتتخذ منها المنسوجات الظريفة والمشغولات اللطيفة ولا مانع من تخصيص اصطبلات عظيمة في جزء من اقليم الفيوم وفي جانب من مديرية الشرقية لتحسين جنس الخيول فان توليد الكحائل العربية وجياد الخيول الدنقلاوية للتجنيس على الخيول المصرية ينشأ عنها أصناف جيدة متجنسة تعتبر من الاصائل وكذلك

« مطلب » تحسين جنس الخيول في الفيوم والشرقية بتأسيس اصطبلات خصوصية

اذا بلغت ترعة السويس المرام بوصلة النيل المبارك بالبحر الاحمر فان مزاياه لا تحصى ولا تحصر واذا سهلت المواصلة بين قنا والقصير للاخذ والاعطاء بتجديد منازل خانات للماكل وبناء صهاريج تمتلىء من الامطار الشتائية قدر لوازم المسافرين واحتياجاتهم فان فوائد هذه التجديدات مما لا مزيد عليه لرواج المخالطات والمعاملات وكذلك اذا صار العريش الذي بين مصر والشام مركزا للتجارات والبضائع وتأكدت المعاوضات والمبادلات والاخذ والعطاء بين الاقاليم المصرية والشامية فان القوافل تنقل محصولات القطرين من احدهما الى الآخر مدة الفصل الذي يخشى فيه على السفن في

السير في البحر ولا يؤمن عليها فيه ان ترسى بلا خطر في مينا دمياط فيكون سفر التجارة في البر آمن ولهذا يلزم انشاء ترعة ما بين مينتي الاسكندرية لمن لا يريد التجارة في البر فبانشائها يسهل عبور السفن وخروجها من الاقطار الشامية واذا غرست الاشجار في صعيد مصر فانها تحفظ القطر المصرى من ريح السموم وتقيه من وخامة الهواء المسموم لان الاشجار العالية الجافة متى غرست في الجهات المجاورة للبرارى والصحاري وقت المزارع من التلف وحفظت الاهالي من الامراض الناشئة في الغالب عن هبوب هذه الرياح المسمومة المضرة فاذا حصل ذلك كله توفر في قطر مصر الخير والبركة في محصولاتها وتواجد فيها من المؤنة والمونة قوت أهلها فيفيض فيها ما يكفي لقوت أهالي جنوب أوروبا ويمكنها أيضا ان يتغذى بها من مراعيها ما ينيف عن خمسمائة ألف من الابل ومائتي ألف من الخيل وأربعمائة ألف من الحمير والبغال واربعة ملايين من الابقار والجواميس وعشرة ملايين من الضأن والمعز واذا اتخذ فيها نحو ثلاثمائة معمل لترقيد البيض واخراج الدجاج نتج من ذلك خمسة وعشرون مليونا من الدجاج وهذا كله ينتج الغنى والثروة مع ما يتجدد بها من العلاقات التجارية والتواصل بالمعاملات الاستمرارية بينها وبين جميع المدن التي على البحر المالح من بلاد الحجاز واليمن وسائر بلاد العرب وبلاد الحبشة ويكثر تردد السفن منها بطريق السويس والقصير على المينات العربية والحبشية كما تصير موردا لذلك وكذلك اذا زالت موانع الاوبئة والمضار من الجهات الجنوبية فان قوافل داخل بلاد افريقية تتردد الى ديار مصر بتاجرهم ليستعيضوها بمحصولات فبريقات أوروبا الواردة الى مصر وبواسطة ما في مصر من الامنية والمساعدة للاجانب والاغراب ترسل جميع البلاد اليها الرسائل

التجارية لاطمئنانهم على نجاح مقاصدهم وفلاح مواصدهم فاذا اتصفت مصر بهذه الصفات وصفت أحوالها هرع اليها كل فريق وحج اليها الناس من كل فج عميق فبهذا يعمر المكان ونكثر السكان وتجدد البركة يكثر العمل وتنبسط الحركة فيستدعي حال المدن الاصلية تكثير المدارس العمومية والكتبخانات الاهلية المشتملة على جمع العلوم والفنون لتنوير عقول ذوي المعارف ويكثر العلماء والمتفننون وتنتشر على آفاق مصر أنوار المعارف الخارجية وأسرار اللطائف الانسانية لا سيما وان أبناء مصر أرباب قرائح ذكية وحافظتهم قوية متى قصدوا شيأ تعلموه في أقرب وقت وزمان وكم قام على قابليتهم واستعدادهم لعظائم الامور أعظم برهان

« مطلب » استعداد ابناء مصر بقرائحهم الذكية لجميع المعارف والمنافع البشرية

ثم ان تغير حالة مصر الى حالة مستحسنة لا يستدعي من الزمن عشرين سنة لان تربتها طيبة ومزارعها مخصبة وواديها سعيد وبها نمو الحيوان والنبات في أقرب وقت وزيد تنبت الاطفال فيها نباتا حسنا ويترعرعون في أقرب وقت وتنمو أبدانهم نماء مستحسنا والنوع الانساني في مصر يتعود على لطافة الاخلاق وانتظام المعيشة والاقتصاد فيها وعدم التكاليف بما لا يطاق

« مطلب » تحويل مصر الى حالة مستحسنة في نحو عشرين سنة

والغالب على أهلها ان تبقى قواهم العقلية الى آخر أعمارهم بدون ان يحصل فيها خسافة واذا بلغ الانسان منهم سن الهرم فلا يتكلم بكلام خرافة

« مطلب » حفظ قوى أهل مصر العقلية الى آخر عمرهم في الغالب

قال صاحب هذه الملحوظات لا شك أن ما ذكرته من التحسينات في شأن المملكة المصرية يقع معظمه موقع التحقيق لو دامت هذه المملكة في قبضة الفرنساوية انتهى

ونحن نقول من القواعد الاساسية ان علة الضم الجنسية

نعم بيننا جنسية الود والصفا ولكنني لم أنها علة الضم

فكلامه مبنى على شبهة واهية وهى ان مصر يسوغ أن تصلح افرانسا وأى مملكة تكون لها مضاهية فاعتقاد ذلك من الابتال الدهي أو من باب التشبيهات الفاسدة وانما يقتل النفوس التشهي تشطير البيت الشهير

جاء شقيق عارضا رمحه   صوب بني عم بروم الكفاح

قيل أما تخشى انكسار القنا   ان بنى عمك فيهم رماح

وفى الحقيقة فأغلب ما ذكره صاحب الملحوظات وعليه عول فقد قام باغلبية جنتمكان الذى كان هو المجدد الاول وقام بالتتميم والتكميل خلفه النبيل

فلم تك تصلح الا له   ولم يك يصلح الا لها

ولو رامها أحد غيره   لزلزلت الارض زلزالها

ونقول هنا أيضا ان علة الضم الجنسية فان بنى اسمعيل مستمرة ولا يتعجب من هذا ولا يجهله غيرغبي* الله أكبر كل الحسن في العرب* وسنذكر فى الفصل الثالث ما يفيد ان هذه الملحوظات لم يعزب منها مثقال ذرة على المرحوم محمد على

فان تك افنته الليالي فأوشكت   فان له ذكرا سيفنى اللياليا

بل ولا على خلفائه من بعده لا سيما الخديو المفيد الذى لا زال القطر المصري يكتسب فى ايامه من معالى الامور ويستفيد فالمجددان الامجدان أخرجا المنافع العمومية فى مصر من حيز العدم الى حيز الوجدان

وللمكارم أعلام تعلمنا   مدح الجزيلين من بأس ومن كرم

وللعلا ألسن تثنى محامدها   على الحميدين من فعل ومن شيم

وراية الشرف البذاخ ترفعها   يد الرفيعين من مجد ومن همم

الفصل الرابع

في بيان بلوغ المنافع العمومية بالديار المصرية درجة
ارتقاء جلية في عهد الحكومة الحالية مع بعض ملحوظات بهية

يفهم من الملحوظات المذكورة في الفصل الثاني أن بمصر من البور الصالح ما ينيف عن مليون فدان وانه ينبغي اصلاحها والانتفاع بها وانه ينبغي في القطر المصري تجديد المروج المدبرة يعني المراعي كالبرسيم الحجازي ونحوه وانه ينبغي لا سيما بالصعيد غرس اشجار التوت وتربية دود القز وتعميم ذلك في البلاد الصالحة له بالاقاليم البحرية وتحسين احوال الارز وعمل طواحين الهواء لتبييضه وتنظيفه والاكثار من غرس القطن واصلاح أراضي الفيوم بزرع الاصناف كالكتان والنيلة والقطن والاكثار من قصب السكر في الاقاليم التي تزرع فيها كاراضي المنية وملوي وغرس شجرة البن في مساحة عظيمة من ارض الصعيد وتربية اغنام المارينوس الاندلسية في الفيوم وتحسين أجناس الخيل بتوليد الخيول المصرية من الخيول العربية الاصائل وعمل اصطبلات لذلك بالفيوم والشرقية وتوصيل البحرين الاحمر والابيض لتسهيل الاسفار واتخاذ العريش مركزا لتجارة مصر والشام وغرس الاشجار العالية بالصعيد لمنع مضار الريح السموم ولتسهيل ورود القوافل من داخل افريقة الى مصر لاتساع التجارة

فهذا مضمون ما أشار اليه صاحب الملحوظات كما يعلم ذلك من مطالعة الفصل السابق ولا يخفى على الخبير باحوال مصر الآن أن كثيرا من ذلك قد كان بحسب الامكان في ايام المرحوم محمد على جنتمكان لا سيما في

أيام من اعتنى من بعده ووفى لمهام المملكة المصرية بالشروط والاركان فاما ما يتعلق بالبور المذكور فقد انتظم من أيام المرحوم محمد على الى وقتنا هذا في سلك المعمور إما بالاقطاع والتمليك لقصد الاصلاح واما بالضريبة أو التأجير للفلاح وغير الفلاح ومن وقت الحكومة الاسمعيلية صار احياء ثلثمائة الف فدان من الموات حتى قل أن توجد من غير المزروع الا اطيان جزئية في محال عالية أو كالحواجز التي انحسر عنها النيل ولم يبق من البور الا القليل

« مطلب » عدم ضرورية المروج المدبرة في مصر

واما تجديد المراعي المدبرة فقد تجدد شيء من البرسيم الحجازي في الدوائر والاوابي المعتبرة الا ان مصر تزرع البرسيم المعتاد في فصله بكثرة للتشمية ثم عقب الصيف يكثر فيها المراعي بعد الحصيد مجانا ولكثر علفها اليابس لها عن المروج المدبرة مندوحة

« مطلب » زرع القطن وغرس شجر التوت وتربية دود القز

واما زراعة القطن فتحتاج الي زيادة بسط الكلام والتوفية بالمرام لانها من انفع المواد للديار المصرية لدخولها قديما وحديثا في المصانع البلدية ومع ان أرباب زراعتها بمصر بأرياف مصر لهم خبرة تامة بغرسها ومباشرتها فلا بأس بذكر بعض مسائل تتعلق بذلك مما هو جار في شأن زراعة القطن في البلاد الاجنبية ليكون به كمال المعلومية فنقول

ان شجرة القطن تنجح القرب من سواحل البحار والانهار وفي داخل البلاد بالبعد عن السواحل أيضا ولا يضرها الهواء الرطب متى كانت درجة الحرارة كافية بخلاف ما اذا كان الهواء رطبا والزمن باردا ولا يصلح لشجرة القطن البلاد الكثيرة الامطار المتعاقبة لاسيما في ابتداء غرسها وفي زمن تزهيرها وفي زمن جنيها فان المطر في زمن غرسها يوجب العفونة للبذر وفي زمن تزهيرها يسقط الازهار

وفى زمن جنيها يقتضى تأخير المحصول ووساخة القطن والاضرار بما يجنى وأما اذا كانت الامطار غير متعاقبة بل متباعدة المسافات فانها تنفع لنمو أغصان هذه الشجرة وكبر حجمها وجودة جنس القطن

ويجب ان تترس اشجار القطن فى جهات متباعدة عن الاورمان والغابات وأن تكون بحيث لا يمنع طل الجبال والتلول تمكنها من اشعة الشمس لان الظل يؤذى شجر القطن ولو فى الاقطار الشديدة الحرارة ويسقط ازهارها وكذا الرياح العاصفة والباردة تضربه فينبغى أن يزرع القطن فى الجهات التى ليست عرضة لهبوب الرياح

ومن المجرب ان نفع الهواء مثل نفع النور للزروعات فينجح زرع القطن فى التلول المتوسطة الارتفاع التى تمر بها الأهوية النافعة وان لا يظلها ظل وان يكون عمق الارض الدرجة اللازمة لها وان لا تكون الارض صلبة ولاحجرية ولايابسة فاذا كانت الارض يابسة ينبغى سقيها وتنجح شجرة القطن فى الاراضى المتخلخلة المشوبة بالرمل أكثر من نجاحها فى الاراضى القوية الابليزية وتنجح فى الاراضى الخفيفة الليونة أكثر من نجاحها فى الاراضى اليابسة لان ذلك نافع لتشعب سيقانها وتعريشها ومن المجرب انها فى الارض القوية الخصبة ولوانها تنمو نماء بليغا وتكثر ازهارها غير ان الازهار تسقط بالسرعة فلا تنتج المحصول الكثير ومثل ذلك ما اذا كانت الارض شديدة الرطوبة فان ازهارها تسقط سريعا ورعما حدث من ذلك عفونة سيقانها وبزرتهاما

ولا تنمو شجرة القطن كما تنمو غيرها من النباتات اذا غرست بالاراضى الصخرية والحجرية لان سيقانها لاتجد شيأ تخترقه وتنمو فيه ويصلح لغرس شجرة القطن الاراضى الرملية الدقيقة الرمل المشوبة بالطفل أو بالجير فنموها فى هذه

الاراضي وان لم يكن شديد القوة لكن كثير المحصول الجيد الصنف وسريع الاستواء وقد ينجح غرس القطن في الاراضي المتوسطة الخصوبة التي يتعسر فيها نجاح غيره من الزروع والحاصل ان تمام نجاح غرس القطن ونموه يكون في الاراضي المحتوية على الرمال الدقيقة السهلة الحرث القليلة الرطوبة واغا ينبغي الاعتناء باصلاح الارض قبل البذر فيها وينبغي التفطن الى ان ساق شجرة القطن لابد أن يدخل في الارض ثمان عشرة بوسة يعني أصبعا لا اقل من ذلك وانها لابد لسيقانها من التعريش والامتداد فالارض الصلبة الكثيفة الصعبة المنافذ لا تليق لها ولا يدرك الزارع التعمق والتجنب الا بمعرفة درجة العمق المطلوب لوصول الساق في الارض ومقدار مسافة البعد المطلوب بين ساق كل عود مع العود المجاور له أما معرفة العمق فيسهل الوصول اليها بحرث الارض والتعمق فيها بقيمة ثمان عشرة بوسة الى عشرين بوسة واما معرفة قدر بعد الساق من الفراغ لتعريشه فهي تابعة لطبيعة الاراضي والمعتاد فوات الفراغ بين الخطوط بقدر سبعة اشبار ونصف في الاراضي الضعيفة وثلاثة عشر واربعة عشر شبرا في الاراضي الخصبة القوية فينبغي للزارع أن ينتخب محلا مخصوصا ويغرس به جملة أشجار بعضها متقارب وبعضها متباعد فالا نجح منه يتبعه

وينبغي الابتداء بحرث الارض وازالة ما بها من آثار النباتات الطفيلية والحشائش وان يشق جوفها بالمحراث أو بالعزق الا ان العزق ينفع في الاراضي المنفصلة الاجزاء دون السمينة القوية وبعد الحرث والعزق ربما حفروا وشقوا ونقروا ويتركها عرضة للشمس والهواء مدة من الزمن مع تنقية ما فيها من الاحجار ثم ردها بالثاني باعادة كمية الطين الذي أخذ من جوفها بعد أن

يخلطه بالسبخ ولا يترك مكشوفا فيها بوسة واحدة ويضع في الجزء المكشوف تقاوي القطن بالوجه اللائق وفي كل نقرة يضع من البذر ثلاثة أو اربعة أو خمسة ثم يتم ردم النقرة بباقي الطين الذي خرج منها ويجعل ارتفاع النقرة مساويا لارتفاع مسطح سطح الارض المجاورة لها لئلا تكون مخزنا للمياه التي تعفن البذر ويلزم أن تردم جميع النقر التي وضع فيها البذر في يوم حفرها خوفا من اتلافها بنزول المطر أو نحوه وينبغي أن تكون أشجار القطن متباعدة عن بعضها لتمكن الهواء والضوء منها وينبغي بعد حرث الارض لزراعة القطن أن تمر فوقها الآلة الهراسة لتكسير قطع الطين الكبيرة وفكها ومن أهم الامور انتخاب التقاوي بان تكون كاملة النضج سليمة خلية عن العيوب ماخوذة من أثمار الاشجار القوية النمو والا كان محصولها ضعيفا وخسيسا وخاليا عن الجودة ولذلك ينبغي للزارع البارع أن ينتخب قطعة أرض في جهة من الجهات المعتدلة الهواء ويزرعها من الاشجار الشديدة القوية ويعدها للتقاوي فينتخب منها ما يكون متكاملا في الحب ثقيلا في الجرم ولا يخلطه بغيره من الحبوب ثم يبذر منه في الارض ومن محصوله بالخصوص الى أن يظهر له انتقاص الحصول في الكمية والجودة فيتدارك غيره أو أعظم منه من التقاوي فقد صح بتكرير التجارب أن تكرار زراعة الصنف الواحد في الارض نفسها يعتريه على مدى السنين تناقص في الجرم والجودة فالارجح لمصلحة أرباب الزراعة القطنية استبدال تقاوي أراضيهم بتقاوي الجهات المجاورة لهم أو جلب تقاوي اجنبية من الخارج وعلامة الخسية في تقاوي القطن أن يكون مفتوح اللون عظيم الجرم وان يكون غلافه محتويا على نقط بيضاء وأن يعوم على وجه الماء وعلامة الجيد ان يكون صلبا ثقيل الوزن والغالب عند أرباب الزراعة ان التقاوي تكون قديمة من

محصول السنة الماضية وهناك عادة مطروقة فى بعض البلاد وهى خدمة التقاوى لانفصال الحبوب من بعضها وتفرقها وتنظيفها من الالياف القطنية المشتبكة بها

وطريقة ذلك وضع التقاوى فى الماء عدة ساعات ومزجها بعد بالرمل أو الرماد أو الطين المسوس ثم دعكها فيما بعد بعضها فوق بعض بالايدى أو بالارجل وبعض الناس يغمسها فى الماء اثنتى عشرة ساعة لقصد تعجيل انبا تها ويحسن استعمال هذه الطريقة فى الاراضى اليابسة القليلة الرطوبة وأنفع من ذلك لتكثير المحصول غمس التقاوى فى الماء الممزوج بهباب المداخن أو بجيع معاصر الزيوت فانه يقيها أذى الحشرات الارضية كالدود

• مطلب • بيان تسبيخ الارض المهيأة لزراعة القطن

ومن المعلوم عند أرباب الزراعة ان الارض المتكونة من طرح البحار والانهر الغزيرة الطمى غنية عن التسبيخ ومثلها فى ذلك الاراضى البور التى صار اصلاحها قريبا وأما ما عدا ذلك من الاراضى فلا يستغنى عن التسبيخ وبيان ذلك ان القطن من الارض يمكن للزارع خدمتها وغرسها قطنا والاستحصال منها على ما يشاء من المحصول بشرط أن يكون تسبيخها حسب اللزوم وأن يكون سبخها موافقا لطبعها وان يوضع فيها من السبخ القدر اللازم على قدر الحاجة فوضع السبخ بالقدر اللازم والجودة المطلوبة متعلق بمعرفة الزارع وبطبيعة الارض وأهل الصين هم الذين يحسنون زراعة القطن ويجيدون تسبيخ أراضيهم الا ان استعمال التسبيخ بروث المواشى والخيول قليل جدا عندهم لعدم اعتنائهم بتربية الحيوانات فلهذا يقوون الارض بطين الانهر والخلجان والوديان والبرك وبأنواع الرماد وبجيع عصر الزيوت وبالفضلات الانسانية الا انهم يفضلون الرماد على غيره خصوصا رماد القصب والخيزران والحشائش الطبيعية واوراق الاشجار ويحترسون على تجميع

لاجزاء الصغيرة من اجزاء قطنهم ومن جزورها واوراقها ولوزها وعيدانها يحرقونها وينشرونها فى الارض المعدة لزراعة القطن قبل غرسه وقد صار الآن رجيع عصير الزيوت مستعملا فى اوربا لتسبيخ المزروعات ولا يفرط أهل الصين فى شىء أصلا من الفضلات الانسانية فيدخلونها فى أنبات البقول على الاطلاق لتقوية الانبات وفى جميع البلدان يستعان بها مائعة أو يابسة على تقوية المزروعات بخلاف أهل الصين فانهم ينتفعون بها فى زراعة القطن من وجهين الاول طرحها فى النقر مختلطة بكمية كافية من الماء لسقى الارض منها الثانى انهم يخلطونها خلطا جيدا بجانب من الطفل أو من طين المزارع ويصنعون من ذلك أكرا صغيرة وينشفونها فى الشمس ثم يسحقونها فى وقت الطلب ويذرونها على سطح الارض المقتضى زراعتها وقد يستعمل فى بلاد الصين التسبيخ بالجير لاصلاح اراضى القطن كما يستعمل ذلك فى بلاد أوربا وهذه الطريقة نافعة لزرع القطن اذا كانت أرض القطن خالية من المادة الجيرية

« مطلب » زمن بذر القطن

وزمن بذر القطن يكون تارة مقدما وتارة مؤخرا بحسب ما يوافق مزاج القطر وطبيعة الارض ومع ذلك فهو دائما قبل دخول الشتاء بشهرين أو ثلاثة فى البلاد الباردة الثلجية والبلاد الحارة القليلة الرطوبة وينبغى بذر التقاوى فى الاراضى حين وجود درجة الحرارة المطلوبة فان بذرت قبل ذلك لا تنبت ويصير تعفين البذر وينبغى أن يكون رمى البذر فى يوم الصحو ولا يجوز أن يكون فى زمن نزول الامطار الكثيرة فانه يترتب على ذلك تعفن البذر ايضا

ومن الواجب أن يحافظ المزارعون فى كل عام على أكثر مما يلزم لهم من

التقاوى لكى يمكنهم اعادة الغرس مرة أخرى فالزارع المتبصر بالعواقب يحرص دائما على قدر التقاوى مرتين فأكثر

« مطلب » الاعتناء بشجرة القطن فى اثناء اثنا نباتها ونموها

ينبغى تمهد مزرعة القطن للتنظيف وازالة ما ينبت فيها من الحشائش الطفيلية والنباتات الاجنبية وخلعها اما بالايدى واما بالآلات وكذلك يجب الاعتناء بعملية تقليمها تقليما جزئيا أوكليا وينبغى الاعتناء بها فى زمن بدو ازهارها وأثمارها والاعتناء بكيفية سقيها

وبيان ذلك أنه متى شوهد أن الحشائش الاجنبية زاحمت عيدان شجرة القطن النابتة يجب عزق الارض وتنظيفها من الحشائش وقد جرت العادة أن أبذار شجرة القطن تخرج من الارض بعد مضى أسبوع من بذرها اذا كانت الارض محتوية على درجة اليبونة اللازمة وكان الحر شديدا ومع ذلك فقد يتقدم الانبات أو يتأخر عدة ايام بحسب ما يقتضيه مزاج القطر وطبيعة الارض وتكون تنقية الحشائش فى المرة الاولى متى بلغت عيدان القطن أربع ابهامات أو خمسة أو ستة يعنى متى مضى شهر كامل تقريبا بعد البذر وانما يلزم الاحتراس من اتلاف العيدان الصغيرة المستورة بالحشائش والاحسن استعمال اليد فى قلعها أو بالمنجل المقور وكذلك ينبغى فى عزق الارض الاهتمام بقلع عيدان القطن الضعيفة وابقاء القوية للتخفيف مع الاحتراس من أن لا تتزحزح العيدان الباقية عن مكانها ولا تتلف جذوره ومن الواجب لتثبيت الجزور وتمكينها بعد خلع العيدان الضعيفة أن يصير دلك الارض بالرجل فى جميع أجزاء الغيط وهذه العملية تكون فى التنقية الثانية يعنى متى بلغت العيدان فى الارتفاع ثمانية عشر اصبعا ويقال لهذه العملية عملية الدور الثانى

واما الدور الثالث فيكون فى وقت دخول زمن التزهير ولا يجب عمليات اذا نبتت الازهار وطهرت لانه يخشى فى ذلك الوقت من سقوط شيء من الازهار بعملية العزق والتنقية فان المزرعة اذا حسنت تنقيتها قبل دخول التزهير فان الميدان تكون في هذا الاوان مظلة على ما تحتها من الارض فلا تضرها النباتات الاجنبية ومع ذلك فمن اللازم أن تكون الارض دائما بالتلطيف نظيفة نقية خلية من الحشائش الاجنبية بحيث لا يصير بقاء الحشائش الاجنبية حتى تنمو وتظهر ويلزم انه لا يمس قشر جذوع أشجار القطن جرم أجنبي فيلزم لهذا عزق الارض وتنظيفها ثلاث مرات فأزيد فى العام الواحد خصوصا فى مزارع القطن التى تزرع بالسقى لانها فى العادة تكثر بها الحشائش الاجنبية فيجب تعهد هذه الحشائش بالقلع وابعادها خارج المزرعة

ويكون تزهير شجرة القطن بعد انباتها على سطح الارض نحو خمسة أشهر بل بما دون ذلك فى الاقطار الحارة وبأزيد من ذلك فى الاقطار الباردة وكذلك بدو ثمرتها قد يتقدم أو يتأخر حسب مزاج طبيعة القطر وسن الاشجار ولا مانع من ابتداء جنى القطن فى آخر الشهر الخامس أو السادس وتقل العمليات المقتضى اجراؤها فى أثناء زمن التزهير الى استواء الاثمار وربما انحصرت جميع العمليات فى تقليم الفروع الميتة ويجب على الزارع الماهر أن يستيقظ بين مسافة التزهير والانبات لحفظ الشجرة ووقايتها مما يعتريها من الآفات

وأما سقى شجرة القطن بالبلاد الحارة اليابسة فهي أعظم ما تعين على انبات النباتات فان الماء اقوى الاسباب الموجبة لاحياء الارض وخصوبتها

وبدون اعطاء الارض حقها في السقى لا تجدى ولا تثمر ولو توفرت الشروط الاخرى فسقى الارض في الاوقات اللازمة عليه نجاح زرع القطن فلا تستغنى أشجار القطن عن أخذ حقها من الماء خصوصا في الاقاليم الحارة المتمكنة منها أشعة الشمس المحرقة وينبغي أن يحترس في السقى أن لا يكون زيادة عن المقتن

فقد ظهر بالتجاريب الصحيحة ان سقى القطن اذا زاد عن المقنن ينقص جودة جنس القطن وسواء كان ذلك في زمن حرث الارض أو بذر التقاوى فينبغي أن يكون تقسيم المياه وتوزيعها بحسب الحاجة

ثم ان السقى للاراضى القطنية وربما قد يكون لازما قبل دخول زمن البذر وتارة يكون عقب اتمامه والارجح ان لا يصير سقى الاراضى المبذورة الا بعد البذار بخمسة عشر يوما أو بعد تخفيف الارض من أعواد القطن الضعيفة مالم تكن المزرعة كثيرة اليبوسة فانه ينبغي الاهتمام بسقيها عند مجرد الانبات وقديعتنى في بعض البلاد برى الحفر المعدة لبذر القطن وتركها مدة من الزمن حتى تنشف قبل وضع التقاوي فيها

ولا يمكن تحديد زمن لسقى الارض ولا تقدير كمية الماء الذى يسقى به بل هذا موكول لمهارة الزارع حيث يراعى ما يوافق مزاج قطر بلده وطبيعة أرضه حيث أن الارض المرملة المتشققة تسقى أكثر من الارض الطينية المتكاثفة التي من طبيعتها الرطوبة وكذا اذا كان القطر حارا يابسا قليل الامطار يلزم تواتر السقى مالم يكن معتادا بكثرة الندى لان نفع الندى في كثير من البلاد مثل نفع الامطار ولذلك كثير ما تنجح شجرة القطن وغيرها من النباتات الشديدة الحرارة المعدومة الامطار

وأما اذا صار تسبيخ أرض القطن فلا بد من سقيها وفيض الماء فوقها ولا مانع من استمرار السقى كل خمسة عشر يوما مرة ان كان من كل الارض ومزاج القطر صالحا لذلك وهذا في غير زمن الاثمار وبعضهم يقول ان السقى غير لازم من ابتداء التزهير ويرجح ذلك لان الشجرة في زمن تزهيرها موجود بها ما يكفيها من القواعل المينة على تغذيتها لاسيما وان ساقها منطى بما يظله من الفروع والاوراق التي من عادتها تجديد الرطوبة المساعدة على تضجيج الاثمار وبلوغها حد الكمال

واما غرس شجرة التوت وتربية دود القز بالديار المصرية فيحتاج أيضا الى بعض اطناب فنقول ان من المعلوم أن التوت مألوف الغرس عند العرب ويسمى الفرصاد قال ابن وحشية صاحب الزراعة التوت أنواع يخالف بعضها بعضا في الطعم والطبع وفيه ألوان فنه الابيض والاسود والاحمر والاصفر والاغبر وكذلك طعمه فيه الحلو والمر والنفه وأكثر مايتخذ غرسا وتحويلا وأجود ما ينبت منه ما أكله بعض الطيور الموجودة في البساتين وزرقه لان بزر التوت لا ينهضم في معد الحيوانات كلها فالطير يأكله ويزرقه على شطوط الانهار وتحت سقوط مجارى الامطار فينبت بأناجيد الأنه اذا وقع الى الارض من جوف الطائر وقع وزبل معه فينبت بسرعة والطيور التي تحب لقط ثمر التوت كثيرا هي القواخت والوراشين والعصافير والغربان وهذا النبات يوافقه الماء موافقة كثيرة وليس له زبل يختص به بل جميع الازبال على اختلافها موافقة له ويحتاج الى التسبيخ مرتين في السنة وقد ينبت في البرارى بنفسه ويعظم فيها الا انه اذا نبت بقرب المياه وعلى اطراف الانهار كان أجود ويوافقه ريح الجنوب وتلقحه لقاحا حسنا وهو يمد عرقه الى أسفل الارض

كالكمثرى وغرسه في أول شباط والى آخر أدار وتترس أصوله بعروقها وقضبانها انتهى كلام ابن وحشية

وقال ابن بصال وجه العمل في غرسه ان تحفر له حفر رقيقة ثم يغرس كما يغرس التين ومن الناس من يغرسه كما يغرس الرمان اوتارا واذا نبتت عروقه حول (قال) أحمد بن وحشيه التوت أعز الاشجار لان دود القز لايأ كل الامنه ومنافعه كثيرة جد اوقد قال المتصم العباسي لهال البلاد استكثروا من شجر التوت فان شعبها حطب وثمرها رطب وورقها ذهب انتهى قال الشاعر في ثمر التوت

ومخضبات من نجيع دمائها　　اذاحبست من بكرة الغدوات
تكاد بأن تطفى اذا ما لمستها　　فأرحمها من سائر الثمرات

ولما من الله سبحانه وتعالى على المملكة المصرية بتقدمها في طريق التمدنات العصرية وفد على مصر كل وافد وقصدها كل قاصد ممن له نصيب في المعلومات الصناعية والمنافع التجارية والزراعية رجاء ان يجد في مصر نصيبه في الغنيمة وأن يروج صناعته بأنفس قيمة فكان ممن حضر من بلاد فرنسا شخص يسمى الفونس غوطيه من أرباب الزراعة يتشبث بفلاحة غرس التوت وتربية دود القز واستخراج ابزاره المسماة بالشارنق وطرق حلجه وتصفيته وتنظيفه وكيفية غزله وهذا الوافد كغيره من الوفود الاغراب الذين حضروا الى مصر رجاء ان يجد فيها نصيبه من الربح بجولان النظر فيما بيديه من التعريفات لتنمية هذه المنفعة فهو متشبث بالتجربيات والعمليات من منذ ستة أشهر يجتهد كل الاجتهاد في تجاريبه المديدة وهو الآن مشغول بتجربة ذلك في الجزيرة بأمر عزيز مصر الجالب لها الفوائد العزيزة ويقال انه كان قد نجح أيضا في تربية دود

العزبالاقاليم البحرية وظهر له أن استخراج الحرير من غرس شجر التوت وتربية دود القز واستخراج الحرير منه يزيد في عمارية مصر وفى مصانعها وثروتها

ونص عبارته فيما كتبه في هذا المعنى قدكان محصول القطن فى العهد القريب بغية تجار مصر وزراعها وكان الاشتغال به مستوليا على عقولهم وجل مرامهم وأقوى غرامهم وأغلبهم يحبس رأس ماله عليه ولا تميل نفسه الا اليه ولم يخطر ببال أحد منهم أن يميل الى غرس التوت ولا تنبه للاستحصال على الحرير ولا استيقظ لما يترتب عليه من المنافع العمومية المهمة مع انه أيضا منبع الغنى والثروة والظاهر أنه لم يعزب ذلك من عقول المتقدمين منهم وانما لم تساعدهم الاوقات والاحوال ولا أعانهم على ذلك ولاة الأمور فى الازمان السابقة والآن قد حان أوان الوعظ باتخاذه ولعل الوعظ فيه يقرع الاسماع ويؤثر فى النفوس الزكية المحرصة على جميع انواع الانتفاع ولا أنفع لمصر من غرس التوت لتحصيل الحرير فانه ينشأ عن ذلك الخير الجزيل والغنى العزيز فان غنى مصر يكون في المستقبل بدون الاستحصال على الحرير ضيق الدائرة كما يكون كذلك بدون القطن فان زراعة شجرة التوت القزى لم يأخذ من اراضى مصر الا اماكن الخالية الآن عن الغرس فاذا انضمت من الآن فصاعدا زراعة هذا الصنف الى زراعة القطن على طريقة حسنة فلا ينقص ذلك من اراضى مصر شيأ ولا ينقص كثرة زراعة القطن

فبهذه الطريقة الجامعة بين الزراعتين يزيد غنى أهالى مصر عما كانوا عليه قبل كساد القطن عقب صلح أمريقة ولا شك أن كل عاقل يتمنى شدة الاعتناء بغرس التوت بقدر اعتناء الحكومة بتنمية القطن لادراكه احتياج

الصناعات الى الاقطان فكذلك المنافع العظمى تستدعى نمو الحرير لرواجه فان مصانع فرانسا الآن فى اشد الاحتياج الى الحرير وهو مطلوب أيضا لمصانع ايطاليا واسبانيا نعم ان بلاد يابونيا والصين والهند والدولة العثمانية مجلوب منها هذا الفرع التجارى الصناعي الا انه لا يفى بحاجة الصناعة لعموم الجهات وحيث ان الاقاليم المصرية مملكة مستجدة بالنسبة للصنائع الحالية ومتشبثة بالحصول على درجة الكمال فاستخراج الحرير فيها يكون من صالح المصالح فاذا غرست فيها أعواد التوت الصغيرة فلا تمكث مدة الا وتجمد وتعلو اذ ليس من الشجر ما يقوى على الشموخ مثل شجر التوت ولا من البلاد التي في دائرة البحر الابيض الرومي من له هذه المنقبة مثل مصر ففيها يكثر وبسعف جميع الجهات فان الحرير الآن فى سائر البلدان متجاوز الحد فى الاثمان فلا يقدم على شرائه الا أصحاب الاموال الجسيمة وهم الاغنياء المفرطون فى جمع الاموال فهم يغتنمون فرصة احتكار زراعته أو الاستيلاء عليه فلا يكادون يخرجونه الا بالاثمان الغالية لقلته فتكثيره فى بلاد الدنيا لا يكون الا بواسطة الحكومة المصرية حيث مواقعها الطبيعية أصلح المواقع لزراعته اذ ما فيها من التوت العجوز يحصل منه حالا بواسطة التربية والخدمة أجود ما يكون من الحرير فاذا صار تقليمه بمعرفة أهل الصناعة بالطريقة اللازمة زاد محصوله وسهل اجتناء ثمره ثم تغرس عيدان التوت الشابة بترتيب لطيف فيتحصل منها أوراق طريفة مع حسن الاقتصاد فى مصارف الصناع المستخدمين لذلك

فاذا صار فى الاقاليم المصرية الابتداء بخدمة الحرير الكثير المحصول على هذا الوجه فى الاقاليم البحرية فانه يصير كثير الارباح جداً ولا يضر فى

الزراعات الاخرى فان غرس اشجار التوت يكون علاوة على غيره من الزراعات حيث يغرس على حافات الترع والخلجان المدبدة وعلى الطرق الكبيرة والصغيرة العمومية والخصوصية وعلى حدود الشفالك والاواسى والاراضى المملوكة والاتربة وعلى الجسور وأسوار المدن والقرى والكفور لتكون أشجارهم مظلة حول القرى والغيطان والكروم والبساتين وهي أعظم ما يكون فى الوقاية من حر الشمس

فاذا تم غرس هذا الصنف على هذا الوجه فانه يكون فى آن واحد ابتداء مغروسات سريعة الانبات بديعة المحصول ولا يخفى أن مديرية البحيرة واسعة الاراضى المسطوحة فاذا غرست شطوط ترعها باشجار التوت كان لها منظر الظرافة والثروة وتعد من المتنزهات الخلائية يستظل الفلاح تحتها وقت الاستراحة ويستريح المسافر عندها وارباب السياحة وتحجب الرياح الشديدة الهبوب وتلطفها وتمنع شدة مضرتها وحدة أذاها لا سيما فى ايام القيظ وحرارة الخمسين وتنفع أيضا هندسة الطرق المدبرة لتحسين حصيد جوز الحرير فانه ينمو فيها الغرس فتكون تربية الدود تربية متوالية وأجود من تربيته في اوروبا اذ ثمر دود القز يخرج أربع مرات في السنة كما يحصد فى بلاد الصين والهند وبابونيا وفى مملكة برمان وكما أن مصر صالحة لدود القز استخراجا بزراعة التوت فهى صالحة لحلجه وتنظيفه وغزله وصناعته أكثر من غيرها فينجح فيها كل النجاح اذ يحصل منه أصناف جيدة منتظمة بهيجة النعومة واللون والقوة والتمدد واللين مستكملة لجميع ما تستدعيه جودة هذا الصنف بخلاف الحرير فى اوروبا فلا يعطى الا محصولا واحدا فان شهور فصل الشتاء طويلة الليالى كثيرة الرطوبة موجبة لاستخراج

الحرير من جوزنه فتحتاج الى كثرة المصاريف للاحتراس والتدارك
وكذلك فصل تربية الدود غير موافق فى تلك البلاد فان الدود يضعف بواسطة ذى الربيع ويضر بالاوراق الشابة المتجددة فى أوان توليدها للحرير فقسمها فبهذا تكون التربية بطيئة فيقاسى الدود مدة مايقاسى من التصنم بتغير الربيع بالصيف فينضج الدود بغتة وفجأة فتنكشف الاوراق وتحترق فتخيب التربية ولا يحصل المقصود منها بل يعترى الدود أسباب الامراض فلا تصادف التربية محلا فى الغالب ببلاد أوروبا وأما فى بلاد الهند والصين ويابونيا فلا يمنع الحر من تربية دود القزبل لهفيها منفعة فاذا احتاج الحال الى ترطيبه وتعديله فان ذلك يحصل برش المعامل بحسن التدبير وأما من البرد والصقيع الذى يقع فى اوربا فى فصول البرد ولو فى الربيع والخريف فلا يمكن مداواة نزول الصقيع فيها من اسباب مرض الدود فليس له علاج أبدا على أوراق الشجر النقرة المتجددة فيكون الصقيع

فمن هذا يفهم أن مصر صالحة جدا لتربية دود القز ولا يساويها فى الصلاحية لذلك غيرها من البلدان فبها يحصل الغنى والثروة زراعة وشغلا فان زراعة التوت متى تمت وتمت التربية والاستحواذ على جوز الحرير ترتب على ذلك نتاج المصانع والشغولات الحريرية اذ ليس فى اقليم مصر مانع يمنع من ذلك كله لاعتدال اقليمها ووجود الحرارة الملائمة للتربية بها واستواء الحرارة فى فصل الربيع الذى هو عبارة عن برمهات وبرموده وبشنس فهذه الشهور الثلاثة تكفى لتربية دود القز فهى صالحة له من جهة مزاج القطر وموافقة أيضا لدود القز من جهة أخرى وهى مواظبة أهلها على أشغال الزراعة والفلاحة وعلى أشغال التربية والجنى والحصد فان لين أعضاء الاولاد والبنات يوافق شغل الحرير اذ شغل الحرير يحتاج الى شيئين وهما خفة الايدى

والتعود على الحر وأبناء مصر متوفر فيهم ذلك كله بخلاف أوروبا فوجب أن تكون مصر مثرية في المواد الحريرية الاولية غرسا وتربية وأن لا تجلب حريرها من الخارج وأن تشتغل المشغولات الحريرية الدقيقة والغليظة بنفسها في مصانعها وأن تخلص من ربقة شراء الحرير من البلاد الاجنبية بالأثمان الغالية فانها الى الآن تصرف الاموال الجسيمة على الاستحصال على الحرير فيجب عليها ان توسع دائرة محصولاتها وتجاراتها فاذا وصلت الى اقصى درجات جهدها في تربية دود القز اتسعت دائرتها في غزله وفتله سريعا وفي صناعة نسج الحرير ومشغولاته فتأخذ من حرير بلادها مقدار ما يكفي لحاجتها وما زاد على الحاجة من الخام والمشغول تنفذه الى البلاد الاجنبية ليباع فيها بالملايين من الاموال وهذا خير من أن تبقى على حالتها الاصلية فاقدة لهذه المزية مقتصرة على اشتراء الحرير المصنوع أو غيره من البلاد الاجنبية

فمن أمعن النظر وأنعم الفكر في تربية دود القز بالديار المصرية ظهر له بالحساب الصحيح مقادير الارباح الجسيمة التي تكتسبها مصر من هذا الصنف فان صناعة الحرير لم تزل الى الآن في ديار مصر قليلة التقدم بالنسبة لغيرها من الممالك فبالطريقة السابقة تتقدم تقدما عظيما بحيث تم سائر الجهات المصرية وتمتد بأطرافها كافيا الآن المدة في مشغولات الحرير وأقمشته على صبغته ولونه

« مطلب » مساعدة مياه النيل على حسن التلون بالصباغة

ومياه النيل المبارك تساعد كل المساعدة على حسن الصبغة والالوان مما به تتزين المشغولات الداخل فيها الحرير كالمناديل والمحارم والملابس لجميع مشغولات الحرير تبلغ الدرجة العالية في عدة من السنين بشرط أن يحصل التشويق من الحكومة المصرية للحرير كالتشويق الحاصل الآن

لزراعة القطن حيث اتسعت دائرة مزارعه بعناية الحكومة كما هو ظاهر للعيان وغنى عن الدليل والبرهان هذا ما ابداه موسيو فونس غوطيه الموى اليه في هذا الفصل بصريح قوله

ومن المعلوم ان ملحوظه فى محله وانما فيما سلف كان قدشرع فى تربية دود القز جنتمكان المرحوم محمد على وحصل من ذلك النفع الجلى ولا زالت الى الآن تربية دود القز فى حيز الموجودات وانما هى مقصورة على بعض جهات فى المديريات فاذا حصل التعميم كان بالنسبة لتقدم صنائع الوطن معدودا من النفع العميم وأما ما أشار اليه صاحب الملحوظات المذكورة من تحسين زراعة الارز فلا يجهل انسان أن زراعة الارز فى الاقاليم البحرية ملتفت اليها كل الالتفات ولها خصائص ومزايا بمباعاة زراعها من كثير من العمليات وأنه قد تجدد فى أكثر دوائرها للتنظيف والتبييض كثير من الوابورات وقد صح بالاجماع والاتفاق على أن أرز مصر أجود من غيره على الاطلاق فأرز عين البنت أجود من ارز أمريقة وأرز ايطاليا الخارج من من أرض البنادقة وهذا الرأى لا ينافى ما قضى به قضاة المعرض الباريسى من الحكم بالاولوية والامتيازية لصنف أرز ايطاليا لان مطمح نظرهم فيه انما كان للون فانه أشد أنواع الارز بياضا فهو بهذا المعنى يعجب الناظر أكثر من أرز مصر

* مطلب * تحسين زراعة الارز بالاقاليم المصرية

واما أرز أرض مصر فهو وان كان دون ما ذكر فى اللون الا انه شتان ما بينهما فى الطعم فلايذوقه فى طعمه صنف من أصناف أرز الدنيا لا سيما نموه بالنضج نموا وافرا فهو أخص أوصافه وأما ما أشار اليه المؤلف المذكور من غرس قصب السكر فى مديرية المنية لصلاحيتها له فهذا أمر

* مطلب * غرس قصب السكر فى مديرية المنية

معتنى به من الم المرحوم محمد على كمال الاعتناء وأعظم من اعتنى بغرسه والاكثار منه واستخراج أنواع العسل والسكر مما يكفى القطر المصرى هو المرحوم ابراهيم باشا فانه عمم زراعته فى شفالكه الى بحر الصعيد وبالصعيد بمديرية المنية وغيرها حتى نافست مصانعه السكرية مصانع الافرنج وهو أول من جدد الوابورات لسق ذلك وصناعته وجلب القصب الجمايكي حتى انحطت بمصر أثمان السكر وقد كان الاورباويون يتغالون فى أثمانه كل المغالاة وتبعه فى ذلك كثير من دوائر الذوات وأوسيات الاهالى حتى كاد لا يخلو منه قسم من الاقسام المصرية لكثرة أرباحه ثم لما آلت الدوائر الابراهيمية أى أغلبها لنجله الخديو الاعظم اتسعت مصانعها وكثرت وابوراتها وعظم محصولها حتى كادت تجارة أوروبا فى السكر أن تكون كاسدة فى القطر المصري خصوصا وسكر مصر لا يفوقه فى الجودة والحلاوة غيره واما ما أشار اليه من غرس شجر البن في الصعيد وانه يمكن أن يخصص لغرسه مقدار جسيم من الاراضي فالظاهر أن الحكومة لم تمتن بذلك لانه سبق تجربته وانه لا يبلغ فى الجودة درجة البن اليمنى بل يكون دونه بكثير ونهاية الحال انه يصير كالبن الخارج من جزيرة فرنسا وغيرها المسمى بالبن الافرنجى وهو قليل الرواج بالديار المصرية وغيرها من البلاد حتى انه على كثرته في بلاد السودان المصرية ورخص ثمنه لا يعتنى أحد بجلبه الى الديار المصرية لان شرب القهوة بديار مصر وغيرها بالبلاد الاسلامية انما هو من قبيل الكيف والتلذذ بالنكهة كشرب الدخان وقل من يستعمل القهوة ممزوجة باللبن وحده أو مع البيض للاكل بالخبز كما يستعمله أهل أوروبا بكثرة فيه مون باى من كان على أن أكثر تجار مصر يتجرون فى البن اليمنى ولهم فيه عملاء وشركاء فهو من أهم التجارات اليمنيه والمقصود الاعظم الذي

هو الربح حاصل بذلك فعلى فرض غرس شجرة البن بمصر وفلاحها تكون عديمة النكهة كالدخان البلدي بالنسبة للجبلي والصوري وكالتنباك البلدي بالنسبة للعجمي والحجازي وعلى كل حال فليست الحاجة ماسة لغرس شجر البن في مصر بل ربما عد من الامور النافلة لان ما ينبغي تجديده هنا من المحسنات ان لم يكن عظيم الجودة أو تدعو اليه الحاجة فالتشبث به ليس تحته عظيم طائل

وأما ما ذكره صاحب الملحوظات من تربية أغنام المارينوس في الفيوم فرأيه فيه أدق من رأيه في غرس شجرة القهوة فتربية المارينوس محض منفعة لا محض شهوة اذ القهوة محض كيف ولهذا أنكر على متعاطيها بعضهم وهو الخطيب غير القزويني والشربيني ورد عليه بعضهم بقوله

قهوة البن حرمت   فاحتسوا قهوة الذبيب
ثم طيبوا وعربدوا   واصفعوا لي قفا الخطيب

(وقال آخر)

قهوة البن حرمت   فاشربوا قهوة النبب
ثم قوموا وعربدوا   واصفعوا من هو السبب

وقال بعضهم في مدحها

قم واسقني قهوة بنية فضحت   بنت الدنان وشنفت لي الفناجينا
من كف ظبي رشيق القد ذي حور   نادته عشاقه يا الف تاجينا
تدعو الى نحو ما فيه البقاء ولو   دعت الى نحو ما فيه الفناجينا
لو ان ألف امرىء طافوا بساحتها   راموا النجاة وجدت الالف ناجينا

* مطلب * اقدمية اتخاذ الصوف الصناعة والمدنية للاهلة وبيان من اخترعها من الامم

ثم ان اغنام المارينوس المقصودة بالتربية هي الاغنام الاندلسية ذوات الصوف الناعم والصوف من حيث هو في جميع بلاد الدنيا قديما وحديثا

مرغوب حتى انه يعتبر من أول عمر الدنيا من تاريخ الخليقة كأنه تخذ للصناعة والنسج فلا شك انه معلوم الصنعة فى الازمان الاولية فهو قرين الفلاحة التى هى معلومة قبل الطوفان ولم تعطلها حادثة الطوفان ولا أبطلتها فقد دلت التوراة على أن نوحا عليه السلام لما نجا من الطوفان بسفينته اشتغل بحراثة الارض وعلم أولاده الناجين معه ما كان يعرفه فى أصول الزراعة وقد ذكر قدماء المؤرخين أن العراقيين والكنعانيين والمصريين اشتغلوا بالفلاحة من الازمان القديمة والأعصر الخالية حتى ان المصريين كانوا يعتقدون أن أول مخترع للزراعة أسلافهم وزعم أهل الصين ان لهم الاسبقية فى ذلك قبل غيرهم وأن أول رؤساء ملتهم هو الذى اخترع علم الفلاحة والمحقق بالاخذ من التواريخ الصحيحة الجامعة بين الاقوال المختلفة ان قدماء الامم لاضطرارهم الى القوت والمؤنة كل منهم اخترع علم الفلاحة وبرع فيه ومن أقاليمهم التى لها الاسبقية فى مزية الاختراع انتقلت الزراعة الى غيرهم بالتدريج وان جميع الامم أجمعوا على ان الزراعة أمر مهم وأدركوا انه علم نفيس ولا يقتدر على ابتداعه من حيث كونه علما الا أرباب العقول الذكية فنسبوا اختراع علم الفلاحة لاكابر عقلائهم وفى كتب اليونان ما يفيد أنهم تملموا الزراعة من مصر وقال الرومانيون ان هذا العلم وصل الى بلادهم يعنى الى ايطاليا من اليونان ومن مصر ثم المحقق أن أهل الصين يعتنون بزراعة الارض ويجتهدون فى تكميل علم الفلاحة ومما يدل على ذلك ان لهم عيدا مشهورا فى كل سنة عدته توتكين وهو يوم مشهود يحضر محفله ملك الصين بموكب عظيم مع أعيان دولته فيأخذ الملك المحراث ويحرث قطعة من الارض بنفسه وينتهى هذا الموسم بوليمة عظيمة من طرف الملك وهذا اليوم معدود عند اهل الصين من ايام المواسم والافراح الاهلية وفى محفل هذا اليوم لا يدور على ألسنة الجم

* مطلب * تعريف ملك الصين الزراعة حرثه بنفسه قدرا من الارض فى يوم مشهود

الفقير والجوع المتكاثرة من الحادثة والمذاكرة غير السامرات المتعلقة بخصوص الزراعة ونماء الغنم وزينة الامم وجميع أهل الزراعة من مبادي أمرهم يعتنون بتربية المواشي لاسيما الغنم وبطرائق تحسين حالها ونتاجها وكانت الغنم في الازمان السالفة أصل ثروة سكان المعمورة حتى ان الرومانيين كانوا يعدونها رعامن الفلاحة لكونها ألزم الاشياء لطريق التعيش وكانوا يتخذون المعاملة من جلود الغنم يطبعونها بطابع السكة وقد مكثت الغنم البيض مدة نحو ستمائة سنة في بلاد الروما بين يحسنون تربيتها وتنميتها ولا يهملون فيها حتى انهم رتبوا مأمورين للتفتيش عليها وكانوا لا يعدونها للذبح بل أصوافها البيضاء معدة للصناعة ومن أهمل في تربية الماشية على العموم وتنمية الغنم على الخصوص عاقبوه بدفع المغارم الجسيمة ومن أحسن تربية ذلك وتنميته كافأوه بالجوائز السنية وشوقوه بالتحف البهية والانعامات لاسيما من جلب من الخارج من ذوات الاصواف الجيدة الى موطنه حيوانات للتوليد وكان الرومانيون ينسجون من هذه الاصواف جميع الملابس المختلفة والامتعة المتنوعة كالجاري الآن عند المتأخرين من الامم فكانوا يبحثون مع غاية الاعتناء عن الاصواف النفيسة الجامعة بين الطول والنعومة واللين كالصوف الانجوري وكصوف نابلي وأثينا وملطيه وسيواس وكلها أصواف ممدوحة ولم يكن في ذلك الوقت يتخذ من الاصواف اليونانية في التجارة الا أصواف خشنة لا تصلح للمصانع الا بالتنظيف ما عدا أصواف أثينا فان أصواف أغنامها تضاهي أصواف أغنام اسبانيا المسماة بالمارينوس مع النعومة التي تجددت في الازمان الاخيرة فهذه الاغنام الاندلسية انتقلت فيما بعد الى بلاد الانكليز والفلمنك فأتقنت هذه الدول تربية هذا الصنف وزادت كمية محصوله بتربيته حتى ان ولاية اسبانيا كانت

« مطلب » الاعتناء بتربية المواشي لاسيما تربية الغنم

« مطلب » الاعتناء بتربية الغنم البيض عند الروما بين والنهي من ذبحها

« مطلب »
جلب ادوارد ملك الانكليز من اسبانيا مقدارا احسبا من الغنم البيض الى مملكته النسبة

فى ابتداء أمرها يتحصل فى خزينة مملكتها من مغنم الاصواف الجيدة ماينيف عن ثلاثين مليونا من الريالات ثم ان ملك الانكليز المسمى ادوارد الرابع جلب من بلاد اسبانيا باذن ملكها ثلاثة آلاف رأس من الغنم البيضاء الى مملكة الانكليز فمن هذا الوقت انفتح منبع جديد للثروة والغنى والسعادة المالية لخزينة المملكة والتجارات الملية

« مطلب »
ورود نوع مخصوص من غنم الهند الى بلاد الانكليز لتحسين الصناعة باصوافها وما نتج من ذلك من البراعة

وفى القرن السابق الهجرى ورد من بلاد الهند الشرقى الى بلاد الفلمنك صف من الغنم من ذكور واناث عالى القامة مستطيل البدن غزير الصوف فاجتهد أهل الفلمنك بتربيته وتعويده على مزاج اقليمهم فنجح فيها كل النجاح حتى ان أناثى هذه الاغنام كانت تلد فى السنة الواحدة أربع أغنام وصوف الرأس الواحد يزن من عشرة أرطال الى ستة عشر رطلا فمثل هذه الاغنام ينجح ولو فى البلاد الباردة مثل مملكة أسوج فانها اعتنت بتربية أغنام المارينوس أمثالها وغلبت على الموانع القطرية كبرودة الاقاليم بحيث ان هذه المملكة كانت تجلب قبل ذلك أصوافها من اسبانيا والفلمنك والآن استغنت عن ذلك فما ظنك بالخديوية الجليلة المصرية التي أقاليمها معتدلة ملائمة لتربية الاغنام فى الفيوم وغير الفيوم فان النجاح فيها محقق لا محالة فمن جد وجد فان مملكة فرانسا كان أهاليها فى الازمان القريبة يشترون غزل الاصواف بالاموال الجسيمة جداً فكأنهم كانوا يدفعون للبلاد الاجنبية فى الثمن هذه المبالغ الثقيلة كالجزية والخراج فلما تقدمت حركة الصناعة من مذ نحو السبعين سنة استشعرت بما يلحقها من العار فى ذلك لا سيما وأنها بهذه الحالة لا تستطيع مصانعها أن تساوي مصانع غيرها من الانكليز والفلمنك ونحوهم فتعلقت آمالها أن تجتهد في تقديم صناعتها لتفوق على غيرها

« مطلب »
شراء مملكة فرانسا فى الازمان السابقة الاصواف المغزولة باثمان غالية قبل تجديد دوالب الحلج والغزل

فانتهى الامر بنجاحها في تجهيز الاصواف حيث شرعت ان تدخل في بلادها الدواليب والآلات اللازمة لحلج الصوف وغزله فشوقت من يستجلب من الاهالى هذه الدواليب لتنظيف الصوف وغزله فكثر فى فرانسا أرباب الصناعات والبراعات ممن يحسن عمل هذه الدواليب

فبهذه الوسيلة تقدمت الصنائع الآلية فى بلادهم وكثرت المكافآت من جمعية التشويقات الاهلية حيث ان هذه الجمعية الاهلية خصصت ثلاثة آلاف فرنك لكل من يخترع دولابا لغزل الصوف فاخترع بعضهم دولابا لذلك وأخذ المكافأة وكثر الاختراع للدواليب التنظيفية بهذا التشويق فوجود اغنام المارينوس وحدها فى البلاد لا يكفى ولا يتم الانتفاع بأصوافها الا بالدواليب المذكورة فان صوف المارينوس كان موجودا فى فرانسا من عدة أجيال وكان يساوى فى النعومة والجودة مارينوس اسبانيا ولم يتم الانتفاع به الا باختراع الدواليب

ومن المجرب عند الفرنساوية ان غنم المارينوس كلما طالت مدتها فى البلاد وتربت أغنامها وتطبعت بالتوليد لا يزال يأخذ صوفها فى النعومة ويحبح النجاح التام فى مصانع الجوخ العالى والمدار على حسن تمهده بالتنظيف والتصفية فان ذلك يزيد فى قيمته ولم يكن بفرانسا من حيضان تنظيف الصوف الاحوض واحد فالآن كثرت حيضان التنظيف حول باريس فلعل يوما من الايام تدرك الديار المصرية مناها فى اغتنام فرصة الاقتناء والاعتناء بتحصيل مزايا هذه الاغنام ثم ان مزية أصواف هذه الاغنام المارينوسية ليست منحصرة فى النعومة والامتداد بل من جملة جودتها طول قرون أصوافها فكلما طالت كثرت فيها الرغبات وكان الناس يعتقدون ان الاغنام

تتناقص جودة أصوافها للجز كل سنة وان كل جزة من سنة سابقة أجود من اللاحقة وان الاصواف اذا بقيت على الضأن عدة سنوات لا تنمو صوفها نماء يكون كفؤا لجزها عدة مرات فجرب ذلك بالامتحان عدة من أعضاء الجمعية الزراعية الفرنساوية بأن أبقوا قطيعا من النعم ثلاث سنوات بدون جز لتظهر النتيجة فلم يجدوا تناقصا في الكم والكيف بل رأوا ان أصوافها قد اكتسبت طولا متساويا ودقة متساوية ووجدوها ناعمة الملمس كما لو كانوا جزوها على مرار عديدة وظهر من هذه التجربة تجديد فرع للصناعة وهو تطويل الصوف بعدم جزه وتفويت أوانه مدة ليدخل في مصانع أخرى تحتاج اليه ومن هذا اخترعوا صنفا من الجوخ الشهير المسمى بالكزمير فاكثروا من اصطناعه وتحسينه وقدموه في أحد المعارض العمومية بفرانسا فاستحسن الجميع جودة صناعته لملومرتبته وحسن أصوافه بحيث صار يضاهي بالكلية مشغولات الكزمير الانكليزية

« مطلب »
ابقاء الصوف بلا جز عدة سنوات وان التجربة افادت حسنة بعدم جزه كل سنة

« مطلب »
الجوخ الفرنساوي المسمى بالكزمير

وقد تبين أيضا بالملاحظة ان الغنم التي لم تجز مدة طويلة وتبقى هذه المدة بقصد طول أصوافها لا يؤثر فيها تأثيرا ظاهرا ثقل الصوف على أبدانها وهذا بخلاف ما تعتقده العامة وقد أطلنا الكلام في الاصواف وحسبك فيها الآية الشريفة وهي قوله تعالى والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا الى حين ومن المعلوم ان البيوت التي يسكن الانسان فيها على قسمين أحدهما البيوت المتخذة من الخشب والطين والآلات التي بها يمكن تسقيف البيوت واليها الاشارة بقوله تعالى والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وهو ما يسكن اليه الانسان أو يسكن فيه وهذا القسم من البيوت لا يمكن

نقله بل الانسان ينتقل اليه والقسم الثانى القباب والخيام والفساطيط واليها الاشارة بقوله وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم وهذا القسم من البيوت يمكن نقله وتحويله والمراد بها الانطاع يعنى البسط المتخذة من الجلد وما يعم البيوت منه مما تستعمله العرب وغيرهم من أهل البوادى والمعنى يخف عليكم حملها في أسفاركم وفى اقامتكم أي لا يثقل عليكم في الحالين وقوله تعالى ومن أصوافها وأوبارها واشعارها قال المفسرون الاصواف للضأن والاوبار للابل والاشعار للمعز وقوله تعالى أثاثا الاثاث أنواع متاع البيت من الفرش والاكسية وقديم الثياب والكسوة وقوله تعالى ومتاعا الى حين أي ما تتمتعون به الى يوم القيامة واستقرب بعض المفسرين أن المراد بالاثاث ما يكتسى به المرء ويستعمله فى الغطاء والوطاء وبالمتاع ما يفرش فى المنازل ويزين به وقد ذكر الله تعالى الاصواف ومابعدها فى معرض النعم العظيمة التي يجب شكرها فيجب الاعتناء بتكثيرها على اختلافها فى جميع أطراف واكناف الممالك المصرية بعناية الحكومة الخديوية وهمم عمد اهل الاراضي الزراعية لتعميم المنافع الاهلية فان مصر المتشبثة الآن بأن يكون لها في الصنائع والفنون قدم رسوخ لا ينبغي ان تيأس من تجديد مصانع الجوخ فكم من أشياء لا يخطر انشاؤها بالبال ويظن أن تحصيلها من قبيل المحال وعند اقتضاء الاوقات وتعلق الآمال يتم الحصول عليها بأسهل طريق وأتم منوال وأما تنبيه صاحب الملحوظات على وفود قوافل داخل افريقية الى الديار المصرية واستعاضتها بضائعها بمشغولات مصر وأوربا وخلاصة صنائعها فهو فى محله وقد جرى مفعول هذه الملحوظ على أصول مصونة محفوظة. فتجار دارفور وبرنو ونحوهما تحضر في ميعادها وتأتي بسائر بضائعها على حسب معتادها ومن جهة سنار والبحر الابيض

* مطلب * ورود قوافل افريقية الى مصر للتجارة

تحضر التجار بسن الفيل والصموغ وريش النعام وغيرها وانما اهل أقاليم تنبكتو وهي بلاد التكرور لايحضرون الالقضاء الحج وكذلك القلاة السودانية يرون بمصر لسفر الحجاز مع ذلك الالبعد المسافة لا لقلة أمن الطريق أووجود مخافة فالتجارات فى داخل افريقية الحقيقية تيسر بعد تخطيط المسالك الطرقية وهى لا تتيسر الابحركة عجيبة من الحكومة المصرية واستكشافات جليلة عصرية واتجاعات من قبائل اسلامية متمدنة وتوقيفات لاهالى تلك البلاد على وسائل التمدن المستحسنة وان شئت فقل ان حسن تمامها انما يكون بنوع من الفتوحات والتشبث بعماريتها وادخال ما يلزم لها من الاصلاحات حتى يصير جنوب افريقية كالأقاليم الجنوبية بقسم امريقة فان كان من السابق فى علم الله تعالى أن يكون لمصر فيه قوة التجهيز (فما ذلك على الله بعزيز)

فكم من صغير أسعفته عناية — من الله فاحتاجت اليه الاكابر
وكم خامل جاءت اليه اشارة — من الله فانحازت اليه الاشائر

فمن هذا نجد أن ملحوظات الفصل الثانى التى سبقت اليها الاشارة قد اجريت بتداول الايام (وما الدهر الا تارة بعد تارة)

فكما احطر بالبال أمرخطير من الاعمال الصالحة يحتاج الى حسن التدبير كان الوطن معاناعليه من المولى القدير فالمقاصد الخيرية ميسرة الوسائل قريبة المشارع عذبة المناهل وحق على الامير الطالب للمعالى أن يتغالى فى المطلوب ويتعالى فى مدارج العلى بأجمل اسلوب ويبرز فى مظهر البلاغة نظام بيت ملكه المشيد حتى يظهر فى نظم سلوك الملوك بيت القصيد ومن أحسن من ولاة الامور سلوك أقوم سنن تأيد بحسن نيته فى ميدان الانتصار على مشروعه الحسن ان ينصركم الله فلا غالب لكم

ملك الملوك إذا وهب   لا تسألن عن السبب
الله يعطي من يشا   فقف على حد الأدب

« مطلب » تمثل المال والعقل والسعد للاسكندر

يحكي أن اسكندر الاكبر تشكلت له ثلاث معادن فى جلباب الجمال وثياب المهابة والاجلال فأول شكل دخل عليه فى حلل الحسن والبها والشمائل التي يزهو بها فأخذ بقلبه ولبه فاحله منه بقربه ثم سأله من أنت فقال أنا المال فقال الاسكندر لولا انك ميال ثم دخل عليه الشكل الثانى يرفل فى حلل الوقار والمعاني فأدناه منه ثم سأله من أنت فقال أنا العقل فقال لولا انك فى بعض الاحوال عقال ثم دخل عليه الشكل الثالث تزفه الغانيات بالمثالث وقد أشرقت بجماله وجوه المطالب وانجلت باقباله ظلم الغياهب فقام له على قدميه وقبل ما بين عينيه ثم قال من الزائر أيها البهي الزاهر فقال أنا السعد فقال أشهد أنك عناية الحق وميزان اختبار الخلق فالويل لمن جهل حقوق اقبالك عليه ويا سعادة من وفى حق الخلافة اذا سلمت اليه ثم عاهده على أن يكون من أعوانه وعلى وفق ما يقتضيه حكم ميزانه والحمد لله الذى جعل نعمة مصر في المزيد ليزداد الشكر والمحبة لوليها الذي أجريت النعمة على يديه اذ هو السبب الاصلي الحامل على ذلك والدال عليه والمائل بالطبع اليه وستأتي الاشارة الى ما يجدد من المحاسن الحالية فى الفصل الرابع من هذا الباب

الفصل الرابع

(في اسعاد الحاكم للبلاد والعباد)

ليس من ملوك مصر من تفتخر به الاهالي مثل افتخارهم بالخديو الاكرم حيث انه تأسس في أيامه قواعد عدلية لا تحصى ومآثر منافعها جلية لا تستقصى ولو لم يكن له من المآثر الا كونه حمل الاهالي على أن يستنيبوا عنهم نوابا ذوي فكرة ألمعية ليتذاكروا في شأن مصالحهم المرعية لكفاه ذلك شرفا ومجداً وعزا وسعدا حيث صار مستوليا على أمة حرة الرأي باستشارتها في حقائق التراتيب والتنظيمات التي يراد تجديدها لاجلهم كما ان له الفخار في أنه لا يضيع حقوقهم حيث جعله الله أمينا عليها فبهذه الوسيلة القوية تمكن من أداء ما وجب عليه في حق الرعايا مع كونه تمدح بالحكم على رعايا أحرار يتمتعون بحقوقهم ويمطرون بزمامهم وبهذا أيضا يكون على يقين من التسلطن المنوي على النفوس والارواح وان يدرك بمساعدتهم اياه في اسعاده لوطنهم تمام النجاح حيث القلوب جبلت على حب من أحسن اليها فقل أن تخلع الرعايا خلعة محبتها القلبية ومودتها الاخلاصية على حكامها مجانا فالعاقل من لا يحب أو يبغض الا بسبب من الاسباب وقد تقدم غير مرة ان غنى مصر ورأس مالها الحقيقي انما هو متكون بالاصالة من زراعتها وبالتبعية من تجارتها في محصولات الزراعة مع ما يتبع الزراعة من تمية المواشي وتكثيرها لا سيما ما يعين على الحرث وتمية النبات كالبقر الذي هو خاصة مصر قديما وحديثا أنفع بهيمة الانعام وأجل غنيمة الانعام بدليل ان البلاد تذوق مرارة المضرة في السنة التي يذوق فيها هذا النوع كأس الحمام ولولا الهام أهلها التبصر

• مطلب • تأسيس شورى النواب

« مطلب » تبصر وتصبر أهل مصر عند نفق المواشي بالوباء وذكر نادرة تناسب ذلك في التعزية بثور أبيض

والتصبر عند حلول مثل هذه المصيبة العظيمة لحزنوا جميعا في سنة نفق المواشي بالوباء ولا حزن ابي بكر بن قريعة حيث نفق له ثور أبيض وجلس على العزاء عليه تراقعا وتحامقا حتى ان أبا اسحق الصابي كتب اليه يعزيه على هذا المفقود عن لسان ابن لبنة في أيام وزارته فقال التعزية على المفقود انما تكون بحسب محله من فاقده من غير أن تراعي قيمته ولا قدره ولا ذاته ولا عينه اذا كان الغرض منها تبريد الغلة واخماد اللوعة وتسكين الزفرة وتنفيس الكربة فرب ولد عاق وأخ ذي شقاق وذي رحم أصبح لها قاطعا وقريب قوم قلدهم عارا وناط بهم شنارا فلا لوم في ترك التعزية عنه وأحرى بها أن تكون تهنئة بالراحة منه ورب مال صامت غير ناطق قد كان بمستظهرا وله مستثمرا فالفجيعة به اذا فقد موضوعة موضعها والتعزية عنه واقعة موقعها وبلغني ان القاضي أصيب بثور كان له فجلس للعزاء عنه شاكيا وأجهش عليه باكيا والندم موالبا وحكيت عنه حكايات في التأبين له واقامة الندبة عليه وتعديد ما كان فيه من فضائل البقر التي تفرقت في غيره واجتمعت فيه وحده فصار كما قال أبو نواس في مثله من الناس

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

لانه يكرب الارض معمورة ويثيرها مزروعة ويدور في الدواليب ساقيا وفي الارجاء طاحنا ويحمل الغلات مستقلا والاثقال مستخفا فلا يؤده عظيم ولا يعجزه جسيم ولا يجرى في الحائط مع شقيقه ولا في الطريق مع رفيقه الا كان جلدا لا يسبق ومبرزا لا يلحق وفائتا لا ينال شأوه وغايته ولا يبلغ مداه ونهايته ويشهد الله ان ما ساءه ساءني وما آلمه آلمني ولم يحز عندي في حق المودة استصغار خطب جل عنده فأرمضه وأرقه وامرضه وأقلقه

فكتب هذه الرقعة فاصابها من الحق في مصابه هـذا بقدر ما أطهر من
إكثاره اياه وأبان من اعظامه له وأسأل الله تعالى ان يخصه من الموضعة
أفضل ماخص به البشر عن البقر وان يفرد هذه البهيمة العجماء بأثرة
من الثواب تضيفها الى المكلفين من الالباب فانها وان لم تكن
منهم فقد استحقت ان لا تفرد عنهم بان مس القاضي سببها وصار اليه
متسببها حتى اذا أنجز الله ما وعد به من تمحيص سيآتهم وتضعيف
حسناتهم والافضاء بهم الى الجنة التي رضيها لهم دارا وجعلها لجماعتهم قرارا
وورد القاضي أيده الله تعالى موارد أهل النعيم مع أهل الصراط المستقيم
جاء وثوره هذا مجنوب معه مسموح له به وكما ان الجنة لا يدخلها الخبث
ولا يكون من أهلها الحدث ولكنه عرق يجرى من أعراضهم كذلك يجعل
الله ثور القاضي مركبا من العنبر الشحري وماء الورد الجوري فيكون له ثورا
وجونة عطر له طورا وليس ذلك بمستبعد ولا مستنكر ولا مستصعب ولا
متعذر اذا كانت قدرة الله بذلك محيطة ومواعيده لامثاله ضامنة بما أعده
الله في الجنة لعباده الصادقين وأوليائه الصالحين من شهوات أنفسهم وملاذ
أعينهم وليس ما منحه من غامر فضله وفائض كرمه بمانع له من صالح مساعيه
ومحمود شيمه وقلبي متعلق بمعرفة خبره أدام الله عزه فيما ادرعه من شعار
الصبر واحتفظ به من ايثار الاجر ورفع اليه من السكون لامر الله تعالى
في الذى طوقه والشكر له فيما ازعجه واقلقه فليعرفني القاضي من ذلك ما
أكون ضاربا معه بسهم المساعدة عليه وآخذا بقسط المشاركة فيه فأجاب
القاضي ابو بكر بقوله وصل توقيع سيدنا الوزير أطال الله بقاءه وادام « مطلب » جواب التعزية
تأييده ونعماءه وأكمل رفعته وعلاه وحرس مهجته ومرقاه بالتعزية عن الثور

الابيض الذي كان للحرث مثيرا وللدواليب مديرا وبالسبق الي سائر المنافع شهيرا وعلى شدائد الزمان مساعـدا وظهيرا لعمرك لقدكان بعمله ناهضا ولحاقات البقر رافضا أنى لنا بمثله وشراوه ولا شروى فانه من أعيان البقر وانفع أجناسه للبشر مضاف ذلك الي أخلاق لولا خوفي من تجدد الحزن عليه وتهييج الجزع وانصرافه اليه لعددتها ليعلم أدام الله عزه ان الحزن عليه غير ملوم وكيف يلام امرؤ فقد من ماله قطعة يجب في مثلها الزكاة ومن خدم معيشته بهيمة تعين على الصوم والصلاة وقد احتذيت ما مثله الوزير من شمل الاحتساب والصبر على المصاب فانا لله وانا اليه راجعون قول من علم أنه أملك لنفسه وماله وأهله وانه لا علك شيأ دونه اذ كان جل ثناؤه وتقدست اسماؤه هو الملك الوهاب المرتجع ما يرتجع مما يعوض عليه نفيس الثواب وقد وجدت ايد الله الوزير للبقر خاصة فضيلة على سائر بهيمة الانعام تشهد بها العقول والافهام ثم ذكر جملة من فضائله لا يحتاج اليها هنا انتهى وانما نقول انه لا يتوجه على مثل هذا القاضي في مصيبته ملامة لأنهم فكيف والسعد في طالع البهائم ولهذا تقول العامة ان الدنيا على قرن ثور وقال الشاعر

والدهر كالدولاب ليـ ... س يدور الا بالبقر

وأما التعزية فلا بأس بها

فلعمري يحق لو كتبوها ... بسواد العيون فوق المجرة

قال بعضهم ومن موجبات الثروة الهمة والصنعة فان الهمم الموجبة لها في المملكة يقال لها القوة المحصلة وهي مختلفة في الممالك فبعض الممالك ما تكون ثروته أزيد من الاخرى وذلك بنسبة تزايد القوة المحصلة لها ونقصها والقوة المحصلة للثروة عبارة عن شيئين سعي الانسان وموضوعه الارض فاذا

* مطلب القوة المحصلة للثروة

نظر فى الهيئة الاجتماعية وجد ان الارض فى جميع الازمان على طبيعتها وانما اختلفت باختلاف الاطوار الحاصلة كاختراع السفن البخارية والطرق الحديدية واستعمال السلوك البرقية المسماة بالتلغراف فى المخابرات مما يخترعه الانسان بواسطة توسيع دائرة العلوم والفنون فيجعل الانسان ما لا يمكن تحويله بطبيعته فى طرز آخر وبالتأمل فى أحوال الامم المختلفة والممالك الداخلة فى حوزة حكوماتها يعلم اختلاف الامزجة والطباع من وجهين

الاول ان أهالى الممالك التى تحت المنطقة الحارة ليست مثل الممالك التى تحت المنطقة المنجمدة كالبلاد التى باطراف القطب فى اللوازم الضرورية فان أهل المنطقة القطبية المنجمدة تفتقر الى زيادة الملبس للتحفظ من تأثير البرد بخلاف أهل المنطقة الحارة فهى بعكسها مفتقرة الى مايقيهام من تأثير الحرارة والرطوبة وبخلاف أهل المنطقتين المذكورتين أهالى المنطقة المتعدلة

الثانى ان طبيعة الاراضى والاقاليم ترشد الانسان الى وسائط متنوعة فى الصناعة ونماء النبات والحيوان انما يكون بالنسبة لأهوية المملكة الموجودة هى فيها وبعض الممالك مشهور بكثرة الطيور والمراعى النضرة والمعادن وبعضها ليس فيها شىء من أسباب الثروة الطبيعية بالكلية ومن الممالك ما تسهل المخابرات فيه بكثرة الانهار ومنها ما تشق فيه لعدم ذلك فالانسان لا يمكنه محوها وانما بالقوة الصناعية العلمية يمكنه تحويل الحال الى حالة أخرى وحصول هذه الحالة واختراعها وبلوغها درجة كاملة كالتلغراف مثلا انما يكون بصرف المساعى والهمم وكذا سائر الوسائل كالسفن البخارية والطرق الحديدية وسائر المخترعات النافعة فكلها من أعظم أركان القوة المحصلة وتزايدها موقوف على ترقى الفنون والصنائع وبعظم هذه القوة ترتقى

بعض الامم الى درجة الثروة وبضعفها تتراجع الاخرى فمدار المملكة موقوف على وصولها الى الدرجة الكمالية وذلك موقوف على اتساع الدائرة الصناعية وهو موقوف على تميم الصناعات الموروثة سلفا عن خلف ونقل ما اخترع منها في الممالك الى البلاد التي ليست فيها هذه الاختراعات موقوف على صرف الهمة اليها والسعي فالمدار في استكمال أسباب الثروة على السعي

« مطلب » ان صرف الهمة الى الصنائع في بلدة من البلاد يقطع عرق الفتن والشرور فيها

وحيث كانت التجارة من منابع الثروة العظيمة فلا شك ان صاحب الاشتغال بها الباذل همته وسعيه فيها ذهنه مصروف اليها بالكلية ففكره عادة ملهي عن الافكار الباطلة التي يتسبب عنها هدم بنيان الامة بالفتن والشرور ومتى كانت التجارة متسعة في مملكة تنصرف الهمم الى التشبث بالارواح الحقيقية وتشتد الرغبات في الاسباب والمسببات المكونة لاتساع رؤس الاموال وفي تمكين القوة الصناعية بالقوى العلمية من كل مايسهل طرق المكاسب ويحولها الى درجات كمالية مما يهتم به الآن بالنظر لتقديم المنافع العمومية اصالة وللمنافع السياسية تبعا

وقد اختلفت هذه الازمان الحديثة عما كان يجري في الازمان القديمة من صرف المساعي والهمم في تسهيل وسائل الدولة بالاصالة مما يكون لمنافع الرعية حاصلا غير مقصود فقد دلت التواريخ على أن المخترعات الجديدة في الدول المتأخرة لم تخل عن مقابل لها من بعض الوجوه في الدول القديمة كالطرق الحديدة والتلغراف ونحوها فكان البريد وحمام الرسائل قائما مقامها في مصالح الدولة وكذلك مجن الثلج والمراكب المسفرة بالثلج في البحر لشرابخانة السلطنة المصرية وكذلك المناور لاستطلاع اخبار العدو والاحتراس منه والمحرقات للروع والمراعي لقطع رجاء العدو المريد الاغارة على بلاد السلطنة لجميع هذه

« مطلب » ان الاختراعات الجديدة كان لها نظائر في الازمان القديمة تقوم مقامها من بعض الوجوه

انما كانت منافع سلطانية كما سيعلم

فقد كان البريد فى عهد الاكاسرة والقياصرة موجودا وانما أحواله مجهولة وأول من وضع البريد فى الاسلام معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما حين استقرت له الخلافة ومات أمير المؤمنين على كرم الله وجهه وسلم اليه ابنه الحسن وخلا من المنازع فوضع البريد ليسرع اليه أخبار بلاده من جميع أطرافها فأمر باحضار رجال من دهاقين الفرس وأهل أعمال الروم وعرفهم مايريد فوضعوا له البريد واتخذ لها بغالا باكف كان عليها سفر البريد ثم اتسع الامر فى زمن عبد الملك بن مروان حين خلا وجهه من الخارجين عليه كعمر ابن سعيد الاشدق وعبد الله بن الزبير ومصعب بن الزبير والمختار بن أبي عبيد واستعمل البريد الوليد بن عبد الملك بعد أبيه فكان يحمل عليه الفسفيسا وهي الفصوص المذهبة من القسطنطينية الى دمشق حتى صفح بها حيطان المسجد الجامع ومكة والمدينة والقدس الشريف ثم لم يزل البريد قائما والعمل عليه دائما حتى آن لبناء الدولة المروانية أن ينتقض ولحبلها أن ينتكب فانقطع ما بين خراسان والعراق لانصراف الوجوه الى الدعوة القائمة للدولة العباسية ودام الأمر على هذا حتى انقرضت أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية وملك السفاح ثم المنصور ثم المهدي والبريد لا يشتد له سرج ولا يلجم له دابة ثم ان المهدى أغزى ابنه هرون الرشيد بلاد الروم وأحب أن لا يزال على علم قريب من خبره فرتب ما بينه وبين معسكر ابنه بردا كانت تأتيه بأخباره وتريه متجددات أيامه فلما قفل الرشيد قطع المهدي تلك البرد ودام الامر على هذا [illegible] موسى الهادي بعده

فلما كانت خلافة هرون الرشيد ذكر يوما حسن صنع أبيه في البرد التى جعلها بينهما فقال له يحيى بن خالد لو أمر أمير المؤمنين باجراء البريد على

« مطلب »
وجود البريد في عهد الاكاسرة والقياصرة ومن بعدهم من ملوك الاسلام

ما كان عليه كان صلاحا للمملكة فامر به فقرره يحيى بن خالد ورتبه على ما كان عليه أيام بنى أمية وجعل البغال فى المراكز وكان لايجهز عليه الا الخليفة أوصاحب الخبر ثم استمر على هذا فى خلافة المأمون واتسع أمر البريد فيها حتى رتب لصاحب البريد اربعة آلاف من الهجن مع مؤنتها وآلاتها ليستخبر بهاعن أمور المملكة فكان يعلم أمور العالم فى يوم واحد

ولما دخل هذا الخليفة بلاد الروم نزل على نهر البردون وكان الزمان حارا فقعد على هذا النهر ودلى رجليه فيه وشرب من مائه فاستعذبه واستبرده واستطابه وقال لمن كان معه مستفهما ما أطيب مايشرب عليه هذا الماء فقال كل برأيه فقال هو أطيب مايشرب عليه هذا الماء رطب ازاد فقالوا له يعيش أمير المؤمنين حتى يأتى العراق ويأكل من رطبها الازادى فما استتموا كلامهم حتى أقبلت بغال البريد تحمل أشياء منها رطب ازادفاتى للمأمون منها فأكل وشرب من ذلك الماء فأكثر وعجب الحاضرون لسعادته حيث لم يقم من مقامه حتى بلغ امنيته مع ما كان يظن من تعذرها فلم يقم المأمون حتى حم حمى حارة كانت فيها منيته

ولما جاءت دولة بنى بويه وعلوا على الخلافة وغلبوا عليها الخلفاء العباسيين قطعوا البريد ليخفوا على الخليفة ما يكون من أخبارهم وحركاتهم أحيان قصدهم بغداد وكان الخليفة يأخذهم على بغتة وجاءت الملوك السلاجقة على هذا وكان بين ملوك الاسلام اذ ذاك اختلاف ذات بينهم وتنازعهم فلم يكن بينهم الا الرسل على الخيل والابل كل أرض بحسبها فلما أتت الدولة الزنكية أقام السلطان نور الدين الشهيد للبرد النجابة وأعد لها النجب الجيدة ودام هذا فى جميع أزمان الدولة وفى أيام بنى أيوب رحمهم الله الى آخر أيامهم

وسقوط أقدامهم وتبعها على ذلك أوائل الدولة التركية المصرية فبطل في أثنائها البريد حتى صار الملك الى الظاهر بيبرس رحمه الله واجتمع له ملك مصر والشام وحلب الى نهر الفرات وأراد تجهيز دولة الى دمشق فعين لها نائبا ووزيرا وقاضيا وكاتبا للانشا وكان الصاحب شرف الدين محمد عبد الوهاب هو كاتب الانشاء فلما مثل بين يديه ليودعه اوصاه بوصايا كثيرة آكدها مواصلته بالاخبار لا سيما ما يتجدد من اخبار التتار والفرنج وقال له ان قدرت أن لا تبيتني ليلة الا على خبر ولا تصبحني الا على خبر فافعل فعرض له بما كان عليه البريد في الزمان الاول وايام الخلفاء وحرضه عليه فحسن موقعه منه وامر به ورتب عليه جمال الدين عبدالله الدوداري البريدي المعروف بابن السديد وكان جمال الدين في ذلك الوقت جناح الاسلام الذي لا ينقص وترتبت فى ايام نظارته مراكز البريد فى الممالك الاسلامية ومنها فى محروسة مصر ومركز قلعة الجبل الى نواحيها الخاصة بها وهى ثلاث جهات اولها الى جهة قوص ثم الى اسوان ثانيها من القلعة الى جهة الاسكندرية ثالثها الى جهة دمياط فالاولى من مركز القلعة الى الجيزة ثم منها الى زاوية حسين والى منية القائد ثم منها الى ونا ثم منها الى ببا ثم منها الى دهروط ثم منها الى اقلوصنا ثم منها الى منية ابن خصيب التي يقال ان الخصيب أيام ولايته عمرها لابنه وسماها باسمه ثم من منية بن خصيب الى الاشمونين التى كانت احدى مدن الصعيد العظيمة وكان بها اذ ذاك مقر الولاية ثم منها الى ذروة الشريف نسبة الى الشريف حصن الدين بن ثعلب فانها كانت دار مقامه وبها دوره وقصوره وكان قد خرج ملك الصعيد وعجز منه ملوك مصر وأمن ايام المعز ايبك ومن بعده فلم يظفر به ثم خدعه الظاهر بيبرس ومناه ووض بالاسكندرية فلما اناب اعاق

« مطلب » ترتيب مراكز البريد من قلعة مصر الى ولاياتها

به الظفر والناب وجهز الى الاسكندرية ليتملكها فشنق على بابها ثم من ذروة الشريف الى منفلوط وهى اجل خاص السلطان ثم منها الى اسيوط ثم منها الى طا ثم منها الى المراغة ثم منها الى بلسبوره ثم منها الى جرجا ثم منها الى البلينة ثم منها الى هو ويليها الكوم الاحمر وهما من خاص السلطان وعندهما ينقطع الريف فى البر الغربى ويكون الرمل المتصل بدندره ويسمى خانق دندره ثم من هو المذكورة الى قوص ثم من قوص ركب البريد الهجن الى اسوان والى عيذاب ثم الى النوبة او الى سوا كن على ما يكون

واما جهة اسكندرية فالمراكز من القلعة اليها فى طريقين فالوسطى تشق العامر الآهل وهي من مركز القلعة المحروسة الى قليوب ثم منها الى منوف ثم منها الى محلة المرحوم مدينة الغربية ثم منها الى النحريرية ثم منها الى الاسكندرية والطريق الاخرى وهى الآخذة من طريق البر وتسمى طريق الحاجز وهى من مركز القلعة الى الجيزة ثم منها الى جزيرة القط ثم منها الى وردان ثم منها الى الطرانه ثم منها الى زاوية مبارك ثم منها الى دمنهور ومدينة اعمال البحيرة ثم منها الى لوقين ثم منها الى الاسكندرية

واما طريق دمياط فن القلعة الى سرياقوس ثم منها الى بلبيس وهى آخر المراكز التى لخيل السلطان أي الخيل التي تشترى بمال السلطان ويقام لها السواس والعلوفات على طرف السلطان ثم مما يليها خيل البريد المقررة على عربان ذوى اقطاعات عليها خيول موظفة تحضر فى هلال كل شهر فى مراكز اصحاب النوبة بالخيل فاذا انسلخ الشهر جاء غيرهم ولهذا تسمى خيل الشهارة وعلى بريد الشهارة وال من قبل السلطان يستقبل فى رأس كل شهر خيل أصحاب النوبة فيه ويدوغها بالداغ السلطاني ثم من بلبيس الى السعيدية

وهي أول بريد الشهارة ثم منها الي اشموم الرمان ثم منها الى دمياط فهذه المراكز الخاصة بالديار المصرية وكان ثم مراكز آخذة من قلعة الجبل المحروسة الى الفرات تبتدىء من سرياقوس وتجتمع ببريد دمياط وتفترق من السعيدية لسالفة الذكر وتتشعب فى البلاد الشامية الى جهات مختلفة

« مطلب » حمام الرسائل وان منشأه بالموصل ونقل نورالدين الشهيد له لترنسه فى ممالكه

وأما حمام الرسائل فان منشأه من بلاد الموصل وحافظ عليه الخلفاء الفاطميون بمصر وبالغوا حتى أفردوا لمراكزه ديوانا وجرائد بأنساب الحمام وأول من اعتنى به من الملوك ونقله من الموصل هو الشهيد نور الدين محمود بن زنكى رحمه الله سنة خمس وستين وخمسمائة حيث بنى الابراج على الطريق بين المسلمين والفرنج وجعل فيها من يحفظها وفوقهم الحمام الهوادى فاذا رأوا من العدو أحدا ارسلوا الطيور فأخذ الناس خبرهم وتجهزو لهم فلم يبلغ العدو منهم الغرض وكان هذا من ألطف الفكر وأكثره نفعا وهذا معنى قول الحافظ عماد الدين بن كثير فى تاريخه اتخذ السلطان نور الدين الشهيد الحمام الهوادي فى سنة سبع وستين وخمسمائة وذلك لامتداد مملكته واتساعها فانها من حد النوبة الى همدان فلذلك اتخذ فى كل قلعة وحصن الحمام التى تحمل الرسائل الى الآفاق فى أسرع مدة وأيسر عدة انتهى وتسمى حمام الرسائل حمام البطاقة أيضا ولعل تربية حمام البطاق فى بلاد الموصل التى بها جبل الجودى مستنبطة من بعث نوح الغراب ثم الحمامة لاستعلام خبر الطوفان فقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال استقرت السفينة على الجودى فبعث نوح الغراب ليأتيه بالخبر فذهب فوقع على الجيف فأبطا عليه فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون ولطخت رجليها بالطين فعرف نوح أن الماء نضب أي نشف

وقد كان بالديار المصرية تدريج الحمام بالوجه القبلي بالرسائل فكان متصلا من القاهرة الى قوص وأسوان وعيداب ومن القاهرة الى الاسكندرية ومن القاهرة الى دمياط ومن القاهرة الى السويس من طريق الحاج ومن القاهرة الى بلبيس متصلا بالشام وبالجملة فكانت مراكز الحمام في سائر البلاد الاسلامية حتى قيل ان الحمام ملائكة الملوك

* مطلب * مراكز الحمام بالديار المصرية

وفى سنة احدى وسبعين وخمسمائة اعتنى الخليفة الناصر لدين الله بحمام البطاقة اعتناء زائدا حتى صار يكتب بانساب الطير الحاضر انه من ولد الطير الفلاني وقيل انه بيع زوج بألف دينار وقدجرت العادة في مصر ان الحمامة لا تحمل البطاقة الا في جناحها لامور منها حفظها من المطر ولقوة الجناح والواجب انه اذا بطقت الحمامة من مصر لا تطلق الا من أمكنة معلومة فاذا سرحت الى الاسكندرية لا تسرح الا من مية عقبة بالجيزة والى الشرقية فمن مسجد التبين ظاهر القرافة والى دمياط والذى استقر عليه قواعد الملك ان طائر البطاقة لا يلهو عنه الملك ولا يغفل ولا يمهل لحظة واحدة ففوته مهمات لا تستدرك اما من واصل واما من هارب واما من متجدد في الثغور ولا يقلع البطاقة من الحمام الا السلطان بيده من غير واسطة أحد فان كان يأكل لا يمهل حتى يفرغ أو نائما لا يمهل حتى يستيقظ بل ينبه وينبغي ان يكتب البطاق البطاقة في ورق الطير المعروف بذلك وتؤرخ بالساعة واليوم لا بالسنة ومما قيل في حمامة البطاقة من الادب

* مطلب * ما قيل في حمامة البطاقة من الادب نثرا ونظما

خضر تفوت الريح في طيرانها | لا بد بين غدوها ورواحها
تأتى بأخبار الغدو عشية | كسير شهر تحت ريش جناحها
وكأنما الروح الامين بوحيه | نفث الهداية منه في ارواحها

ومن انشاء القاضي الفاضل في وصفها سرحت لا تزال أجنحتها تحمل من البطائق أجنحه وتجهز جيوش القاصد والاقلام أسلحه وتحمل من الاخبار ما تحمله الضمائر وتطوي الارض اذا نشرت الجناح للطائر وتزوى لها الارض حتى يرى ما سيلبه ملك هذه الامة وتقرب منها السماء حتى ترى ما لا يلبه وم ولا همه وتكون مراكب الاغراض والاجنحة قلوعا وتركب البحر بحرا يصفق فيه هبوب الرياح موجا مرفوعا وتعلق الحاجات على اعجازها ولا تعوق الارادات عن انجازها وقد أشار ابن الوردي في اشارة الحمامة الى ما يفيد مزية حمام الرسائل مستوفيا لكل خاصة فيه وعلامة حيث قال فبينما الباز سكران بما بان له من البان واذا حمامة قد وقفت امامه وقالت له كم تفتخر وأنت عظم نخر أنت من آلة اللعب والصيد وأنا من آلة الجد والكيد انا مع الطوق والخضاب من حملة الكتاب ومع حذري من شرك الشرك وخوفي من فخ الافك حملت الامانة التي أبت الجبال عن حملها وامتثلت مرسوم ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها فلما أوصلت الحقوق أمنت العقوق وقوبلت بالبشائر والخلوق ومما اعجب العالمين اني مخضوب البنان ولي يمين أقول للملك دع الاهتمام لا تلعب بي فأنا الحمام فمهما حدث على البعد من أخصامك فأنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك كتمت عن الناس سري وأبهمت بين الغناء والنوح أمري

رأوا خضابي وطوقي فاستكفوا من بكائي
ثم ادعوا ان زيي مناسب للغنـــــاء
فقلت كفوا فعذري بادبغير خفــــاء
فالخضب من فيض دمعي والطوق عقد ولائي

وقال بعضهم

فحبذا الطائر الميمون يطرقنا   في الامر بالطائر الميمون نبيها
فاقت على الهدهد المذكور اذحملت   كتب الملوك وصانتها أعاديها
تاتي بكل كتاب نحو صاحبه   تصون نظرته صونا وتخفيها
فما تمكن غير الشمس تنظره   ولا تجوز أن تلقيه من فيها
منسوبة لرسالات الملوك فبالا   نسوب تسمو ويدعوها مسميها
اكرم بجيش سعيدى سعادته   مما يشكك فيها ذكر حاكيها
حمامتا الغار يوم الغار تحرسه   فيالها وقفة عزت مساعيها
وقوفه عند ذاك الباب شرفه   وللسعادة أوقات تواتيها
ويوم فتح رسول الله مكة عنـ   ـد الدخول اليها من بواديها
صفت تظلل من شمس كتيبته الخـ   ـضراء مظهرة فيه تواليها
فعند ما حظيت بالقرب أمنها   فشرفت بعطايا جل مهديها
فما يحل لذي صيد تناولها   ولا ينال المنى بالنار مصليها
سمت بملك المعالي غير ذي دنس   لا ترتضيه ولو جزت نواصيها
وانظر لها كيف تاتي للخلائق من   آل الرسول لحب كامل فيها
من المقام الى دار السلام ولم   يمض النهار لعزم في دواعيها
وربما ضل نحو الهند ملتقط   حبات فلفلة وارتد مبطيها
فجاء في يومه في اثر سابقة   حفظا لحق يد طابت أياديها
مافي لرسول الله أيسرها   لدى نبوته الغراء يكفيها

وأما مراكز هجن الثلج فكانت تعمر فقط في أوان نقل الثلج من دمشق الى قلعة الجبل وهذه المصلحة متأخرة الانشاء عن مصلحة سفن

« مطلب » مراكز هجن الثلج في الممالك الشريفة وسفن الثلج بها

الثلج فان الثلج كان يحمل في البحر خاصة الى مصر من الثغور الشامية الى ان دمياط فى البحر ثم يخرج الثلج فى النيل الى ساحل بولاق فينقل منه على البغال السلطانية ويحمل الى الشرابخانة الشريفة ويخزن فى صهريج أعد له ثم صار يحمل فى البر والبحر وكانت مدة ترتيب حمله من حزيران الى آخر تشرين الثانى وعدة نقلاته فى البر احدى وسبعون نقلة متفاوتة مدة ما بينها بل ربما زاد على ذلك وكان يجهز لكل نقلة بريدى يتدركه ويجهز معه بالسلاح وكانت المرتب لكل مركز ستة هجن خمسة للحمل وواحد لهجان وكانت المراكز البريدية مرتبة فى المسافات من مملكة الشام الى مصر والكلفة على مال مصر

واما عدة المراكب المسفرة به فى البحر فكانت فى ايام الملك الظاهر ثلاثة مراكب فى السنة ثم أخذت بعد ذلك فى الزيادة الى ان بلغت احد عشر مركبا من مملكتى الشام وطرابلس ثم صارت من السبعة الى الثمانية واذا سفرت المراكب من البلاد الشامية سفر معها من يتدركها مع الملاحين ولا يصل الثلج متوفرا الا اذا أخذ من الثلج الجلد واحترز عليه من الهواء فانه اسرع اذابة له من الماء ومنذ ترتب من الثلج ما يحمل برا على ظهور الهجن استقر منه خاص المشروب لانه يصل أنظف وآمن عاقبة لاسيما وان المسفرين به يأخذون الجشنى منه بحضور أمير مجلس وناظر الشرا بخانة السلطانية وخزانها وكان المنقول فى البحر لسوى ذلك وكان للحاضرين بالثلج من الخلع والانعام رسوم مستقرة وعوائد مستمرة

« مطلب » مواضع المناور بالممالك المصرية لمعرفة الاخبار

واما المناور فكانت مواضع معدة لرفع النار فى الليل والدخان فى النهار للاعلام بحركات التتار اذا قصدوا البلاد للدخول لحرب أو لا غارة وقد ارصد

في كل منور مايلزم من المراقبين والنظارة لرؤية ما وراءهم واراءة ما أمامهم وكان لهم على ذلك جوامك مقررة كانت لا تزال دارة وكانت المناور المذكورة على رؤس الجبال وفي الابنية العالية ومواضعها معروفة وكانت من أقصى ثنور الاسلام كالبيرة والرحبة الى ديوان السلطان بقلعة الجبل حتى ان المتجدد بكرة بالعراق كان يعلم به عشاء بمصر والمتجدد به عشاء كان يعلم به بكرة وكانت تأتي أخبار لسان النار على الجناح والبريد وهذه المناور في الدولة السلطانية الاخيرة لحاشيه عما صنعته في الاحقاب الخالية دلوكة العجوز ملكة مصر التي تولت على مصر بعد اغراق فرعون واشراف اهل مصر فبنت جدارا أحاطت به على جميع أرض مصر كلها من مزارع ومدائن وقرى وجعلت دونه خليجا يجري فيه الماء وأقامت القناطر والخلجان وجعلت في ذلك الجدار محارس ومسالح على كل ثلاثة أميال محرس ومسلحة وفيما بين ذلك محارس صغار على كل ميل وجعلت على كل محرس رجالا وأجرت عليهم الارزاق وأمرتهم ان يحرسوا بالاجراس فاذا اتاهم آت يخافونه ضرب بعضهم الى بعض الاجراس فيأتيهم الخبر من اى وجه كان في ساعة واحدة فينظروا في ذلك فمنعت بذلك مصر ممن يطمع فيها ويمد عينه اليها وفرغت من بناء ذلك الجدار في ستة أشهر فكانت فكرتها في ذلك لا بأس بها في ذلك الوقت

وأما المحرقات فكان الاهتمام بها أول كل شيء وهي مواضع ممايلي بلاد سلطنة مصر والشام من حد الشرق داخلة في تلك المملكة فكان يخشى من مجاوريها من الاعداء مباغتة الاطراف ومهاجمة الثغور كجهة بلاد الموصل وبلاد الاكراد فكان يجهز رجال لتحرق زرعها ونباتها حيث هي أرض مخصبة كانت تقوم بكفاية خيل المغيرين مرعى اذا قصدوا البلاد فكان في حرقها إضعافهم وافساد حركاتهم اذ كان من عاداتهم أن لا يتكلفوا علوفة لخيلهم بل يكلوها

« مطلب » ترتيب المحرقات للمراعي والمحصنات التي يأتي من جهتها العدو ومنعا لاغارته على الممالك المصرية

الى مانبتت من الارض فاذا كانت مخصبة سلكوها أو مجدبة تجنبوها وكان ينفق في هذه المحرقات في كل سنة من خزينة دمشق جملة من الاموال ويجهزونها لذلك شجعان الرجال وكان شأنهم في الاحراق استصحاب الثعالب الوحشية والكلاب المستفزة ثم يكمن المجهزون لذلك عند امناء النصاح وفي كهوف الجبال وبطون الاودية وتمضى الايام حتى يكون يوم ريح عاصف وهواؤه زعزع فتعلق النار موثقة في أذناب الثعالب والكلاب ثم تطلق الثعالب والكلاب في أثرها وقد جوعت فتجد الثعالب في الهرب والكلاب في الطلب فتحرق مامرت به وتعلق الريح النارمنه فيما جاوره ويضاف هذا الى ما كانت تلقيه الرجال بايديها في الليالى المظلمة وعشايا الايام المتمة وكان يستثنى من ذلك أرض الجبال التي هي بلاد البقية القادرية من ولد شيخ الاسلام عبد القادر الجيلي فكانت ذريته معظمة عند الا كابر والملوك لقديم سلفهم وصميم شرفهم ولما كان الاسلام وأهله من اسمافهم بما تصل اليه القدرة ويبلغه الامكان

فمن هذا كله يفهم أن من تولى مصر من الملوك والسلاطين كان يجدد فيها بقدر استطاعته من المنافع مايظنه لازما لسعادتها وأول مسعد لمصر من دبر أمر النيل بالمقياس وصعد الى منبعه ومسيلهودبروزن الماءوالارض بمصرورسم التعاليم وبنى القناطر واصلح مجرى النيل من جبال الحبشة الى مصرولا زالت المنافع تتزايد ثم تتناقص على حسب صروف الدهور والعصور الى أن توازنت الاحوال في جميع الممالك والمسالك بحركة عمومية وأسباب بلغت درجة الاهمية ودواع دعت الى أنه يجب على كل مملكة أن تضرب في الاجتهاد بسهم ونصيب والا أصابها سهم غيرها اذا قصرت في أن تجتهد وتصيب فعلى الملة الغافلة أن تتشبث بأسباب الغنى لتحظى في أيام ملكها العادل ببلوغ المنى

ما كان عليه كان صلاحا للمملكة فامر به فقرره يحيي بن خالد ورتبه على ما كان عليه أيام بني أمية وجعل البغال في المراكز وكان لا يجهز عليه الا الخليفة أوصاحب الخبر ثم استمر على هذا في خلافة المأمون واتسع أمر البريد فيها حتى رتب لصاحب البريد اربعة آلاف من الهجن مع مؤنتها وآلاتها ليستخبر بهاعن أمور المملكة فكان يعلم أمور العالم في يوم واحد

ولما دخل هذا الخليفة بلاد الروم نزل على نهر البردون وكان الزمان حارا فقعد على هذا النهر ودلى رجليه فيه وشرب من مائه فاستعذبه واستبرده واستطابه وقال لمن كان معه مستفهما ما أطيب مايشرب عليه هذا الماء فقال كل برأيه فقال هو أطيب مايشرب عليه هذا الماء رطب ازاد فقالوا له يعيش أمير المؤمنين حتى يأتي العراق ويأكل من رطبها الازادي فما استتموا كلامهم حتى أقبلت بغال البريد تحمل أشياء منها رطب ازادفاتي للمأمون منها فأكل وشرب من ذلك الماء فأكثر فعجب الحاضرون لسعادته حيث لم يقم من مقامه حتى بلغ امنيته مع ما كان يظن من تعذرها فلم يقم المأمون حتى حم حمي حارة كانت فيها منيته

ولما جاءت دولة بني بويه وعلوا على الخلافة وغلبوا عليها الخلفاء العباسيين قطعوا البريد ليخفوا على الخليفة ما يكون من أخبارهم وحركاتهم أحيان قصدهم بغداد وكان الخليفة يأخذهم على بغتة وجاءت الملوك السلاجقة على هذا وكان بين ملوك الاسلام اذ ذاك اختلاف ذات بينهم وتنازعهم فلم يكن بينهم الا الرسل على الخيل والابل كل أرض بحسبها فلما أتت الدولة الزنكية أقام السلطان نور الدين الشهيد للبرد النجابة وأعد لها النجب الجيدة ودام هذا في جميع أزمان الدولة وفي أيام بني أيوب رحمهم الله الى آخر أيامهم

يستوى عندك الحجر والذهب لا تجد فى قلبك سوى ربك فربك غنى عن الاشياء لا بها وأنت بقناعتك استغنيت عن الاشياء وان الغنى الاعلى الغنى عن الشيء لا به وهذا المعنى الاخير ما أشار اليه البوصيرى فى قوله

وراودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه فأراها أيما شمم
وأكدت زهده فيها ضرورته ان الضرورة لا تعدو على العصم

أى طلبت الجبال العالية أن تصير ذهبا له صلى الله عليه وسلم فارتفع عنها ارتفاعا معنويا أعلى وأرفع من ارتفاعها الحسى وذلك بالاعراض عنها الاعراض الكلى وعدم الالتفات الى جهتها كما أمره ربه سبحانه وتعالى فى قوله جل من قائل ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا أى لا تنظر نظرا طويلا الى ما متعنا به المذكورين استحسانا للمنظور اليه واعجابا به كما فعل نظارة قارون حيث قالوا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون انه لذو حظ عظيم

ولما كان النظر الى الزخارف كالمركوز فى الطباع نهى الله سبحانه وتعالى رسوله ومن المعلوم ان النهى له نهى لأمته وقيل ان الذى نهى عنه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى ولا تمدن عينيك ليس هو النظر بل هو الاسف أي لا تأسف على ما فاتك مما نالوه من حظ الدنيا لانك غنى عنها بربك حيث هي غير ممدوحة والدنيا اذا كانت ممدوحة فانما يكون مدحها باعتبار انها وصلة لدار القرار ولذلك قال بعضهم وأجاد

لا تتبع الدنيا وأيامها ذما وان دارت بك الدائرة
من شرف الدنيا ومن فضلها ان بها تستدرك الآخرة

فكيف بذم مطلق الغنى وهو وصف الله سبحانه وتعالى ولنبيه عليه

الصلاة والسلام فهو ممدوح شرعا فلا بأس أن يتشبث بالوصف به الملوك والرعايا

وأقل مزايا غنى الحكومة المصرية انه لما قصرت بلادها عقب آفات قسرية كمرت المواشي وقلة المحصول وعز على الاهالي تحصيلها لا بالاثمان الغالية من البلاد الاجنبية ولا يتيسر لكل انسان جلبها استجلبها الخديو الاكرم بنفوذ يسار الحكومة بالاثمان اللائقة وصار التوسيع بذلك على الاهالي فكان كما قيل

« مطلب » ما ينتج من ثروة الحكومة المصرية واسعافها للاهالي بهذه الوسيلة في الاحوال الضرورية

فتى كسماء الغيث والناس حوله   اذا أجدبوا جادت عليهم سحائبه

ولقد أحسن من قال

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله   ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

فكم له من جدوى على الاوطان في قضاء أوطار وكم استمدت الرعايا في هذه الاعصار استمداد الجداول من البحار مما تعجز العقول عن فهم كنهه وعن حق أداء الشكر على الانعام به فقد أنجز الله لمصر ما قدره لها من السعادة وأبرز في حيز الوجود ما كتبه لها من الحسنى وزيادة

واذا السعادة لاحظتك عيونها   نم فالمخاوف كلهن أمان

واصطد بها العنقاء فهي حبائل   واقتد بها الجوزاء فهي عنان

ومع ان كل قسم من أقسام الدنيا له كوكب من الممالك في أفقه مشرق فصر لنا أعلى منارها كوكب قسم افريقة وشمس افق المشرق فقد كسيت في هذا العهد حلة المهابة والنباهة وخرج أهلها بصقال البراعة والبراعة عن لكنة القصور والفهاهة واكتسبت الفنون والمنافع حتى صارت ترنو اليها الابصار وتومي اليها الاصابع وبتوفيق الله تعالى تمسك أهلها بالآية الشريفة التي

« مطلب » ان مصر كوكب المشرق

نعمل بها من الفرض وهي يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم « مطلب » السياسة وأقسامها
ومما أخرجنا لكم من الارض يعني من التجارة والزراعة فسياسة الحكومة
الحالية الالتفات الى جذب النفوس الى هذه المنافع العمومية من أعجب
التأثيرات العصرية وفي الحقيقة

لولا السياسة ما قامت لنا سبل وكان أضعفنا نهبا لأقوانا

فمدار انتظام العالم على السياسة وهي خمسة أقسام الاول السياسة النبوية
والله يختص بها من يشاء من عباده كما قال تعالى الله أعلم حيث يجعل رسالاته
وهو الذي يهدي لاتباعهم من يشاء من فضله بسابق السعادة ولا معقب
لحكمه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون قال سيدي محمد وفا

قد كنت أحسب ان وصلك يشترى بكرائم الاموال والاشباح
وظننت جهلا ان حبك هين تفنى عليه نفائس الارواح
حتى وجدتك تجتبي وتخص من أحببته بلطائف الامناح
فجعلت في عشق الغرام اقامتي ولويت رأسي تحت طي جناحي

الثاني السياسة الملوكية وهي حفظ الشريعة على الامة واحياء السنة والامر
بالمعروف والنهي عن المنكر

الثالث السياسة العامة وهي الرياسة على الجماعات كرياسة الامراء على البلدان
أو على الجيوش وترتيب احوالهم على مايجب من اصلاح الامور واتقان التدبير
والنظر في الضبط والربط والحسبة

الرابع السياسة المنزلية وهي معرفة كل انسان حال نفسه وتدبير أمر
بيته وما يتعلق به وقضاء حقوق اخوانه شرعا وفتوة وعرفا كما قال من يمل
بطبعه الى حب المعروف

اني لاهوى أنا كون لصاحبي غيثا وغوثا في الندا والباس
واذا اكتسى ثوبا جميلا م أقل ياليت هذا الثوب كان لباسي
وهذه السياسة في الغالب لاتحسنها الا أشراف الناس كما قيل
لعمرك ما الاشراف في كل بلدة وان عظموا الا لفضل صنائع
الخامس السياسة الذاتية وهي تفقد الانسان أفعاله واحواله واقواله واخلاقه وشهوته وزمها بزمام عقله فان المرء حكيم نفسه وبعضهم يسميها بالسياسة البدنية قال الشاعر
تعلمت فعل الخير من غير أهله وهذب نفسي فعلهم باختلافه
أرى مايسوء النفس من فعل جاهل فآخذ في تأديبها بخلافه
وما أحرى من الملوك من تمسك بهذه السياسات الخمسة ليتنزه بهاوطنه عن النقائص ويحلى بها نفسه لان تفاضل الانفس انما هو بقدر تحصيلها من الفضائل التي يظهر بها التفاوت في القيم وذلك بمقدار ترافع الهمم والكيس من ينافس في تحصيل النفيس والانفس ليتوصل الى درجة الكمال فيما هو أصون لحفظ الناموس وأحرس
من يستطيع بلوغ أعلى رتبة ما باله يرضى بأدنى منزل
ومن العار على كامل التمييز ان يطلب رتبة دون الرتبة القصوى وأن يقصر عن الوصول الى وصال سعدى وعلوى وأما قول الشاعر

* مطلب * مدح حب المعالى وعدم الاقناع بالدون

والنفس راغبة اذا رغبتها واذا ترد الى قليل تقنع
فهو قول من يقنع بالدون ويرضى بصفقة المغبون وما أحسن ماقاله بعضهم
ان التفني لشهاب كلما اعتكرت دجى الكروب جلاعنها حنادسها
لاتنفع الخمسة الاسماء محدقة لديك الا اذا ما كنت سادسها

والمراد من الاسماء الخمسة أبوك وأخوك وحموك المرتجى نفعهم ونجدتهم عند الشدائد وهنوك وهو كناية عن الشيء وفوك وهو الفم والمراد الفصاحة والبلاغة وسادس الاسماء ذو مال وهو سيدها فذو المال اقرب لاكتساب المعالي لذويه ولوطنه وان يقلده قومه ويتبعوه في ذلك

• مطلب • ان زينة الاسماء الخمسة سادسها

ناهض القوم للمعالي   لما رأوا نحوها نهوضي

فبكل ما تمناه المتمني بلسان الاستعداد وشهادة الاستحسان والرشاد من مراتب الباهية والمناصب الزاهية والمقاصد السنية والموارد الهنية والعدة والجاه بلغ فيه رجاء فطمح نظر مصر الآن التبصر في تكميل وسائل التمدن والتنصر من باب احسان العمل وقد قال تعالى انا لا نضيع اجر من احسن عملا وقال صلى الله عليه وسلم ان الله كتب الاحسان على كل شيء فباشرة الاسباب مظنة الانجاب ولذلك أوصى بعض الصلحاء بعض أرباب الفلاحة بقوله لا تدعي غرس أرضك وان سمعت بخروج الدجال فالاسباب لا تنكر (وقال) داود البصير بمناسبة ذكر الاسباب ان قيل اذا كان الطب حافظا للصحة دافعا للمرض فالواجب البقاء وعدم الاختلال البنية خصوصا من عمس الطبيب ونحن نرى الحكماء فضلا عن غيرهم يمرضون ويموتون فلا فائدة حينئذ في الطب قلنا ليس على الطبيب منع الموت والهرم ولا تبليغ الاجل الطول ولا حفظ الشباب لعدم قدرته على ضبط ما ليس اليه أمره كتغيير الهواء وورود في الاغذية من حيوان وغيره ومشقة الاحتراز في تعديل أمور الماء كل والمشرب وغيرها وعدم امكان جلب الفضول على طبائعها الاصلية فقد ينقلب كل منها الى الآخر وانما عليه اصلاح ما امكن من دفع طارئ ناف وحفظ صحة الى الاجل المعلوم (فان قيل) موجبات الموت والحياة ولوازمها اما ان تكون بتقدير الصانع ايجابا وسلبا كما هو الحق

• مطلب • ان مطمح نظر مصر التمدن بالاعمال الزاعة

• مطلب • ان تعاطي الاسباب لا ينافي التوكل ولا ياهر القضاء والقدر

أو باقتضاء طالع الوقت وعلى التقدير ليس للطبيب قدرة على أحدهما فانتفت الحاجة اليه (قلنا) لو كان الامر كذلك لكان الاكل والشرب وسائر ما به القوام من هذا القبيل فكان يجب تركه لان المقدر من بقاء الاجل ان كان بدونها فلا فائدة في تعاطيها أو بها لزم ذلك والكل باطل بل تقادير علق الامر عليها كما في محله فكذا الطب وبه جاءت السنة عن أرباب النواميس فقد قال صلى الله عليه وسلم تداووا فان الذي انزل الداء انزل الدواء وما من داء الا له دواء الى غير ذلك فقيل له أيدفع الدواء القدر فقال صلى الله عليه وسلم الدواء من القدر انتهى

« مطلب » الصورة المشتملة الشكل التي كانت عند اسكندر والمكتوب على اضلاعها من المسائل السياسية الحكمية

ونتيجة هذه المسئلة ان مباشرة الاسباب من هذا القبيل والتشبث بتصحيح الاعمال تطييب للنفس وتعليل والملوك في الظاهر حكام وفي الباطن حكماء يقال انه كان بين يدي الاسكندر كرة مثمنة من الذهب وضعها له الحكيم أرسطاطاليس على كل جهة منها كلمة سياسية تتعلق كل واحدة بالاخرى لتكون بين يديه يقلبها في حركاته ويعمل بما فيها وهي هذه العالم بستان سياجه الدولة الدولة سلطان يحفظها السنة السنة شريعة يحوطها الملك الملك راع يعضده الجند الجند اعوان يكفلهم المال المال رزق تجمعه الرعية الرعية خدام يتعبدهم العدل العدل مألوف وبه صلاح العالم فحقيق لمن قلده الله أمر عباده وبلاده ان يعطف عليهم ويعدل فيهم وينصف ضعيفهم من قويهم ويساوي في الحق بين شريفهم ومشروفهم ويبتدي أولا بالانصاف من نفسه وولده وأهله وخاصته فالناس على دين الملك كما قيل بمعنى انهم يتبعونه في أحواله وأفعاله ولذلك لما قدم بريد من الشام على عمر بن عبد العزيز فقال له كيف تركت الشام قال تركت ظالمهم مقهورا ومظلومهم منصورا وغنيهم

موفورا وفقيرهم مجبورا (أى مسرورا) قال عمر الله أكبر لوكانت لا تتم حصلة من هذه الا بفقد عضو من أعضائى لكان ذلك يسيرا

وبالجملة فالسعى فى أداء الحقوق الوطنية منحة الهية يمنحها الله سبحانه وتعالى من يصطفيه من خلقه فانها مرتبة جسيمة ونعمة وفية عظيمة فيجب علينا ان نقيدها بشكر المولى سبحانه وتعالى على انعامه بها علينا ولقد كان السلف الصالح كالفضيل بن عياض والامام احمد بن حنبل وغيرهما يقولون لوكان لنا دعوة مستجابة لدعونا بها لولى الامر لان في صلاحه صلاح المسلمين أصلح الله حال ملكنا وسلطاننا وسائر الملوك والسلاطين آمين

وهـذا دعاء لا يـرد لانه يزان به كل الورى والممالك
تراه بلا شـك أجيب لانه اذا ما دعـونا أمنته المـلائك

وسيأتي بسط الكلام على سياسة ولاة الامور فى الخاتمة

(خاتمة)

وهى ان شاء الله تعالى حسنة فيا يجب للوطن الشريف على أبنائه من الامور المستحسنة وفيها أربعة فصول

وذلك لان أهل الوطن اربع طبقات فالطبقة الاولى ولاة الامور والطبقة الثانية طبقة العلماء والقضاء وأمناء الدين والطبقة الثالثة الغزاة والطبقة الرابعة أهل الزراعة والتجارة والصناعة فلهذا كانت الخاتمة مرتبة على أربعة فصول

الفصل الاول

(فى ولاة الامور)

وظيفة ولاة الامور من أعظم واجبات الدين وأهم أمور المتوطنين فهم قوام الدين والدنيا وعليهم فى حركة الاعمال مدار البركة العليا وبدونهم يختل نظام العالم لوجود المفسدين من بنى آدم فلولا ولى الامر لما قدر العالم على نشر علمه ولا الحاكم الشرعي والسياسى على تنفيذ حكمه ولا العابد على عبادته ولا الصانع على صناعته ولا التاجر على تجارته ولولا هم لانقطعت السبل وتعطلت الثغور وكثرت الفتن والشرور ولولا ردع الملوك لتغالبت الناس وتهارجت وطمع بعضهم فى بعض واستولى الاقوياء على الضعفاء وتمكن الاشرار من الاخيار فيضطرون الى التشرد والتفرد وفى ذلك خراب البلاد وفناء العباد فالملك كالروح والرعية كالجسد ولا قوام للجسد الا بروحه ولكن

من لطف الله تعالى بعباده أنه أجرى عادته في كل زمان ان ينصب في الارض من ينصف المظلوم من الظالم ويردع أهل الفساد عن المظالم ويصنع للرعية جميع المصالح ويقابل كل أحد بما يستحقه من صالح وطالح

« مطلب » احتياج الانتظام العمراني الى قوتين قوة حاكمة وقوة محكومة

فقد استبان من هذا احتياج الانتظام العمراني الى قوتين عظيمتين احداهما القوة الحاكمة الجالبة للمصالح الدارئة للمفاسد وثانيهما القوة المحكومة وهي القوة الاهلية المحرزة لكمال الحرية المتمتعة بالمنافع العمومية فيما يحتاج اليه الانسان في معاشه ووجود كسبه وتحصيل سعادته دنيا وأخرى فالقوة الحاكمة العمومية وما يتفرع عليها تسمى أيضا بالحكومة وبالملكية هي أمر مركزي تنبعث منه ثلاثة أشعة قوية تسمى أركان الحكومة وقواها

« مطلب » أركان الحكومة وقواها

فالقوة الاولى قوة تقنين القوانين وتنظيمها وترجيح ما يجري عليه العمل من أحكام الشريعة أو السياسة الشرعية الثانية قوة القضاء وفصل الحكم الثالثة قوة التنفيذ للاحكام بعد حكم القضاة بها فهذه القوى الثلاثة ترجع الى قوة واحدة وهي القوة الملوكية المشروطة بالقوانين لان القوة القضائية انما هي في نفس الامر راجعة للملك لان القضاة نواب ولي الامر على الحاكم ومأذونون منه فهو الذي يقلد القضاة بالولايات القضائية وحكام المجالس أي قضاتهم بالاحكام الشرعية أو السياسية الشرعية وينتخب لكل ولاية قضائية أو مجلس من يرى فيه الاهلية لذلك على موجب أصول المملكة المرعية فالقضاء في الحقيقة من حقوق ولاة الامور والقضاة خلفاؤهم في مباشرته ولذلك كانت أحكام القضاة التي على طبق الشرع لا تنقض لاعتبار اذن ولي الامر بها ضمنا من حيث فصل الحكم فرجعت هذه القوة الى الملك وكذلك قوة تنفيذ الاحكام بعد قطع الحكم فيها فانها حق خاص بولي الامر من أول وهلة لا يشاركه فيه

غيره كما انه هو الذي ينسب اليه تقنين القوانين حيث يتوقف على أوامره تنظيمها وترتيبها واجراء العمل بموجبها فقد انحصرت فيه القوي الثلاثة التي هي أركان القوة الحاكمة

« مطلب » علم تدبير المملكة

ثم ان الاصول والاحكام التي بها ادارة المملكة تسمى فن السياسة الملكية وتسمى فن الادارة وتسمى ايضا علم تدبير المملكة ونحو ذلك والبحث في هذا العلم ودوران الالسن فيه والتحدث به والمنادمة عليه في المجالس والمحافل والخوض فيه في الفازيتات كل ذلك يسمى بوليتيقة أى سياسة وينسب اليه فيقال بوليتيقي أى سياسي فالبوليتيقة هي كل ما يتعلق بالدولة وأحكامها وعلائقها وروابطها

« مطلب » ان البوليتيقة هي العلم بالسياسة وأحوال الناس

فقد جرت العادة فى البلاد المتمدنة بتعليم الصبيان القرآن الشريف فى البلاد الاسلامية وكتب الاديان في غيرها قبل تعليم الصنائع وهذا لا بأس به في حد ذاته ومع ذلك فبادى العلوم الملكية السياسية التي هي قوة حاكمة عمومية وفروعها مهملة في الممالك والقري بالنسبة لابناء الاهالى مع ان تعليمها أيضا لهم مما يناسب المصلحة العمومية فالمانع من ان يكون فى كل دائرة بلدية معلم يقرأ للصبيان بعد تمام تعليم القرآن الشريف والعقائد ومبادى العربية مبادى الامور السياسية والادارية ويوقفهم على نتائجها وهو فهم اسرار المنافع العمومية التي تعود على الجمعية وعلى سائر الرعية من حسن الادارة والسياسة والرعايا فى مقابلة ما تعطيه الرعية من الاموال والرجال للحكومة ويفيدهم أسباب ايجاب الحكومة على الاهالى ان تخدم وطنها نفسها خدمة شخصية فى العسكرية واسباب الزام الاهالى بدفع حصة مخصصة من أموالهم بوصف خراج أو وركو أوعوائد أو نحو ذلك من جبايات الحكومة القائمة في الدول

« مطلب » استحسان تعليم ادارة الحكومة لابناء الاهالى فى صغر سنهم

الاسلامية مقام الزكاة المعطلة وكذلك ليعرف الاهالى أسباب ايجاب الحكومة عليهم ان يتنازلوا عن شيء من أملاكهم وعقاراتهم عند الاقتضاء واحتياج الحكومة لذلك للمصلحة العمومية كتوسيع الطرق وما أشبه ذلك من العمليات التنظيمية فاذا ارتكز في أذهان الصبيان من زمن شبوبيتهم أصول هذه السياسات الشرعية وفروعها وفهموا الاسباب والمسببات سهل عليهم عند بلوغ الرشد والوصول الى كمال الرجولية اجراء مفعولها وهل هذا التعليم الا ايقاف أهل الوطن على معرفة حقوقهم وواجباتهم بالنسبة لاملاكهم وأموالهم ومنافعهم ومالهم وما عليهم محافظة على حقوقهم ودفعا للتعدي عليها فاللائق ان يكون بكل ناحية معلم لمبادى الادارة ومنافع الجمعية العمومية فى مقابلة ما تدفعه الجمعية للحكومة فان هذا التعليم مع تقديمه للشخص المتعلم له تأثير معنوى فى تهذيب الاخلاق ومنه تفهم الاهالى ان مصالحهم الخصوصية الشخصية لا تتم ولا تنجز الا بتحقيق المصلحة العمومية التى هى مصلحة الحكومة وهى مصلحة الوطن فتذعن نفوسهم بأن الفوائد الخصوصية ليست في حد ذاتها مضمونة الحصول الا فى ضمن الفوائد العمومية المذكورة وأيضا عمليةتقضى بلياقة تعليم مبادي الادارة بالنواحى كون قانون الحكومة لا يمنع من جواز استخدام أحد من الاهالى فاستخدامه فى الملكية لا سيما منصب المشيخة البلدية كما سيأتى ذكره يستدعي سبق معرفة بأصولها والا ترتب على استخدام الجاهل بها من السقامة ما لا يخفى وانما العلم بالتعلم لا سيما أيضا مع تجديد جمعيات الانتخاب ومجالس النواب

« مطلب » ان استخدام الانسان فى الحكومة يستدعي سبق معرفة باصول وظيفته.

وكان المانع لتعلم البوليتيقة والسياسة في الازمان السابقة ما تشبث به رؤساء الحكومات من قولهم ان السياسة من أسرار الحكومة الملكية

لا ينبغي علمها الا لرؤساء الدولة ونظار الدواوين مع كون لفظ البوليتيقة كان معروفا أيضا بمعنى آخر وهو الحيلة والخداع والتدبير مما لا يليق الا بالملكة الجائرة وفي هذه الايام جميع الاحكام الملكية مؤسسة على العدل والامانة وخلوص النية المتقوم منها الحق وهو أبيض أبلج لا ينبغي الا على الاخلاص في القول والعمل وحسن الملاقات بين الراعي والرعية مما يغرس المحبة والمودة في قلب الملك ورعاياه بسبب اتباعه الاصول المربوطة وسيره على السنن القويم حسب احكام المملكة المشروطة وهي غير مكتومة ومن المعلوم ان الملك الذي يحب رعاياه يحب تقدمهم في المناصب الملكية للاستعانة بآرائهم التي هي في حقه ضرورية فهو أحق باصطفاء رجاله منه باصطفاء امواله لانه مع استبداده بالنهي والامر وسمو المقام وجلالة القدر لا يكتفي بالوحدة ولا يستغني عن الكثرة فانه كمثل المسافر في الطريق البعيد يجب ان تكون عنايته بفرسه المجنوب كعنايته بفرسه المركوب ومن احب المقاصد والنتائج سهل الوسائل والمقدمات وأيضا من البديهي ان للانسان حقوقا وعليه واجبات فطلبه لحقوقه وتأديته لواجباته على الوجه الاكمل يقتضيان معرفة الحقوق والواجبات ومعرفتهما متوقفة على فهمهما وفهمهما عبارة عن معرفة قوانين الحكومة التي هي السياسة فالذي لا يريد خدامة الحكومة هو أيضا مثل المستخدم فيها لمعرفة قوانينها

« مطلب » سبب كتمان الامور السياسية عن العموم وجعلها من اسرار الدولة في الازمان السابقة

وقد تجدد في مديريات مصر في هذا العهد الاخير مبادي ما اشرنا اليه وهو صدور الاوامر الخديوية بجلب من رغب من ابناء العمد ووجوه الناس الى دواوين المديريات ليتمرنوا على تعليم الاحكام والادارة لتوظيفهم فيما بعد في الوظائف الادارية ونفعهم كمال النفع للحكومة قال الشاعر

« مطلب » صدور الاوامر الخديوية بتجديد ابناء وجوه الناس بوظيفة معاونين ليتمرنوا على الاحكام

وكاذب الصبح يبدو قبل صادقه   وأول الغيث قطر ثم ينهمل

(وقال آخر)

رب قليل غدا كثيرا   كم مطر بدؤه مطير

ثم ان الحكومة التى عبرنا عنها فيما سبق بالقوة الحاكمة هى من مقولة النسب والاضافات تقتضى حاكما ومحكوما يعنى ملكا ورعية فلا يفهم الملك الا بالرعية ولا تفهم الرعية الا بالملك كالابوة والبنوة فلهذا وجب ان نبين كلا منهما مع ما يتعلق به ونبتدىء بولاة الامور فنقول

ولي الامر هو رئيس أمته وصاحب النفوذ الاول فى دولته وحاكم متصرف بالاصول المرعية فى مملكته ولا توجد رعية فى مملكة منتظمة بدون راع والا ضعفت واختلت وشق اهلها لعدم من يسعى فى اسعادهم بتحسين شؤنهم وقد تأسست الممالك لحفظ حقوق الرعايا بالتسوية فى الاحكام والحرية وصيانة النفس والمال والعرض على موجب احكام شرعية وأصول مضبوطة مرعية فالملك متقلد الحكومة لسياسة رعاياه على موجب القوانين

ولما كانت السياسة جسيمة لا يقوم بها واحد اختص الملك بمعالي الاحكام وكلياتها وخلع بعض نفوذه فى جزئيات الاحكام على المحاكم والمجالس وجعل لهم لوائح وقوانين خصوصية ترشد افعالهم ولا يتعدونها فال بعضهم ليست فى الدنيا حمية منتظمة ولا مملكة معتدلة الاحكام الا وتكون القوة فيها بالاصول العدلية فالاصول العادلة نصون ناموس الدولة عن الملامة ولهذا كان جميع ما امضاه الملك السالف من الاحكام واجرى مقتضاه بالفعل والتنجيز لا يسوغ لمن جاء بعده أن يخدشه ويبطل أحكامه التى جرى مقتضاها وهذه القاعدة جارية فى سائر الممالك لحرمة الاصول الملكية بصونها عن نقص ما جرى بانها راجعة فى الحقيقة

* مطلب * اختصاص الملك بمعالي الاحكام وكلياتها وتعويضه جزئياتها لوكلائه

لحفظ حرمة الملك فان بت الحكم فى عهد الملك أو نتائج أفكاره أو ثمرة أوامره ونواهيه وتصديقه عليه فهو منسوب الى المنصب الملوكى فلا يسوغ نقضه وقد كان المنصب الملوكى في أول الامر في أكثر الممالك انتخابيا بالسواد الاعظم واجماع الامة فتحصل لما ترتب على أصل الانتخاب مالايحصى من المفاسد والفتن والحروب والاختلافات اقتضت قاعدة كون درء المفاسد مقدما على جلب المصالح اختيار التوارث في الابناء وولاية العهد على حسب أصول كل مملكة بما تقرر عندها فكان العمل بهذه الرسوم الملوكية ضامنا لحسن انتظام الممالك

ثم ان للملوك فى ممالكهم حقوقا تسمى بالمزايا وعليهم واجبات فى حق الرعايا

• مطلب • خصائص الملوك وما يجب لهم وعليهم

فمن مزايا الملك انه خليفة الله في ارضه وان حسابه على ربه فليس عليه في فعله مسؤلية لاحد من رعاياه وانما يذكر للتحكم والحكمة من طرف أرباب الشرعيات أو السياسات برفق ولين لاخطاره بما عسى أن يكون قد غفل عنه مع حسن الظن به لقوله صلى الله عليه وسلم الدين النصيحة فقلنا لمن يارسول الله قال لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم وايضا للانسان في نفسه محكمة تجرى الاحكام على صاحبها وهى الذمة التى هى النفس اللوامة أو المطمئنة فهى قاض لايقبل الرشوة فاذا فعل الملك كثيرا مالا يوافق لامته عاقبته نفسه لان نور الحق يسطع في القلب واذا فعل الملك مالاينبغى فله لاتطمئن نفسه الى ذلك ولا يركن قلبه اليه ولا يفرح به واما فعل الخير فتطمئن اليه النفس ويركن اليه القلب وينشرح له الصدر

• مطلب • كون الذمة محكمة قضائية تنبه صاحبها وتعاقبه على الجور والشر

وبيان ذلك ان القلب مبدأ الحركات البدنية والارادات النفسانية فان صدرت عنه ارادة صالحة تحرك البدن حركة صالحة وان صدرت عنه ارادة فاسدة تحرك البدن حركة فاسدة فالقلب كالملك والاعضاء كالرعية ولذلك

ن أهل السنة والجماعة ان العقل فى القلب وله شعاع متصل بالدماغ والقلب يطمئن للعمل الصالح طمأنينة تبشره بأمن العاقبة فصاحب هذا العمل قضى له قاضى الذمة بأنه محق في عمله بخلاف العمل السيء فانه يورث القلب ندما وحسرة ويكسبه ملامة تنذره بسوء العاقبة فصاحب هذا العمل السيء قضى عليه قاضى الذمة بأنه آثم مبطل فى عمله ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لوابصة بن معبد لما أتاه فى وفد جئت تسأل عن البر البر ما اطمأنت به النفس واطمأن اليه القلب والاثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر استفت نفسك وإن أفتوك الناس وافتوك وسبب ذلك أيضا ان الله سبحانه وتعالى فطر عباده على معرفة الحق والسكون اليه وقبوله وركز فى الطباع محبته ومن ثم ورد حديث كل مولود يولد على اصل الفطرة قال ابوهريرة اقرؤا ان شئتم فطرة الله التي فطر الناس عليها وهذا يؤيد قول بعضهم ان عمل القلب ان كان خيرا أو شرا كصدى الصوت فى الجبل يعود على القلب برنة الخير والشر وهو معنى قولهم كاد المرتاب أن يقول خذنى

فذمة الملوك كذمة غيرهم تتأثر بالانبساط من الخير والانقباض من الشر فالذمة حكم عدل تنفر غالبا من الظلم والجور فهي عنوان الخوف من الله تعالى فى كونها تحمل الملوك على العدل ومما يحملهم على العدل أيضا ويحاسبهم محاسبة معنوية الرأى العمومي أى رأي عموم اهل ممالكهم أو ممالك غيرهم ممن جاورهم من الممالك فان الملوك يستحيون من اللوم العمومى فالرأي العمومي سلطان قاهر على قلوب الملوك والاكابر لا يتساهل فى حكمه ولا يهزل فى قضائه فويل لمن نفرت منه القلوب واشتهر بين العموم بما يفضحه من العيوب ومما يحاسب الملوك أيضا على العدل والاحسان التاريخ أي حكاية وقائعهم

« مطلب »
كون الراى العمومي يحمل ولاة الامور على العدل والاحسان

لمن بعدهم من ذراريهم وخلفهم من الاجيال الآتية فان المؤرخ يذكر للامة أخبار ملوكها فينتقل من العين الى الاثر ومن البيان الى الخبر فيثبت محاسن الملوك ومثالبهم لاعقابهم ليعتبروا فدأب الملك العاقل أن يتبصر في العواقب وأن يستحضر في دائم أوقاته وفي حركاته وسكناته ان الله سبحانه وتعالى اختاره لرعاية الرعية وجعله ملكا عليهم لا مالكا لهم وراعيا لهم يعني ضامنا لحسن غذائهم حسا ومعنى لا آكلا لهم وانه تعالى خصه بمزايا جليلة اولها انه خليفة الله في أرضه على عباده وقد أمر الجميع بالعدل والاحسان وما بعده حيث قال جل من قائل ان الله يأمر بالعدل والاحسان الآية فأمورية العدل أول واجبات ولاة الامور وهو وضع الاشياء في مواضعها واعطاء كل ذي حق حقه والمساواة في الانصاف بميزان القوانين وأفضل الازمنة أزمنة أئمة العدل قال تعالى وأقسطوا ان الله يحب المقسطين وقال صلى الله عليه وسلم ان الله يحب العدل وقال بعض الحكماء اذا نطق لسان العدل في دار الامارة فهو بشرى لها بالعز وعلى السعادة أمارة فتدبير الملوك أمر العباد والبلاد بالعدل ارفع لذكرهم وأعلى لقدرهم (وسأل) الاسكندر حكماء أهل بابل هل الشجاعة عندكم أبلغ أو العدل فقالوا اذا استعملنا العدل استغنينا عن الشجاعة فالى العدل انتهت الرياسة الكاملة والمملكة الفاضلة

« مطلب » ان نفوذ ولاة الامور يعود على الرعية بالفوائد الجسيمة

ومن مزايا ولاة الامور أيضا ان النفوذ الملوكي بيدهم خاصة لا يشاركهم فيه مشارك وهذه المزية العظمى تعود على الرعية بالفوائد الجسيمة حيث ان اجراء المصالح العمومية بهذه المثابة ينتهي بالسرعة لكونه منوطا بارادة واحدة بخلاف ما اذا نيط بارادات متعددة بيد كثيرين فانه يكون بطيأ وهذا النفوذ الملوكي القضائي غير النفوذ الاجرائي الذي هو مباشرة العمل

وهو من خصائص الوزراء ونظار الدواوين وغيرهم فالنفوذ الملوكي هو الترتيب والامر بالنفوذ الاجرائي لمن يجريه فهو حق محترم لا مسؤلية فيه على الملك ولا يكون لغيره فكيف وهو رئيس المملكة وأمير الجيوش البرية والبحرية وقائدهم الاول وعليه مدار الامور الملكية والعسكرية الداخلية والخارجية وهو الذي يقلد المناصب العمومية لمن يستحق باصدار أوامره فيها ورتب الوظائف وينظم اللوائح المبينة لطرق اجراء الاصول والقوانين ويأمر بتنفيذ الاحكام الصادرة من دواوينه ومحاكمه ومجالسه وله الرياسة على ابناء دين مملكته وله الحق في ان يمنح المناصب والالقاب العالية وأن يعطي نشان الشرف ونيشانه

واذا أمر المجالس بتنظيم لوائح فانها لا يجرى مفعولها ولا يعتد بها الا اذا صدق على نفس اللوائح وعلى ترتيب الجزاء على من خالفها وترتيب الجزاء على مخالفة القوانين هو ما يسمى تقرير القوانين وترسيخها فانها بدون ترتيب الجزاء ليس على مخالفها لوم

« مطلب »
وظائف المجالس

وأما وظائف المجالس الخصوصية ومجالس النواب فليس من خصائصها الا المذاكرات والمداولات وعمل القرارات على ما تستقر عليه الآراء الاغلبية وتقديم ذلك لولي الامر وكذلك من خصوصيات ولي الامر نشر القوانين واجراء مفعولها من يوم نشرها ومن المزايا الملوكية ما يسمى حق الصفح عن الجانين وهو أجل المزايا اللائقة بالمنصب الملوكي وهو ان له الحق في الصفح عن العقوبة المترتبة على الجاني الذي جناياته من قبيل وخلق الانسان ضعيفا أو تخفيف جزاء هذه الجناية فان العظيم يعفو عن الذنب العظيم وكذلك له ان يسامح من جزاء الذنب بالصغائر وان يقبل توبة من يتوب

« مطلب »
كون ذات المنصب الملوكي الصفح عن الجاني او تخفيف العقوبة عنه

وهذه المزية الجليلة لائقة بما ينبغي ان يكون عليه الملك من الرأفة والرحمة والحلم فان الحلم يجب ان يكون من الاوصاف الذاتية للملوك وليس لهذا الحلم المطلوب حد محدود ولا قيد مخصوص بل على اطلاقه وعمومه فى حقه ومفوض فيه أمره اليه وانما ضابطه ان يكون لرعيته بمنزلة الوالد الشفقة على أولاده وان حدث فى الرعية حادث فليتداركه بلطفه وتدبيره لئلا يتسع الخرق على الراقع فان أصابهم خلل فى أمر المعيشة من الطعام والشراب والكسوة والدواب أو فى الذهب والفضة فانه يوسع عليهم ويلم الشعث الحادث بهم كما فعل السلطان الغازى محمود بن سبكتكين سلطان غزنة فانه لما اجدبت رعيته وكان له طعام فقال بعض وزرائه ينبغى ان يعطى لهم بثمن عدل فقال لا بل نوسع لهم ونتصدق به عليهم فانهم رعيتنا لا ينبغى ان نأخذ منهم شيأ ولا يستحسن منا ان نكون فى الرخاء ورعيتنا فى الشدة واللاءئم أمر حتى أفيض عليهم فان ضاقت البلدة بالرعية وشق عليهم المقام فى ازدحامهم فليزد فى البلد فان لم تمكن فلينقل من البلد جانبا من الاهالى الى بلد آخر فهذا هو الملك الحليم العادل

«مطلب» تعريف الحلم بالنسبة للملوك

ويجوز له ان يبذل حلمه الى مالا نهاية فلا يليق الاستفسار منه عن الاسباب الحاملة له على الصفح عن الجانى فى حالة ما اذا صفح عنه ولا عن عدم الصفح فى حالة ما اذا لم يصفح وانما اللائق فى حقه فى حالتى العفو والعقاب ان لا يتجاوز فى ذلك الحد حفظا لناموس الشريعة وصونا لحدود الله من التعطيل ومحافظة على ابقاء قوة السياسة الشرعية الضامنة للامن العام ومنعا للتجرى وتعدى الناس بعضهم على بعض ولهذا لما صدر من بعض الملوك الصفح عن بعض الجانين وحضر الجانى أمام القاضى ليصدر له الامر

«مطلب» كون صفح الملك عن الجانى بعفو العقوبة ولا بمحو الذنب

بالصفح عنه حكم أمر الملك قال له القاضى لقد صدر أمر الملك بالعفو عن ذنبك فاذهب سريعا فقد ارتفع عنك العقاب وبقى عليك الوزر (وقال) قاض آخر لانسان آخر قتل شخصا بالسم وحكمت عليه المحكمة بعقوبة القتل فخففها الملك باستبدال القتل بالليمان اذهب الى الليمان لتزعج أهله فقد قدم عليهم معتدا أثيم قبيح الفعال ليصاحبهم فلا شك انهم ينفرون منك كل النفور

« مطلب » كون صفح الملك لا يكون في حقوق العباد

وفى الممالك المدققة فى الاحكام العدلية لايصفح الملك عن الجانى فى الغالب الا في ذنب الخوض فى الناموس الملوكي أو فى الصغائر الخاصة بالسياسة الملوكية ولايتجاوز الملك عن المتعدى في شيء بالنسبة لحقوق العباد المبنية على المشاحة فلا يمنع حدود الله ولا يصفح عن القاتل لشخص له ورثة أبدا لان الديه أو القود حقهم ومع صفح الملك عن الجاني فلا يبطل تحقيق الدعوى المقامة فى شان الجناية فان حقوق الملك انما هى تخفيف عقاب المذنب نظرا للنفوذ الملوكي والناموس السلطاني المبنى على الشفقة والرحمة فليس من المصلحة عفوه عن الذنب قبل ظهوره ولا اظهار ذلك للمحا كم قبل التحقيق لان ذلك يفضى الى ستر الحق وله فى حقوق الحكومة اذا حصلت فتنة عمومية وخمدت نارها وظهر رؤساء الفتنة وبان المفسدون ان يخبر المجالس المحكمية القامة فيها قضاياهم بأنه قد عفا عن الجنح السياسية وكذلك اذا حصل اتهام للمستخدمين فى الاموال الميرية باختلاس او اهمال وكان عليهم تحقيق أو محاسبة أن يسامحهم مما اتهموا به ويخلى سبيلهم

« مطلب » في ان عفو الملوك مطلوب لكونهم ادلى بالتخلق باخلاق الرحمن

وبالجملة فحق العفو من الملوك الذين هم خلفاء الله فى ارضه على عباده مبنى على وجوب التخلق بأخلاق الرحمن أى الاتصاف بصفاته كالرأفة والرحمة والحلم وفى

الحديث الشريف الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء وفى بعض الكتب المنزلة يقول الله تعالى ان كنتم تريدون رحمتى فارحموا عبادى وقيل فى هذا المعنى

ان كنت لا ترحم المسكين ان عدما ولا الفقير اذا يشكو لك العدما
فكيف ترجو من الرحمن رحمته وانما يرحم الرحمن من رحما

(وقال اخر)

ابغ للناس من الخـــــير كما تبغى لنفسك
وارحم الناس جميعا انهم أبناء جنسك

« مطلب » الكلام على الرعية وما يفعله الملك لاصلاحهم

وأما الرعية فهم طبقات متكاثرة فينبغى للملك ان يحسن تربية رعيته على اختلافهم ويهذب اخلاقهم بالآداب الحسنة وان يحمل أرباب الزراعة والتجارة والعمارة على تأدية حرفهم جميع حقوقها وينهاهم عن استنفاد الذهب والفضة فيما لا يحل كالاوانى والاطواق واللجم والمناطق لئلا يضيق عليهم أمر المعاش بمعنى انهم لا يستعملون النقدين فى الاشياء المستغنية عنها فان الملوك المتقدمين كانوا لا يفعلون ذلك هم ولا رعاياهم فكثرت فى ايامهم النقود والخيرات وينبغى ان يشوق المحترفة بالعطايا والمكافآت وشمول النظر والمسامحات حتى يتسابقون الى تكثير مصنوعاتهم وهكذا كل طبقة

« مطلب » حقوق الرعية المسماة بالحقوق المدنيه اى حقوق اهالي المملكة الواحدة بعضهم على بعض

وبسط الكلام على عموم الرعية ان يقال ان لهم حقوقا في المملكة تسمى بالحقوق المدنية يعنى حقوق أهالى المملكة الواحدة بعضهم على بعض وتسمى بالحقوق الخصوصية الشخصية فى مقابلة الحقوق العمومية وهى عبارة عن الاحكام التى تدور عليها المعاملات فى الحكومة وهذه الحقوق فى كتب الفقه عبارة عن المعاملات والانكحة والفرائض والوصايا والحدود والجنايات

والدعاوى والبينات والاقضية فالحقوق المدنية المذكورة هي حقوق أهل العمران بعضهم على بعض لحفظ أملاكهم واموالهم ومنافعهم وتوسيعهم واعراضهم ومالهم وماعليهم محافظة ومدافعة ويتفرع من حقوق المملكة العمومية أي السياسة والادارة الملكية ومن الحقوق المدنية الشخصية فرع آخر من الحقوق يسمى بحقوق الدوائر البلدية يعني حقوق النواحي والمشيخة البلدية فهذه الحقوق تتعلق بالامتيازات الخصوصية لكل ناحية

« مطلب » حقوق الدوائر البلدية التي هي فرع من الاربعة

ثم ان الدائرة البلدية والناحية والمشيخة الفاظ مترادفة في عرف الادراة على معنى واحد فحقوق الدوائر البلدية الامتيازية هي استقلال النواحي بالتصرفات الرشدية يعني استقلال كل ناحية بتحسين نظامها من حيث خصائصها البلدية وحال أهاليها واستبدادها بحفظ مصلحتها الخاصة بها تحت ظل الحكومة وهي مجموع قرية أو حارة أو أكثر صارت ناحية لما فيها من الروابط والعلاقات الخصوصية التي استدعتها المنافع العمومية فهي جزء من المملكة امتازت من اجزاء مملكتها بالمزايا الخصوصية البلدية كاختصاصها باسواق دورية ومواسم سنوية وعوائد محلية وعمائر خيرية

« مطلب » سبق تكون الدوائر البلدية على تكون الحكومات والممالك

ثم ان تكون النواحي سابق الوجود على تكون الحكومات واقدم منها في التجمعات التأنسية فالنواحي أصل الممالك فقد كانت النواحي مشيخات صغيرة مستقلة منفرد بعضها عن بعض على قرية أو أكثر أو على بندر ومدينة بوصف دائرة بلدية وكان الحامل لاهلها على الاجتماع والاتحاد اقتضاء الحاجة الانسانية للتأنس والتعيش والتحفظ حيث أحسوا باحتياجاتهم الى ادارة داخلية لدائرتهم فاحتاجت تلك الادارة الى عمل ومحافظة وحسن تدبير وملاحظة فاستدعى الحال الى رئيس يقوم بادارة تلك الدائرة ويسوس امرها ويقوم

أودها فاختار أهل هذه الدائرة لهذه الوظيفة أعقل المشيرة وانورهم بصيرة وكانوا في مبدأ الامر يختارون بالرغبة والطوع لمثل ذلك شيخا من شيوخ الاهالى الطاعنين فى السن ممن أفادتهم كثرة التجاريب المعلومات القوية والهيبة والوقار ويجلونه كبير الناحية ومن المعلوم ان من طعن فى السن يطلق عليه اسم الشيخ فلذلك قيل لهذا الشيخ شيخ البلد أو شيخ الناحية أو شيخ الحارة وقيل للبلد والناحية وللحارة مشيخة فاستمر الحال على هذه التسمية حتى انتظمت النواحى فى الحكومات وانخرطت في سلك الممالك وصارت أجزاء لكليات أو جزئيات لكليات وبقى اسم الشيخ دالا على كبير القوم أيا ما كان عمره

• مطلب سبب تلقيب رئيس الناحية بشيخ البلد

ثم بتداول الازمان وترتيب البلدان وانضمام عدة أقاليم أو مدن تحت رياسة واحدة تنظمت النواحى تنظيما رسميا تابعا لانقسام البلاد الى ممالك والممالك الى ايالات والايالات الى كور أو مديريات والمديريات الى أقسام والاقسام الى أخطاط والاخطاط الى نواحى ودوائر بلدية أو الى مدن والمدن الى اجزاء وسمى شيخ المملكة سلطانا أو ملكا أو رئيس جمهورية وسمى حاكم الايالة واليا أو أميرا وحاكم المدينة محافظا أو مأمورا وحاكم المديرية مديرا وهكذا وحاكم البلد شيخ البلد أو عمدة وهكذا على حسب عرف كل بلاد واختلفت الاسماء باختلاف عرف الاقاليم والنواحى والمسميات متحدة

فقد تأسست كلية الحكومة على عمد نواحيها ومعاونيهم فهم أعضاء لجسد الحكومة وجميع الخدامات المحلية محالة على عهدتهم واعتماديتهم حتى ان القوانين قد ترتبت فى الحكومة بحسب دوائرها البلدية واقتضاء مواقعها

المحلية من المزايا الخصوصية

« مطلب »
تحكم الملتزمين في أوروبا قديما على الاراضي والفلاحين

وفى الازمان السالفة قبل تقدم الجمعية فى البلاد الاروبية وقبل أخذها من التمدن بالحظ الاوفر كان أكثر أهالى حكوماتها ملتزمين وأمراء كبار مستقلين بتملك الدوائر البلدية والاراضى الزراعية يملك الواحد منهم القسم تامه ويستبد فيه برأيه وتنفيذ أحكامه ويدفع خراجا مقررا لرئيس الحكومة الكبيرة فكان هؤلاء الملتزمون والامراء مستبدين بما تحت أيديهم من المدن والقرى والبلاد ومستعبدين لما فيها من الفلاحين والاهالى والعباد وفى مقابلة ذلك يدفعون الخراج المقرر المعلوم لولاة الامور بشرط اتباع القوانين المعلومة والاصول والرسوم فكانت النواحي تابعة لهؤلاء الاساتيذ الملتزمين التابعين تبعية ضعيفة لملوكهم مع مبارزتهم لهم بالمشاحنات فى كل وقت مثل ما كان جاريا بالديار المصرية فى عهد المماليك

« مطلب »
مانتج لاوروبا من الحروب الصليبية لاخذ القدس الشريف وغيره من بلاد الاسلام

فلما دعت الحروب الصليبية والغزوات الافرنجية في البلاد المشرقية الاسلامية الى سفر رؤساء الجيوش بأنفسهم الى هذه الحروب وكانوا هم أرباب الالتزام واقتضى الحال أن يأخذوا من التزاماتهم ما قدروا عليه من الاموال والنفوس لحرب الاسلام وكانوا أرباب حمية قوية وغيرة دينية وطالت أزمنة الغزو والقتال للتغلب على القدس الشريف العزيز المنال مع كثرة الانفاق لطول الشقاق وتبصرهم فى ادخال محاسن التمدن المشرقية في بلادهم المغربية وتعلمهم من الاسلام ما حسن ببلادهم وانفاقهم النفقات الجسيمة فى الحصول على ذلك كله مددا مديدة فتضعضع بهذا من جهة المعايش حالهم وضاعت فى الازمان المختلفة أموالهم ورجالهم وعمتهم لضرورة الحروب الفاقة وعجزوا عن الاطاقة واضطروا الى بيع الاراضي والرجال فاشترى منهم أهل

النواحي أملاكهم وأنفسهم بالاموال ومنهم من اشترى الامتياز بحق تنصيب شيخ من الناحية للمحاماة عن الحقوق الاهلية فتمتعوا من ذلك الوقت بالمزايا الاهلية والحقوق المدنية وتملكوا الاملاك وخرجوا من ربقة التبعية وصاروا على تداول الايام يزدادون في القوة بقدر ضعف الملتزمين وفقدهم للنخوة فتواجدت عند الجميع الحرية وصارت ممالك أوروبا بالتمدن حقيقة وحرية

وقد ترتب على اعتاق اعناق الدوائر البلدية وتحرير رقاب النواحي في البلاد الاوروباوية كما في غيرها من البلاد المتمدنة فلذتان مهمتان (احداهما) تمتع أهالي النواحي ثمرات الاكتساب وتحصيل المنافع وتحسين أحوال أهاليها بالثروة والغنى والاخذ في التمدن والتقدم في العمران (وثانيتهما) قوة الحكومة وتمكين الدولة حيث صارت جميع النواحي بالمملكة تابعة لها مباشرة بدون توسط الملتزمين والامراء والاساتيذ والكبراء لان النظام العمومي في الدولة انما يتم بوحدة الحكومة واستبدادها بالتصرفات الملكية ورفض مذهب السيادة الارضية وطرح مشعب الالتزامات البلدية ظهريا ونبذ طرق تعدد الاحكام المختلفة مكانا قصيا فالملكة المتوحدة يضرها كثرة الحكام المتعددة

ثم لم تزل النواحي تأخذ في التمكن من التصرفات الرشدية والتقدم في محافظات حقوق الدوائر البلدية بعناية الحكومة الكلية حتى صارت قوية متينة محررة مصونة لان قوة الاجزاء مستلزمة لقوة الكل فتمتع جميع الاهالي اذ ذاك ثمرات مهارتهم الصناعية وآثار براعتهم الزراعية

ومن المعلوم ان الشريعة الشريفة من صدر الاسلام ناطقة بهاوأقوى من ذلك

وقوم والسيرة العمرية صادقة فيما هو أتم من ذلك كله وأنظم والاسلام سوى بين الجميع في العدل والانصاف وقدعم به التمدن في سائر الاقطار والاطراف واعترف له بذلك جميع أمم الدنيا كال الاعتراف فلا يضيره ولا يضره سفاهة بعض حكام سلفوا حيث خالفوا أحكامه المرضية في أيامهم فلا قاس على تلك الايام وذلك الحكومة المماليك في مصر وتحميلهم لاهلها ثقيل الاصر فهذه قضية شخصية لاتنقض العموم بدليل زوالها في أجل مسمى ووقت معلوم

« مطلب » كون الاحكام الاسلامية مقتضية تسوية جميع الناس في العدل والانصاف

فقد وفق المولى تبارك وتعالى المرحوم محمد على صاحب المساعي المشكوره وكذلك من بعده من ورثائه على قدر حاله وامكانه لاسيما حفيده خديو مصر العادل فقد شرع في تأسيس الدوائر البلدية المحرر وبنى ذلك على قواعد ثابتة مقررة فالآن بعناية هذا العزيز الجليل وحسن رعايته الظاهرة كالشمس فلا يقام عليها دليل تفوز مصر بنجح الآمال وترقى الى درجة الكمال

ثم ان ترتيب عمد الدوائر البلدية التي هي النواحي وترتيب معاونيهم ومامورينهم ومعاوني الضبطية انما هو بحسب جسامة كل ناحية واتساع دائرتها وثروة أهلها حتى ان الناحية الجسيمة يترتب فيها بالضم مشورات بلدية رشدية للاتحاد مع العمدة ومساعدته في الامور المهمة فالمدار في ادارة الناحية وضبطها على العمدة وهو كثير الوظائف ومنوط بامور جمة منها تنظيم جرائد الانساب وهو تسجيل المولودين والمتزوجين والمفقودين على الرسوم المربوطة وهو من أهم أمور المملكة في حفظ الاموال والنفوس والقرابات يبنى عليه ابواب كثيرة من الفقه والسياسة فالعمدة من ذوي الادارة البلدية والضبطية الحاكمية الآن الادارة البلدية التي هي أصل وظيفته الاصلية تحت رياسة المديرية ولما تفرعت

« مطلب » ترتيب عمد الدوائر والمشورات البلدية

وظائفه وتشعبت خصائصه كان شيخ الناحية بالنسبة لها كمدبر صغير وولى على دائرتها فهي كاليتيم وهو كالكفيل النصير فمن خصائصه مباشرة املاك دائرة الناحية وعقاراتها وايراداتها وتقنين مصاريفها بما تقتضيه المصلحة والضبطة وتسديد ماعليها من اموال الميري ومن الديون

« مطلب » خصائص شيخ الدائرة البلدية

ومن خصائصه ايضا ترتيب الاشغال العمومية واجراء العملية اللزومية على طرف الدائرة البلدية اذا كانت هي الملزومة بالمصاريف ومن خصائصه ايضا مباشرة ادارة عمائر المحال الخيرية التابعة للناحية اذا كان مصاريفها على دائرة الناحية اوكانت المصاريف على الحكومة وكانت المحال الخيرية معدة لمنافع الدائرة البلدية كالاسبتاليات والمكاتب ومن خصائصه ايضا التشبث بكافة الوسائل التي تجلب الراحة والامنية وحسن الانتظام لاهالى البلدة وكذلك الاعتناء بتهذيب الاخلاق والتأديب والتربية للاهالى وتعويدهم على الاستقامة وعدم ارتكاب ما فيه سقامة ومن مأمورياته ايضا توزيع مايخص دائرة الناحية في ضمن عموم المديرية من الاموال والعوائد وتوزيعها على اشخاص الناحية بحسب ميسرة كل منهم بالاتحاد مع شورى الناحية لعدم المندورية وكذلك يجب تحصيل الاموال والعوائد بحسب التوزيع وتوريدها الى خزينة القسم أوالى خزينة المديرية حسب الاصول المقررة وعليه أيضا الملاحظة للاشغال العمومية والعمليات والمحافظة على أملاك الحكومة والبحث عن اصلاح المساجد والمعابد والمشاهد والقرافات والاضرحة والمكاتب والمدارس والآثار القديمة وكل ما هو فى الناحية من أمثال ذلك

« مطلب » الترخيص لشيخ الناحية باجراء ماهو من خصائصه بدون استئذان ممن هو فوقه من الحكام الا في امور جسيمة

وبالجملة فعمدة البلد أو الناحية مرخص له بدون استئذان من ديوان القسم أو المديرية أن يجرى من بادىء رأيه جميع ماهو من خصائصه ووظائفه

وحدوده ماعدا بعض أشياء جسيمة يحتاج فيها للاستئذان من الرئيس الذي هو أعلى منه وهو المدير بالنسبة للادارة البلدية ونائب الملك في الحاكم بالنسبة للضبطية الحاكمية فما يحتاج فيه العمدة للاستئذان شراء عقارات أو اراضي للناحية أو بيع مثل ذلك من الناحية أو ضرب عوائد على الاهالي غير المقنن فوق العادة لمصروف الناحية لاحتياجاتها وكافتراض أموال على طرف الناحية للوازمها وكتجديد اشغال ومنافع وعمارات وسكك وكالتجارة في اموال الناحية المتوفرة في صندوقها بعد المصرف وكالتداعي في قضايا تخص الناحية أو قبول التخاصم والتداعي مع احد داخلي دائرة الناحية بشيء فكل هذا على العمدة أن يستأذن فيه من محل الاقتضاء وما عدا ذلك من حقوق الناحية هو من دائرة تصرفه وحدوده فيجب على العمدة بحسب الامكان ان يباشرها بنفسه فهو المحامي عن الناحية محاماة الولي لليتيم والكفيل للمكفول وللحكومة العليا تولية من يفتش احوال الدائرة البلدية كالناظر الحسبي

« مطلب » ما يجب ان يكون عليه شيخ البلد من المعلومات

فيجب على كل عمدة أن يكون له إلمام بالاحكام الشرعية والقوانين الوضعية وممارسته للحكام الملكية فان جهله لهذه الاحكام يحط بمقامه ويزري به بين أقرانه وافرانه ولهذا اعتنى المؤلفون في سائر الدول والملل في تأليف كتب السياسة على سائر الفنون وجعلوها في طاقة الحكام واذا كان هذا وصف شيخ البلد وانه يزرى به جهل شريعة البلد واحكامها السياسية والشرعية فما بالك بمن هو اعلى منه من الموظفين كوكلاء المملكة ووزرائها ونوابها وحجابها فالملك العاقل المدبر لا ينتخب لوظائف المهمة الا من يكون جامعا لخصال الخير حسن الخلق والخلق يجمع بين البشاشة والوقار والحلم والهيبة والعفة والنزاهة وعزة النفس وسداد الرأي وحسن

« مطلب » كون الملك ينتخب للولايات المهمة من ارباب المعارف السياسية من فيهم الكفاءة اللازمة والمعلومات الكافية

التدبير وسرعة الفهم والعلم بالامور السياسية والقوانين الملكية والاحوال الديوانيـة والوقوف على أحوال المسالك والممالك وما بينهما من العلاقات والروابط والعهود والضوابط وان يكون معروفا بالصدق والوفاء متبحرا في أنواع العلوم السياسية له خبرة بكتابة الانشاء والمحاسبات ذكي الفطنة سريع الجواب كثير الصواب متيقظا في تدبير الدولة المادلة معمرا للجهات والنواحي والاعمال مثمرا لاصناف الاموال وتحصيل الغلال مقتصدا في وجوه صرفها ونفقاتها (قال) الحكماء يجب أن يكون الوزير مثل المرآة التي لها وجهان ينظر بوجه منها الى الله تعالى وبالآخر الى الرعيـة انتهى ومثل الوزير في ذلك سائر رؤساء المملكة فانهم جميعا كالراعي الذي استؤجر لحفظ الاغنام فاذا حفظوها استحقوا الاجرة وان ضيعوها أخـذوا بالغرامة وحبسوا في سجن الملامة وخسروا الدنيـا والآخرة وقال لهم يارعاة السوء اكلتم السمين وضيعتم الهزيل فخ منكم الانتقام بخلاف الوزراء الذين يعلمون أن الشريعة معيار المملكة والسياسة ميزان السلطنة فيزنون الرعايا كانفسهم بميزان الشريعة والسياسة فهؤلاء يفوزون بسلامة الدنيـا والآخرة لما حفظوه من الوزن بقسطاس العدل في صيانة النفس والمال والعرض فبالعدل قامت السموات والارض

وبالجملة فعلى ولي الامر ان يجتهد حتى يرضى عنه جميع رعيته وان ينزل نفسه منزلتهم وكل ما يحبه لنفسه يحبه لهم وعليهم الطاعة الكاملة له لقوله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم فقد قرن تعالى طاعة ولاة الامر بطاعة نفسه ورسوله فهذه عظمة جيلة لولاة الامر ومنزلة جليلة تبلغ النهاية في رفعة القدر فاذا ظهر لولي الامر عدو لزمهم معاونة الملك

عليه فاذا استقرضهم أقرضوه واذا استعان بهم أعانوه وان عدل فيهم مدحوه وان ثقل عليهم شيء من أحكامه صبروا الى ان يفتح الله لهم باب هدايته للخير وارشاد دولته للعدل وزوال الضير ويسألون الله تعالى ان يرزقه بطانة أهل حكمة وشجاعة وعفة وعدالة

فالملك المرزوق بموظفين متصفين بهذه الخصال المحمودة هو مسعود الرعية فهو الذي تجمل به الزمان ورضي عنه الرحمن واهتمام الملك وموظفيه بمصالح الرعية لا يمنع من سعيهم أيضا في اصلاح انفسهم بقدر الامكان لان من لم يصلح نفسه عسر عليه اصلاح غيره وكيف يعرف رشد غيره من لا يعرف رشد نفسه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

الفصل الثاني

(في طبقة العلماء والقضاة وأمناء الدين)

والمراد بهم هنا ما يشمل علماء الحقيقة وعلماء الشريعة وعلماء الحكمة والامور النافعة التي عليها نظام الدنيا والدين فأما علماء الحقيقة أهل الزهد والورع وقليل ما هم فهم أصحاب الاخلاص في الدين وعن محبة الدنيا تراهم متباعدين وأما العلماء وهم ورثة الانبياء وحملة الشريعة فدرجتهم من أمة النبي صلى الله عليه وسلم مثل درجة انبياء بني اسرائيل وكراماتهم عظيمة ولحومهم مسمومة من شمها مرض ومن أكلها سقم فمن عظمهم فقد عظم الله ورسوله وأعطى درجة العلم حقها وهو فضل الله يؤتيه من يشاء (قال) صلى الله عليه وسلم لولا العلماء لهلكت أمتي اللهم احفظ العلماء واعف عن الجهال وارحم

الناس فيجب على الدولة ان تحترم علماء الشريعة وتكرمهم وتثيبهم على تعليمها والمحافظة عليها بل عليها أيضا ان تتحرى ادخال السرور عليهم واستمالة قلوبهم والتعطف عليهم وان تتقرب اليهم بالصلات وان تتحف اولادهم بالتحائف رفقابهم وتلطيفا لهم وان تحملهم على الاشتغال بالعلم والمراد بعلماء الشريعة العارفون بالاحكام الشرعية والعقائد الدينية اصولا وفروعا يعني الاحكام المتعلقة بالعمل عبادات ومعاملات ويلحق بهم أهل العلوم الآلية العقلية التي يتوقف عليها فهم العلوم الشرعية لان الوسائل تشرف بشرف المقاصد وينبغي زيادة الاجلال والتبجيل لاهل التفسير والحديث وهم العلماء المتدينون لعلوم القرآن وتفاسيره ورواية الحديث باسانيده وبعلوم الترغيب والترهيب وتبجيل علماء الحقيقة الذين انجلى عن قلوبهم الخبث وقاذورات الدنيا وارتفع عنها الغطاء والرين حتى اتضحت لهم حلية الحق عيانا وانتظمت شمائلهم في سمات الصالحين الذين بذكرهم تنزل الرحمات من رب العالمين فمثل هؤلاء ينبغي الاتحاد بهم لاستفادة الخير منهم فمن كان جليسه صاحب علم أو صلاح استفاد منه خيرا لانه قلما يخلو مجلسه عن مسئلة وعظ أو نصح

أحب الصالحين ولست منهم لعلي ان أنال بهم شفاعه
وأكره من بضاعته المعاصي وان كنا سواء في البضاعه

(وقيل)

لي سادة من عزهم أقدامهم فوق الجباه
ان لم أكن منهم فلي من حبهم عزوجاه

فمجالسة الصالحين فائدة عائدة بالخير العميم على مجالسيهم وفي الحديث يحشر المرء مع من أحب وقال صلى الله عليه وسلم العالم والمعلم شريكان في الخير

كذلك ويحترم ويكرم العلماء المشتغلون بجملة علوم شريفة ينتفع بها ويحتاج اليها في الدولة والوطن كعلم الطب والهندسة والرياضات والفلكيات والطبيعيات والجغرافيا والتاريخ وعلوم الادارة والاقتصاد فى المصاريف والفنون العسكرية وكل ما كان له مدخل فى فن او صناعة فان أهله يجب اكرامهم من أهل الدولة والوطن وكذلك يجب اسداء المعروف واصطناعه لارباب المعارف الادبية والفصاحة العربية فقد ذكر ابن رشيق فى العمدة ان اعرابيا وقف لعلى رضى الله عنه فقال ان لى اليك حاجة رفعتها الى الله قبل أن ارفعها اليك فان انت قضيتها حمدت الله وشكرتك وان انت لم تقضها حمدت الله وعذرتك فقال خطها فى الارض فخط أني فقير فدفع اليه حلة فلما تسلمها أنشد

كسوتني حلة تبلى محاسنها   فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا
ان الثناء ليحيي ذكر صاحبه   كالغيث يحيي نداه السهل والجبلا
لا تزهد الدهر فى عرف بدأت به   فكل عبد سيجزى بالذى فعلا

فامر له بخمسين دينارا وقال الحلة لفاقتك والخمسون لادبك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أنزلوا الناس منازلهم

وقد نص المؤرخون على انه لم يك فى الدنيا في قديم الزمان اعظم دولة ولا اشمخ مملكة ولا ادوم أياما وذكرا من دولة مصر والفرس واليونان وسبب ذلك تعظيمهم للعلوم والحكمة وتمكين من يشتغل بذلك ورعاية جانبه حتى كان اكثر ملوكهم علماء وحكماء فمن تمام رونق المملكة اشتمالها على ائمة فى هذه العلوم بأسرها فما اضيع دولة قل علماؤها وحكماؤها وفسدت مزارعها وكسدت منافعها ولم تجد من يحييها ولا من يحيي تحيات العلوم معالمها ونواحيها ولكن الحمد لله الذي من على مصر بخلافة الخلفاء على الاطلاق

حيث جعلوا فيها شموس العلوم ساطعة الاشراق ثم من عليها بدولة آل عثمان فحفظت بالنسبة اليها ما بقي فيها من مكارم الاخلاق مع المحافظة على القوانين الشرعية لاسيما وان من نتيجة تسلطهم عليها تشريف ذي النفس الزكيه والمناقب السنية جنتمكان المرحوم محمد علي الذي أبقى بحسن صنيعه ذكره مدى الايام وآل أمر المملكة لحفيده الرفيع المقام

انما المجد ما بنى والد الصد ق وأحيا فعاله المولود

فقد جدد دروس العلوم بعد اندراسها واوجدت بعد العدم الرؤساء العلماء والفضلاء نتيجة قياسها لقصد انتشار العلم والزيادة في الفضائل فأي من ذلك بالم تستطعه الاوائل غير انه حفظه الله وأبقاه ولوائه أعلى منار الوطن ورقاه لم يستطع الى الآن ان يعمم أنوار هذه المعارف المتنوعة بالجامع الازهر الانور ولم يجذب طلابه الى تكميل عقولهم بالعلوم الحكمية التي كبير نفعها في الوطن ليس ينكر نعم ان لهم اليد البيضاء في اتقان الاحكام الشرعية العملية والاعتقاديه وما يجب من العلوم الآلية كعلوم العربية الاثنى عشر وكالمنطق والوضع وآدب البحث والمقولات وعلم الاصول المعتبر ومثل هذا فليعمل العاملون وفي ذلك فليتنافس المتنافسون غير ان هذا وحده لا يفي للوطن بقضاء الوطر والكامل يقبل الكمال كما هو متعارف عند أهل النظر

ومدار سلوك جادة الرشاد والاصابة منوط بعدولي الامر بهذه العصابة التي ينبغي ان تضيف الى ما يجب عليها من نشر السنة الشريفة ورفع اعلام الشريعة المنيفة معرفة سائر المعارف البشرية المدنية التي لها مدخل في تقديم الوطنية من كل ما يحمد على تعلمه وتعليمه علماء الامة المحمدية فانه بانضمامه الى علوم الشريعة والاحكام يكون من الاعمار الباقية على الدوام ويقتدي بهم في اتباعه

« مطلب » انه ينبغي للعلماء الشرعيين ان يتشبثوا ايضا بمعرفة المعارف البشريه كالعلوم الحكميه العمليه

الخاص والعام حتى اذا دخلوا في امور الدولة يحسن كل منهم في ابداء المحاسن المدنية قوله فان سلوك طريق العلم النافع من حيث هو مستقيم ومنهجه الابهج هو القويم يكون بالنسبة للعلماء سلوكه أقوم وتلقيه من أفواههم أتم وأنظم لا سيما وان هذه العلوم الحكمية العملية التي يظهر الآن انها أجنبية هي علوم اسلامية نقلها الاجانب الى لغاتهم من الكتب العربية ولم تزل كتبها الى الآن في خزائن ملوك الاسلام كالذخيرة بل لا زال يتشبث بقراءتها ودراستها من أهل اوروبا حكماء الازمنة الاخيرة فان من اطلع على سند شيخ الجامع الازهر الشيخ أحمد الدمنهوري الذي كانت مشيخته قبل شيخ الاسلام الشيخ أحمد العروسي الكبير جد شيخ شيوخ الجامع الازهر لأن السيد المصطفوي العلم الشهير رأى انه قد أحاط من دوائر هذه العلوم بكثير وان له فيها المؤلفات الجمة وأن تلقيها في أيامه كان عند أهل الجامع الازهر من الامور المهمة فانه يقول فيه بعد سرد ما تلقاه من العلوم الشرعية والآلية معقولا ومنقولا أخذت عن استاذنا الشيخ المعمر الشيخ على الزعتري خاتمة العارفين بعلم الحساب واستخراج المجهولات وبما توقف عليها كالفرائض والميقات وسيلة ابن الهائم ومعونته كلاهما في الحساب والمقنع لابن الهائم ومنظومة الياسميني في الجبر والمقابلة ودقائق الحقائق في حساب الدرج والدقائق لسبط المارديني في علم حساب الازياج ورسالتين احدهما على ربع المقنطرات والأخرى على ربع المجيب كلاهما للشيخ عبد الله المارديني جد السبط ونتيجة الشيخ اللادقي المحسوبة لعرض مصر والمنحرفات لسبط المارديني في علم وضع المزاول وبعض اللمعة في التقويم وأخذت عن سيدي احمد القرافي الحكيم بدار الشفاء بالقراءة عليه كتاب

الوجـز واللمحة المفيفية ـــ في اسباب الامراض وعلاماتها بشرح الامشاطي وبعضا من قانون ابن سينا وبعضا من كامل الصناعة وبعضا من منظومة ابن سينا الكبرى والجمع في الطب وقرأت على أستاذنا الشيخ عبد الفتاح الدمياطي كتاب لقط الجواهر في معرفة الحدود والدوائر لسبط الماردينى فى الهيئة السماوية ورسالة ابن الشاط فى علم الاسطرلاب ورسالة قسطاس لوقا في العمل بالكرة وكيفية أخذ الوقت منها والدر لابن المجدى فى علم الزيج وقرأت على استاذنا الشيخ سلامة الفيومى اشكال التأسيس فى الهندسة وبعضا من الجغمينى فى علم الهيئة وبعضا من رفع الاشكال عن مساحة الاشكال فى علم المساحة وقرأت على شيخنا الشيخ عبد الجواد المرحومي جملة كتب منها رسالة فى علم الارتماطيقي للشيخ سلطان المزاحي وقرأت على الشيخ محمد الشهير بالسجيمى منظومة الحكيم درمقاش المشتملة على علم التكسير وعلم الاوفاق وعلم الاستنطاقات وعلم التكعيب ورسالة أخرى فى رسم ربع المقنطرات والتحرفات لسبط الماردينى وعلم المزاول ومنظومة فى علم الاعمال الرصدية وروضة العلوم وبهجة المنطوق والمفهوم لمحمد بن ساعد الانصارى وهى كتاب يشتمل على سبعة وسبعين علما اولها علم الحرف وآخرها علم الطلاسم ورسالة للاسرائيلى ورسالة للسيد الطحان كلاهما ـــ في علم الطالع ورسالة للخازن فى علم المواليد أعنى الممالك الطبيعية وهى الحيوانات والنباتات والمعادن وأخذت عن شيخنا الشيخ حسام الدين الهندى شرح الهداية فى علم الحكمة ومتن الجغمينى فى علم الهيئة بمراجعة قاضى زاده ومطالعة السيد عليه وأخذت عن سيدي احمد الشرقى شيخ المغاربة بالجامع الازهر كتاب اللمعة فى تقويم الكواكب السبعة

ولما ذكر ما تلقاه من هذه العلوم أعقبه بما طالعه بنفسه بدون الاخذ عن شيخ فقال طالعت كتاب احياء الفواد بمعرفة خواص الاعداد في علم الارتماطيقى فى نحو كراسين وكتاب عين الحياه فى علم استنباط المياه فى نحو كراسين ورسالة فى الكلام اليسير فى علاج البواسير فى نحو كراسين ورسالة تصريح بخلاصة القول الصريح فى علم التشريح فى نحو كراسين ومنها كتاب اتحاف البرية بمعرفة الامور الضرورية فى علم الطب فى نحو خمسة كراريس ومنها رسالة القول الاقرب فى علاج لسع العقرب فى نحو كراس ومنها منهج السلوك في نصيحة الملوك فى نحو عشرة كراريس ومنها كتاب بلوغ الارب فى أسماء سلاطين العجم والعرب معنونا باسم السلطان مصطفى خان ابن السلطان احمد خان المولود فى رابع عشر شهر صفر سنة تسع وعشرين ومائة والف يوم الاربعاء اول النهار فى الساعة الاولى بعد الشمس الجالس على سرير الملك فى سابع عشر شهر صفر الخير سنة احدى وسبعين ومائة والف يوم الاحد قبل الشمس انتهى كلامه ملخصا بتصرف فانظر الى هذا الامام الذي كان شيخ مشايخ الجامع الازهر وكان له فى العلوم الطبية والرياضية وعلم الهيئة الحظ الاوفر مما تلقاه عن أشياخه الاعلام فضلا عن كون أشياخه كانوا أزهرية ولم يفتهم الوقوف على حقائق هذه العلوم النافعة فى الوطنية وفضل العلامة الجبرتي المتوفى فى أثناء القرن فى هذه العلوم وفى فن التاريخ أمر معلوم وكذلك العلامة الشيخ عثمان الورداني الفلكي وكان للمرحوم العلامة الشيخ حسن العطار شيخ الازهر أيضا مشاركة فى كثير من هذه العلوم حتى فى العلوم الجغرافية فقد وجدت بخطه هوامش جليلة على كتاب تقويم البلدان لاسمعيل أبي الفداء سلطان حماه المشهور أيضا بالملك المؤيد

وللشيخ المذكور هوامش أيضا وجدتها بأكثر التواريخ وعلى طبقات الاطباء وغيرها وكان يطلع دائما على الكتب المعربة من تواريخ وغيرها وكان له ولوع شديد بسائر المعارف البشرية مع غاية الديانة والصيانة وله بعض تآليف في الطب وغيره زيادة عن تآليفه المشهورة فلم تشبث من الآن فصاعد انجباء أهل العلم الازهريين بالعلوم المصرية التي جددها الخديو الاكرم بمصر بانفاقه عليها أوفر أموال مملكته لفازوا بدرجة الكمال وانتظموا فى سلك الاقدمين من فحول الرجال وربما يتعللون بالاحتياج الى مساعدة الحكومة والحال ان الحكومة انما تساعد من يلوح عليه علامات الرغبة والغيرة والاجتهاد فعمل كل من الطرفين متوقف على عمل الآخر فترجع المسئلة دورية والجواب عنها ان الحكومة قد ساعدت بتسهيل الوسائط والوسائل ليغتنم فرصة ذلك كل طالب وسائل وكل من سار الى الدرب وصل وانما تكون المكافأة على تمام العمل فهذا ما يتعلق بطبقة العلماء وقد ذكرنا ما يتعلق بالعلم فى الفصل الاول من الباب الاول من هذا الكتاب مبسوطا بمافيه الكفاية

« مطلب » منصب القضاء وجلالة قدره

ومن أجلاء طبقة العلماء القضاء فرتبة القضاء قد جعل الله اليها منتهى القضايا وانهاء التظلمات والشكايا ولا يكون صاحبها الا من العلماء الذين هم ورثة الانبياء فالقاضي متولى الاحكام الشرعية لهذه الرتبة كما ورث عن النبي صلى الله عليه وسلم علمه ورث عنه بهذه الوظيفة الشريفة حكمه

« مطلب » اجتماع منصب القضاء مع نقابة الاشراف فى عائلة مؤلف الكتاب ومن تولى من عائلته قضاء مصر وذكر نسبهم

ومما ينبغى ذكره هنا بالمناسبة ان من من الله سبحانه وتعالى على عائلتنا بطهطا أن اجتمع فيها مع منصب نقابة الاشراف التى هى لم تزل في بيتنا الى الآن منصب قضاء الولاية فى كثير من نسلنا

ان لله علينا نعما   يعجز المبدع عن المدلها
فله الحمد على نعمائه   وله الشكر على الحمدلها

وكنت أسمع من أسلافنا أن من ذرية جدنا أبي القاسم الطهطاني من تقلد بمحروسة مصر بولايات شريفة وحظي عند ملوكها بالمراتب المنيفة حتى وقفت الان على كتاب يسمى ذيل رفع الاصر في قضاة مصر للحافظ شمس الدين أبي الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي صاحب الضوء اللامع ترجم فيه لاثنين من اقاربنا توليا قضاء مصر بالتعاقب ولما كان هذا الكتاب مرتبا على حروف المعجم ترجم للخلف منهما قبل السلف فقال هذا المؤلف مانصه عمر بن أبي بكر بن محمد بن حريز ويدعي محرز بن أبي القاسم بن عبد العزيز بن يوسف بن رافع بن جندي بن سلطان بن محمد أحمد بن حجون ابن أحمد بن محمد بن جعفر بن اسماعيل بن جعفر الزكي بن محمد المأمون بن علي الخارص بن الحسين بن محمد بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب القاضي سراج الدين بن الشيخ مجد الدين الحسيني المغربي الاصل الطهطاني المنفلوطي المصري المالكي الشهير بابن حريز بضم المهملة وآخره زاى وهو أخو القاضي حسام الدين محمد الآتي والحسام هو الذي أملي على هذا النسب بعد أن أثبته ثم أوقفني عليه صاحب الترجمة في جزء فيه ترجمة جده الاعلى الشيخ أبي القاسم المذكور بالكرامات والاحوال السنية وكون الشيخ عبد الرحيم القناني ابن عم جده وتقدمه في الزمان وان من جملة من لقيه السراج البلقيني وانه مات في مستهل سنة اثنتين وستين وسبعمائة عن نحو تسعين سنة ودفن بزاويته التي أنشاها بطهطا وقبره هناك ظاهر يزار انتهى أنجب أبو القاسم هذا عدة أولاد كانت لهم جلالة وهيبة وكلمة نافذة

« مطلب » تقليد القاضي عمر سراج الدين المنفلوطي الطهطاني قضاء مصر ونسب جده أبي القاسم الطهطاني

منهم نور الدين ابو الحسن على الضرير المقرى وجد والد صاحب الترجمة الزين أبو المعالى حرز الموصوف من بعض من لقيه فى سنة ثمان وسبعين بالشيخ الامام المحدث المقرى وكان مولد صاحب الترجمة فى سنة تسع عشرة بمنفلوط ونشأ بها فحفظ القرآن والرسالة والملحة وجود القرآن على الشهاب الطهطائى وقرأ الفقه على الزينين عبادة وطاهر والشهاب السخاوي وعليه قرأ فى العربية والفرائض ولازمه وانتفع به وأخذ فى علم الكلام عن ابي عبد الله اليشكرى المغربى وسمع الحديث عن النجم بن عبد الوارث فمن دونه وممن سمع عليه الشيخ أحمد محمد بن يونس المغربى نزيل مكة حين أثبات هذه الترجمة واجاز له العلم البلقينى وناب عنه وكذا عن غيره من الشافعية بعده وعن الولى السنباطى المالكى وحج فى سنة أربع وستين وتعانى ادارة الدواليب والمعاصر (أى معاصر قصب السكر) ونحوها كأخيه

ولما استقر اخوه فى قضاء المالكية صار يكتب على الفتوى وعرف بالديانة والامانة والتصلب فى امر دينه ومزيد اليبس وحسن المعاملة وصدق اللهجة والوفاء بالعهد وذكر باستحضار فروع الذهب فصار الى رياسة وجلالة فلما مات أخوه استقر فى قضاء المالكية بعده فى شعبان سنة ثلاث وسبعين وأعرض عن بعض وظائف كانت مع أخيه كتدريس الشيخونية فاستقر فيها المحيوى بن تقى وتدريس جامع طولون أيضا فاستقر فيه النورى بن التنيسى ثم رجع اليه بعد وفاته وقام بالمنصب مقاما حسنا متحريا فيه جهده وشكرت سيرته فيه وصمم فى قضايا وبرز فى مواطن جبن فيها غيره كل ذلك مع اشتغال فكره بما التزمه من ديون أخيه وكثرة التعرض له بسببها من الدوادار الكبير وكذا الثاني مرة بعد أخري وآل الامر في بعضها

الى أن أمر السلطان بالترسيم عليه وأقام بطبقة الزمان بضعة عشر يوما وعد ذلك فى النوازل ثم أطلق وبعد ذلك أنهى الى السلطان فى شىء من تمات ما أشير اليه يقتضى تغير خاطره منه فبادر يوم الاثنين سادس صفر سنة سبع وسبعين الى التصريح بعزله وتقرير الشيخ برهان الدين اللقانى وجاءه الشرفى الانصارى مبشرا بذلك وتألم السراج لهذا الامر كثيرا وظن انه بسبق سعى من البرهان والظاهر خلافه وكما تألم له أجابه هذا بعدأن كان فى أول هذا الشهر وقت التهنئة بالغ فى المشى فيما رأسه انه الحق مما هو موافق لغرض السلطان فى قتل شاه سوار الذى شرحت خبره فى غير هذا المحل وجهر بذلك جهرا زائدا عن رفقته وانه لا تقبل توبته بل يضم اليه فى القتل كل جماعته ولم يعجب السلطان فيما قيل الجهر بذلك بل كان يحب اخفاء الامر فيه والله يحسن العاقبة ثم ترجم لاخيه فقال

محمد بن أبى بكر بن محمد بن حريز وباقى نسبه مضى فى أخيه عمر القاضى حسام الدين أبو عبد الله الحسينى المغربى الاصل الطهطائى المنفلوطى المصرى المالكى عرف بابن حريز ولد فى العشر الاخير من شهر رمضان سنة أربع وثمانمائة بمنفلوط وانتقل منها وهو صغير مع أبيه الى القاهرة فقرأ القرآن بها على الشريف جمال الدين بن الامام الحسينى وتلاه برواية أبى عمرو من طريق الدورى على الجمال يوسف المنفلوطى أحد تلامذة جده الاعلى أبى القاسم المذكور بالامامة فى القرا آت وغيرها كما سلف فى أخيه عمر ثم على الشهاب ابن البابا والشهاب الهيثمى وتلاه بعد ذلك وهو كبير فى مجاورته بمكة بالسبع افرادا وجمعا على الشيخ محمد الكيلانى أحد أصحاب الشمس بن الجزرى ابتدأ عليه فى عاشر المحرم سنة ثمان وأربعين وختم فى رابع ذى الحجة منها

* مطلب * تقليد القاضى محمد بن ابى بكر حسام الدين المنفلوطى الطهطائى قضاء مصر

وحفظ قبل ذلك العمدة والشاطبية والرسالة والالفية وعرضها على الجمال الاقفهسي والبدر الدماميني والشمس البساطي وابن عمه القاضي جمال الدين والشمس بن عماد والولي العراقي والعز بن جماعة والجلال البلقيني والشمس والمجد البرماويين وشيخنا والتلواني وآخرين وتفقه على الزين عبادة قرأعليه الرسالة مرتين وصل في الثانية الى الوصايا وربع العبادات فقط من ابن الحاجب والرسالة فقط على الشمس النهاري المغربي نزيل الصرغتمشية وكذا أخذ عن الشمس البساطي وغيرهم وسمع على الولي العراقي بعض الصحيح وعلى الزين بن عياش بمكة صحيح مسلم والسنن لابي داود وعلى البدر حسين الاهدل بقراءته الشفاء وبقراءة القاضي فتح الدين بن سويد الموطأ وعلى الشرف أبي الفتح المراغي بقراءة ابن سويد أيضا الشفاء كل ذلك في مجاورته الماضية بعينها وكان حج قبل ذلك في سنة اثنين وعشرين وولي قضاء منفلوط عن شيخنا فمن بعده وأورد شيخنا في حوادث سنة اثنين وأربعين ان القاضي بهاء الدين الاخنائي حكم بحضرة مستنيبه بقتل بخشباي الاربلي حدا لكونه لعن أجداد صاحب الترجمة بعد ان قال له أنا شريف وجدي الحسين بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم واتصل ذلك بقاضي الاسكندرية فأعذر ثم ضربت عنقه

ولازم القاضي حسام الدين المطالعة في كتب الفقه والتفسير والحديث والتاريخ والادب حتى صار يستحضر جملة مستكثرة من ذلك كله ويذاكر بها مذاكرة جيدة مع سرعة الادراك والفصاحة والبشاشة والحياء والشهامة والبذل لماليه وغيرهم والقيام مع من يقصده في مهماته واقتناء الكتب النفيسة والتبسط في أنواع المآكل ونحوها والقيام بما يصلح معيشته من

زرع الفلال والقصب وطبخ السكر وغير ذلك وحمد الناس معاملته فى صدق اللهجة والسماح وحسن الوفاء حتى رغب ذوو الاموال في معاملاته وممن كان يتردد اليه من مشايخنا لمزيد احسانه واكرامه السيد النسابة وربما سمع الحسام عليه بعض النسائى الكبير بل استكتبه ليسمعه بتمامه فما تيسر والزين البوتيجى وكان يحكى من كرامات بعض سلف الحسام شيأ كثيرا ولم يزل دأبه ما حكيناه الى ان مات القاضي ولى الدين السنباطي فى ليلة الجمعة تاسع شهر رجب سنة احدى وستين والتمس من يصلح لقضاء المالكية ويستقر لمن بعده فيه وتطاول لذلك غير واحد فاقتضى رأى الجمالى ناظر الخاص استقراره به ولما علمه فيه من رياسته وشهامته وراسل كلا من القاضي الشافعي ابن البلقيني والقاضى الحنفي ابن الديرى فى الثناء عليه عند السلطان واستحقاقه له ففعلا واستقر في يوم الاحد ثانى عشر الشهر المذكور وركب في أبهة وخفر وفرح الناس به لاسيما رفقته من بقية المذاهب لما وقر عندهم من حشمته ومحاسنه الجمة وحينئذ باشره بعفة ونزاهة وشهامة مفرطة وقيام باعباء جماعة مذهبه والانعام عليهم بأنواع من الاكرام فاجتمع شملهم بوجوده وبلغ كلهم فيما يؤمله غاية مقصوده ومنعهم من تعاطي الاخذ على الاحكام وأكد على من لم يتق به منهم في ذلك التأكيد التام حتي بالايمان ونحوها ولزم الاختصاص به من أعيانهم البدر بن المخلطة وقرأ عنده في المدارك للقاضى عياض وفي الجواهر لابن شاس وغيرهما واستتاب في بعض الاوقات في تدريسه أعيان المذهب قصد البربهم في المنصورية الشيخ يحيي العلمى وفي الناصرية الشيخ نور الدين السنهورى وفى الصالحية الشيخ نور الدين الوراق وتزاحم عليه الفضلاء من سائر أرباب المذاهب وممن

تردد اليه الشهاب بن صالح أحد نوادر أئمة الادب وسمعت حينئذ قاضي المذهب الحنبلي وناهيك بذلك من مثله يقول ان الشهاب لا ينهض ان يغرب عليه في فنه اشارة الى ملاءته وتقدمه في جودة محاضرته وكذا كان الشهاب بن أسد شيخ القراء في زمنه ممن يتردد اليه وقد صحبته قبل استقراره في المنصب وساعدنى في بعض القضايا وكان يجالني وسمع من لفظي بعض تصانيفي بحضرة الامام الزين البوتيجي وتفضل هو بسؤالي في الاذن له بالاجازة وكتب القاضي خطه بما يشهد لهذا

ولما استقر التمس مني اسنادى بالبخاري ونحوه نخرجت له جزءاً فيه أسانيد كثيرة من الكتب الحديثية والعلمية فسر بذلك ورغب الى في تبييض ما علم انني جمعته من طبقات المالكية والمرور عليه عنده فاق عنه بعض الشواغل وكذا رغب في قراءتي الجامع للترمذى عنده في رمضان ففعلت وحرص على المداومة على ذلك فثقلت على الحركة بسبب ذلك خصوصاً في شهر الصوم فبادر صاحبنا الشمس بن الفالاتي لذلك وانتهز الفرصة فلم يزل يقرأ عنده حتى مات واقتصر في آخرة الامر عليه بعد أن كان يقرأ عنده الثلاثة فأكثر وينعم على القراء بالخلع والجوائز وغير ذلك في الضحايا وغيرها بل ويصرف على جميع من يحضر عنده يوم الختم دراهم متفاوتة على قدر منازلهم ولما مات يحيى العجيسي استقر في تدريس الشيخونية ثم لما مات ولده استقر في تدريس جامع طولون وباشر التدريس فيهما وكذا درس بالمؤيدية نيابة عن ولد صاحبه البدر بن الخلالة بعد وفاة والده وفي سلخ المحرم سنة ثلاث وستين لبس خلعة الاستمرار

ولم يزل على جلالته وعلو مكانته في جميع ما أشرت اليه حتى حصل بينه

و بين العلاء بن الاهناسى الوزير ما يقتضى الاستيحاش فقام فى معاونة الشرف يحيى بن صنيعة أحد الكتاب حتى استقر عوضه فى الوزارة فى ربيع الآخر سنة ست وستين بعد ان رسم بالقبض على ابن الاهناسى وهو بالوجه القبلى فى الصعيد ولزم من ذلك قيامه معه خوفا من حصول خلل يعود اللوم عليه بسببه حتى يقال انه تكلف فى تلك الحادثة نحو ثلاثين الف دينار فتزايدت ديونه بسبب ذلك وطمع فيه أرباب الدولة وأدى ذلك الى انحطاط جانبه وهو مع ذلك لا ينفك عن التجمل جهده واظهار الجلد والصبر لمن يجىء عنده الى ان كاد الامر يتفاقم فلطف الله به ومات فى ليلة الاثنين مستهل شعبان سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة بمنزله بمصر وصلى عليه من الغد بجامع عمرو تقدم للصلاة عليه أخوه السراج عمر العاصى ودفن بتربة جده من قبل امه الشيخ محمد الهلالى العريان بجوار تربة الشيخ أبى العباس الحرار من القرافة الكبرى عند اولاده واستقر أخوه فى المنصب بعد ولم يتعرض لوظيفة الشيخونية وجامع طولون كما سلف وقد قتل بسيف الشرع جماعة من المفسدين منهم حمزة بن غيث بن نصير أحد مشايخ العربان أبوه بالشرقية ومنصور بن صفى الاستادار وما خلا عن عتب فى بعضهم جريا على عادة الناس فى اختلاف أغراضهم وكان منفجعا على قتل سعد الدين بن بكير القبطى مكنه عنه بعض الحنابلة المزالكانى كما سلف فى ترجمته

وفى تاج العروس شرح القاموس للسيد مرتضى فى صحيفة ٢٥ من الجزء الرابع مانصه والشريف أبو المعالى حرز كزبير ويدعى ايضا محرز بن الشريف أبى القاسم الحسينى الطوطانى التلمسانى تقدم فى القرآت كابيه وروى وحدث وكذا ولده الامام المحدث شمس الدين محمد وحفيده القاضى مجد الدين ابو بكر بن محمد بن حرز تولى القضاء بمفلوط وحسنت سيرته وولده

قاضي القضاة أبو عبد الله حسام الدين محمد حدث عن ابي زرعة العراقي واخوه سراج الدين عمر توفى سنة ٨٩٢ وهم اكبر بيت بالصعيد يقال لهم المحارزة والحرزيون وقول السخاوي في ترجمة الاول في حق جده انجب اولادا وذكر منهم أثنين واقول ان الثالث منهما يسمى يحيى وعائلتنا بطهطا الموجودة الآن هم من ذرية يحيى الذكور وينتهى نسبنا اليه حيث ان المرحوم والدى السيد بدوى بن علي بن محمد بن علي بن حرز بن ابي القاسم الصغير بن جلال الدين وليس عندي الآن بمصر السلسلة الموصلة الى سيدى أبي القاسم

احببت أروي صحاح در عن حسن جاء عن مسدد
سلسلة أطلقت بيانى لكن رقى بها مفيد

ومن جهة الام فوالدتى فاطمة بنت المرحوم الشيخ احمد الفرغلي الانصارى ابن المرحوم الشيخ عبد العزيز الانصاري ابن المرحوم القاضي أبي الحسن الانصارى ابن المرحوم العلامة القاضى محمد الانصارى ينتهى نسبهم الى الامام العالم القطب الرباني سيدى رفاعة بن عبد السلام الانصاري المشهور بالخطيب المكتوب على ضريحه

اقصد رفاعة كلما كرب يضيق سبيله
وانزل بساحته وقل حاشا يضام نزيله

وعلى كل حال فما أحسن قول من قال

يزداد في مسمعي تكرار ذكركم طيبا ويحسن في عيني مكرره

ويتفرع عن عائلتنا التي بطهطا عائلة شريف ابيار المشهورة فانها نزلت بابيار في القرن الحادي عشر وهم بيت مجد مؤثل كاصولهم واما اولاد سيدى حرز فهم اشراف اسيوط وفيهم النقابة الى الآن ولعل **هذا هو**

« مطلب »
الاشراف المتفرعة عن ذرية سيدي ابي القاسم بطهطا وان منهم اشراف ابيار والقاسمية بلوحه البحري وغير ذلك

معنى قول النسابة عبد الواحد بن ابراهيم الحسينى الهاشمى فى نبذة الانساب عند ذكر الاشراف بعد ان ذكر بنى الحسن وانهم فى جرجا يعنى اشراف منشاة البيدة قال وفى أسيوط طائفة من أولاد جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على الحسين بن على عليهما السلام يعرفون باولاد الشريف قاسم انتهى

ومن أولاد حريز اشراف منفلوط وفيهم النقابة والقضاء الى الآن ومنهم فرع العالم الفاضل السيد حسنين حريز الفدراوى احد فضلاء الجامع الازهر ومدرس الجامع العالى بالقلعة العامرة ومنهم فرع منتشر فى بلاد أناطلى

واما أولاد سيدى على نور الدين البصير المدفون بجزيرة شندويل بعمالة جرجا وله مشهد يزار فهم اشراف جزيرة شندويل ومنهم جماعة بقرية مطاى بالاقليم الوسطى ومنهم أشراف عربان بالوجه البحرى مشهورون بالقواسم منهم العالم الفاضل الشيخ اسمعيل رأس نقباء الطريقة الحمدية الدمرداشية حالا ويقرب من قول العلامة السخاوى ان القاضى حسام الدين جد لامه الشيخ محمد الهلالى العريان ومع ذلك فسيدى ابو القاسم استاذه هذا الشيخ المذكور حيث يوجد فى مناقبه ان الشيخ محمد الهلالى العريان ألبسه طاقيته كما أشرت لذلك فى قصيدة جامعة لمناقبه منها قولى

طاقيــة العــريان قد البسـتها   رمزا لسر خلافــة آنستهـا

كم صنت طهطا من اذى وحرستها   كم من يد بيضاء منك غرستها

ثمراتها لبنيك أضحت مكسبا

وقد جدد الامير الكبير والفرد العلم الشهير لطيف باشا ناظر عموم البحرية سابقا جامع سيدى أبى القاسم بطهطا وأنى فى بنائه بالبناء العجيب الذى صرف فيه جزيل الاموال من ضمن ماجدده بطهطا من المآثر كالحمام النفيس

* مطلب * ان الشيخ سيدى ابى القاسم المذكور تلقى الطريقة عن الشيخ محمد الهلالى العريان وان ساداتنا أولاد ابى القاسم المذكور له فى النسب منهما الام

* مطلب * تجديد سعادة لطيف باشا ناظر ديوان البحرية سابقا جامع سيدى ابى القاسم الطهطاوى

المبنى على شكل حمام المرحوم مطلوش باشا بالاسكندرية مما به صارت طهطا بهية جزاه الله خير الجزاء واحسن له الحال والمآل وفى هذا القدر مقنع وان كان مجال الكلام أوسع وقد كان كل من القاضى حسام الدين والقاضى سراج الدين ابنى حريز بلفظ التصغير بحاء مضمومة ثم راء مهملة ثم زاي معجمة خلافا لما وجد من الرسم فى طبع حسن المحاضرة في ذكر قضاء المالكية بأن حسام ابن جرير وصحته ابن حريز بالحاء والراء والزاى وكان توليتهما القضاء فى زمن ملوك الجراكسة وكان منصب القضاء فى ذلك العهد وما قبله يتعدد بمصر بتعدد المذاهب الاربعة حتي منصب قضاء العسكرية فكان تارة يضاف الى القاضي الحنفى وتارة يضاف الى القاضى الشافعي وتارة ينفرد به قاضي حنفى وما ذاك الا لان قاضي العسكر انما ينتفع به فى الجهاد ووقت خروج العسكر وتقع وصايا من الامراء وشهادات بينهم ولا يوجد فى العسكر الجالسين فى المراكز أحد ويحتاج الى اثبات ذلك عند القاضى الشافعي فلا يسمع شهادة العسكر فيتعطل اثبات ذلك فتبطل وصاياهم وشهاداتهم فلهذا السبب ولى الملك الظاهر بيبرس القاضى الحنفى لما اتفق له فى الجهاد مثل ذلك وامتنع القاضى الشافعى فى ذلك الوقت من سماع شهاداتهم ثم بتداول الايام ودخول أكثر الممالك الاسلامية في قبضة الدولة العثمانية المقلد جمهور حكامهم لابى حنيفة النعمان انتهى الامر أن صار حصر القضاء على مذهب امامهم الذى هو أول من دون الفقه وجمعه وتقدم وسبق من العلماء من تبعه واختص بكثير من الفروع التى تلائم ولاة الامور وأعظمها عدم اشتراط أمور كثيرة فى المراسم السلطانية والصحة في اشتراط العدالة وان كانت في الغالب لا يخلو منها من قضت له بالتولية الارادة

« مطلب » سبب تخصيص القضاء بمذهب ابي حنيفة النعمان بعد ان كان تعدد القضاة بتعدد المذاهب الاربعة في سالف الزمان

الصمدانية فيجوز تقليد الامام غير القرشي المناصب والاعمال وأصله قصة معاوية فان الصحابة تقلدوا منه الولايات واستدل الشافعية بقوله صلى الله عليه وسلم الأئمة من قريش فبهذا كان مذهب أبي حنيفة أوفق للملوك وأصلح

ومن الفروع أن من له أرض خراجية عجز عن زراعتها وأداء خراجها فللامام على مذهب أبي حنيفة أن يؤجرها من غيره ويأخذ من أجرتها الخراج سواء رضي صاحبها بذلك أم لم يرض * ومنها ان من عزره ولي الامر لاستحقاقه التعزير فمات في أثناء تعزيره فلا ضمان عند أبي حنيفة على ولي الامر وهذه المسئلة موافقة لولاة الامور ولولاها لفسد أمرهم * ومنها أن من أحيا أرضا مواتا بإذن ولي الامر ملكها وان كان بغير اذنه لم تملكها عند أبي حنيفة * ومنها اذا احتاج ولي الامر الى تقوية الجيش له ان يأخذ من أرباب الاموال ما يكفيه من غير رضاهم على مذهب أبي حنيفة ففيه مساعدة لولاة الامور على مشروعاتهم حتى لو اضطرت الحكومة الى تولية قاض غير حنفي وجب تقليده لمذهب أبي حنيفة لاجل الولاية واجراء الاحكام عليه

* مطلب * اقتضاء الاحوال والمعاملات المصرية تنقيح الاقضية والاحكام الشرعية بما يوافق مزاج العصر بدون شذوذ

ثم ان الحالة الراهنة اقتضت أن تكون الاقضية والاحكام على وفق معاملات العصر بما حدث فيها من المتفرعات الكثيرة المتنوعة بتنوع الاخذ والاعطاء من أمم الانام وقد تقدم بعض ما يتعلق بذلك في الفصل الرابع من الباب الثاني ومن المعلوم ان بحر الشريعة الغراء على تفرع مشارعه لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها وأحياها بالسقي والري ومصداق ذلك قوله تعالى ما فرطنا في الكتاب من شيء فلا ريب

في انقياد شمم كل عرنين اليها صاغرا بدوام النفوذ ولم تخرج الاحكام السياسية عن المذاهب الشرعية لاعلى سبيل التهاون ولا على سبيل الشذوذ بل سارت على مشاعب المذاهب لمجاراة ما جريات النوازل والنوائب وما شرع مذهب السيف الا لنصرة مذاهب الشرع لانها أصل وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة الفرع فاختلاف مذاهب الائمة رحمة وجواز تقليد أي واحد منهم والرجوع الى اجتهاد الآخرين للحاجة نعمة ومما يستأنس به في الاقضية والاحكام بهذه الازمان ما أفتى به وقد سئل عنه العلامة الشيخ محمد الشافعي الشهير بالصبان وقد عثرت بهذه الفتوى الجليلة وهي جديرة بان يجعلها من يريد التقليد للحاجة دليله

« مطلب » صحة تقليد غير الاربعة للحاجة وافتاء العلامة الصبان في شأن ذلك مع بعض ملحوظات

ونص السؤال ما قولكم دام فضلكم في الانتقال في بعض المسائل الى غير المذهب الذي عليه الشخص هل يجوز ولو كان متبوعه في هذا البعض مفضولا وهل يجوز العمل بالقول الضعيف في خاصة النفس وهل يجوز تقليد غير الائمة الاربعة أفيدوا الجواب

ونص الجواب بخطه مشمولا باسمه وختمه محفوظا عندي برسمه ووسمه

الحمد لله وحده

قال الزركشي في البحر المحيط في تقليد المفضول مذاهب أحدها امتناعه ونقل عن احمد وابن سريج ثانيها هو الاصح واختاره ابن الحاجب وغيره الجواز ثالثها يجوز لمن يعتقده فاضلا أو مساويا وقال في موضع آخر لو التزم العامي مذهبا معينا واعتقد رجحانه من حيث الاجماع فهل يجوز أن يخالف امامه في بعض المسائل وياخذ بقول مجتهد آخر فيه خلاف والاصح الجواز كما في الرافعي ثم قال وقسم بعضهم الملتزم لمذهب اذا اراد تقليد غيره الى أحوال

الى أن قال الثانية أن يقصد بتقليده الرخصة فيما هو محتاج اليه لحاجة لحقته أو ضرورة أرهقته فيجوز الى أن قال السادسة أن لا يجمع من ذلك حقيقة مركبة ممتنعة بالاجماع فيمتنع كما اذا افتصد ومس الذكر وصلى (أى لان ذلك يعد تلفيقا في مسئلة واحدة) ثم ذكر الخلاف في جواز التقليد بعد العمل والخلاف في جواز تتبع الرخص ورجح المنع وحكي الجواز عن بعض مشائخ الشافعية ثم قال لا ينبغى اطلاق القول بالجواز لكل أحد بل يرجع الى حال المستفتى وقصده كما وقع لابن القاسم مع ولده اذ حنث في يمين بالمشى الى الكعبة فاستفتى أباه فقال له أفتيك فيها بمذهب الليث كفارة يمين وان عدت أفتيك بمذهب مالك يعنى الوفاء ويجوز عمل الشخص بالقول الضعيف في حق نفسه خاصة اذا دعت اليه حاجة ولم يلزم تتبع الرخص ولا تركيب حقيقة أجمع على بطلانها وانما الممنوع ان يفتى به أو يحكم وفي البحر المحيط أيضا مجتهد الصحابة اذا لم يجعل قوله حجة ففي جواز تقليده في هذه الاعصار خلاف ذهب امام الحرمين وغيره الى ان العامى لا يقلده وبه جزم ابن الصلاح وزاد انه لا يقلد التابعين أيضا ولا غيرمن لم يدون مذهبه لعدم الوقوف على حقيقة مذاهبهم فانهم انما نقل عنهم فتاوى مجردة فلعل لها مكملا أو مقيدا أو مخصصا لو انضبط كلام قائله لظهر فتقليدهم على غير ثقة وعلى هذا فينحصر التقليد فيمن دون مذهبه كالاربعة والاوزاعي وسفيان واسحق وداود وعلى خلاف في داود وذهب غيرهم الى ان الصحابة يقلدون وهذا هو الصحيح ان علم دليله وقد قال الشيخ عز الدين في فتاويه اذا صح عن بعض الصحابة مذهب في حكم جاز تقليده والا فلا انتهى وبالجملة فلا يختص التقليد بالاربعة على كلا القولين والله أعلم كتبه الفقير محمد الصبان الشافعي موضع الختم

مرتجى الغفران محمد الصبان

وقوله وسفيان لعله اراد به أبا عبد الله سفيان بن سعد الثوري نسبة الى ثور بن عبد مناف وقيل الى ثور همدان الكوفي مات بالبصرة في شعبان ودفن بها لاحدى وستين ومائة ولم يزل مقلدوه الى القرن السادس ومن الناس من يعد من أصحاب المذاهب سفيان بن عيينه فيدخل تحت كاف التمثيل كما يدخل أيضا اسحق بن راهوية ومحمد بن جرير الطبري وقوله وداود على خلاف فيه لعله نظر الى قول امام الحرمين ان المحققين لا يقيمون للظاهرية وزنا وان خلافهم لا يعتبر ولكن قال العلامة اللقاني في شرح الجوهرة عند قوله ومالك وسائر الائمة الى آخره حمل ابن السبكي قول امام الحرمين على ابن حزم وأمثاله قال السبكي وأما داود فماذ الله أن يقول امام الحرمين أو غيره ان خلافه لا يعتبر فلقد كان جبلا من جبال العلم والدين وله من سداد النظر وسعة العلم ونور البصيرة والاحاطة بقول الصحابة والتابعين والقدرة على الاستنباط ما يعظم وقعه وقد دونت كتبه وكثرت أتباعه وذكره الشيخ أبو اسحق الشيرازي في طبقاته من الائمة المتبوعين في الفروع وقد كان مشهورا في زمن الشيخ وبعده بكثير لا سيما في بلاد فارس شيراز وما والاها الى ناحية العراق وفي بلاد المغرب انتهى على ان ابن حزم المحمول عليه عدم اعتبار المذهب نسب اليه بعضهم الشيخ الاكبر محيي الدين بن العربي وانه من مقلديه حكاه العلامة الامير في حاشيته على شرح الملوي للسمرقندية عند التكلم على البسملة ثم قال وجدت في ديوان محيي الدين ما يدل على اجتهاده وهو قوله

نسبوني الى ابن حزم واني لست ممن يقول قال ابن حزم
لا ولا قال غيره فتعالى قال نص الكتاب ذلك علمي

أو يقول الرسول أو أجمع الخلق على ما أقول ذلك حكمي

وأما الاوزاعي وهو أبو عمرو وعبد الرحمن بن عمرو وبن محمد الاوزاعي امام أهل الشأم روى عنه الثوري وأخذ عنه عبد الله بن المبارك وجماعة كثيرة ولد ببعلبك ثم نقلته أمه الى بيروت ودفن بقرية على باب بيروت يقال لها حنتوس في قبلة المسجد ولا يعرف قبره بها الا الخواص من الناس وأما أهل القرية فيقولون ههنا رجل صالح ينزل عليه النور وأما ذكر العلامة الصبان نقلا عن الزركشي استفتاء ولد ابن القاسم وافتاء أبيه له على مذهب الامام الليث فيدل على جواز الافتاء بغير المذاهب الاربعة كجواز العمل في حق نفسه فحينئذ قول السبكي يجوز تقليد غير الائمة الاربعة في العمل في حق نفسه لا في الافتاء والحكم كما قاله ابن الصلاح فمله ليس على اطلاقه وأما ذكر العلامة الصبان أصحية تقليد الصحابة فيما علم دليله وصح عنهم فظاهر لان جميعهم رضي الله عنهم لا يتطرق الي آرائهم تجريح اذ كلهم عدول لان الله عز وجل ورسوله زكياهم وعدلاهم فمذهب كل منهم صحيح رجيح ومما يدل على ان التشديد والتخفيف في الاحكام قد يختلف باختلاف الازمان والايام ما قاله العلامة السيوطي في كتاب الانصاف في تمييز الاوقاف انك اذا تأملت فتاوى النووي وابن الصلاح وجدتهما يشددان في الاوقاف غاية التشديد واذا تأملت فتاوى السبكي والبلقيني وسائر المتأخرين وجدتهم يرخصون ويسهلون وليس ذلك منهم مخالفة للنووي بل كل تكلم بحسب الواقع في زمنه انتهى وقد أتى نادرة عصره خير الدين باشا تونسي وذكر في كتابه أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك مالم يسبق به غيره ونصح أهالي الاوطان في سائر الممالك الاسلامية بما لا

« مطلب » حديث من لم يحمل هم المسلمين فليس منهم

ينكر لدين الاسلام من النفع خيره فانه حمل هموم أوطانه واخوانه المسلمين عملا بحديث من لم يحمل هم المسلمين فليس منهم ومن لم يهتم بامر المسلمين فليس منهم * وكان عمر بن الخطاب اذا نزل بالمسلمين بلاء لا يضحك قط حتى يرتفع ذلك البلاء وكذلك عمر بن عبد العزيز وسفيان الثورى وغيرهم فتنظيم كتاب للاحكام الشرعية بمناسبة تفرع النوازل في هذه الايام باكمل نظام مما تنتظم به الاحكام القضائية فى أوطاننا ويكون عمدة للقضاة والحكام

« مطلب » انتخاب القضاة

وعلى ولى الامر اذا أراد أن يولى القضاء لاحد على مذهبه ان يطالب أعيان ذلك المذهب ويسأل كل واحد بانفراده سرا عن رجل يصلح للقضاء يكون كاملا فى العقل والدين وان اجتمع مع هذين الوصفين الكمال في الفضيلة فهو أجود والا فالمتوسط في الفضيلة مع كمال هذين الوصفين أولى فاذا اتفقوا أو أكثرهم على تعيين شخص صرفهم عن مجلسه ثم سأل عن هذا الشخص الذى عين من غير أهل مذهبه سرا فان أثنى عليه بانه اكمل أهل مذهبه فى العقل والدين استخار الله تعالى وولاه وان أثنوا على غيره أكثر منه جمع أعيان ذلك المذهب فى مجلسه وأهل المذهب الآخر وذكر لهم ذلك الشخص الذى عين أولا وهذا الشخص الآخر وطلب منهم أن يتفقوا على الارجح منهما فان اتفقوا أو أكثرهم على أحد الشخصين ولاه ولا يعتمد الترجيح الا على الأدين الأعقل ولا يغتر بكثرة الفضيلة مع قلة الدين والعقل فيكون الضابط لولى الامر حينئذ فى هذا الباب اعتبار الأدين الأعقل وان لم يكن له فضيلة تامة فان المتدين تمنعه ديانته عن أن يقع فيما لا يجوز وان يحكم فى شيء لا يعرفه ولا كذلك الأعلم اذا كان متهاونا فى الدين فانه يخشى منه وهكذا أصحاب أبى حنيفة نصوا أنه اذا

اجتمع الأدين والأعلم قدم الأدين وانما وجب الفحص عن أهلية القاضي وقت لولاية وانه يكون أدين أهل مذهبه وأعقلهم لقوله عليه السلام من قلد انسانا عملا وفي رعيته من هو أولى منه فقد خان الله ورسوله وجماعة المسلمين فلى ولاة المسلمين أن لايخرجوا عن هذا الامر الذى قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قوله تعالى أيضا يا أيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون

مطلب • آداب القاضي ووصاياه

ثم ان القاضي متى تقلد منصب القضا وحصل على توابته للتوافق والرضا فقد أصبح بيده زمام الاحكام وفصل القضاء الذي عساه أن يعرض على غيره من الحكام وما منهم الا من نقد نقد الصيرفي ونفذ حكمه نفاذ المشرفي فليترو في أحكامه قبل امضائها وفي المحاكمات اليه قبل فصل قضائها وليراجع الامر مرة بعد مرة حتى يزول عنه الالباس ويعاود فيه بعد التأمل كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والاجماع والقياس وما أشكل عليه بعد ذلك فيحل مظلمه بالاستخاره وليحل مشكله بالاستشاره ولا يرى نقصا عليه اذا استشار فقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالشورى ومن أول السلف من جماعها بينه وبين خطا لاجتهاد سورا فقد يسنح للمرء ما أعيا غيره وقد أكثر فيه الدأب وتفطن الصغير لما لم يفطن اليه الكبير كما فطن ابن عمر للنخلة ما منعه أن يتكلم الاصغر سنه ولزومه مع من هو أكبر منه للادب ثم اذا وضح له الحق فضى به لمستحقه وأسجل له به وأشهد على نفسه بثبوت حقه ويحكم له به حكما يسره يوم القيامة أن يراه واذا كتب له به تذكر اذا بلى وأبقى الدهر ما كتبت يداه وليسو بين الخصوم حتى في تقسيم النظر وليجعل كل عمله على الحق فيا أباح وما حظر وليحد النظر في امر

الشهود حتى لا يدخل عليه زيف وليتحر في استئذاء الشهادات فرب قاض ذبح بغير سكين وقال قتل بغير سيف ولا يقبل منهم الامن عرف بالعدالة وألف منه أن يرى أو أمر النفس أشد المدى له وغير هؤلاء ممن لم تجر له بالشهادة عادة ولا تصدى للارتزاق بسحبها ومات وهو حي على الشهادة فليقلل منهم من لا يكون في قبول مثله ملامة فرب عدل بين منطقة وسيف وغير عدل في فرجية وعمامة ولينفث على ما يصدر من العقود التي يؤسس أكثرها على شفا جرف هار ويوقع في مثل السفاح الا أن الحدود تدرأ بالشبهات ويتق العار وشهود القيمة الذين قطع قولهم في حق كل مستحق ومال كل يتيم ويقلد شهاداتهم أمر كل عظيم فلا يعول منهم الا على كل رب مال عارف ولا يخفى عليه التقويم ولا يخاف معه خصاً الحدث وقدصقل التجريب مرآة فهمه على طول القدم وليتأن في ذلك كله اناة لا تقضي باضاعة الحق ولا الى المطاولة التي تفضي الى حرمان من استحق وليجهد لرمسه ولا يتعلل بأن القاضي أسير الشهود وهو كذلك وانما يسعى لخلاص نفسه والوكلاء هم البلاء المبرم والشياطين والمسولون لمن يوكلون له بالباطل ليقضي لهم به انما يقطع لهم قطعة من جهنم فليكف عما به وساوس افكارهم ومساوي لجارهم ولا يدع لمحتي أحد منهم ثمرة ممنوعة ولا يد اعتداء تمتد الا منلولة الي عنقه والامقطوعة وليطهر بابه من دنس الرسل الذين يمشون على غير الطريق واذا رأى واحد منهم درهما ود لو حصل في يده ووقع في نار الحريق وغير هذا مما لا يحتاج به مثله أن يوصي ولا أن يحصي عليه منه أفراد عمله وهو لا يحصي وعليه أن ينظر في أمور أوقاف مذهبه نظر العموم ليعمرها بجميل نظره فرب نظرة أنفع من مواقع النجوم

ومما يشمله بالنظر ويتم فيه الفكر أمر دعاوى بيت المال المعمور
...ته التي فيها حق كل فرد من الجمهور ولتحفظ في قضاياها غاية الاحتراز
... عما يقتضيه لها الحق من الصيانة والاحتراز[1] وليتثبت في قضايا أموال
الايتام الذين حذر الله من أكل مالهم بالمعروف لا بالشبهات وقدمات آباؤهم ومنهم
صغار لا يهتدون الى غير الثدي للرضاع ومنهم حمل في بطون الامهات فليأمر
المتحدثين لهم بالاحسان اليهم وليعرفهم بأنهم سيجرون في بنيهم بمثل ما
يعملون معهم اذا ماتوا وتركوا ما في يديهم وليحذر منهم من لا ولد له وليخش
الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم وليقص عليهم في مثل
ذلك أنباء من سلف تذكيرا وليتل عليهم قوله تعالى ان الذين يأكلون
أموال اليتامى ظلما انما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا فهذه وصية
قاضي العمل المستقل

« مطلب » آداب قاضي العسكر المستقل

فاذا كان قاضي العسكر منفردا فليكن مستحضرا لهذه المسائل وليعلم ان
العسكر المنصور هم في موطن الحرب أهل الشهادة وفيهم من يكون جرحه
تعديلا لهم وزيادة فليقبل منهم من لا يخفى عليه سيما القبول ولا يرد منهم
من لا يضره ان رده هو وهو عند الله مقبول وليجعل له مستقرا معروفا
في العسكر يقصد فيه اذا نصبت الخيام وموضعا يمشي فيه ليقضي فيه وهو
سائر وأشهر ما كان على يمين الاعلام وليلزم ذلك طول سفره وفي مدة المقام
وليتخذ معه كتابا تكتب للناس والا فمن أين يوجد مركز شهود ويسجل
لذوي الحق بحقه والا فما انسد باب الجحود وتقوى الله هي التي بها ينصر
الجنود وما لم تكن أعلى ما يكون على أعلام الحرب والا فما الحاجة الي نشر

(١) قوله الاحتراز اي اوسع في الحرز اه مؤلفه

* مطلب * التفتيش من احوال القضاة من طرف ولى الامر كتفتيش غيرهم من الولاة

البنود ثم انه من حيث يجب على ولى الامر الكشف عن أحوال الولاة والدواوين فى كل وقت ومحاسبتهم فيما يلزم بواسطه كشاف من أعقل الناس وأكثرهم أمانة وعفة فالقضاة ونوابهم داخلون فى هذه الزمرة ولو أنه سبق اشتراط شروط فى ولاية القاضى اذا توفرت يحصل الامن من وقوع شى منه مما يخل بمنصب القضاء الا أنه غير معصوم من حب المال الذى يكون الطمع فيه طبعا فلهذا وجب التثبت فى ذلك بالتفتيش فقد يحدث الغيب ويخالف الشهادة الغيب

فكل يدلى النفس عند خلوه ... بزهد ولكن لا تصح العزائم

فينبغى لولى الامر أن يتخذ عليهم باحثا فى السر يكون ثقة دينا عفيفا أمينا قليل الكلام لا يتفطن له من مثلهم ولا يدرى به انه مطلع عليهم بحيث يطالع ولى الامر بأحوالهم فى السر ساعة بساعة ويكون ولى الامر فى العلانية معظما للقضاة لا يظهر منه أنه يتكشف عن أحوالهم أبدا لحفظ ناموسهم الرفيع وشرف منصبهم المنيع فاذا صح عنده أنه وقع من أحدهم جريمة فان كانت من أخذ رشوة أرسل الى القاضى وطلبه اليه سرآ وسأله عن الواقعة فان اعترف بذنبه أخذ الرشوة التى التمسها من الناس وردها على صاحبها وأدب الذى بذلها فى السر من غير أن يظهر تأديبه عما اذا وعزل القاضى وكشف عليه فان وجده التمس من الناس مالا أو اكتسبه بالقضاء أخذه لبيت المال كالهدية ونحوها وان لم يعترف القاضى وظهر لولى الامر من قرائن الاحوال أو من صدق الناقل اليه ذلك عن القاضى عزل القاضى ولا يظهر بأى سبب عزله

وان كانت الجريمة من غير أخذ الرشا ولم يكن من هذا القبيل وانما

كان بسبب قوة نفسه وتماديه في الحكومات وهوى النفس يجب على ولي الامر عزله والاستبدال به ولا يتركه كثرة علمه ولا ديانته في الظاهر فان التحامل من القاضي من أصعب الامور ومما يوجب عزله ولا يلتفت الى انتصاره لحكمه بعد أن يعرف ولي الامر منه الهوى والغرض والتحامل وله أن يعزره بسبب ذلك اذا تحقق جوره كي يتأدب به غيره وان كانت الجريمة بسبب ارتكاب بعض المعاصي من شراب وغيره سأل ولي الامر عن هذا الامر من الثقات فان صح عنده ذلك عزره سراً ورفعه ولا يشهر ذنبه بين الناس وان جمع القاضي مالا من الحكومات أخذه ولي الامر ووضعه في بيت المال

وان كان هذا القاضي نائبا وقد قيل عنه شيء مما ذكرنا كشف عن حال مستخلفه فان تبين عند ولي الامر أنه كان يعلم به ويستر عليه عزله أيضاوان كان لا يعلم واشتبه فيه فهو بالخيار ان شاء عزله وان شاء تركه واذا صح عند ولي الامر أن القاضي جمع مالا بعد تولية القضاء وقد كان فقيرا قبل التولية ينبغي أن يفحص عن ذلك الجمع فان كان من متناعات المنصب كما يأخذه بعض القضاة بدون حق من قضاة النيابات أو من دوان الايتام أو الصدقات أو الاوقاف فان ولي الامر يأخذه منه ولا يترك في يده منه شيأ ويضعه في بيت المال وان عرف أنه من مال الايتام أو الاوقاف رده على من أخذ منه وان كان من غير منستات المنصب بأن يكون اتجر أو ورث أو استفضل من معلوم مدارسه وكسبه فهو له وان كان للقاضي حاشية وأولاد يتعرضون الى أموال الناس وقطع مصانعتهم كما كان وقع في زمن الملك الناصر بن قلاوون بمصر من القاضي الشافعي والحنفي وعزلهما بسبب أولادهما فان ولي

الامر يجب عليه عزله ان كان ذاك بعلمه وأخذ ما حصله أولاده وحاشيته بجاه المنصب ويضمه في بيت المال ويؤدبهم ولا تأخذه رأفة عليهم ولا تقبل في القاضي ولا في أولاده المذكورين شفاعة أحد فان ذنبهم كبير وفسادهم متعد

وقد أسلفنا ان شرط الباحث الكاشف عن أحوال القضاة وغيرهم الأمانة والعفة والوثوق فبهذه الوسيلة يقبل ولى الامر قوله في القاضي بخلاف ما اذا كان المخبر لولاة الامور من السعاة المشائين بالنميمة المتخلقين بالاخلاق الذميمة فلا ينبغي أن يقام لقولهم في حق القضاة وزن ولا قيمة ان نصف الناس أعداء لمن ولى الاحكام هذا ان عدل

« مطلب » سعي علوية المغني بأبي أخته القاضي الخلنجي عند المأمون

كما يحكى عن الخلنجي القاضي عبد الله بن محمد بن أخت علوية المغنى وكان هذا القاضي قد تقلد القضاء للامين العباسي وكان خاله علوية عدوا له فجرت له قضية في بغداد فاستعفى عن القضاء وسأل أن يولى بعض الكور البعيدة فتولى قضاء دمشق وحمص فلما تولى المأمون الخلافة غناه يوما علوية بشعر للخلنجي وهو

برئت من الاسلام ان كان ذا الذي أتاك به الواشون عني كما قالوا
ولكنهم لما رأوك غرية بهجري تواصوا بالنميمة واحتالوا
فقد صرت اذنا للوشاة سميعة ينالون من عرضي فلو شئت ما نالوا

فقال له المأمون من يقول هذا الشعر قال قاضي دمشق فأمر المأمون باحضاره فأشخص وجلس المأمون للشرب وأحضر علوية ودعا بالقاضي فقال له أنشدني قولك برئت من الاسلام الابيات فقال يا أمير المؤمنين هذه ابيات قلتها منذ أربعين سنة وأنا صبي والذي أكرمك بالخلافة وورثك

ميراث الندوة ما قلت شعرا منذ أكثر من عشرين سنة الا في زهد أو عتاب صديق فقال له اجلس فجلس وناوله قدح نبيذ كان في يده فأعول وبكي وأخذ القدح من يده وقال والله يا أمير المؤمنين ما غيرت الماء بشيء قط مما يختلف في تحليله فقال لعلك تريد نبيذ التمر أو الزبيب فقال لا والله يا أمير المؤمنين لا أعرف شيأ من ذلك فأخذ المأمون القدح من يده وقال اما والله لو شربت شيأ من هذا لضربت عنقك ولقد ظننت انك صادق في قولك كله ولكن لا يتولى القضاء رجل بدأ في قوله بالبراءة من الاسلام انصرف الى منزلك وأمر علوية فغير هذه الكلمة وجعل مكانها حرمت مكاني منك فكان ما جرى للمأمون عفا الله عنه مع هذا القاضي المسكين هو المعهود من حلم هذا الخليفة ومكارم اخلاقه وكان غير هذا الفعل أولى به وبرياسته ولكن الخليفة صان منصب القضاء ووقره وأجله فعفا الله عنه وأما هذا القاضي الحنفي رحمه الله فقد اختلج في خاطره من الوشاة ما أضر به عند محبوبته وعند الخليفة وهذا من كهانة الشعر ومما يتفق وقوعه للشاعر بعد مدة مديدة وأما علوية فأعله الله ولا أعلى له كعبا فلقد أضر بابن أخت وعطله من حلي القضاء وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم لعن الله المثلث فقيل يارسول الله وما المثلث قال الذي يسعى بصاحبه الى سلطان فيهلك نفسه وصاحبه وسلطانه

« مطلب » عدم قبول وشي الوشاة وتجنبهم

قال الواثق يوما لابن ابي داود قد سعى بك عندي قوم قال فما قلت لهم يا أمير المؤمنين قال ما قال صاحب عزة

وسعى الى بعيب عزة نسوة جعل الاله خدودهن نعالها

ورفع بعض السعاة الى الخليفة السفاح قصة يسعى فيها على بعض عماله

فوقع فيها هذه نصيحة لم يرد بها ماعند الله فنحن لا نقبل قول من آثرنا على الله * ومما اتفق في ايام السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون انه حضر في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة تاج الدين كاتب المفتاح الى الامير علاء الدين مغلطاي الجمالي لما كان وزيرا وذكر عنده اناسا بكل قبيح والزمهم بجملة من الذهب اذا صودروا واخذت منهم وطالبهم فدخل الجمالي الى السلطان وحكى له ماقاله الكاتب فقال احضره لي فلما استحضره سمع كلامه وقال له هل لك علم بأحد في القاهرة يعرف شيأ من هذه الاحوال فقال نعم جماعة وعدهم فقال للوزير خذ هذا عندك واحتفظ به وأحسن اليه واذا احضر اليك كل هؤلاء الذين ذكرهم عرفني بهم نخرجا من عنده وذكر له الكاتب جماعة وهو يحضرهم الى ان لم يبق منهم احد ودخل الجمالي الى السلطان وعرفه بهم فقال اخرج الآن في هذه الساعة وجهز الجميع ولا تدع احدا منهم في القاهرة فان هؤلاء مناحيس يرافعون الناس فقام اجمعين

وقال رجل للمهدي عندي لك نصيحة يا امير المؤمنين فقال لمن هي النا أم لعامة المسلمين أم لنفسك قال لك يا امير المؤمنين قال ليس الساعي بأعظم عورة ولا أقبح حالا من قابل سعايته ولا تخلو من أن تكون حاسد نعمة فلا نشفي غيظك او عدوا فلا نعاقب لك عدوك ثم أقبل على الناس فقال لا ينصح لنا ناصح الا بما فيه رضى الله تعالى وللمسلمين فيه صلاح فانما لنا الابدان وليس لنا القلوب ومن استتر لم نكشف له ومن نادانا طلبنا توبته ومن أخطأ أقلنا عثرته اني أرى التاديب بالصفح أبلغ منه بالعقوبة والسلامة مع العفو أكثر منها مع المعالجة والقلوب لا تبقى لوال لا ينعطف اذا استعطف ولا يعفو اذا

ندر ولا يغفر اذا ظفر ولا يرحم اذا استرحم انتهى

وقد كان بعض الامراء رحمه الله تعالى اذا جاءه أحد ورافع كتابه والمباشرين الذين فى بابه قال هؤلاء قدأخذوا وشبعوا لاتغيروهم فان الذي يجي بعدهم يكون جوعانا ونقل نحوذلك أيضا عن المرحوم محمدعلى وما ألطف قول البهاء زهير رحمه الله تعالى وارقه فى عدم سماع قول الوشاة

حبيبي ماهذا الجفا الذي أري ... وأين التقاضى بيننا والتعطف
لك اليوم أمر لايسئك يريبنى ... فاوجهك الوجه الذي كنت اعرف
نعم نقل الواشون عنى باطلا ... وملت كماقالوا فزادوا وأسرفوا
كأنك قد صدقت في حديثهم ... وحاشاك من هذا نخلقك اشرف
وقدكان قبل الناس فى الناس قبلنا ... فكذب يعقوب وسرق يوسف
بعيشك قل لى ما الذي قدصنعته ... فانك تدرى ما أقول وتنصف
فان كان قولا صح اني قلته ... فللقول تأويل وللقول مصرف

« مطلب » رؤساء اهل الكتاب

وهب انه قول من الله منزل ... فقد بدل التوراة قوم وحرفوا
وها انا والواشي وانت جميعنا ... يكون لنا يوم عظيم وموقف

« مطلب » آداب بطريك القبط

ولا بأس بتعقيب هذا الفصل بالتتمة مما ينبغى ذكره فى رؤساء احبار اهل الذمة ليكون فيه أوفرسهم واوفى قسط لرؤساء العبرانيين والبطاركة فاما بطريق اليعاقبة فهو اكبر اهل ملته والحاكم عليهم ما امتد فى مدته واليه مرجعهم فى التحريم والتحليل وفى الحكم بينهم بما انزل فى التوراة ولم ينسخ فى الانجيل وشرعته مبنية على المسامحة والاحتمال والصبر على الاذى وعدم الاكتراث والاحتفال وهومؤدب لنفسه فى الاول بهذه الآداب وفى المدخل الي شريعته قسيم الباب أي (بابا رومه)

وانهما سواء فى الاتباع ومتساويان فانه لا يزيد مصراع على مصراع فدأبه التخلق من الاخلاق بكل جميل وان لا يستكثر من متاع الدنيا فانه قليل فليقدم المصالحة بين المتحاكين اليه قبل الفصل البت فان الصلح كما قال سيد الاحكام وهو قاعدة دينه المسيحي ولم يخالف فيه المحمدية الغراء دين الاسلام ولينظف صدور اخوانه من الغل ولا يقنع بما ينظفه ماء المعمودية من الاجسام وهو رأس جماعته والكل له تبع فلا يتخذه لتجارة مربحة أو يقتطع بها مال عيسوى يقربه فانه ما يكون قد قربه الى المذبح وانما ذبحه وكذلك الديارات وكل عمر والقلالى فيتعين عليه ان يتفقد فيها كل أمر ويجتهد فى أجراء امورها على ما فيه رفع الشبهات علما انهم انما اعتزلوا فيها للتعبد فلا يدعها تتخذ متنزهات وانهم انما احدثوا هذه الرهبانية للتقلل فى هذه الدنيا والتعفف عن الشهوات وحسبوها أنفسهم حتى ان أكثرهم اذا دخل اليها لا يعود يلتقى مع المطلوقين من الجماعات فليحذرهم من جعلها مصيدة للمال بل خلوة منزهة عن الحرام مرصدة على الحلال لا يأوى اليها من الغرباء القادمين عليه من يريب ولا يكتم عن الحكومة مشكل أمر ورد عليه من بعيد أو قريب وليتجنب ماله فيه مخص المذاهب من طرف الاجانب ينوب وليتوق ما يأتيه من تلقاء الحبشة حتى اذا قدر فلا يثم أنفاس الجنوب فمادة سود السودان وان كثرت مقصرة فان الله تعالى جعل آية الليل مظلمة وآية النهار مبصره والتقوى مأمور بها أهل كل ملة وكل موافق ومخالف فى القبلة فليكن عمله بها على وجه صحيح وفي الكناية ما يغنى عن التصريح وبالتقوى رضا الله ورسوله وبها أمر المسيح

وأما رئيس اليهود فهو الضابط لطائفته على قلتهم والمؤمن لسربهم الذي لو لم يؤمنوا فيه لا كلهم الذئب لذلتهم فعليه بضم جماعته ولم شملهم باستطاعته

مطلب كتاب رئيس اليهود

والحكم فيهم على قواعد ملته وعوائد أئمته فى الحكم اذا ومنحله بأدائه وعقود الانكحة وخواص مايعتبر عندهم فيها على الاطلاق وما يفتقر فيها الى الرضا من الجانبين فى العقد والاطلاق وفيما أوجب عنده حكم دينه عليه التحريم واوجب عليه الانقياد الى التحكيم وما نص فيه الاخبار التواتر من الاخبار والتوجه تلقاء بيت المقدس الى جهة قبلتهم ومكان تعبد أهل ملتهم والعمل في هذا كله بما شرعه موسى الكليم والوقوف معه اذا ثبت انه فعل ذلك النبي الكريم واقامة حدود التوراة على ما أنزل الله من غير تحريف ولا تبديل لكلمة بتأويل ولا تصريف واتباع ما أعطوا عليه العهد وشدوا عليه العقد وأبقوا به ذمامهم ووقوا به دماءهم وما كان يحكم به الانبياء والربانيون ويسلم اليه الاسلاميون منهم ويعبر عنه العبرانيون كل هذا مع الزام الرئيس لهم من حكم أمثالهم من أهل الذمة الذين أقروا فى هذه الديار ووقاية أنفسهم بالاتصاف بالخضوع والانكسار ومد رؤسهم بالاذعان الى ملة الاسلام وحفظ شعار الذمة تمام الانقياد والاستسلام وعدم التظاهر بما يقتضى المناقضة ويفهم معه المعارضة وعلى هذا الرئيس ترتيب طبقات أهل ملته من الاحبار فيمن دونهم على قدر استحقاقهم وعلى مالا يخرج عنه كلمة اتفاقهم وكذلك له الحديث فى جميع كنائس اليهود المستمرة الى الآن المستقرة بأيديهم من حين عقد عهد الذمة ثم ما تأكد بعده بطول الزمان وتقريرهم على ما سلف عليه سلف هذه الامة وفى هذا كفاية وتقوى الله واطاعة الدولة الاسلامية رأس الامور المهمة

قال الشيخ بدر الدين بن عبد الرحمن البرلسي المالكي فى كتابه المسمى بالقول المرتضي فى أحكام القضا مسئلة اختلف القرويون هل يجوز تمكن الخصم

من طلب يهودى فى سبته والزامه الحكم فيه أو يكره ذلك قال العلامة قاضى القضاة البساطي وعندي انه يمنع الا ان تقوم القرائن على ان المسلم اضطر الى ذلك ولم يقصد ضررا قال ولقد حكي لنا ان بعض الناس يتعيش بذلك فيذهب الى بعض القضاة ويدفع اليه ورقة ويطلب فيها يهوديا وربما كان معه ورقتان أو ثلاث من قضاة مختلفة واذا كان يوم السبت توجه الى اليهود ومعه رسول قد أطلعه على سره ويقول طلبتك الى الشرع فلا يسعه الا ان يصالحه على الترك فى ذلك اليوم انتهى كلام الشيخ بدر الدين ثم قال فى محل آخر تغليظ اليمين يكون فى المحل المعظم وهو الجامع للمسلمين ولا يقوم مقامه مسجد ويحلف غير المسلم حيث يعظم فيحلف اليهودي فى البيعة ويحلف النصرانى فى الكنيسة والمجوسى فى بيت النار انتهى وعند الامام الاعظم أبي حنيفة النعمان لا يحلفون في بيوت عباداتهم وانما يحلفون عند القاضى فقد راعي مذهب الامام مالك عالم المدينة معتقدهم ثم قال الشيخ بدرالدين ايضا فى محل آخر قال الشيخ سراج الدين عمر الحنفي قارىء الهداية اذابني الذمي دارا عالية بين دور المسلمين وجعل لها طاقات وشبابيك تشرف على جيرانه هل يمكن من ذلك فاجاب بقوله أهل الذمة فى المعاملات كالمسلمين وماجاز للمسلمين جازلهم وانما يمنع الذمي من تعلية بنائه اذا حصل ضرر لجاره من منع ضوء أو هواء هذا هو ظاهر المذهب انتهى وقال الامام النووي فى التحفة ما نصه وللامام أو نائبه الاستعانة بأهل الذمة والاستئمان على العدو بشرط ان تؤمن خيانتهم بان يعرف حسن رأيهم فينا ويشترط في جواز الاعانة بهم الاحتياج اليهم ولو نحو خدمة أو قتال لقلتنا ونفعل بالمستعان بهم الاصلح من افرادهم أو تفريقهم فى الجيش انتهى ويحسن هنا ان نقول ما قاله هرقل ملك الروم حين أمر

« مطلب »
امرة جبلة بن الايهم من قبل قيصر الروم على من معه من عرب غسان لحرب عرب الاسلام بالشام

في جيشه بالشام جبلة بن الايهم الغساني على من معه من العرب ليحاربوا معه عرب الاسلام وجعل جبلة وقومه مقدمة لجيش الروم وكان جبلة قد أسلم ثم ارتد وانضم للروم ليخلص من حكم عمر رضى الله تعالى عنه حيث أراد ان يسوى بينه وبين خصمه في القصاص في نظير لطمة لطمها جبلة فقال هرقل حين صدر به في حرب الاسلام لا يقطع الماس الا الماس يعنى لا يغلب العرب الا العرب أى لا يغلب الجنس الاجنسه

* مطلب * مما لطة أهل الكتاب ومعاشرتهم

فلا شك في جواز مخالطة أهل الكتاب ومعاملتهم ومعاشرتهم وانما المحظور الموالاة في الدين ومما يقرب ذلك حل الكتابية للمسلم وولاية العقد له من وليها لقوله تعالى والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم أى حل لكم مع جواز التسرى بالكتابيات اللاتى وقعن في أسر الاسلام بحروب لأنه صلى الله عليه وسلم تسرى بصفية وريحانة قبل اسلامهما وممن تزوج بالكتابيات من الخلفاء الراشدين ذو النورين عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه فانه تزوج بنصرانية كتابية لكن أسلمت بعد ذلك وحسن اسلامها

وبالجملة فرخصة تدين أهل الكتاب بدينهم مؤسسة على العهود المأخوذة عليهم عند الفتوح الاسلامي وكل مسلم يحفظ العهد لان العهد في الحقيقة انما هو لله تعالى وفي العادة ان العهد يلتزمه من يعقده بالطوع والاختيار فبهذا يجب الوفاء به قال تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما وقد ذكر بعض

ما يتعلق بذلك في المقدمة عند التكلم على حرية الذمة التي تعتبر عند أهل الاديان وفي الفصل الثالث الآتي بعد هذا ما يتعلق بوفاء العهود فليراجع (ومما يحكى) مما يناسب ذلك في الجملة ان البرنس جرجس بن جاكس الثاني ملك الانكليز وولي عهده الذي هو بروتستاني المذهب لما سافر الى مملكة فرانسا للسياحة ذهب لزيارة فنلون القسيس الفرنساوي صاحب التآليف الكثيرة التي منها سياحة تلماك أوصاه بقوله اذا آل الملك اليك أيها الامير لا تجبر رعيتك القاتوليقية على تغيير مذهبهم ولا تبديل عقائدهم الدينية فانه لا سلطان يستطيع أن يتسلط على القلب وينزع منه صفة الحرية فقوة العنفوان الحسية والشوكة الجبرية الناصبة لا تفيد برهانا قطعيا في العقيدة ولا تكون حجة يطمئن اليها القلب فلا ينتج الاكراه على الدين الا النفاق واظهار خلاف ما في الباطن انتهى

« مطلب » ان محض التعصب في الدين والاكراه عليه لا ينتج الا النفاق وان الممدوح انما هو التعصب لاعلاء كلمة الله

ومن هذا يعلم ان الملوك اذا تعصبوا لدينهم وتداخلوا في قضايا الاديان وأرادوا قلب عقائد رعاياهم المخالفين لهم فانما يحملون رعاياهم على النفاق ويستعبدون من يكرهونه على تبديل عقيدته وينزعون الحرية منه فلا يوافق الباطن الظاهر فمحض تعصب الانسان لدينه لاضرار غيره لا يعد الا مجرد حمية وأما التشبث بحماية الدين لتكون كلمة الله هي العليا فهو المحبوب المرغوب ولذلك كان الجهاد الصحيح لقمع العدو انما يتحقق اذا كان القصد منه اعلاء كلمة الله عز وجل واعزاز الدين ونصرة المسلمين لا لحيازة الغنيمة واسترقاق العبيد واكتساب اسم الشجاعة وتحصيل الصيت وطلب الدنيا ففاعل ذلك تاجر أو طالب وليس بمجاهد كما ستعرفه في الفصل الثالث

الفصل الثالث

في طبقة الغزاة المجاهدين

قال صلى الله عليه وسلم ان أقرب الناس درجة من درجة النبوة أهل الجهاد وأهل العلم أما أهل العلم فقالوا ما قال الانبياء وأما أهل الجهاد فجاهدوا على ما جاءت به الانبياء (وسأل) رجل النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله أي الجهاد أفضل فان الرجل يقاتل حمية ويقاتل شجاعة ويقاتل رياء ويقاتل ابتغاء عرض الدنيا فاي ذلك في سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله وهذا الحديث مرآة لكل غاز ومجاهد بحيث يكون جهاده لله عز وجل حتى يستحق الثواب أما من حارب للحمية أو لطلب الدنيا أو لسبب من هذه الاسباب فلا يكون غازيا بأثم ان المحاربة لا تجوز الا في ستة مواضع الاول محاربة المشركين وأهل الحرب الثاني محاربة الملحدين لانهم شر الخلائق الثالث محاربة المرتدين الرابع محاربة البغاة الخامس محاربة قطاع الطريق السادس محاربة القاتلين ليقتص منهم

« مطلب » كون تولى الملك الحرب العظيم بنفسه من شهامته

ومن شهامة الملك أن يتولى الحرب العظيم بنفسه وأن يتحفظ من لقاء العدو في بلاده لسلامة نفسه كما قيل

ان السلامة من سلمى وجارتها　　أن لا تمر على حال بواديها

وينبغي أن يخوف الملك العدو بما يمكنه فربما رجع ويجتهد في قمع العدو بالحيلة والمكيدة فالحيلة أنفع وسيلة واذا حضره العدو أجزل العطاء للعسكر ووفى بالمواعيد لهم لئلا تنكسر قلوبهم فبهذا يبيعون أرواحهم لقتال عدوهم لانهم حماة الوطن والدين

(قال) الحكماء الناس حازمان وعاجز فأحزم الحازمين من عرف الامرقبل وقوعه فاحترس منه والحازم بعده من اذا نزل به الامر تلقاه وعمل الحيلة حتى يخرج منه والعاجز من تردد بين ذلك لا يأتمر رشيداً ولا يطيع مرشداً حتى تفوته النجاة ويقال احتل تغنم وتكر تسلم ويقال ترك التقدم أحسن من التندم (وأوصى) ملك قائد سريته فقال له كن كالتاجر الكيس ان وجد ربحا اتجر والا حفظ رأس ماله ولاتطلب الغنيمة حتى تحمد السلامة وكن من احتيالك على عدوك أشد حذراً من احتيال عدوك عليك ويقال لاتنشب فى حرب وان وثقت بقوتك حتى تعرف وجه الهرب منها فان النفس أقوى ما تكون اذا وجدت سبيل الحيلة مدبرة لها واخلس من تحاربه خلسة الذئب وطر منه طيران الغراب فان التحرز زمام الشجاعة والتهور عدو الشدة

«مطلب» انه يجب على المحارب مشاورة العلماء اولى التجارب

ومما يجب مع التفكر على المحارب مشاورة العقلاء من النصحاء أولى التجارب فقد حكي ان قوما من العرب أتوا شيخا قد أربى على الثمانين وقارب التسعين فقالوا ان عدونا استاق سرحنا فأشر علينا بما ندرك به الثار وننفى العار قال ان ضعف قوتى نسخ همتى ونقض ابرام عزيمتى ولكن شاوروا الشجعاء من ذوى العزم والجبناء من أولى الحزم فان الجبان لايألو برأيه ماوقى مهجكم والشجاع لايألو مايشيد ذكركم ثم خلصوا من الرأيين نتيجة تبعد عنكم معرفة نقص الجبان وتهور الشجعان فاذا نجم الرأى على هذا كان أنفذ على عدوكم من السهم الصائب والحسام القاضب وملاك التحيل فى بلوغ الامانى رفض العجلة واستعمال التوانى (قال) الحكماء ايالك والعجلة فانها تكنى ام الندامة لان صاحبها يقول قبل أن يعلم ويجيب قبل أن يفهم ويعزم قبل

«مطلب» تعريف الشجاعة

أن يفكر ويقطع قبل أن يقدر ويمدح قبل أن يجرب ويذم قبل أن يختبرولن تصحب هذه الصفة أحدا الاصحب الندامة وجانب السلامة قال الشاعر

الصبر مفتاح مايرجي وكل صعب به يهون
وربما نيل باصطبار ماقيل هيهات لا يكون
فاصبر وان طالت الليالي فربما أمكن الحزون

وقال تعالى فى نهى نبيه عن العجلة تعليما لامته ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه وقال بعض الحكماء تأن واحزم فاذا استوضحت فاعزم فاذا اجتمع فى الرجل الحزم والشجاعة فهو الذى يصلح لتدبير الجيوش وشجاسة امر الحروب والناس رجل ونصف رجل ولاشيء فالرجل من اجتمع له اصابة رأى وشجاعة ونصف الرجل هو الذى انفرد بأحد الوصفين دون الآخر والذي لاشيء هو من عري من الوصفين

وقد وصف الله سبحانه وتعالى الغزاة المجاهدين الذين هم انصار الوطن والدين بوصف فى حقهم بالخصوص فقال ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص وقد أعد الجنة لمن منهم ذاق بالشهادة طعم الحتوف بدليل قول صلى الله عليه وسلم ان الجنة تحت ظلال السيوف وحسبك قوله تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون الآية ومدار فن الحرب الآن على تعليم الحركات العسكرية وحسن الرأى والشجاعة وخيرها أوسطها قال صلى الله عليه وسلم الحرب خدعة وقال المتنبي

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو اول وهي المحل الثانى
فاذا هما اجتمعا لنفس مرة بلغت من العلياء كل مكان

ولربما طعن الفتى اقرانه بالرأى قبل تطاعن الاقران

ولو ان الشجاعة هي عماد الفضائل ومن فقدها لم تكمل فيه فضيلة الا ان الراى مقدم عليها كما حكى ان الاسكندر حاصر قلعة سنة كاملة فلم يفتحها فكتب اليه الحكماء لوجلست سبعين سنة لاتملك فتحها الابالمكيدة للاعداء وان يكون بأسهم بينهم فبعث لبعضهم وخدعهم ثم بعث الى آخرين بضد ذلك فتنازعوا وتحاربوا ثم سلموا القلعة

* مطلب * تعريف الشجاعة

وعرف بعضهم الشجاعة بأنها غريزة يضعها الله فيمن يشاء من عباده وقيل في تعريفها أيضا هى سعة الصدر بالاقدام على الامور المتلفة (وقد روى) عن النبي صلى الله عليه وسلم ان الله يحب الشجاعة ولو في قتل حية * وقال بعض أهل التجارب الرجال ثلاثة فارس وشجاع وبطل فالفارس الذى يشد اذا شدوا قال عامر بن الطفيل

وانى وان كنت ابن سيد عامر وفارسها المشهور في كل موكب

فما سودتني عامر عن وراثة أبى الله أن أسمو بأم ولا أب

ويكنى بابى على وهو ابن أخى عامر بن مالك المعروف بملاعب الاسنة أحد فرسان العرب المشهورين وكبارهم ومراد عامر بن الطفيل ان قبيلة عامر لم تجعله سيدا لاجل وراثة من أبيه السيادة بل لامر آخر ولمح بعضهم لهذا المعنى بقوله

يسود من يسود بغير ريب اذا الاسباب كان لها وجود

ألم تسمع أخى ما قال قيس لامر ما يسود من يسود

واما الشجاع فالداعي الى البراز والمجيب داعيه الى ذلك والبطل المحامى لظهور القوم اذا ولوا والعرب تسمى ذلك كله شجاعة ويجعلونه أول مراتب

لشجعان الهام سمى بذلك لاهتمامه وعزمه ثانيها المقدام سمى بذلك للاقدام وهو ضد الاحجام ثالثها الباسل من البسالة وهى الجراءة والشدة رابعها البطل ى الذى يبطل فعل الاقران ويطفىء شجاعة الشجعان خامسها الصنديد وهو لذى لا يقاومه مقاوم

وحكم الشجاعة ومظهرها وثمرتها الاقدام فى موضع الاقدام والثبات فى موضع الثبات والزوال فى موضع الزوال وضد ذلك يخل بالشجاعة وقالوا الحرب كالنار ان تداركت اولها خمد اضرامها وان استحكم اضرامها صعب اخمادها وهذا معنى قولهم ينبغى أن تتغدى بالعدو قبل أن يتعشى بك (وزعم) بعضهم ان السخاء والكرم دليل الشجاعة وان كل سخي شجاع والصحيح ن ذلك أغلبي غير مطرد بل بنو آدم على أربعة أحوال فمنهم الجواد الشجاع يجود بماله ونفسه وهو أعلام مرتبة ومنهم البخيل الجبان وهو أذلهم وأكثرهم مذمة ومنهم الجواد الجبان يجود بماله ويضن بنفسه ومنهم الشجاع البخيل بضد ذلك والاخلاق مواهب من الله يهب منها ما يشاء لمن يشاء ويجبل خلقه على ما يريد وانما الاخلاق الفاضلة تتلازم غالبا وكذا الاخلاق الدنيئة

* مطلب * كونه صلى الله عليه وسلم أشجع الناس قلبا

(قال أنس) بن مالك رضى الله تعالى عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجمل الناس وجها وأجود الناس كفا وأشجع الناس قلبا لقد فزع أهل المدينة ليلة فانطلق الناس ثائرين قبل الصوت فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا قد سبقهم الى الصوت وسبر الخبر على فرس لابى طلحة عرى والسيف فى عنقه وهو يقول لن تراعوا لن تراعوا (وقال) عمران بن حصين ما لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم كتيبة الا كان أول من يضرب

(وقال) الحكماء أصل الخير كله في ثبات القلب وهو الشجاعة وأعظم أهل الجند شجاعة واقوام جاشا من اذا انهزم أصحابه يلزم الساقة ويضرب في وجوه القوم ويحول بينهم وبين عدوهم ويقوى قلوب أصحابه فمن وقع أقامه ومن وقف حمله ومن كابه فرسه حماه حتى ييأس العدو منهم حتى قيل ان المقاتل من وراء الفارين كالمستغفر من وراء الناقلين ومن أكرم الكرم في الشجاعة الدفاع عن الحريم

« مطلب » الاعتراف من الجميع بشجاعة الصحابة

ولقد اعترف الجميع لابى بكر الصديق رضى الله عنه بقوة الجاش والصبر في المواطن الكريهة وكان عمر رضى الله عنه موسوما بالشدة والشجاعة كان يضع يده اليمنى على أذن فرسه اليسرى ويجمع بدنه ويثب على ظهرها كأنما خلق عليها

وكان على رضى الله تعالى عنه شجاعا بطلا اذا ضرب لا يثنى وكذلك الزبير بن العوام معدود من شجعان الفرسان قالوا لم يكن في عصر النبى صلى الله عليه وسلم فارس أشجع من الزبير ولا راجل اشجع من الامام على كرم الله وجهه ومن الشجعان بنوقيلة وهم الانصار قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم انكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع يريد أنهم يقاتلون ابتغاء مرضاة الله لاعلاء كلمته لا للغنيمة ومن شجعان الانصار معاذ بن عفراء قطع كتفه يوم بدر فبقى معلقا بجلده فلم يزل يقاتل جميع يومه وهو معاق حتى وجد ألمه فوضع رجله على يده وتمطأ حتى قطع الجلدة ومن شجعان الصحابة خارجة بن حلافة والمقداد بن الاسود

ولما كتب عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما وهو محاصر مصر يطلب ثلاثة آلاف فارس ليستعين بها بعث اليه بهؤلاء الثلاثة

رضى الله عنهم ولم يكن في الجاهلية ولا فى الاسلام أشجع من خالد بن الوليد ولشجاعته سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيف الله لم ينهزم في جاهلية ولا في اسلام ومات على فراشه وقيل لعبد الملك بن مروان من أشجع الناس فقال العباس بن مرداس السلمى الذى يقول

أشد على الكتيبة لا أبالي ... أحتفى كان فيها أم سواها

وقيس بن الحطيم حيث يقول

وانى فى الحرب العوان موكل ... باقدام نفس لا أريد بقاءها

* مطلب * من اشتهر بالشجاعة من الابطال

ومن اشتهر بالشجاعة أبو دلف القاسم بن عيسى العجلى فارس بطل شاعر نديم جامع لما تفرق فى غيره حمل على فارس ووراءه رديف فطعنهما فانتظما فى رمحه وكان ذلك في بعض حروبه وفيه يقول بكر بن النطاح ويذكر طعنته

واذا بدا لك قاسم يوم الوغى ... يختال خلت أمامه قنديلا

واذا تلذذ بالعمود ولينه ... خلت العمود بكفه منديلا

واذا تناول صخرة ليرضها ... عادت كثيبا فى يديه مهيلا

قالوا وينظم فارسين بطعنة ... يوم اللقاء ولا تراه كليلا

لا تعجبوا لوكان مد قناته ... ميلا اذا نظم الفوارس ميلا

ومن كلام أبي دلف العجلى المذكور

ليس المروءة أن تبيت منعما ... وتظل منعكفا على الاقداح

* ما للرجال وللتنعم انما ... خلقوا ليوم كريهة وكفاح

وقد أرشد الله سبحانه وتعالى عباده المجاهدين بخمسة أشياء ما اجتمعت فى فئة قط الا نصرت وان قلت وكثر عددها وهى مجموعة فى قوله تعالى

وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين أحدها الثبات ثانيها كثرة ذكره سبحانه وتعالى ثالثها الطاعة رابعها اتفاق الكلمة خامسها الصبر فهذه الخمسة تبنى عليها قبة النصر ولما اجتمعت هذه القوى الخمس في الصحابة لم تقم لهم أمة من الامم حتى فتحوا الدنيا ودانت لهم البلاد والعباد ولما تفرقت فيمن بعدهم وضعفت آل أمرهم الى ما آل اليه

ولا بأس أن نذكر هنا من أخبار الشجعان ما حكاه الفضل بن يزيد ونقله صاحب المستطرف قال نزل علينا بنو تغلب في بعض السنين وكنت مشغوفا بأخبار العرب أن اسمعها وأجمعها فبينما أنا أدور في بعض أحيائهم اذ أنا بأمرأة واقفة في فناء خبائها وهي آخذة بيد غلام فما رايت مثله في حسنه وجماله له ذؤابتان كالسبج المنظوم وهي تعاتبه بلسان رطب وكلام عذب تحن اليه الاسماع وترتاح له القلوب وأكثر ما اسمع منها اي بني وهو يتبسم في وجهها قد غلب عليه الحياء والخجل كأنه جارية بكر لا يرد جوابا فاستحسنت ما رايت واستحليت ما سمعت فدنوت منه وسلمت فرد علي السلام فوقفت انظر اليهما فقالت يا حضري ما حاجتك فقلت الاستكثار مما اسمع والاستمتاع بما ارى من هذا الغلام فقالت يا حضري ان شئت سقت اليك من خبره ما هو احسن من منظره فقلت قد شئت يرحمك الله فقالت حملته والرزق عسر والعيش نكد حملا خفيفا حتى مضت له تسعة أشهر وشاء الله عز وجل أن أضعه فوضعته خلقا سويا فوربك ما هو الا أن صار ثالث أبويه حتى افضل الله عز وجل وأعطى وآتى من الرزق بما كفى وأغنى ثم أرضعته حولين كاملين فلما استتم الرضاع نقلته من خرق المهد الى فراش ابيه فربي كانه شبل أسد أقيه برد الشتاء

وحر الهجير حتى اذا مضت له خمس سنين أسلمته الى المؤدب فحفظه القرآن فتلاه وعلمه الشعر فرواه ورغب فى مفاخر قومه وآبائه وأجداده فلما ان بلغ الحلم واشتد عظمه وكمل خلقه حملته على عتاق الخيل فتفرس وتمرس ولبس السلاح ومشى بين بيوتات الحى الخيلاء فأخذ في قرى الضيف واطعام الطعام وأنا عليه وجلة أشفق عليه من العيون أن تصيبه فاتفق ان نزلنا بمنهل من المناهل بين أحياء العرب فخرج فتيان الحي فى طلب ثارلهم وشاء الله تعالى ان أصابته وعكة شغلته عن الخروج حتى اذا أمن القوم ولم يبق فى الحي غيره ونحن آمنون وادعون ماهو الا أن أدبر الليل وأسفر الصباح حتى طلعت علينا غرر الجياد وطلائع العدو فما هو الا هنيهة حتى احرزوا الاموال دون أهلها وهو يسألني عن الصوت وأنا أستر عنه الخبر اشفاقا عليه وضنا به حتى اذا علت الاصوات وبرزت المخدرات رمى دثاره وثار كما يثور الاسد وأمر باسراج فرسه ولبس لأمة حربه وأخذ رمحه بيده ولحق حماة القوم فطعن أدناهم منه فرمي به ولحق أبعدهم عنه فقتله فانصرفت وجوه الفرسان فرأوه صبيا صغيرا لامدد وراءه فحملوا عليه فأقبل يؤم البيوت ونحن ندعوا الله عز وجل له بالسلامة حتى اذا مدهم وراءه وأمتدوا فى أثره عطف عليهم ففرق شملهم وشتت جمعهم وقلل كثرتهم ومزقهم كل ممزق ومرق كما يمرق السهم وناداهم خلوا عن المال فوالله لا رجعت الا به أو لأهلكن دونه فانصرفت اليه الاقران وتمايلت نحوه الفرسان وتحيزت له الفتيان وحملوا عليه وقد رفعوا اليه الاسنة وعطفوا عليه بالاعنة فوثب عليهم وهو يهدر كما يهدر الفحل من وراء الابل وجعل لايحمل على ناحية الا حطمها ولا كتيبة الا مزقها حتى لم يبق من القوم الا من نجا به فرسه ثم ساق المال وأقبل به فكبر القوم عند

رؤيته وفرح الناس بسلامته فو الله ما رأينا قط يوما كان أسمح صباحا واحسن رواحا من ذلك اليوم ولقد سمعته يقول فى وجوه فتيات الحى هذه الابيات

تأملن فهل هل رأيتن مثله اذا حشرجت نفس الجبان من الكرب
وضاقت عليه الأرض حتى كأنه من الخوف مسلوب العزيمة والقلب
ألم أعط كلا حقه ونصيبه من السمهرى اللدن والمرهف العضب
أنا ابن أبى هند بن قيس بن مالك سليل المعالى والمكارم والسيب
أبى لى أن أعطى الظلامة مرهف وطرف قوى الظهر والجوف والجنب
وعزم صحيح لو ضربت بحده الجبال الرواسى لا نحططن الى الترب
وعرض نقى آبى ان أعيبه وبيت شريف فى ذرى تغلب الغلب
فان لم أقاتل دونكن وأحتمى لكن وأحميكن بالطعن والضرب
فلا صدق اللاتى مشين الى ابى يهنينه بالفارس البطل الندب

هكذا فضائل شبان العرب فى الشجاعة ومكارم الاخلاق

أراؤهم ووجوههم وسيوفهم فى الحادثات اذا دجون نجوم
منها معالم للهدى ومصابح تجلو الدجى والاخريات رجوم

كما ان شجاعة شيوخهم فى قوة آرائهم المؤسسة على التجارب كما حكى قريبا عن الشيخ الذي قارب التسعين لما استشاره قوم من العرب فى شأن عدوهم فأشار عليهم برأى سديد

« مطلب » من جمع بين فضيلتى الشجاعة والرأى

ومن الشيوخ من يجمع بين فضيلة الشجاعة والرأى كعمرو بن معدى كرب الزبيدى فانه بعد ان عمر وضعف كان فى واقعة الفرس يحمل على عدوه وذلك انه معدود من فرسان الجاهلية والاسلام فله فى حروب الجاهلية

مواقف مذكورة ومواطن مشهورة اسلم ثم ارتد ثم عاد الى الاسلام وشهد حروب الفرس وكان له فيها افعال عظيمة واحوال جسيمة وكان امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه اذا رآه قال الحمد لله لذي خلقنا وخلق عمرا (وروي) عنه رضي الله عنه انه سأله يوما فقال له ياعمرو أي السلاح افضل في الحرب قال فعن أيها تسأل قال ماتقول في السهام قال منها مايخطئ ومنها مايصيب قال فما تقول في الرمح قال اخوك وربما خانك قال فما تقول في الترس قال هو الدائر وعليه تدور الدوائر قال فما تقول في السيف قال ذلك العدة عند الشدة (وقيل) انه نزل يوم القادسية على النهر فقال لاصحابه اني عابر على هذا الجسر فان اسرعتم مقدار جزر الجزور وجدتموني وسيفي بيدي أقاتل به تلقاء وجهي وقد عرفني القوم وانا قائم بينهم وان ابطأتم وجدتموني قتيلا بينهم ثم انغمس فحمل على القوم فقال بعضهم لبعض يابني زبيد علام تدعون صاحبكم والله مانظن انكم تدركونه حيا فحملوا فانتهوا اليه وقد صرع عن فرسه وقد اخذ برجل فرس رجل من العجم فأمسكها والفارس يضرب فرسه فلم تقدر أن تتحرك فلما رآنا ادركناه رمي الرجل نفسه وخلى فرسه فركبه عمرو وقال انا ابو ثور كدتم والله تفقدونني فقال ابن فرسك فقال رمي بنشابة فمار وشب فصرعني

(وروي) انه حمل يوم القادسية على رستم وهو الذي كان قدمه يزدجرد ملك الفرس يوم القادسية على قتال المسلمين فاستقبله عمرو وكان رستم على فيل فضرب عمرو الفيل فقطع عرقوبه فسقط رستم وسقط الفيل عليه مع خرج كان فيه أربعون الف دينار فقتل رستم وانهزمت العجم وكان عمرو من الشعراء المدودين وفيه يقول العباس بن مرداس

اذا مات عمرو قلت للخيل أوطئى زيدا فقد أودى بنجدتها عمرو

« مطلب » مدح السيف وان التصدء به فى بعض المواطن آلات الحرب

وما أحسن قوله فى وصف السيف ذاك العدة عند الشدة فقد كان له سيف يسمى الصمصامة فكان يضرب به وبسيفه المثل اذ هو أشرف سيوف العرب فيقال ما كل من يسطو بصمصامة عمرو ويقال له الصمصام قال هشل متمثلا به

أخ ماجد ما خانني يوم مشهد كما سيف عمرو لم تخنه مضاربه

وهبه عمرو لخالد بن سعيد بن العاص ولم يزل فى آل سعيد حتى اشتراه خالد بن عبد الله القسرى بمال جزيل لهشام فلم يزل عند بنى مروان حتى جد الهادى العباسى فى طلبه فاخذه قال صلى الله عليه وسلم الخير فى السيف والخير مع السيف والخير بالسيف قال السموءل

وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طل منا حيث كان قتيل
تسيل على حد الظباة نفوسنا وليست على غير الظباة تسيل

وقال ابن الرومي

لم أرشيأ حاضرا نفعه للمرء كالدرهم والسيف
يقضى له الدرهم حاجاته والسيف يحميه من الحيف

وما أحسن قول الطغرائى

وعادة السيف أن يزهى بجوهره وليس يعمل الا فى يدى بطل

ولذلك لما انتصر بعض الامراء على أعدائه وأطلق اسراهم من عليهم بسلاحهم فقال موقع جيشه يصف ذلك منا عليهم من الاسلاب بالبيض القواطع ليجعلوا حليها اساور فى أيدى البيض ذوات البراقع وحلية السيف لا يحسن الا بكف يكون به ضاربا له لا جالبا واذا عطل فى مواقف الجهاد

فالاولى له أن يحمل عاطلا كما قال أبو العتاهية

فضع ما كنت حليت ... به سيفك خلخالا
فما تصنع بالسيف ... اذا لم تك قتالا

(ومدح) اعرابي قومه فقال قومي ليوث حرب وغيوث جدب ليس لاسيافهم اغماد غير الهام ولا رسل للمنايا غير السهام قال الشاعر

كأن سيوفه صيغت عقودا ... تجول على الترائب والنحور
وسمر رماحه جعلت همو ما ... فما يخطرن الا في الضمير

وقال عبد الله بن طاهر

بيت ضجيعي السيف طورا وتارة ... تمض بهامات الرجال مضاربه
أخو ثقة أرضاه في الروع صاحبا ... وفوق رضاه انني أنا صاحبه
وليس أخو العلياء الافتى له ... بها كلف ما تستقر ركائبه

وقال ابن الرومي

كتبت لنا أيدي النزل صحائفا ... عجما من الاعراب والافصاح
أطراسها جثث الكماة وحبرها ... مما أسلنا من دم الارواح
فالشكل فوق سطورها بصوارم ... والنقط فوق حروفها برماح

وقد تنازع الادباء في التفضيل بين السيف والقلم فضل بعضهم السيف في قوله

السيف أصدق انباءمن الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لاسودالصحائف في ... متونهن جلاء الشك والريب

وأشار بعضهم الى تفضيل القلم على السيف بقوله

الكتب عقل شوارد الكلم ... والخط خيط فرائد الحكم
بالخط نظم كل منتثر ... منها وفصل كل منتظم

عرضه اذا هاله الخوض فى المعارك ولم يقتسم الاخطار مع اربابها ولم يشارك ولم يقتحم معا مع الحرب والجدال فان هذا بلوته أزيد مما اذا منع من السفر لحضور الحرب والنزال ولا ينبغى لمن تقود الجيوش وله علهم امره ان تكون شجاعته مترددة بل محققة لينفذ على الجمع نهيه وأمره فاذا كانت الرعية تحتاج لحفظ ملكها وبقائه فهى أحوج لان تجد شهرته مترددة يخشى عليها من السقوط ومن شماتة اعدائه ولا ننس أن لذى يحكم العساكر وقودها فى الكفاح لا بد أن يكون انموذج الجمع وشاكي السلاح وبشجاعته الجاسرة الباسلة يحيى قلوب الجنود الفاضلة فالثبات تهاب الاخطار بل مت فى ميدان الحرب ونقع الغبار فهذا خير من ان يرميك الناس بالجبن ويصفوك بالذل والصغار وأما المداهنون الذين يصدونك عن التعرض للخطر عند الاقتضاء واللزوم فهم أول من يقول فى حقك سرا انك ملوم ومذموم وانك ضعيف الفؤاد والجاش وجهدك جهد الأوباش ويفوقونك بسهام الملام متى وجدوا ان يسهل عليك الاحتجاب والاحجام والتأخر عن الاقدام ولكن لا ينبغى لك ان تهض وقت رخاء والسعه لتطلب الاخطار بدون منفعه فان الشجاعة ليست محمودة المطلقة والارتباط الا اذا كانت موزونة بقسطاس العقل وميزان الحزم والاحتياط والا فهى بدون ذلك عبارة عن احتقار النفس النفيسه والمخاطرة بها بدون رأى ولا تدبير فهى اذن خسيسه فترجع الى الحمية الشهوانية والصفة الغضبية الحيوانية فلا تنتج نتيجة محققة مأمونة ولا تمر ثمرة عن الهوان مصونه مع ان النفس جوهرة مكنونة فيجب ان تكون دماؤها محقونه فالانسان الذى لا يملك نفسه فى وقت الاخطار هو انسان غفبى ورجل احمق لاشجاع باسل حليف

انتصار ولا هو معدود من فحول الرجال بل محتاج أن يخرج من مركز العقل ويدخل فى زوايا الاختلال ليغلب الخوف بصولة الغضب وجولته ولا يقتدر على ثباته لقوة قلبه وحضور عقله واستحضار فكرته فهو فى هـذه الحالة لا يكر ولا يفر ولا يقبل ولا يدبر وانما يتمكر ويتكدر ولا يتذكر ولا يتفكر بل يخاط ولا يتدبر ويخسر حرية عقله وفكره مما لا يلزم لتنظيم حاله واختتام تدمير عدوه وتدبير أمره وينسى خدمة الاوطان ومنفعة البلدان وهذا عين الهوان فاذا كان عند ذلك المجازف شجاعة النفر العسكرى المجالد فليس عنده فطانة لرئيس الكامل ولا امارة الامير القائد بل ليس متصفا فى الحقيقة بحقيقة شجاعة النفر الصحيحة ولا يساله آحاد الجنود وأفراد العساكر الرجيحة لان النفر العسكري من واجباته ان يحافظ فى المركة على استحضار عقله والاعتدال والحلم حتى يكون ملازما للطاعة فى جميع فعله فاى محارب تعرض للمجازفة فى الحرب العوان كدر نظام العساكر واخل بالتعليمات والحركة العسكرية فى حومة الميدان وكان قدوة للمجازفة والمخاطره والاثارة والمكابره وعرض الجيش تمامه بفقده استحضار العقل الصائب للوقوع فى مكايد الخطر والمصائب فكل من يؤثر مطامعه الفاسده ويقدم وسائله ومقاصده على مقتضيات العدل والمصلحة العامة يستحق الجزاء والعقاب لا المكافأة والثواب على رأى الخاصة والعامه فاحذر يابنى ان تطلب الفخار بدون صبر ولاتؤده بل أقرب الوسائل فى الحصول عليه ان تنتظر اغتنامه بالفرصة لتستعيده فلا يكن سعيك اليه سعيا خائبا ولا ترم سهمك صوبه الا صائبا فان الخصلة الحميدة فى الانسان صاحب الكمال تحمد ما دامت مبنية على الرفق والاعتدال فهي معادية للزينة وحب الرياء والسمعة وقصد التعمق فى المطلوب

فعله بأمرنا المطاع وليتبصر بمن وراءه وليتوق اختلاف كل مبطل وافترائه وليتحقق انه هو المشار اليه دون رفقته والموكل به النظر والمحقق به جملة جندنا المنصور من البدو والحضر واليه مدارج الامراء فيما ينزل وأمر كل جندى لهم ممن فارق أو نزل وكذلك مساوقات الحساب ومن يأخذ بتاريخ المنشور الشريف أو على السباقة ومن هو فى العساكر المنصورة فى الطليعة أو فى الساقة وطوائف العرب والتركمان والاكراد ومن عليهم تقدمه أودرك بلاد ملزمه أو غير ذلك مما لا يفوت احصاؤه القلم وأقصاه أو أدناه تحت كل لواء منشر أو علم فلا يزال لهذا كله مستحضرا وله على خاطره محضرا لتكون لفتات نظرنا اليه دون رفقته فى السؤال راجعه وحافظته الحاضرة غنية عن التذكار والمراجعة وملاك الوصايا بتقوى الله وهى من أخص أوصافه والجمع بين العدل والاحسان وهما من نتائج اتصافه فليجعلهما عمدتى حكمه فى القول والعمل والله يجعله من أوليائه المتقين وقد جمل انتهى

* مطلب * كون امراء الجيوش هم نواب ولي الامر في الجهاد وفي عقد العقود والوفاء بالعهود

ومما ينبغى ذكره ان امراء الجيوش هم نواب الامام فى الجهاد فكما يجوز لهم قتال أهل الحرب مقبلين ومدبرين ونصب المنجنيقات والفرادات والقاء الحيات ورمي النيران بجميع آلاتها وقطع اشجار المدد ولو مثمرة عند الاقتضاآت والضرورات وقتل الشبان والشيوخ ومن يتعرض للطعن والضرب لا قصد قتل النساء والصبيان فكذلك يجوز لهم بمقتضى رخصتهم أن يعقدوا عقود العهود والامانات ويؤمنوا من ألقى السلاح مما شرع لجلب المصلحة ودرء المفسدة ومتى عقدوا العقود وعاهدوا العهود فلا يجوز نكثها بوجه من الوجوه الا ان ظهر لهم من العدو المتعاهدين معه خيانة مستورة وخوف مضرة فينبذ العهد اليهم حتى يستووا فى معرفة نقض العهد لقوله تعالى واما تخافن من

قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء وكذلك اذا كان العهد مؤجلا بمدة فانقضت المدة فبانقضائها ينقض العهد ونبذ اذا كان الفرض عدم تجديده بل العزم على المحاربة والمقاتلة ولا يجوز نقضه في غيرما ذكر لان نقضه يجري مجرى الغدر وخلف القول قال تعالى الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيأ ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ومتى جاز نقض العهد وجب اخبار المعاهدين بذلك ليكونوا على بصيرة لان النبي صلى الله عليه وسلم حين نقض العهد مع أهل مكة بعث مناديه وهو على رضى الله تعالى عنه في الموسم فنادي يوم النحر عند جمرة العقبة بنقض الصلح فينبغى لكل أمير أن يتأدب بآدابه صلى الله عليه وسلم في حفظ العهود واجرائها على وجه معهود (يحكى) أن خالد بن الوليد لما حارب بنى حنيفة بأرض اليمامة وقتل مسيلمة الكذاب حتى صار الى حصن لبنى حنيفة فخرج الى خالد رجل من الحصن فأسلم على يده ثم قال له ان في هذا الحصن ضعفة ونساء وصبية فأعطهم أمانا ليخرجوا اليك فليس فيهم درك فأخذ أمانا من خالد للجميع ثم أخرجهم فخرج فيهم رجال كأنهم الاسد فقال خالد لم أعطك لهؤلاء أمانا وانما أعطيك للضعيف قال الرجل فهم كلهم ضعيف لان الله عز وجل يقول وخلق الانسان ضعيفا فكتب في ذلك الى أبي بكر الصديق رضى الله عنه فاجاز الامان على خالد وما قاله الرجل الاسلمى لخالد يعد من باب دفع المكروه بقول صادق في حد ذاته كما يحكى ان رجلا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة قبل هجرته الى المدينة فقال يامحمد أغثنى فان حاق من يطلب دمى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم امض لوجهك لأصد الطلب عنك ثم قام عليه السلام وجلس بعد نفوذ الرجل فاذا قوم

يتمادون بالسيوف فقالوا يا محمد هل مر بك رجل هارب من صفته كذا وكذا فقال عليه السلام أما منذ جلست فلا فصدقه القوم وانصرفوا فى غير ذلك الطريق

« مطلب »
وفاء ابى عبيدة عامر بن الجراح بعهده للروم عند فتح دمشق

(وقال) بعض المؤرخين لما غزا أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه مدينة دمشق فى عهد أبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنه وكان قد نازل هذه المدينة من جهة باب الجابية ونازلها خالد من جهة الباب الشرقي ونازلها عمرو ابن العاص من جهة باب توما ونازلها يزيد بن أبى سفيان من جهة الباب الصغير وحاصروها قريبا من سبعين يوما وكان خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه مصمما على أخذها بأى وجه كان صلحا أو عنوة وكان عساكر الروم بدمشق قد أيقنوا أن حصارها على هذه الحالة لا بد أن يعقبه الفتوح الاسلامي وانه لا مفر لهم من وقوعهم فى اسر المسلمين وكان محافظ دمشق الامير توما صهر القيصر هرقل فدبر حيلة عسى يكون بها نجاة نفسه وجنده من الوقوع فى أيدي المسلمين فخرج بجنده من المدينة عدة خرجات عساه ان يدافع جيوش المسلمين عن المدينة وينتصر عليهم وكان يعتمد على انه سيصله امدادات من القيصر فخاب رجاؤه وانهزم فى جميع خرجاته ثم لما أيس من النصرة والامداد القريب وجزم بانه واشك بالوقوع فى قبضة الاسلام شرع فى التماس المسالمة بعقد الصلح مع أبي عبيدة رضي الله تعالى عنه

وكان قد بلغه موت الخليفة أبي بكر رضى الله تعالى عنه واستخلاف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهما وكان أبو عبيدة هينا لينا صاحب رأفة ورحمة على عباد الله غير متعصب ولا متشدد على أهل الكتاب

بدون حق وكان شريف النفس عالي الهمة يميل الى العدل والحلم وكان قد اشتهر عند الروم بحسن الشمائل ومكارم الاخلاق وصدق المقال فلما التمس أهل دمشق الصلح من هذا الامير وفاتحوه فى شأن ذلك صالحهم على ان يؤمنهم على نفوسهم ورخص لمن لم يسلم اذا أراد أن يخرج من دياره خرج منها بجانب من أمواله اشترط عليهم ان يبلغوا مأمنهم بعد مضي ثلاثة أيام بلياليها من زمن جلائهم يجدون فيها السير كما يشاؤن ولا يقفو أثرهم أحد من جيش الاسلام الا بعد مضيها فعلى هذا الصلح سلموا له مفاتيح المدينة فلما دخل فيها بجنده ووصل فيها الى ميدان عام فى وسطها رأى فى هذا الميدان جند خالد بن الوليد فكانوا نقبوها وأخذوها عنوة من الابواب المسامتة للباب الذى دخل منه أبو عبيدة عقب الصلح فكانت عساكر خالد بوصف كونهم فتحوها عنوة يقتلون من يجدونه فى ممرهم فنهاهم عن ذلك بالتي هى أحسن وأمرهم بتقوى الله والرفق بعباده وأخبر الامير خالد بن الوليد بما صالحهم عليه لان خالدا رضي الله تعالى عنه كان بمنزلة عظيمة عند أمير المؤمنين وكان قد أتاه كتاب من عمر رضي الله تعالى عنه بتقليده امارة جيشه فأقر خالد ما صالح عليه أبو عبيدة ووعده برفع السلاح عنهم وان لا يقفو أثرهم الا بعد مضي الثلاثة الايام المتفق عليها وانجز حر ما وعد فاقتفى أثرهم بعد مضيها ثم جد السير فأدركهم وبدد شملهم وسلبهم ماعندهم واغتنم منهم ما اغتنم ثم عاد سالما غانما الى دمشق وبعث أبو عبيدة بالفتح الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما فمدحه المؤرخون بوفائه بنفسه وبتوسطه الى خالد بن الوليد وحمله على ذلك

قال بعض من وقف على هذه الواقعة من مؤلفي أوربا لو كانت اوصاف

هذه الصحابي الجليل الذي كان أمير الجيش الاسلامي في ذلك الجيل مجتمعة في أمراء الجنود بالاجيال الجديدة المشهورة بالتمدنات المتنوعة والتقدمات المديدة لاقادتهم غاية المجد والشرف ونفت عنهم مثالب الجور والسرف فأجل أمراء جيوش الدول العظيمة التمدن في عهدنا هذا لم تبلغ درجة ذلك الامير الخطير الذي هو من بين الفاتحين عديم النظير فكل منقبة من مناقب عدله وحلمه ووفائه تخجل أكابر رؤساء كل جيش من جيوش الدول المتأخرة وتزدري بأمرائه انتهي وهذا من قبيل «ومليحة شهدت لها ضراتها» * ومع ذلك فنقول ان تمدن الخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين وتابعيهم هو تمدن حقيقي مكتسب من أنوار النبوة واتباع هدى من لا ينطق عن الهوى مع سلامة طبع أبي عبيدة عامر بن الجراح الذي قال في حقه عليه الصلاة والسلام لكل أمة امين وأمين هذه الامة أبو عبيدة عامر بن الجراح وقد كانت شفقته على نصارى الروم بدمشق واجبة لانها نتيجة المصالحة والمعاهدة والافكان لا يخشى في الله لومة لائم فهكذا مكارم أخلاق الصحابة فمن أراد أن تقتدي بهم فهو من أهل السداد والاصابة وما أسعد من تنزه من أول شبيبته عن الجهالات وتمسك بناموس المروءة والشريعة وخالف أهواء النفس اللوامة وخالف معالي الامور المؤسسة على ما في الكتاب العزيز من الايات البينات فلا أحمق من تجرد عن الشفقة والمرحمة وأفضى به الجهل الى ارتكاب الامور المحرمة فكأنما هو تربي في الجبال ورضع ألبان الوحوش والوعال كما يحكي عن نية غدر من مغربي مسلم بأسير من نصارى الاسبانيول منقاد لقضاء الله عليه بالاسر ومستسلم وذلك ان أكثر عرب المغاربة المتوطنين بلاد افريقية أصلهم من عرب الاندلس الذين اجلاهم الاسبانيول

« مطلب » ذم التجرد عن الشفقة والمرحمة بعد القتال في حق الاسرى

من ديارهم بعد تغلبهم عليها وكانوا بقايا من نجا من القتل فكانت العداوة باقية بين الفريقين

وكان اغلب المغاربة يعتقدون حل التقرب الى الله تعالى بقتل النصاري لمخالفة الدين لاسيما اذا كانوا من نصارى الاسبانيول المعتدين وكان من قواد المغاربة الذين يغيرون على بلاد الاسبانيول الساحلية أمير يقال له علي بن جرمي من قواد ملوك افريقية فانتصر مرة في حربه مع الاسبانيول نصرة عظيمة وقتل وأسر وشحن سفينته من أسرائهم حتى أرسى على سواحل افريقية وانزلهم الى البر فحضر اليه شخص من حمقى العرب متمثلا بين يديه وجعل يقبل قدميه وقال له يا أيها الامير لقد أسعدك الله تعالى بالظفر والتأييد ووفقك لجلب عدد كثير من النصارى الاسارى فهم لجنابك العالي من قبيل الارقاء والعبيد وطالما انتهزت الفرصة في سفك دمائهم وسبي رجالهم ونسائهم وفي طاقتك ان تقتل منهم ماتشاء من العدد الكثير والجم الغفير فلا شك أن مثلك من أهل الجنة حيث وفقه الله تعالى الى الحصول على هذه المنة وأما أنا فلم أحظ في عمري بهذه الفضيلة ولا تيسرت لي هذه النعمة الجزيلة فأناشدك الله الا تفضلت علي من احسانك وجميل فضلك وامتنانك باحد هؤلاء الاسرى اعداء الدين لاتقرب به الى طاعة رب العالمين لينال الاجر والاثابه وأفهمه أنه يرسل اليه هذا الشاب طويل النجاد في الغابة وأمره ان ينتظره فيها هذه الساعه ليفتك به سرا بدون اشاعه ثم أمر الاسير بالمسير وأطلعه على خبيثة هذا الاحمق وحذره منه وانذره حتى يعمل لنفسه في الذب عنها أحسن التدبير فاقتحم الاسير الغابة شاكي السلاح مصمما على المناضلة والكفاح فلما رآه خصمه على أهبة بهذه الحالة لم يجد من

الهروب بدا فنجا بنفسه ولا محالة ورجع الى الامير يرجف فؤاده وقد فاته مراده فقال له الامير بصوت جهوري بغاية من الحماس يسمعه كل من حضر من الناس يا أيها الشقي الاحمق والعدو الازرق كيف عشت بين أظهر مؤمني البرية ولم تعلم حرمة قتل النفس البرية وهل محض اختلاف الاديان يبيح التعدي بقتل الانسان ابتغاء مرضاة الشيطان وكيف نظرت أن تصميمك على هذه النية يرضي الله سبحانه وتعالى أو نبيه وهل من المروة والسماحة قتل من ألقى سلاحه أما تعلم أن قتل النفس بغير حق من أعظم الآثام عند الله فخجل المغربي بالخزي والخجل يطلب الغفران من الله عزوجل واستحسن جميع الحاضرين ما دبره الامير فما أحسن العدل المرفوق بحسن التدبير لاسيما من قائد خطير (ويحكي) ان عمرو بن معدي كرب مرمجي من أحياء العرب فرأى فرسا مشدودا ورمحا مركوزا ورجلا في وهدة يقضي حاجته فقال له عمرو خذ حذرك فاني قاتلك فقال له من أنت قال أبو ثور عمرو بن معدي كرب قال وأنا أبو الحرب ولكن ما أنصفتني أنت على ظهر فرسك وأنا في موضعي فاعطني عهدا أن لا تقاتلني حتى أركب فرسي وآخذ حذري فعاهده على ذلك فخرج من الموضع الذى كان فيه وجلس محتبيا بسيفه فقال له عمرو وما هذا الجلوس قال ما أنا براكب فرسي ولا أنا مقاتلك فان نكثت العهد فأنت أعلم بما يليق بالناكث فتركه عمرو ومضى وقال هذا أجبن من رأيت فانظر الى حفظ العهود فهو وان كان واجب الوفاء به في حد ذاته الا أن أحق الناس به الامراء والجنود وفى هذا القدر كفاية فيما يتعلق بالطبقة الثالثة التي هي طبقة الغزاة

* مطلب * وفاء عمرو بن معدي كرب بالعهد

الفصل الرابع

(فى طبقة أهل الزراعة والتجارة والحرف والصنائع)

قد أسلفنا الكلام على هؤلاء بالبيان الشافى فى عدة مواطن لاسيما فى الباب الثانى من هذا الكتاب فلا فائدة فى الاعادة وانما نقول هنا انه ينبغى لابناء الوطن ان يؤدوا ما يجب عليهم من الحقوق لوطنهم ايا ما كانت طبقتهم لانحادهم فى وصف الاهلية وان يتعاونوا على ما فيه صلاح ممالكهم وجمعيتهم السياسية وان يبذل المستطيع ما عنده فى اصلاح حالها ومآلها حتى يصدق عليه انه ممن أحيا نخوة الملة وأنعش قوة الدولة فيشكره وطنه الذى هو مصره ويحمده زمنه الذى هو عصره فيكون مخلد الذكر فى دفاتر أخبار الذين اشتهروا فى سلسلة الاعصار وان يتصف كل عضو من أعضاء الجمعية الاهلية بالامانة التى هى أشرف الخصال التى يحتاج اليها فى المعاملات وقد كانت هذه الفضيلة قديما فى الديار المصرية على غاية من التمسك بها ولو عند عرب البادية * ومن غريب ما يحكى فى ذلك ما أخبر به الشيخ عبد الرازق القفطى انه جاء اليه الشريف الاحمر ومعه بدوى فقال لعبد الرازق اشتهى أن تقرضنا دينارين وتركب معنا لله تعالى قال فدفعت لهما دينارين وركبت معهما فسقنا فى الحاجر ساعة فقلت للشريف ما تقول لى ايش أنت تطلب بنا فقال هذا البدوى كان أودع ناسا من العرب سخلة فى الحجاز من احدى عشرة سنة وهو يطلب وديعته قال فقلت له ضيعت على دينارين وأتعبتنا فقال لى الدينار الواحد معى والآخر اشتريت به هذا الحار فان وجدنا شيأ والارددنا لك مالك فسرنا الى أبيات عرب هناك جلسنا بعيدا وتقدم الاعرابى ونادى يا أبا

فلان فكلمه انسان فقال من تكون أو قال من تريد فقال الله تعالى يعلم انى كنت أودعت لك بوادى الصفراء فى الحجاز فى السنة الفلانية سخلة قال فجاء الرجل الذى كله ونحى القرمزية عن رأس البدوى ونظر الى شعجة فى رأسه وقال والله أنت هو وأبو فلان مات وأنا أخوه افند حتى تروح ابلنا فقعدنا حتى راحت الابل عليهم فمزل البدوي منها تسع نوق وقال ✻ الله تعالى يعلم أن السخلة ولدت وولد اولادها فبعنا واشترينا تلك الناقة فولدت وتوالدت فالذى كان منها ذكوراً بعناه وأبقينا الاناث وأخرجنا عنك الزكاة وأخرج صرة زرقاء مربوطة بخيط من شعر فقال هذا من ثمن الذكور فقتحناها فوجدنا فيها أما قال تسعة عشر ديناراً أو قال اثنين وثلاثين دينارا غاب عنى أيهما لطول المدة فقال الاعرابى أما هذا الذهب فخذوه ولا حاجة لى به وتكفينى النياق فقلنا والله ما نأخذ الا الدينارين فاخذناها ورجعنا انتهى فانظر الى قيمة قدر الامانة عند عرب البادية المؤتمنين والتعفف من المتوسطين وسماحة الاعرابى الذى أراد أن يترك الذهب لهم فلا يدري أى الفرق الثلاثة أكرم وأعظم مروءة فلى العاقل أن يتمسك بكل فضيلة يتمدح بها وتبيض بها صحيفته دنيا وأخري من كل ما يحرز المنافع العمومية دنيوية أو دينية مما يكون به لاهل ملته تمام النظام وتعود منفعة عاجلا أو آجلا على قوة دولة الاسلام

✻ مطلب ✻ المآثر الخيرية التى اجرتها والدة الخديوى الفخمة وما اجراه جناب خليل اغا المشمول لى نمائها من المدرسة والتكية المهمة

وقد اسلفنا فى الفصل الاول من الباب الاول فى بيان المنافع العمومية ما يتعلق بفضل الصدقات الجارية وان من جملتها بناء المآثر الخيرية وان كثيرا من الامراء تشبثوا بذلك ونقول الآن ان من جملة من اجتهد فى فعل الخير الجارى على الدوام ما فعلته صاحب الدولة والعصمة والدة الخديو الاكرم ولى

النعمة فان بناءها السجد المنير للقطب الشهير ولى الله تعالى الشيخ صالح أبى حديد هو من أعظم الخيرات لا سيما ما أجرته عليه من الاوقاف الداره والوظائف البارة ومثل ذلك شروع حضرتها السنية فى بناء مسجد القطب الرفاعي الجارى فيه العمل الآن أمام السلطان حسن فانه أيضا صار توسيعه عالا مزيد عليه من الدور المتخذة له بالشراء وتطييب خواطر أربابها مع الجد والاجتهاد فى العمارة التي يظهر أنها تصير ضخمة جدا وتنافس جامع السلطان حسن المواجه لها مع ما سيرصد عليها من الاوقاف الجزيلة مما ارادت حضرتها العلية تحصيله ومن المعلوم أن لحضرتها المشار اليها من جزيل الخيرات ما لا يحصى ومن جميل المبرات مالا يستقصى والرأفة الكاملة الكافلة بالتعطف على كل فقير والتلطف بجبر كل كسير وتوزيع الصدقات على الجم الغفير فهى سارة مصرها وأين منها زبيدة فى عصرها

وقد سبق فى الفصل الاول من الباب الاول ذكر ما فعله من الخير العميم وحسن الصنيع الجسيم حضرة خليل أغا باش أغاوات الجهة السامية المشار اليها من المدرسة والتكية ابتغاء مرضاة الله تعالى مما ازداد به وجه مصر ضياء وتلألاء * هكذا والا فلا لا * وكذا ذكرنا فى الفصل المذكور ما انشاه من الخيرات الامير الجليل والشريف النبيل سعادة راتب باشا بالجامع الازهر ثم بلغنا فيما بعد أنه أنشأ مسجدا جليلا بالاسكندرية ومدرسة جلية عمومية بالاسكندرية أيضا وأرصد لذلك مافيه الكفاية لدوامه وأرصد جرايات لها وقع كبير على الاضرحة والمشاهد والمقارى بالمحروسة وأحيا تكية للنساء المجاز الفقراء مرصدة على احدى وعشرين مرأة كان انشاها المرحوم عبد الرحمن كتخدا ثم دثرت وبلغنا ان حضرة الباشا المشار اليه مصمم

* مطلب * خيرات سعادة راتب باشا

على تجديد بمارستان للفقراء والضعفاء واوقف الامير المذكور من اراضيه وعقاره على خيراته مايقوم بها على كثرتها وأنه أوقف باقي اراضيه وعقاراته على ذريته وشرط انها تؤل من بعدهم الى محال خيراته توسيعا لها زيادة هكذا يكون الكرم الواسع من الاشراف أهل الديانة والصيانة والعفاف اطال الله بقاء ومن الاسواء حفظه ورقاه وكثير من الامراء والاعيان ممن لاتعلم حقيقة أوقافهم الخيرية الا اجمالا تصد لفعل الخيرات على قدر حاله وذل فيها جزأ عظيما من ماله فالحمد لله الذي وفق كثيرا من الامراء والاهالي المصريين رجالا ونساء بالمحروسة وبالاقاليم على التشبث باسباب الخير العميم والناس كما يقال على دين ملوكهم وهو أدب قديم ومع أن هذه الخيرات تعد نوعا من المنافع العمومية الان هناك خيرات أعم منها نفعا وأتم وهما كالشركات السلمية الشرعية وجمعية الافتراضات الزرعية فانها أفنعة كل النفع لفك المضايقات عن ارباب الاحتياجات من أهل الصناعة والزراعة لدخلهم والقيام عند الاقتضاء بقضاء حاجتهم فان هذه الشركات السلمية والجمعيات الافتراضية من أهم الامور ومفرجة على الجمهور وبها تتقدم التجارة والزراعة وترقى الدولة والملة في الماليه واللوازم الاهليه الى أوج الفخار ودرج الاعتبار كما بيناذلك في الفصل الاول من الباب الاول

* مطلب * تمام المرغوب وختام المطلوب لتكمال المنافع العمومية من تشكيل شركات مرعية

فلله من بعض من الاهالي صحائف اعماله النافعة وجمل أنوار فعاله على على آفاق وطنه مشرقة ساطعة وأما من بخل بذلك فقد خلا عن فضائل النفع العام وسود سطور صحائف اعماله عداد الآثام واخجل عصره الموجود فيه حيث غدره وخانه بدون أن يوافيه أو يصافيه بل كدر رائق نفعه وزلال صافيه وهذا القدر من المكروه كافيه فعلى ولي الامر العادل ان يرشد

بافعاله السنية رعيته الى سبيل الرشاد السنية وأن يبينهم على ذلك بالحصول على كال الحرية متى وجدان رعيته تلك الحرية حريه حتى يحب الناس أوطانهم ويدعوا شكرهم لمن حسن حالهم وأصلح شأنهم

« مطلب » فك المهدوتاسيس الدوائر البلدية لراحة الرعية المصرية

فالحمد لله الذى وفق خديوى مصر الاكرم لفعل ذلك بفك عهد المتعهدين للبلاد وبتأسيس نظامات الدوائر البلدية المبني على تحرير رقاب اهالى النواحي من شبه الاستعباد فان هذا لامحالة قوام الانصاف والعدالة فان من ملك احرارا طائعين كان خيرا ممن ملك عبيدا مروعين ولا شك ان قلوب الرعية هى خزائن ملكها فما أودعه فيها فهو مستودع في انحاء مسالكها ولايكون الملك عظيم القدر الا باهال دونه عظموه ولا تقوى قوته الا برجال أطاعوه ولا تشرف منزلته الا بعوام اتضعوا له بالاذعان واتبعوه فعليه ان يمنحهم وسائل التعزيز والتكبير وأن يمنع عنهم رذائل التصغير والتحقير فرب صغير ترفع عن دناءة الهمة وتفرغ لجلائل التدبير وعلى الملك أن يعامل احرار الناس بمض المودة والعامة بالرغبة والرهبة وان يسوس السفلة بالمخالفة الصرحة وان يحسن سياسة جيع رعاياه على اختلاف أنواعهم لاجتناب الاسباب التى تبعث قلوبهم على معصيته ليقود ابدانهم الى طاعته فبهذا يستقيم أمره الى الى مدته (وسأل) رجل بعض حكماء بنى أمية ما كان سبب زوال نعمتكم فقال قد قلت ماسمع واذا سمعت فافهم ان شغلنا بلذتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا وأمضوا أمورا دوننا أخفوا علمها عنا وظلمت رعيتنا فسدت نياتهم لنا وبشوا من انصافنا فتمنوا الراحة لغيرنا وخربت معايشهم فخربت بيوت أموالنا وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لناواستدعاهم مخالفونا فظاهروا على امرنا فطلبنا أعداءنا

فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا وكان أول زوال ملكنا استتار الاخبارعنا انتهى

وقال المنصور يوما ما كان احوجني أن يكون على بابى اربعة نفر لا يكون على بابى أعف منهم قيل يا أمير المؤمنين ومن هم قال هم اركان الملك لا يصلح الملك الا بهم كما ان السرير لا يصلح الا بأربع قوائم ان نقصت قائمة واحدة وهي أما أحدهم فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى والثالث صاحب خراج يستقضى لى ولا يظلم الرعية فانى غنى عن ظلمها ثم عض على أصبعه السبابة يقول في كل مرة آه آه قيل من هو يا أمير المؤمنين قال صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء علي الصحة انتهي

ومما من الله سبحانه وتعالى على الديار المصرية ان خديويها الاكرم يحسن انتخاب وكلائه ويتقدم ببين البصر والبصيرة وانه بترتيبه لراحة الرعية الدوائر البلدية وتنظيمه المجالس المحكميه وحسن تربيته لابناء الرعية وتقليدهم بالمناصب الاداريه تستحوذ مصر التى هى منبع كل خير وفضل ومحط رحال كل شرق وغرب وبعد وقرب على الفضائل العليا ويصدق عليها اسمها القديم وانها أم الدنيا

« مطلب » ان تقسيم مصر الآن انسق من تقسيماتها القديمة

ومن أمعن النظر في حسن تقسيمها فى خطبة السياسه وأمعن الفكر في نظام تقويمها فى رتبة الرياسه وجدها الآن على حالة أحسن تقسيما وتقويما مما كانت عليه فى أيام ان كانت كرسى الملك ودار الخلافة فى تلك الازمان كما يفهم من ذكر تخطيطها فى تلك الايام لبعض العلماء الاعلام حيث يقول لمصر وجهان قبلي وبحرى فالقبلى هو أجلهما قدرا وأطولهما مدى واكثرهما جدي وهو الجيزة وهى أقربها الى القاهرة غربي النيل ويقع قبالة القبلى منها بلاد طفيح شرق

النيل في بر القاهرة تصاقب بركة الحبش وبساتين الوزير ثم يلي الجيزة مقبلا في برها بلاد البهنسا تصاقب البهنسا من غربها بلاد الفيوم وبينهما منقطع رمل والفيوم هو الذي بحره دائما مستمر ويقسم به الماء في مقاسم ولا يعرفون قسمة الماء الا بالقصبات ثم يلي البهنسا مقبلا الاشمونين وفيها الطحاوية ثم يليها بلاد منفلوط ثم يليها بلاد أسيوط ثم يليها بلاد أخميم شرقي النيل ويقابل دمنتها البرابي المشهورة في البلاد المضروب بها المثل على الالسنة وهي وان كانت شرقي النيل فكل بلادها ومزارعها غربي النيل ثم يليها بلاد قوص وقوص أيضاً شرقي النيل وهناك جل العمارة وموضع الحرث والزرع وفي غربي النيل قبالتها البلاد المعروفة بقرب قولا وهي من مضافات قوص وبلادها ثم اسوان وهي من عمل قوص وواليها نائب عن واليها ويخرج مما بين قوص وأسوان الى صحراء عيذاب حتى ينتهي الى عيذاب وهي قرية حاضرة البحر ومنها يتعدى الى جدة ويكون بها جند من قوص وواليها وان كان من قبل السلطان فانه نائب لوالى قوص ووالى قوص أعظم ولاة مصر وأجلهم فهذه جملة الوجه القبلي وفيه الصعيدان الادنى والأعلى والادنى كل ما سفل عن الاشمونين الى القاهرة والاعلى كل ما علا عن الاشمونين الى أسوان وغالب زرعه ورفعه وجلب قوته وحلب ضرعه غربي النيل وما يوجد شرقي النيل قليل وهو شبه لامتبوع فاما الوجه البحري فهو كل ما سفل عن الجيزة الى حيث مصب النيل في البحر الشامي بدمياط ورشيد وهو أعرض من الوجه القبلي وبه الاسكندرية وهي مدينة مصر العظمى فاما ما وقع منه شرقي النيل في بر القاهرة المتصل بها فأقر بها منه الضواحي وهي القرى التي أمرها بيد والى

القاهرة ثم قليوب ثم الشرقيه ومدينتها بلبيس وأما ما وقع غربي أحد مرمى النيل الفرقتين في هذا الوجه فأقربها الى الجيزة جزيرة بني نصر ثم منف وكلاهما عمل واحد والاسم لمنف وهي كانت مدينة مصر العظمى زمن فرعون موسى ثم ابيار وهي من عمل منف أيضاً ثم يليها بلاد الغربية ومدينتها محلة المرحوم وهي عمل جليل متسع يضاهي قوص ثم يليه أشموم وتعرف بأشموم الرمان لكثرة وجود الرمان بها وهي بلاد الدقهلية والمرتاحية ثم يليها دمياط حماها الله وهي أحد الثغور والضالة المستنقذة بعد طول الدهور واليها أحد مصبي النيل ثم ما هو غربي الفرقة الثانية من النيل فأقربه الى الجزيرة بلاد البحيرة ومدينتها دمنهور وهذه البلاد تشتمل على بلاد مفقرة وطوائف من العرب وبها بركة النطرون التي لا يعلم في الدنيا أن يستغل من بقعة صغيرة نظير ما يستغل منها فانها بحو مائة فدان تغل نحو مائة الف دينار ثم يلي بلاد البحيرة مدينة الاسكندرية ثغر الاسلام المفتر وحمى الملك المحضر حرسها الله تعالى وهي مدينة لا يتسع لها عمل ولا يكثر لها قري فهذه جملة الوجه البحرى ثم لم يبق ما ننبه عليه الا الاقطيا وهي قرية في الرمل جعلت لاخذ الموجبات وحفظ الطرقات وأمرها مهم ومنها يطالع بكل وارد وصادر واما الواحات فجارية في اقطاع امرائهم يولون عليها كل مقطع في اقطاعه ومثلها كأنه مصالحة لعدم التمكن من استنلاله أسوة بقية ديار مصر لوقوعه منقطعا في الرمال الثائه والقفار النازحه وهذه جملة نطاق القاهره المحيطة بمصر سفلا وعلوا انتهى والظاهر ان في عصر هذا المؤرخ كانت قصبات الصعيد الاعلى قوصا واخميا ولم تكن جرجا من القصبات المشهورة شهرة غيرها وانها صارت فيما بعد متمصر فيه وقد أنزل الى ناحيتها السلطان الظاهر برقوق

• مطلب • أصل الهوارة ونوطنهم بالصعيد

بعد واقعة بدر بن سلام هناك هوارة الصعيد فى نحو سنة أثنين وثمانين وسبعمائه وكانت خرابا ليعمروها فأقطع هذه الناحية لاسمعيل بن مازن منهم وأقام بها حتى قتله على بن غريب فولى بعده عمر بن عبد العزيز الهوارى حتى مات فولي بعده ابنه المعروف بأبي الشوشه ونجم أمره وكثرت أمواله فانه أكثر من زراعة النواحي وأقام دواليب السكر واعتصاره حتى مات فتولى بعده أخوه يوسف بن عمر وهكذا وهؤلاء الهوارة أصل ديارهم من عمل سرت بالمغرب الى طرابلس قدم منهم طوائف الى أرض مصر ونزلوا بلاد البحيرة وملكوها من قبل السلطان ونزل منهم هوارة بالصعيد كما ذكرنا ونزلوا جهة جرجا التي نابت فيما بعد عن قوص وعن اخميم وصارت ولاية في التقسيم فتقاسيم مصر الآن أكثر تنوعا وأعظم استقصاء وتتبعا وان لم تصل فيما يخص العلم والعلماء درجة ذلك الزمن البعيد الذى يعلم كثرة علمائه وفضلائه لمن طالع مثلا الطالع السعيد فى نجباء الصعيد الا ان المعارف الآن سائرة بسيرة مستجدة فى نظريات العلوم والفنون الصناعية التي هى جديرة بأن تسمى بالحكمة العملية والطرق المعاشية ومع هذا فلم يزل التشبث بالعلوم الشرعية والادبية ومعرفة اللغات الاجنبية والوقوف على معارف كل مملكة ومدينة مما يكسب الديار المصرية المنافع الضرورية ومحاسن الزينة فهذا طرز جديد فى التعلم والتعليم وبحث مفيد يضم حديث المعارف الحالية الى القديم فهو من بدائع التنظيم واذا أخذ حقه من حسن التدبير والاقتصاد فيه استحق مرتبة النظم ولا ينبغى لابناء الزمان أن يعتقدوا أن زمن الخلف تجرد عن فضائل السلف وانه لا يصلح الزمان اذ صار عرضة للتلف فهذا من قبيل البهتان والفساد لاعتقاد ذلك لافساد الزمان كما قال الشاعر

• مطلب • انه ليس كل مبتدع مذموم وان المبتدع النافع يقع موقع الاستحسان

نعيب زماننا والعيب فينا ومالزماننا عيب سوانا
ونهجو فى الزمان بغير عيب ولو نطق الزمان بنا هجانا

وانما حصول مثل هذه الاوهام السوفسطائية ناشىء من فهم كلام العلماء الرسخين على خلاف المنى المقصود منه وأخذه على ظاهره فاذا حفظ الانسان من جوهرة التوحيد قول الناظم

وكل خير فى اتباع من سلف وكل شر فى ابتداع من خلف

أخذه على ظاهره فى أمر الدين والدنيا والمعاد والمعاش والترقى فى الرفاهية والزينة مع أنه خاص بالامور الدينية واتباع الاحكام الشرعية من الحلال والحرام دون المباح كما أوضحه بعد قوله

وكل هدي للنبي قد رجح فما أبيح افعل ودع مالم يبح

فياليت من تمسك بتلك الاوهام وتنسك بعضامين تلك الاوهام استمسك بقوله تعالى ياأيها الذين أمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ومما أخرجنا لكم من الارض ولاتيمموا الخبيث منه تنفقون وبقوله تعالى هو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور فليس كل مبتدع مذموم بل أكثره مستحسن على الخصوص والعموم فان الله سبحانه وتعالى جرت عادته بطى الاشياء فى خزائن الاسرار ليتشبث النوع البشرى بعقله وفكره ويخرجها من حيز الخفاء الى حيز الظهور حتى تبلغ مبلغ الانتشار والاشتهار

اذا حار وهمك فى معنيين وأعياك حيث الهدى واليقين
فخالف هوك فان الهوى يقود النفوس الى مايشين

فمخترعات هذه الاعصر الملتقاة عند الرعايا والملوك بالقبول كلها من أشرف

ثمرات العقول برتبها على التعاقب الآخر عن الاول ويبرزها في قالب أكمل من السابق وافضل فهي نفع صرف لرفاهية العباد وعمارة البلاد ومن ذا الذي يخطئ صواب رأي هذه الاستعدادات المنبئة على المهمات الماشية بطرقها النافعة وأنوارها الساطعة التي لظلام الارجاء دافعة وبسط الكلام على المخترعات كثير هادن المحسنات البديعات مبسوطة في أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك لحكيم السياسة خير الدين باشا وعمل من طب لمن حب يورث القلب انتعاشا مربع لبعضهم

بدور لهم مغرب　　بقلبي وان أغربوا　　فوجدي بهم معرب
عن الحال ما أصنع

لكل هوى منتهى * وحبي اذا ما انتهى * أأسلو وأهل النهى
على حسنهم أجمعوا

فما اشار به فى كتابه من الاشارات القوليه جله في مصرنا من قبيل الدلالات الوضعيه ودلالة الفعل فى الاصول أقوى من دلالة القول فما أجدر ما تجدد الآن فى مصرنا من حسن التنظيم المستحق من أهل الوطن كمال التبجيل والتعظيم مما به عظم قدر الوطن وشرفت منزلته وجدت فخامته حيث استأثر بالفوائد الجه بهمة وأي همة مما لا يحصل الامن البررة المشفقين ومن أبناء الوطن الصادقين ممن روض نفسه لخدمة الوطن الحقيقية من الراعي والرعية وقد خرجوا من درجة التصغير والتحقير الى درجة الترفع والتكبير بصرف الهمة فى حسن التدبير لتنمية المنافع الوطنيه الحسية والمعنوية

ومما ينبغي للعاقل أن ينوه بذكره ولا يخرجه العارف من مرآة بصيرته وفكره ان ملوك الاسلام على كثرتهم وان كان يجب عليهم جميعا ان يكونوا

على قلب رجل واحد فى تقديم ابهة الاسلام وان يهتموا بتأييد الاوطان المحمدية بالعلوم النافعة والمنافع العمومية لترقى الديار الاسلامية درجة الكمال العلية الا ان الاولى بالمسارعة فى ذلك لسهولة سلوك اقوم المسالك الدولة العلية العثمانيه والخديوية الجليلة المصريه فان حصل منهما براعة المخلص وحسن المقطع على شاكلة براعة الاستهلال على وجه ابدع بلغت شهامة الاوطان الاسلاميه بالنسبة الى قوة الدولة ونخوة الملة المحل الارفع

فاما تشبث الدولة المحروسة العلية بذلك الآن فغنى عن البيان وغير محتاج الى برهان

اذا مارحاء الخير دارت على الورى　　فانك منها قطبها وعمودها

واما خديوينا الجليل فلا زال ينجز ماوعد به عند الولايه ويجدد عند انتهاز الفرص مايستطيعه بكمالى العنايه فكان الفرصة تناجيه بقولها

مولاى هذا الملك قد نلته　　برغم مخلوق من الخالق
والدهر منقاد لما شئته　　وذا أوان الموعد الصادق

هل مثله وامق ان قدر يرمقها بصحيح النظر والى ماندعو يجيبها ولكن ملء عين حبيبها فلا يزال لسانه يلهج بمعنى قول القائل

انا لنأمل ماكانت أوائلنا　　من قبل تأمله ان ساعد القدر

ولسان حال النصر الحقيق ينشد لنيل أكرم مرام وأعظم مقصد

من جعل الحق له ناصرا　　ايده الله على نصرته

وهاتف السعادة يحثه على كمال نيل المجادة وكسب السعادة بقوله

وكن فاعلا مثل فعل الزمان　　فان الزمان فعولن فعول

ولسان الاعتراف يبث على سبيل الاجمال مافعله لوطنه من المحاسن والجمال بانشاده

لقد نبتت فى مصر منك منافع　　كما نبتت في الراحتين الاصابع

ولاعجب لمن توفيق العزيز رفيقه ان يستمد منه القطر المصرى جميع مايعجبه من الكمالات وبروقه كما قال بعضهم فى هذا المعنى

قد أطلع الله لنا كوكبا   أضاء شرق الارض والمغربا
صاحب سعد يقتضى سعده   سعادة الوالد اذ انجبا
والاصل ان طاب برى غرسه   أنبت فرعا مثمراً طيباً
مع هبة خص بها الله من   أصبح للنعمة مستوجبا
فدم قرير العين حتى ترى   خلفك من أولاده موكبا

ولما كانت حسنات ولى النعم تكاثر النجوم عددا والانفاس مدداً هتف لسان الجميع عن خالص الود الشاكر على حسن الصنيع بالدعاء له ببسط الاكف الى المولى السميع فقالوا اللهم أدم تلينا احسانه المديد وبحر انعامه المديد حتى لا يزال يقول طالب رفده واحسانه هل من مزيد

وهذا آخر ما يسر الله جمعه جمع سلامه مما يلوح عليه من القبول أبهى علامه وهوجدير باسم مناهج الالباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية

واذا انتهيت الى السلا   مة فى مداك فلا تجاوز
ان السفين متى يصل   بر السلامة فهو فائز
حسب الفتى أمنا اذا   ــف سيره جاب المفاوز
وهل السلامة للرئيـ   س سوى مصادقة الجلاوز

والحمد لله ولى النعمة والصلاة والسلام على من هديت به الامة وعلى آله وأصحابه الذين تلألأت أنوارهم وأضاءت فى آفاق المعالى أقمارهم وتفتحت للسعادة بصائرهم وأبصارهم صلاة وسلاما دائمين الى يوم الدين والحمد لله رب العالمين

(تتمة في دور الطباعة)

وفيها بيان خطة الكتاب والاسباب الباعثة على احيائه معذكر رسالةلحضرةالكاتب القدير صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ عبدالكريم سليمان رئيس تفتيش المحاكم الشرعية بنظارة الحقانية

الحمدلله محيي الأمم والصلاة والسلام على سيد العرب والعجم ـ (وبعد) فقد علم كل ناطق بالضاد ما لحضرة المؤلف رحمه الله من الايادى الطولى فى العلوم لا سيما العلوم المصرية والاجتماعية فانه استولى بجده واجتهاده على جلتها وتفصيلها ووردمناهلها ظامئاً فلم يصدر عنها إلا وهو مرتو بألطف من ماء الحياة وأرق من نسمات الأرواح . عرف الشرقيون كغيرهم ذلك الرجل الذى أبرزته الارادة الالهية الى الوجود بعد فتره اندرست فيها معالم أمثاله فما زال يحيي من العلوم الرفات ويدرك منها ما فات وما هو آت حتى برز على من سبقه ورفع فى دولة الادب والمعارف رايته ـ عرف العالم جميعه من هو ذلك الامير الجليل رفاعة بك رافع وكيف كانت حياته الادبية والسياسية وانه الرجل الذى ألقى بالبلاد الغربية عصى التسيار أعواما طوالا وقف فيها على أسباب التقدم واسرار الارتقاء ثم عاد ومصباح الغرب باحدى يديه ومفتاح الشرق باليد الأخرى . عاد الى الديار المصرية فعاد لها المجد المؤثل والسعد الاول وغرد فى روضة المدارس طائرها الأمين فبذل جل عنايته لغرس ثمار الفنون اليانعة فى عقول الناشئة المصرية ولم يغادر علما من علوم العرب والافرنج الا وقد بلغ فيه المدى وسلك فى اظهاره لابناء وطنه طرائق قددا أضف الى ذلك انه كان له عناية عظيمة بفن التاريخ العام

ووجه خاص بتاريخ مصر الذى هو فى الحقيقة تاريخ الدنيا باجمعها لانها مورد الوافدين من جميع الانحاء ومحط رحال الملوك والامراء فألف فيه كتبا جمة منها كتابه المسمى بأنوار توفيق الجليل فى اخبار مصر وتوثيق بنى اسمعيل وكتابه قلائد المفاخر فى غريب عوائد الاوائل والاواخر ورحلته البارسية الشهيرة وغيرذلك ممالا تحصى فوائده ولا تستقصى فرائده

ومن أبهى محاسنه الجامعة وأبهج مصنفاته المصرية النافعة تأليف هذا الكتاب المسمى مناهج الالباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية فانه جمع فيه ما يتعلق بمصر في مدينتها وسياستها الداخلية والخارجية وماكانت عليه من الفنون والصنائع واختراع وسائل المنافع مع ما يضاف لذلك من مناسبات فائقة واستطرادات شائقة كما انه كشف القناع عما وصلت اليه مصر من السعادة والرقى فى عهد المغفور له الامير محمد على باشا ومن تولى بعده وأفاض فى البحث عن حالتها الاجتماعية والسياسية مع بيان الاسباب التى ساعدت على انتشار التمدن وبيان ما أحدثه المصريون من الآراء والتعديلات في قوانين البلاد وذكر الاسباب الموصلة الى السعادة والرفاهية وقد رتبه على مقدمة وخمسة أبواب وخاتمة فالمقدمة فى ذكر تمدن الوطن والباب الاول في بيان المنافع العمومية والثانى فى تقسيم المنافع العمومية الى ثلاث مراتب والثالث في تطبيق اقسام المنافع العمومية فى الازمان الاولية والرابع فى التشبث بعود المنافع العمومية الى مصر فى عهد جنتمكان محمد على باشا والخامس فى الاعمال المستحسنة والاصلاحات المصرية والخاتمة فيما يجب للوطن على ابنائه من الامور الجليلة وفضلا عن ذلك فقد اشتمل على كثير من ملح الخطب والرسائل النثرية ولطائف القصائد الشعرية التي تمتزج بطباع الادباء رقة وتسترق خواطر الفضلاء

بلاغة ورقة وبالجملة فهو وان كان الى التاريخ أقرب وبه اشبه ولكنه تجاذب أطراف الفنون وأخذبيد القارىء الى طريف الادب وتليده وقريبه وبعيده فبينما يخيل للقارىء انه بين مواقع الصفاح ووقائع الحرب والكفاح اذ يتراءى له انه بين محاضرات الآداب ومسامرات الخلان والاحباب

ومن أشرف مزاياه التي قلماتوجد في غيره انه لايقتصر على حكاية الوقائع التاريخية بل تراه يمهد للقارىء سبل استخراج النتائج من الحوادث ويقدم له المقدمات التي تساعده على اعمال الفكرة وترقية القريحة كما انه قد تضمن كثيرا من الايات القرآنية والاحاديث الشريفه النبوية التي استدعاها الحال وكما اورد شيأ يحتاج الى ايضاح شرحه بعبارة تأخذ بالمجامع وتنفذ الى اعماق القلوب قبل وصولها الى المسامع

كان هذا الكتاب عزيز المنال ينشده طالبه فلا يجده ويستشرف لرؤيته الاديب استشراف العاشق الولهان الى الوصال والصائم الى شهر الافطار الى أن قيض الله لحضرة الحسيب النسيب واللوذعي الفاضل الاريب سلالة الاخيار ووارث الشرف كابرا عن كابر السيد محمد رفاعه حفيد المؤلف فوجه همته لطبعه على نفقته احياء لذكرى جده وتعميما لنفعه بين ابناء وطنه وقد شجعه على ذلك حضرة القاضي الفاضل والعلامة الكامل حفني بك ناصف وكيل محكمة طنطا الاهلية حيث وردت من حضرته رسالة يقول فيها انه رأى هذا الكتاب أثناء سياحته الاوروباويه في مكتبة أثيناو يتمنى اعادة طبعه بالديار المصرية حتى لاتحرم مصر من مشاهدة آثار رجالها الساهرين على رقيها وسعادتها . ومما يعد من حسن الاتفاق ورود هذه الرسالة الى حضرته وهو يأخذ لطبع الكتاب اهبته ويعد له عدته فكان ذلك من اتفاق الخواطر ومطابقة الضمائر للضمائر

ومع ذلك فلم تقف همته عند انجاز طبع هذا الا نزل عزم حضرته على احياء باقي الكتب التي ترجمها جده عن الفرنساوية الى العربية كرواية تليماك الشهيرة وترجمة ملطبرون وترجمة منتسكو وغير ذلك مما سيكون له شأن كبير في عالم التأليف ويقابل لدي الجمهور بالثناء والاعجاب

وقد جاء لحضرة السيد محمد رفاعة جملة رسائل عديدة من أعاظم الرجال وارباب الاقلام وكلها تعرب عن السرور والا بتهاج بظهور هذا الكتاب الى عالم الطباعة بعد أن كان كنزا مخبوأ في بطون الكتبخانات فن ذلك رسالة لحضرة الأستاذ الكبير والعلامة النحرير صاحب الفضيلة الشيخ عبد الكريم سليمان رئيس تفتيش المحاكم الشرعية وهـذا نصها

ولدي المحترم الفاضل محمد بك رفاعه حفظه الله

سمعت يا ولدى عنك انك شرعت في طبع كتاب جدك الارفع رفاعه بك (مناهج الالباب) وقد سرني هذا النبأ من أوجه

أولها وأولاها بالاعتبار منفعة ذوي الألباب من طلاب الآداب ونخب الكتاب ومريدى الدخول من هذه الابواب

وثانيها احياء ذكرى ذلك الجد الرفيع وبقاء اسمه العالى عالى المقام عظيم الاحترام

وقد أذكرني صنيعك هذا ما كنت أتمناه دائما من احياء الكتابين الجليلين الذين ترجمها عن الفرنساوية الى العربية ذلك الجد الجليل

فاجعل كتابى هذا غير قاصر على تقريظ عملك الجديد المفيد ومده الى ايجاد ذينك السفرين (هما ترجمة ملطبرون وترجمة منتسكيو)

ولقد رويت عن عمك الاعز رحمه الله أن والده الا كرم أكرم الله

مثواه ترجمها وأن نسختها موجودة وأسمعني ما بقيت حافظه الى الآن مما يبرهن على انه طيب ثراه ترجمها وهو

ومطبرون يشهدوهوحبر ومتسكو يقول ولا يماري

أما مثوبتك على ما شرعت فيه وعلى ما كلفتك بالعمل لامجاده فاطلبها من وهاب التوفيق لعباده العاملين ولا تجعل منها كل ماتنفقه من المصاريف على ابراز هذه المنافع الى الوجود فانك ان طلبت ذلك من هذا البلد في هذه الأحيان وقفت في وسط الميدان والأولى بمثلك أن لا يشرع ثم يرجع

فانمن حظك اعلاء ذكرجدك وهومالا يستعزمنه بالمال

وفقك الله لخير الاعمال في الحال والمآل امين ؟

يوم الجمعه ١٦ جمادى الاولى سنة ١٣٣٠ (عبد الكريم سليمان)

ونحن نزف البشرى الى الجمهور بوجود اصول هذين الكتابين في خزانة كتب المؤلف وتعويل حضرة حفيده الاكرم على طبعهما اجابة لطلب فضيلة الاستاذ وحبا في تعميم النفع لابناء العصر نرجو الله ان يتوج مسعاه بالنجاح ويجعله مقرونا بالخير والاسعاد

هذا وقد وافق تمام طبعه أوائل شهر شعبان المعظم سنة ١٣٣٠ هجرية على يد مصححه الفقير الى مولاه الغني محمود سيد كشك الطهطاوي الازهري أحسن الله خاتمته وبلغه في دار الآخرة أمنيته وذلك بمطبعة شركة الرغائب المصرية العامرة التي بشارع المنجلة بمصر القاهرة وصلى الله على سيد نا محمد النبي الامي وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله ظاهرا وباطنا أولا وآخرا ؟

محمود سيد كشك الطهطاوي

بيان الخطأ الواقع فى الكتاب

ص	س	خطأ	صواب
٥١	٣	فهوا	فهو
٥٦	١١	عوصة	عويصة
٥٩	١٦	للولد	للوالد
١١٨	١٤	هكذا	هذا
١١٩	٩	لتمحوا	لتمحو
١٣٠	١٨	تدراكها	تداركها
١٩٤	١٠	اعاة	اعادة
٢١٧	٢٠	ثلثائة	ثلاثة
٢٣١	٩	اكل	كل
٢٤٤	١١	الناقع	النافع
٢٤٨	٨	صلت	وصلت